

الرييف: التاريخ، الذاكرة والتراث

حراك الرييف... ريف الحراك

1

تشكل النخب الريفية وعلاقتها بالسلطة المركزية

عبد العزيز السعود / محمد أحميان / عبد الحميد الرايس

قراءات في وثائق ومؤلفات حول الرييف

جمال أمزيان / أحمد سهوات / رشيد شريت / امحمد بنعبود / أسامة الزكاري / أحمد حبشي

مقابلة مع أحمد لمرباط

تداعيات قضايا الرييف في الخارج

أحمد لخواجة / ميمون أزيلا / محمد الغلبزوري

الرييف والذاكرة الممتدة

عبد الصمد الزاكي / محمد أقضاظ / محمد أونيا

من تراث الرييف

جمال لخلوفي /// زاهية أفلاي



مجلة "الريف"
العدد السابع / 2018

حراك الريف... ريف الحراك

(الجزء الأول)



طبع هذا العدد بدعم من وزارة الثقافة

مجلة "الريـبـع"

یصد رها

مرکز محمد بن عبد آیت ایدر للابحاث والدراسات

Centre d'Etudes et de Recherches M. Bensaid Ait Idder

9، زنقة بغداد. إقامة المارشال امزيان. الدار البيضاء

الموقع الإلكتروني: www.cerm.ma

العنوان الالكتروني: centre.bensaid@gmail.com

عنوان المجلة الإلكتروني

ar-rabiealakhar@gmail.com

الإخراج الفني والغلاف

عبد الرحمن زكري

الطبع

أوميكا غرافيك Omega graphique

67، زنقة 35، مجموعة 2 حى السدري. الدار البيضاء

ملف الصحافة

13 ص / 2013

رقم الإيداع القانوني

..

الترقيم الدولي

• •



أما قبل...

رئيس التحرير: عبد اللطيف اليوسفي

عندما تفتح مجلة الربيع واسع صدرها لملف الريف بكل مستوياته و منعرجاته ، فإنما تسعى بذلك إلى ترجمة حرصها على الوفاء ببعض التزاماتها المعلنة منذ عددها الأول بحمل هموم الوطن ، والتفاعل مع آهاته ، والانفعال لأوجاعه ، والتجاوب مع تطلعاته إلى الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية .

والمجلة إذ تفتح هذا الملف الهام فإنها أشرعت للدخول إليه ثلاثة مداخل تلتقي مساراتها المتقاطعة في فضاء البحث الرصين والهادئ عن رافعات الإنصاف والوفاء . وتتمثل تلك المداخل التي اشتغل عليها الباحثون الأجلاء الذين ساهموا في بلورة وصياغة هذا العمل الممتد على مساحة عديدين متكاملين من المجلة في :

- مقارنة قضايا الريف المتعلقة بثقل الماضي بانتصاراته وانكساراته؛
- ثم تخصيص حيز هام من العديدين للواقع الحالي لمنطقة الريف بأوضاعها وأوجاعها وتضاريسها وتجاويفها المختلفة؛
- وأخير فتح آفاق المستقبل الذي نريده واعداد ومحاملا بجسور التواصل الوحدوي المستند أساسا على إشاعة الديمقراطية والكرامة والعدالة والتنمية المستدامة.

والعائد إلى أرضية الاستكتاب التي بعثناها إلى الباحثين يجدها مهمة بهذه الأبعاد الثلاثة ساعية إلى الربط الوثيق بين ثقل الماضي وهموم الحاضر وآمال المستقبل .

إن مجلة الربيع حين تفتح هذا الملف ذي الخصوصية المميزة فإنها إنما تفي - من زاوية أخرى - بإحدى التزامات مركز محمد بن سعيد أيت إيدر للدراسات والأبحاث الذي ارتضى لنفسه - حبا وطواعية - أن يسهم في بناء مجتمع المواطنة الكاملة، واختار - بسبق إصرار وترصد - أن ينخرط بقوة وفعالية في هموم الوطن وانشغالات مواطناتنا ومواطنينا والتفاعل معها من موقع المعني بها والمحترق بأسئلتها .

وقد اعتمدنا في بناء عددي الملف - بعد تأمل عميق في مختلف المواد التي توصلت بها المجلة، واستشارات واسعة مع طاقم إعداد الملف على جعل العدد الأول مطبوعا بنكهة التاريخ وأحداثه التي يدرك الجميع أن آثارها وانعكاساتها ممتدة في الحاضر؛ ولاشك أن أثرها سيكون قويا على المستقبل . وهكذا يتضمن هذا العدد الأول من الملف كل البحوث التي تناولت جانبا من جوانب القضية الريفية في جذورها وامتداداتها التاريخية وآثارها القوية على مختلف الفاعلين في الحاضر. و سيجد القارئ (ة) نفسه (ا) أمام بحوث تحفر عميقا في التاريخ المنسي وأخرى تنصب على أحداث تاريخية مؤثرة، وثالثة تقرأ الحاضر باستحضار الماضي وثقله على الحاضر والمستقبل.

ورغم أن هذا العدد يتضمن بحوثا ومقالات تاريخية فإن المنهجيات والمقاربات التي اعتمدت في تحليل المعطيات وبناء النتائج والخلاصات وكتابة النصوص جاءت متنوعة تنهل من مناهج التاريخ ومناهج علم الاجتماع ومناهج العلوم السياسية كما أن المجالات التي عنت بها جاءت مختلفة ومتعددة الزوايا مما أسهم في غنى المواد وتكاملها وتعدد زوايا النظر ...

وقد يلاحظ المتتبع للمجلة انزياحا عن الأبواب المعتادة في الأعداد السابقة ومرد ذلك إلى رغبتنا في اعتماد المرونة والتكيف حسب طبيعة الملفات المطروحة ووفق

طبيعة البحوث والمقالات التي توصلنا بها ،وبالتالي فالأمر لا يعني إطلاقا تخليا عن الأبواب التي سرنا عليها سابقا.

ولا تفوتنا فرصة هذا التقديم دون أن نرد الفضل إلى أهله معبرين عن امتناننا في المجلة للمجهودات التي بذلها العديد من الباحثين الأصدقاء في تحفيز زملائهم وزميلاتهم على المساهمة في هذا الملف ونود في هذا الخصوص أن نجزل شكرنا للأستاذ الفاضل السيد محمد سعيدي واعتزازنا بالدور الهام والصور الذي قام في التنسيق بين الباحثين و تجشمه عناء التواصل المستمر وتحضير النسبة الكبيرة من المواد .

وختاما نود أن نؤكد على أننا بهذا الإصدار - الممتد على عشرين من مجلة الربيع والمعتز باجتهادات المساهمين فيه - لا ندعي سبقا في الموضوع ولا إحاطة شاملة به وإنما هي لبنة من لبنات الاسهام في تحليل بعض الجوانب الي بدت لنا وللباحثين أساسية وقيمة بكشف جوانب من الملف .آملين أن تفتح بحوث العديدين آفاقا رحبة لأسئلة جديدة تساهم في إلقاء الضوء على بعض مما خفي من أحداث الماضي وبعض مما صاغ تعقيدات الحاضر ، وأكبر قدر مما يمكن أن يفتح الأفق الواعد لريف جدير بنضالاته ،سعيد ببناته وأبنائه ، ومعتز بامتداداته الوطنية من جبال الريف الأبوي إلى رمال الصحراء الصامدة .

الورقة المؤطرة للمساهمات في ملف الريف الريف : ثقل الماضي وأسئلة الحاضر والمستقبل

يعتبر الريف من المناطق المغربية التي عرفت - عبر تاريخها العريق و الحافل بالتحويلات - خصائص ومميزات تفاعلت في رحمتها العديد من العوامل الطبيعية والجغرافية بالعوامل السوسولوجية و الاقتصادية والثقافية . وظلت كل التفاعلات متأثرة بمفاعيل السياسة و صراعاتها و مخاضاتها . فنجم عن هذا التفاعل - مع هذه العوامل والعناصر والأحداث- نسيج خاص ميز- وما يزال - الريف عن باقي جهات المغرب التي لا تخلو واحدة منها من خصوصياتها المتميزة .

وانطلاقا من الوضعية المتفردة التي ميزت هذه المنطقة و ألفت عليها من جديد أضواء الاهتمام الوطني والدولي ، خاصة منذ انطلاقة الحراك الشعبي السلمي على خلفية مطالبة الساكنة بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية وبحقها المشروع في التنمية المجالية والخدمات الأساسية ؛ فقد ارتأينا، في مجلة الربيع ، أن نفتح ملف الريف بكل انتصاراته التاريخية وانكساراته المتوالية و رهاناته الحاضرة وتطلعاته المستقبلية . آملين أن يساهم معنا الباحثون والمثقفون والمفكرون في تجلية العديد من مساحات الظل ، والعديد من المميزات التي انطبع بها ماضي الريف الأبي ومميزات حاضره الصامد ، واستشراف آفاق مستقبله الواعد بممكنات الإنصاف المستحق في أحضان مغرب ديمقراطي يسع كل بناته وابنائهم وينعم بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية .

وهكذا نتطلع في هيئة التحرير إلى أن تأتي مساهمات السيدات الباحثات والسادة الباحثين مطبوعة بالجدّة والجراة والرصانة الأكاديمية، وأن تغطي أبحاثهم وأعمالهم استنطاق الماضي ثم استشراف المستقبل مروراً بتحليل الحاضر على ضوء الديناميات التي أطلقها الحراك الشعبي السلمي بالريف والتي أضحت تسائل بحدة وقلق واقع النخب السياسية والمدنية والمصير المضطرب للمجتمع المغربي كله.

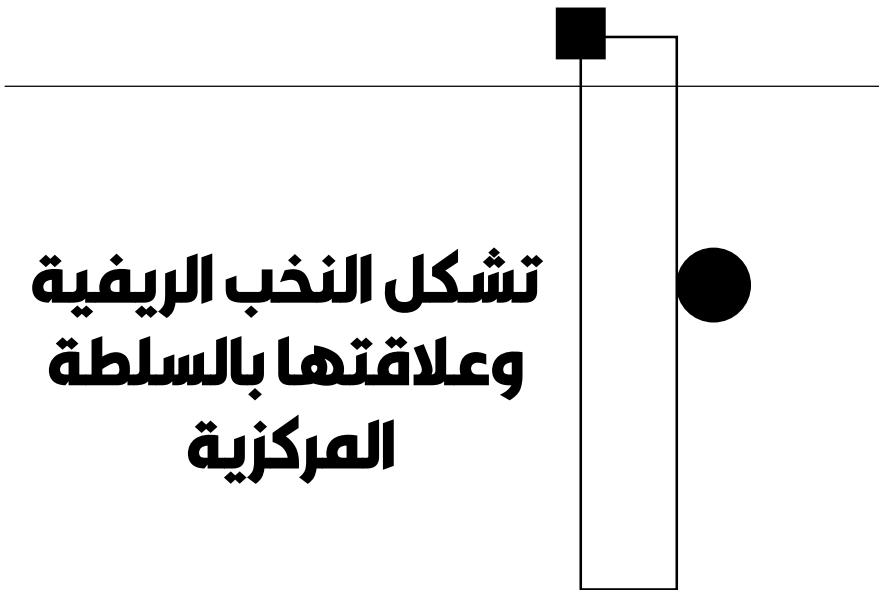
آملين أن يجمع تلك المساهمات خيط ناظم لمحاولة فهم مجال الريف وتشخيص مشاكله الكبرى عبر مقاربات متعددة ومختلفة وعابرة للتخصصات تتداخل فيها الأبعاد التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والحقوقية. برؤى تجمع التناول العلمي وحرقة التفاعل مع الواقع وهم استشراف المستقبل.

ويبقى المبتغى هو إسهام الفكر الأكاديمي والبحث العلمي في التفاعل مع قضايا المجتمع وانشغالاته في أفق بلورة صيغ تفكير جماعي حول سبل ترسيخ قيم المواطنة المؤطرة بالاختيارات الديمقراطية الفاسحة المجال لكل أشكال التضامن والتكامل والتعاون، والاعتراف المتبادل، والاستثمار الذكي للخصائص المميزة لكل جهة في تمشين خلاق للتنوع الإيجابي والتكاملي بين جهات الوطن .

أعدها: رئيس التحرير / عبد اللطيف اليوسفي



**تشكل النخب الريفية
وعلاقتها بالسلطة
المركزية**





تشكل النخبة المخزنية في الريف (1663- 1743)

عبد العزيز السعود

منطقة الريف من أقصى الشمال الغربي للمغرب إلى تخوم واد ملوية شرقا وتتخللها تضاريس وعرة هي عبارة عن مجموعة من التلال والقمم المتفاوتة الارتفاع وأودية فسيحة بعض الشيء شكلت ممرات طبيعية وفجاءا عبرت منها أقوام من إثنيات شتى، والتي اخترقت هذا المجال الجغرافي الممتد سواء من ناحية الغرب مثلما من جهة الشرق منذ مختلف العصور والعهود بداية من الفينيقيين والقرطاجيين والرومان والبيزنطيين والوندال إلى قدوم قبائل بادية الشام كبني هلال وبني سليم وبني معقل وأضرابهم. ولكن بالرغم من توالي الغزوات فالمنطقة لم تكن خالية من السكان فقد استقرت فيها منذ القدم قبائل زناتة في الشرق وصنهاجة الشمال أو ما يعرف بصنهاجة السراير أو الريف والتي تستقر بالريف الأوسط ثم مصمودة والتي تفرعت عنها قبيلة غمارة الكبرى وامتدت حدودها من كتامة إلى ناحية طنجة في الغرب. وكما عرف هذا الإقليم أيضا هجرة الأندلسيين إليه بعد أفول الحكم الإسلامي وطرده بقايا المسلمين

تمتد

من إسبانيا وقد فضل جل النازحين الاستقرار بالساحل وقلما توغلوا نحو داخل المنطقة، وقد ساهمت هذه الهجرة الوافدة في رسم الإقليم بعدة خصائص لعل أبرزها يتضح بالأساس في إطلاق تسمية الريف على المنطقة اقتداء بريف الأندلس إذ لا نكاد نعثر في المصادر القديمة قبل الهجرة الأندلسية على هذه التسمية وكل ما نجده من نعت هو وصف المنطقة ببلاد صنهاجة أو مصمودة أو حتى غمارة، ولم تأخذ هذه التسمية مدلولها الجغرافي المعروف بالريف إلا بعد استقرار الجاليات الأندلسية. ولقد اختلف عدد من الأنثربولوجيين حول مدلول لفظ الريف فمثلا هارت يقول إنه يعني في اللغة العربية "حافة" أو شاطئ فيصبح ريف البحر، ويشير ميشو بلير إلى أن كلمة الريف قد يكون لها مدلول عسكري مثل ريف المحلة ويعني جانب المعسكر كخط دفاعي أثناء ردع الهجمات المسيحية في القرون الوسطى. بيد أنه في نظرنا هذه التسمية لم تأخذ معناها الحقيقي إلا باستقرار الجالية الأندلسية كما أسلفنا نظرا لكون هذا اللفظ كان متداولاً لدى الأندلسيين والذي يعني لغة أرض فيها زرع وخصب أو ما قارب الماء من الأرض، وحيث استقر هؤلاء بأعداد وفيرة بسواحل المنطقة عموماً وغمارة بالخصوص فيكونوا قد أطلقوا هذه التسمية على الأراضي التي تلت مراكز استقرارهم في كل من مليلة وترغة وغساسة والمزمة وبادس والنكور وتغاسة وتطاوين وغيرها. وقد كان اسم غمارة هو الذي يطلق في القرون إن بلاد غمارة «الوسطى على كل من إقليمي الريف والكرط فيقول ابن خلدون تمتد طولا على مدى خمسة أيام مشيا من نهر ملوية حتى طنجة، وعرضا على مدى خمسة أيام كذلك من البحر إلى السهول المجاورة لنهر ورغة. وابتاعنا لهذه الوجهة نلاقي تباعا مجموعة من السلاسل الجبلية العالية المشكلة لحواجز مرتفعة على مدى ساحل البحر.. وبين هذه القمم تنفتح ممرات تحتوي على مراعي وأراضي مزروعة. وإذا كان المولى الرشيد قد حافظ على نظام القبائل الذي ظل يشكل مصدر القوة العسكرية للجيش المغربي منذ العهد الموحي فإنه ركز بالأساس على قبائل الريف، وفي عهد خلفه المولى إسماعيل فإن عمدة جيشه في البداية هو جيش أخيه من أهل الريف كأولاد حمامة وأولاد أعراض وغيرهم من وجوه الجند مثل مولاي يحيى المريني وأولاد يكور وهم من الأسر المشهورة في النكور.¹ ومثلما في باقي مناطق المغرب فقد برزت في منطقة الريف مزايا بعض الأفراد الذين برعوا في الخدمة

¹ عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص. 24 / 146.

والولاء للمخزن أثناء عمليات استتباب الأمن وفرض الطاعة وتركيز السلطة. وكان السلطان يلحظ مثل هذه العناصر ويقدرها لاسيما في ميدان الخدمة العسكرية ويمنحها الحظوة ويغدق عليها المكافآت فيحصل لديها جاه اجتماعي مع مرور الزمن، ويستنتج من هذه الظاهرة أن تراكم الخبرة والتجربة هو الأساس في البروز ولذلك فالسلاطين الذين صنعوا الاجتماعى وليس الأصل العائلي كقيمة مطلقة.² المخزن كانوا في حاجة دائمة عند ممارسة الحكم أو توطيده إلى أشخاص ذوي كفاءة فعلية وعلى أساس هذا المقياس قربوا بعض الأشخاص وكلفوهم بمهام عديدة، ويذهب البعض إلى أن الولاء للمخزن يعتبر بعد حصول الاستحقاق ويفهم من ذلك أن تاريخ عائلات برزت في صفوف المخزن ولم يكن لها أنساب ترفعها من قبل³، وإذا كان هذا يصدق على مغرب القرن التاسع عشر فإنه لم يختلف عنه في مغرب القرن السابع عشر كما سنرى.

يقول صاحب "زهر الأكم" عن ذكر دولة مولاي الرشيد بن مولاي الشريف الذي كان أول من تبعه على حاله وأمره في عسره ويسره أهل أنكاد والأحلاف وأولاد حمالة ربعا من الأرياف ... وثم نهض أيضا إلى الريف والتقى بالنكور مع أعراس فهزمه أيضا وقبض على ولده عزوز أعراس .. فشمروا عند ذلك أعراس لطلب الصلح فتم الصلح بينهما ووقعت المصاهرة بينهما على أن أعطاه القائد أحمد ابنته طامة وأن يطلق ولده من معتقله، وانعقد الصلح على ذلك وأطلق ولده وبعث بنته إليه ويمكننا أن نعد علاقة الصهر إحدى الصيغ الأساسية⁴ «فاعترس بها بدار سكنها، لنسج خيوط الشبكة المخزنية التي تقوم بدورها على علاقة الأخذ والعطاء، وهو ما سيحدث أيضا في عهد السلطان مولاي إسماعيل الذي كان قد عقد على بنت قائده على الشمال علي بن عبد الله الحمامي الريفى، ثم إن هذا السلطان طلب من الباشا أحمد بن علي الحمامي في مارس 1726 أن يحضر زوجة لأحد أبنائه وألزمه بمصاحبة العروس إلى مكناس إذا رغب في الاحتفاظ بحكومته⁵ وكما جاء إلى تطوان في أواخر يناير 1728 أحد الوصفان مبعوثا من طرف السلطان أحمد الذهبي

² Henry de Lamartinière, Souvenirs du Maroc, Plon, Paris, 1918, p. 153.

³ مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995، ص. 111.

⁴ عبد الكريم بن موسى الريفى، مصدر سابق، ص. 16/127.

⁵ Dominique Meunier, Le consulat anglais à Tétouan sous Anthony Hatfield (1717-1728), Etude et édition de textes, Revue d'Histoire Maghrébine, 19-20, Tunis, octobre 1980, p. 282.

لغرض خاص وهو طلب القران بأخت الباشا التي كانت جميلة إلا أن هذا الأخير التمس مختلف الأعذار لتأخير سفر أخته معتقدا بدوره أن حكم السلطان المذكور لن يدوم طويلا.⁶ وكان الباشا المذكور قد عقد فيما بعد على ابنته فتيحة زوجة حرة للسلطان المستضيء إلا أنها لم تتمكن من التمتع بزواجها بسبب الطوارئ الناجمة عن سلوك هذا الأخير سبلا غير آمنة.⁷ ومما لاشك فيه أن مثل هذه المصاهرات التي حدثت بين السلاطين العلويين وعائلة الحمامي الريفي قد شكلت ضمانا لدوام الولاء لشخص السلطان وتركية في نفس الوقت للحاكم الذي يستمد شرعيته من السلطان بعينه، وكما أنها لحمت مصالح الطرفين لمدة زمنية ليست بالقصيرة كان الأمر خلالها قائما على تبادل المصالح وتكاملها بل إنه يعسر الفصل بين مصالح السلطان ومصالح الباشا في هذه الحالة خاصة وأن هذا الأخير عرف كيف يستغل ترحح ميزان القوى في الصراع المحتدم بين الإخوة على العرش.⁸

وكان لدى السلطان مولاي الرشيد وأخيه مولاي إسماعيل في أول خلافته عمدة جيشه أهل الريف وجماعة من الوزراء وأمناء بيت المال من أهل الريف ونذكر منهم: عمر بن محمد الحمامي ومحمد الخطيب ودحو الخطيب ويحيى المريني الحمامي وعبد الله أعراص. ولم يكن قد مر وقت كاف على اعتلاء مولاي إسماعيل العرش حتى حدثت حادثة جعلته يهتم بمشكلة الجيوب المحتلة ألا وهي واقعة احتلال الإسبان لجزيرة النكور في 28 غشت 1673، وكان ذلك بمثابة إنذار جعل السلطان يوجه اهتمامه لأهم الثغور المحتلة ونعني به ثغر سبتة حيث كلف قائد جيش عبيد البخاري علي بن سعيد بمحاصرتها في سبتمبر 1674، إلا أنه خلال الأشهر الأولى من الحصار تكبد الجيش المذكور خسائر فادحة الأمر الذي جعل السلطان يفكر في تعويض هذا الجيش المدرب على القتال في السهول بجيش مكون من رجال يحسنون القتال في المناطق الجبلية. وكان السلطان مولاي إسماعيل قد أمر ببناء قصبة سلوان القريبة من مليلية وذلك في شهر يوليو 1678 وكان الغرض من إنشائها أن تكون ثكنة لحامية عسكرية مكونة من جنود جيش البخاري ومن المجاهدين الريفيين الذين كانوا نواة الجيش الذي أطلق عليه في أول الأمر "الجيش الشعبي".⁷⁰

⁶ John Brathwaite, Histoire des révolutions de l'Empire du Maroc depuis la mort du dernier Empereur Muley Ismaël, Amsterdam, 1731, p. 309.

⁷ Alejandro Correa de Franca, Historia de Ceuta, Manus, B.N.Madrid, no° 1725, Libro quinto, p.343.

⁸ عبد العزيز السعود، تطوان في القرن الثامن عشر (السلطة - المجتمع - الدين)، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2007، ص.89.

وكان السلطان المذكور قد أمر شيخ الشيوخ بالريف الفقيه أحمد بن عبد الرحمن المطالسي الملقب بأمغار أمقران بأن يطلب من كل قبيلة من القبائل الإشتية عشرة المجاورة لملييلة مشاركتها بخمسة عشر رجلا لتكوين نواة "الجيش الشعبي" الذي تألف في أول الأمر من مائة وثمانين مجاهدا، وأصدر السلطان ظهيرا مؤرخا في 5 ربيع الأول 1093 موافق 14 مارس 1682 ولى بمقتضاه القائد محمد بن عبد الله التوزاني تسيير الجيش بقسميه البخاري و الريفي، وهذا الجيش هو الذي هاجم قلعة بادس والجزيرة المجاورة لها سنوات 1683 و 1685 و 1687 وكما هاجم مدينة مليلية وحاصرها عدة مرات ما بين سنوات 1683 و 1727.⁹ وقام السلطان المذكور أيضا خلال هذه الفترة بتكوين جيش ريفي ثان بالناحية الغربية لمنطقة الريف أطلق عليه اسم "جيش المجاهدين الريفيين" وقد أوكل تكوينه وقيادته لخديمه القائد عمر بن حدو البطوي الحمامي والذي قاد الجيش المذكور إلى حين وفاته سنة 1681 فحل محله أخوه القائد أحمد بن حدو إلى أن مات وتولى مكانه ابن عمه القائد علي بن عبد الله البطوي الحمامي الذي توفي عام 1713 وخلفه ابنه الباشا أحمد بن علي الحمامي إلى أن قتل عام 1743.

وقد أنيطت بجيش المجاهدين المذكور مهمة استرجاع الثغور الأطلنتية وحتى المتوسطة فحاصر قصبة المعمورة إلى أن استرجعها من يد الإسبان في 30 أبريل 1681 وحاصر مدينة طنجة سنة 1680 وأرغم الإنكليز على الجلاء عنها في 5 فبراير 1684، وحاصر مدينة العرائش حتى استرجعها من يد الإسبان في 11 نوفمبر 1689، واسترجع قلعة بادس سنة 1704، وكما هاجم مدينة سبتة سنوات 1682 و 1683 و 1686 و 1688 و 1689 و 1690، وحاصرها منذ شهر أكتوبر 1694 إلى شهر مارس 1727.¹⁰

وكان الالتحاق بالجيش المذكور يتم عن طريق "الإدالة" أي بالتداول في الخدمة العسكرية حيث كان المجاهد ينوب عن أسرته أو مدشره في الجهاد، ولم يكن له الحق في ترك الفرقة التي ينتمي إليها إلا بعد أن يأتي من يخلفه نيابة عن الأسرة أو المدشر. وكان المجاهد يحمل معه الزاد الكافي لمدة إدالته وكما يحمل معه سلاحه الخاص ومقابل ذلك كانت أسرته تعفى من دفع كل أنواع الإتاوات المفروضة. وقد قام أولئك المجاهدون بتشديد قصبة سلوان المذكورة وبرج المجاهدين بساحل

⁹ نفس المصدر السابق.

¹⁰ نفس المصدر السابق.

السواني في خليج النكور كما بنوا المعسكر المعروف بالدار البيضاء بقبيلة أنجرة حيث كان يربط الجيش المحاصر لمدينة سبتة. ونأتي الآن لذكر أهم الأسر الريفية المخزنية والتي كان لها شأو كبير في توطيد السلطة المركزية على عهد السلطانين المولى الرشيد ومولاي إسماعيل: أسرة أعراس: تنتمي هذه الأسرة إلى قبيلة بني ورياغل حيث تولى بعض أفرادها حكمها، وكان السلطان المولى الرشيد حينما سعى إلى مد سيطرته على الناحية الوسطى من الريف قد وجد مقاومة من طرف القائد عبد الله أعراس الذي كان قد سمح لبعض التجار الإنكليز بإقامة مركز تجاري في خليج النكور في نفس الوقت الذي ظهرت فيه أيضا رغبة الفرنسيين في إقامة مركز تجاري بالريف. إلا أن السلطان المذكور هزمه كما ذكر صاحب "زهر الأكم" وقبض على ولده عزوز أعراس ثم عفا عنه وأكرم مقامه وذلك بعد إبرام الصلح بين الطرفين وتصاهر معه كما أسلفنا فدانت له بالتبعية باقي قبائل الريف. وكان السلطان المذكور قد أمر القائد يحيى أعراس ببناء قصبة على حجرة النكور بمساعدة القائد عمر بن حمامة، فاشتغلا في بنائها حتى انكملت بالتشييد وتم شحنها بالأقوات والزاد وتعميرها بالرجال والعدة "وقد بقيت دار إسلام حياة مولانا الرشيد ونحو العاميين من خلافة مولاي إسماعيل إلى أن باعها للنصارى دح الخطيب كما روي عن كثير من أهل الريف".¹¹

عائلة الخطيب: وتنتمي إلى الشيخ الصالح سيدي أبي يعقوب البادسي الزهيلي دفين الريف وهناك من يعود بأصلها إلى الأندلس. وقد تقلد أفراد هذه الأسرة مناصب شتى في عهدي السلطانين المولى الرشيد ومولاي إسماعيل وقد ذكر ابن موسى الريفى أن كلا من عبد المالك الخطيب وعبد الله الخطيب شغلا منصب القائد في دولة السلطان إسماعيل، وقد ذكر ابن الحاج في "الدر المنتخب" أن عبد المالك المذكور قتله السلطان مولاي إسماعيل في سجن فاس الجديد سنة 1108هـ 1696م بعد أن كان عينه عاملا على تارودانت وأمر بإخراج أهل الريف الذين كانوا في فاس إلى تارودانت بقصد عمارتها والسكنى بها.¹² وفي تلك السنة بعث السلطان القائد عبد الله الخطيب وعينه على دمنات وما والاها من تلك الجهات. وكما كان السلطان الرشيد قد عين دحو الخطيب أمينا لبيت المال وكذلك محمد الخطيب الذي شغل هذا المنصب في عهد السلطانين المذكورين. وقد أورد المؤرخ محمد داود ظهيرين

¹¹ عبد الكريم بن موسى الريفى، مصدر سابق، ص. 23 / 144.

¹² أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، الجزء السابع، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص. 69.

شريفين كتبهما السلطانان لمحمد المذكور جاء في الأول مع ما فيه من نقص "سيدي أبي يعقوب نفعنا الله به وكذلك سائر قرابته وعشيرته ه(وسامحنه... وبجد على جميعهم أمان الله تعالى. فعلى الواقف عليه أن يعمل به ولا يحيد عن كريم مذهبه والسلام في منسلخ شوال المبارك عام خمسة وثمانين وألف. والنص الثاني للمولى إسماعيل ومما ورد فيه" بيد حامله خديم هذه الإيالة المنصورة المتحلي في النصح لها بحالة مشكورة.. الأمين أبي عبد الله محمد الخطيب يتعرف منه أننا جددنا له بحول الله وقوته حكم ما كان له من تقليد رعاية بيت مال المسلمين عمره الله وتولية حفظه والتصرف فيه والتقلب في مصالحه وشؤونه.. كما كان قرره له أخونا السلطان الأعظم الملك الأفخم مولانا الرشيد.. حسبما درج على منهاجه أيام حياته... وقد أسبلنا عليه مع ذلك وعلى أولاده ستر احترامنا وجعلناهم من أقرب حاشيتنا وأمناهم بحول الله في ظل أمننا مدة دوام ملكتنا واتصال أيامنا.. وسبيل الواقف عليه أن يعمل به ولا يتعداه والسلام. وكتب بتاريخ أواسط الحجة وقد ذكر داود أن محمدا) 14 أبريل 1672 (13»الحرام من عام إثنين وثمانين وألف المذكور هو الجد الأعلى لسائر أفراد هذه العائلة المستقرين بتطوان، ولعل إغداق ستر الاحترام والتوقير على محمد الخطيب لنصحه في رعاية بيت مال المسلمين يعني إلى حد ما تغاضي المخزن عن سلوك بعض أفراد هذه العائلة إزاء بعض الأحداث التي وقعت بالريف ومن ذلك احتلال الإسبان لحجرة النكور كما جاء على وكان دح « لسان ابن موسى الريفى رواية عن كثير من أهل الريف حيث قال: المذكور [الخطيب] وهو العامل على الريف في معظم الهرج والفتن، ونزلها النصارى في المراكب والسفن وحاصروها وداروا بالقصبة من كل جهة إلى أن دخلوها صلحا بعد الحصار الشديد في أواخر سنة 1084 أو بعدها.. أما البرج الذي كان بالبر يقابل الحجرة التي في البحر أخذها النصارى أيضا عند عزل أمير المؤمنين مولانا إسماعيل الباشا عبد الكريم الخطيب عن الريف أيام حصار السلطان المذكور مدينة تارودانت. وقد قيل إن الباشا عبد الكريم المذكور هو الذي باع البرج للنصارى أيضا كما فعل ابن عمه دح بالحجرة المذكورة، ومما يدل على تصديق ذلك أن الذين ساروا من

13 محمد داود، عائلات تطوان، الجزء الثاني، مراجعة وتحقيق وإضافات حسناء داود، تطوان، 1438-2017، ص. 64. ملاحظة: يتبين من خلال كتابة الظهيرين أن هناك خطأ واضح بحيث تقدم تاريخ ظهير السلطان إسماعيل على ظهير أخيه المولى الرشيد، ولعل الخلل وقع عند نقل الظهيرين وإلا كيف يعقل أن يتقدم تاريخ صدور الظهير الإسماعيلي على الظهير الرشيدي علما بأن تولية الأول العرش كانت بعد موت هذا الأخير، ولهذا وجب التنبيه لذلك.

أهل الريف إلى أمير المؤمنين لتارودانت لم يظهر لهم خبر ولا أثر لأجل شكايتهم بما فعل بالبرج المذكور، فحصره النصارى على البرج برا وبحرا إلى أن دخلوا بالمينات ونهبوا ما وجدوا فيه من المتاع والأموال ومات عليه كثير من الناس والباشا عبد الكريم في تلا بادس عازم على الرحيل في ذلك اليوم وهو يسمع ما فيه المسلمون مع النصارى من قتال عظيم وقد احتجوا عليه بذلك بأنه باعه وقبض ثمنه. وقد كان قبل ذلك حرك لبادس للنصارى وأخذ الأنفاض التي كانت بالبرج المذكور فتركها في بلاد بقوية ولم يرد الأنفاض للبرج فعند ذلك أخذه النصارى بالمينات عنوة وذلك في سنة 1098. وهذا القول عند جميع أهل الريف ولا عندهم في ذلك خلاف لأنه كان يسمع صوت البارود والمدافع والأنفاض كالرعود وهو وأصحابه خارجون إلى ¹⁴«مدينة مراكش وكان مولاي إسماعيل قد ولاه عليها وعلى أحوازها.

عائلة ابن حدو البطيوي: تنتسب هذه الأسرة إلى قبيلة تمسمان بالريف الشرقي وتقطن بوادي النكور وقد اشتهر من بين أفرادها عمر بن حدو وأخوه أحمد، وكان عمر المذكور من مشاهير القواد وقد ولاه السلطان مولاي إسماعيل على ناحية جباله وقد ذكر الضعيف الرباطي أن عمر بن حدو تولى قيادة الهبط (1671) عام 1084 والفحص بعد مقتل الخضر غيلان وذلك في السنة المذكورة، ومن تلك السنة وأهل الريف عمال على تلك البلاد وعلى الريف وكارت. ¹⁵ وكان أول قائد عينه السلطان المذكور على رأس المجاهدين الريفيين وكان أول عمل كلفه به هو استرجاع قصبة المعمورة من يد الإسبان. وكان الحصار الذي فرضه القائد عمر بن حدو على القصبة المذكورة قد تم بواسطة عشرة آلاف من المجاهدين حيث تم نصب المدافع بحلق الوادي حتى لا يتمكن الأسطول الإسباني من إغاثة الحامية المحاصرة في القصبة وكان ذلك يوم 26 أبريل 1681، وبعد أربعة أيام من الحصار حرمت خلاله الحامية من ماء الشرب استسلمت بدون قيد ولا شرط. وقد ذكر ابن العياشي في "زهر البستان" عن فتح المعمورة: "... ثم بلغه أن العسكر المحاصر للمهدية قد أشرف على فتحها وتوقفوا على حضوره فنهض رحمه الله إليهم حتى حضر الفتح وأخرج رئيس النصارى فأمنه وأمن أصحابه وكانوا ثلاثمائة وستة أنفس، وأما الغنيمة فقد أحرزها المجاهدون من أهل الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها مع القائد عمر بن حدو البطيوي..

¹⁴ ابن موسى اليفي، مصدر سابق، ص. 23/144.

¹⁵ نفس المصدر السابق، ص. 26/151.

وتذكر المصادر الإسبانية أن السلطان مولاي إسماعيل أراد أن يحضر وقت استسلام القسبة فتوجه إليها يوم 21 أبريل كما تذكر أن الحامية كانت تتألف بالإضافة إلى حاكم القسبة وناظرها والقائد وراهبين إثنين من ثلاثمائة رجل وأربعين امرأة. وكان أهم ما غنمه المغاربة مائة مدفع⁷⁷. وقد أمر السلطان باستبدال اسم المعمورة باسم المهديّة لأن استرجاعها لم يكلف كبير عناء.

وقام القائد عمر بن حدو في فاتح مارس 1680 بفرض الحصار على مدينة طنجة حيث شرع في حفر الخنادق لأجل فصل الأبراج الخارجية عن المدينة، ووجه قبل القيام بنسفها بالألغام نداء إلى حاكم المدينة يطالبه بالاستسلام فلم يستجب وعندئذ قام القائد المذكور بنسف الأبراج. وكان رد فعل الإنكليز هو إرسال أسطولهم إلى أصيلة لكنها كانت محصنة بشكل جيد وردت على قصف العدو مما أرغم أسطوله على العدول عن إنزال قواته، وبعد أن نسف المغاربة إثنين عشر برجاً لم يبق للإنكليز سوى ثلاثة أبراج مهددة بالسقوط فطلبوا من القائد عمر منحهم هدنة لمدة أربعة أشهر فساعدتهم على ذلك. وقد استغل الحاكم الإنكليزي بطنجة مدة الهدنة لتعزيز الحامية بأربعة آلاف من المشاة وستمائة من الفرسان يرأسهم اللورد أوسوري وساعدتهم إسبانيا بكتيبة تتكون من مائتي فارس¹⁶. ولما انتهت مدة الهدنة هاجم القائد ابن حدو المدينة في يوم 15 سبتمبر 1680 ثم توقف الحصار في نوفمبر من نفس العام حيث من المرجح أنه توقف حينما توجه القائد المذكور لمحاصرة قسبة المعمورة. وقد ظلت الأمور على ذلك إلى أن فكرت إنكلترا في الجلاء عن طنجة فمهدت لذلك بمقدم الأدميرال اللورد دارثمود يوم 24 سبتمبر 1683 حيث طلب من القائد علي بن عبد الله ابن عم القائد السابق بعقد هدنة وافق عليها في 4 أكتوبر من نفس السنة، وأصدر اللورد المذكور بلاغاً يخبر فيه سكان طنجة وحاميتها بقرار حكومته القاضي بالجلاء عن المدينة¹⁷.

لما فرغ المجاهدون من أمر المهديّة ارتحلوا وقد أورد صاحب "زهر البستان" أنه مع أميرهم عمر بن حدو فأصابه الوباء فمات في الطريق وتولى رئاسة المجاهدين أخوه القائد أحمد بن حدو تقاسمها هو والقائد أبو الحسن علي بن عبد الله الريفي،

¹⁶ Fernando de Carranza, Tánger inglés, in Estudios históricos sobre las provincias de Yebala y el Rif, Ceuta, 1935, p.117.

¹⁷ نفس المصدر السابق.

وكان أولاد الريفى هؤلاء من الشهرة فى الجهاد والمكانة فى الشجاعة ومكائد الحرب بمتزلة أولاد النقيس وأولاد أبى الليف وأضرابهم رحم الله الجميع. وذكر صاحب "زهر الأكم" أن القائد عمر بن حدو وفد بهديته على السلطان مولاي إسماعيل بمكناس وتوفي بها فى تلك السنة وهى 1092هـ وقيل مسموماً وقيل بالطاعون ودفن بمكناس وولى السلطان مكانه ابن عمه القائد علي بن عبد الله الريفى على جميع بلاد غمارة والفحص والريف ورده لطنجة حيث كان القائد عمر تركه محاصراً لها.¹⁸

وتصف الوثائق العدلية أحمد بن حدو البطيوي بقائد القصر الكبير ونائب المقدم الرئيس وتعني بذلك أخاه القائد عمر المذكور، وكان السلطان مولاي إسماعيل قد بعثه فى سفارة إلى هولندا فى حدود سنة 1672 لجلب الأسلحة وافتكاك 107 من أسارى المسلمين وأسند إليه حكم مدينة تطوان. وكما أنه شارك إلى جانب أخيه فى قيادة جيش المجاهدين الذين فتحوا المعمورة عام 1681، فلما مات أخوه اقتسم بأمر من السلطان رئاسة المجاهدين مع القائد علي بن عبد الله الحمامي. وكان السلطان قد ولاه ثغر أسفي مدة ثم عزله وأسكنه معه بحضرة مكناس إلى أن توفي بها توفي بها سنة 1130/1717 ودفن بجنب أخيه بضريح سيدي عبد الله بن حمد.¹⁹

عائلة الحمامي الريفى: أول من برز من أفرادها القائد علي بن عبد الله الحمامي الذي نشأ فى بادية الريف وشب بها واكتهل مما كان له تأثير فى طبعه المتميز بالبساطة والصلاح والشجاعة فى نفس الوقت فقد كان همه هو الجهاد والإخلاص للسلطان، وقد وصفه ابن الحاج بأنه كان من أفضل خلق الله وكان مولاي إسماعيل يشاوره فى أمور النصارى وغيرهم ويعمل برأيه .. وقد كان قواد الريف والقصر والعراش وطنجة وتطوان ومن فى حكمهم تحت أمره ونهيه .. ويأمر العمال بالعدل وينهاهم عن الجور وعن أكل أموال الناس بالباطل.²⁰ وقد أورد مؤرخ تطوان الأول حكاية طريفة لا تخلو من غرابة عن توليته وهى أنه لما مات القائد أحمد بن حدو قال السلطان إسماعيل لأهل تطوان من تريدون أن أعمل عليكم، فقالوا له من يريد سيدنا، فقال لهم من طلع علينا الساعة نوليه الحكومة، فطلع القائد علي بن عبد الله

¹⁸ ابن موسى الريفى، مصدر سابق، ص. 36/170.

¹⁹ نفس المصدر السابق، ص. 53/199.

²⁰ أحمد بن الحاج السلمي، الدر المنتخب المستحسن، الجزء التاسع، ص. 300.

ابن عم القائد المذكور وكان رجلاً مسكيناً.²¹ وكما أتت بحكاية أخرى تبين قناعة الرجل وعدله بين الناس وعفته حينما أمره السلطان بأن يقبض من أهل تطوان غرامة المائة مثقال التي فرضها عليهم، فإنه جمع كسوة أولاده وحليهم وذهب بها إليه وقال له: إنك أمرتني أن أجبي من الناس وذلك حرام شرعاً فهذا متاع أولادي فرد عليه السلطان ذلك.²² ومما لاشك فيه أن مثل هذه الحكايات بما فيها من الطرافة والغرابة تقدم لنا صورة عن كيف كان الناس ينظرون إلى هذا القائد المجاهد الذي غلب عليه الطبع وأن ذلك وقع من السلطان موقعا حسنا. وكان هذا الأخير قد فوض له التفويض التام في حكم الشمال الممتد من واد ملوية إلى واد سبو وكلفه بمباشرة الكلام مع ملوك أوربا وقد وصفته الوثائق الأجنبية بنائب السلطان. فنجد في هذا الصدد يبعث برسالة إلى عاهل فرنسا في نوفمبر 1691 يقول فيها: إلى عظيم الإفرنج وكبير المملكة الفرنصية والضابط لأموها .. المعظم في قومه الملك لويس الرابع عشر السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنه لا يخفك ما أسنده إلينا مولانا أيده الله ونصره من أمر هذا الإقليم المشتعل على هؤلاء المراسي من ثغر طنجة وتطاوين والعرائش والمعمورة وفوض لنا في جميعها التفويض التام الشامل العام وأقامنا ها هنا بصدد أن نتكلم معك ومع غيرك من أجناس النصارى ويتكلمون معنا ونتقاضى الحاجات فيما بيننا في سائر ما يبيحه الشرع العزيز²³

وكان القائد علي بن عبد الله هو القائم على ميدان حصار سبتة وقد أكسبته صفة زعيم المجاهدين مجدا وهيبه من ناحية وكما أن التقدير الذي حظي به من طرف السلطان مولاي إسماعيل أوغر صدور منافسيه وطعن دواخل حساده في مكناش من ناحية أخرى فسعوا بكل الوسائل إلى كبت صيته والنيل من سمعته لدى السلطان، فاتهموه بالتقصير في القيام بواجبه في مقارعة النصارى بسبتة والتشديد عليهم فكانوا يرددون أنه لم يفتحها لأن ذلك لا يوافق أغراضه.²⁴ ولذلك ترددت الاتهامات والشكاوى به على السلطان إلى حد أنه أرسل أحد أقربائه لمحاسبة القائد المذكور، إلا أنه بخوفه الفطري أرضى الجميع بالمال وبالهدايا العجيبة التي كان يحملها كل

²¹ عبد السلام بن أحمد السكيرج، نزهة الإخوان في أخبار تطوان، تقديم وتحقيق يوسف احناة، تطوان، 2005، ص. 12/54.

²² نفس المصدر السابق، ص. 13/55.

²³ Henry de Castries, S.I.H.M., Série 2, France, Tome III, p.418.

²⁴ عبد العزيز السعود، تطوان في القرن الثامن عشر، مصدر سابق، ص. 79.

عام عند قدومه على السلطان بمكناس.²⁵ وقد كانت نظرة الممثلين الأجانب أو وكلائهم إلى هذا القائد يشوبها كثير من التناقض بخصوص موقفه من قضايا المهادنة و المتاجرة مع الأوربيين، فقد ذكر السفير الفرنسي سان - آمان سنة 1683 أن للقائد المذكور علاقة مع قراصنة الجزائر تجعله يعارض باستمرار إقامة الصلح فهو يضع عدة عراقيل أو يخلق عدة أحداث لأجل نقض الصلح القائم بين ملك فرنسا و سلطان المغرب لأنه صديق كبير للجزائريين إذ أن تجارته الرئيسية تقوم معهم، فضلا عن أن أولئك القراصنة يطلعونه على معداتهم الحربية وهو يقدم لهم كل أصناف المساعدة والحماية لسفنهم في فرضات ومراسي حكومته، وكما أنه يملك بعض المراكب والغلاط التي يجهزها بالسلاح من أجل القرصنة ولم يتردد مطلقا في مصادرة بعض المراكب الأجنبية بقصد المتاجرة بها في قادس.²⁶ ووصفه الأسير مويط بأنه شرير سجن الجميع ولم يقبل إطلاق سراح الرهبان ما لم يؤديوا له مكوس الأبواب وهي ستة وعشرون ريالاً عن كل رأس، وعندما قبض المال منهم نفاهم إلى شاطئ مرتيل ومنع الرهبان من العودة إلى مدينة تطوان تحت طائلة استرقاقهم.²⁷ ويزعم سان - آمان أن الباشا يقدم نفسه أمام السلطان كعدو للنصارى لكنه في واقع الأمر يسعى جاهدا ليفرض نفسه كوسيط وحيد مع الأوربيين بحيث كانت له علاقات جيدة مع الإنكليز بينما كان موقفه من الممثلين الفرنسيين يطبعه كثير من الاحتراز والتشدد لأنه كان يعرف سوء نواياهم. وكما وصفه القنصل الفرنسي دو لا مكدولين سنة 1708 بأنه رجل نزوي ذو مزاج متقلب ويحب التشريفات والتعظيم إلى أقصى حد وبأنه يعجز عن تمييز الأمور إذ لا يمكن التفاوض معه حول التجارة لأنه يقطع ذلك بعنف حالما يشعر بمخالفة رأيه ولذلك فهو يبحث بين الفينة والأخرى عن مبررات لتعطيل التجارة، وكان حينما تأخذه النزوة في بعض الأحيان يستقدم النصارى إلى ميدان حصار سبتة حيث جعل إقامة له هناك فيقبضهم لمدة تتراوح بين خمسة عشر يوما وعشرين يوما قبل أن يسألهم عن سبب قدومهم.²⁸ وتكشف لنا المعلومات التي وردت في تقارير الممثلين الأجانب ومذكراتهم وبالخصوص الفرنسيين منهم عن هذا القائد عن وجه آخر لدوره المخزني لم تذكره

²⁵ ألكاندرو كوربا دي فرانكا، تاريخ سبتة (مخطوط) مصدر سابق، الكتاب الرابع، ص.226.

²⁶ هنري دو كاستري، مصدر سابق، السلالة الفياللية، الجزء السادس، ص.177.

²⁷ جرمان مويط، رحلة الأسير مويط، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990، ص.75.

²⁸ Jean Louis Miége, Tétouan a travers les siècles, Tétouan, 1996, p.36.

المصادر المغربية إما عن جهل بالأمر أو ضعف في الإدراك لاسيما عندما يتعلق الأمر بالمتاجرة مع الأوربيين. ولا يمكننا أن نغفل أن احتكاره للسلطة السياسية والعسكرية وامتداد نفوذه على مساحة شاسعة ومفتوحة على البحر مكنه من كسب مغنم ومنافع جوهريّة وأساسية متأتية من استغلال الأرض الخصبة ومن الجبايات وعائدات القرصنة والنشاط التجاري بحيث استفاد كثيرا من المبادلات مع أوروبا فسمح لنفسه بحق احتكار تجارة الشمع والجلود من تطوان وربط علاقات مع مدن أوربية مثل ليفورنة وأمستردام ولندن بواسطة التجار اليهود الذين كانوا يشتغلون لحسابه وجعل وكيلا له بجبل طارق اليهودي أبراهام بنيدر سنة 1705. ولكننا إذا سلمنا بأنه كان يتاجر مع المدن المذكورة ومنها مرسيليا أيضا فهذا يعني أنه كانت له المصلحة الكاملة في الحفاظ على المهادنة مع الأوربيين وإبقاء الصلح معهم عكس ما ادعاه سان-آمان ولنا أن نستثني من ذلك إسبانيا.²⁹ وكان القائد علي بن عبد الله أن أهل إصبانية لا يخفاكم شدة... فتعلم قد كتب في ذلك للعاهل الفرنسي فقال: الكره الذي بيني وبينهم ووجه عداوتي معهم وكرههم في إنما هو لما رأوا في من الحرص والمهاوشة لهم في هذه البلدان التي كانت لهم في بر الإسلام كالعرائش والمعمورة التي انتزعناها بفضل الله من أيديهم وكمدينة سبتة التي أنا مجد في الظفر.³⁰ وكان الباشا المذكور قد شيد «بها بعون الله فمن أجل ذلك صاروا يكرهوني.. دارا لإقامته دعيت بالدار البيضاء في مكان مرتفع بالقرب من أفراك الذي بناه المرينيون بعيد عن متناول المدافع الإسبانية وهو يريد أن يبرهن بذلك للإسبان أنه لن يرحل عن المعسكر ويرفع الحصار حتى يسترجع مدينة سبتة، فهذه الثقة "المطلقة" كانت موجهة أيضا لإقناع السلطان بعزمه على نيل مقصده وكما اتخذ منها ذريعة لأجل المكوث بالشاطئ حيث الباب مفتوح أيضا لإجراء المفاوضات مع الأجانب وتعهدا، وإذ يبين موقفه من التجار الأوربيين ومن قضية افتكاك الأسرى الفرنسيين حيث يقول:.. ولا يخفاك أيضا أن التجار وغيرهم من النصارى الخطار إذا وفدوا على هذه البلاد واجتمعوا بأسارى جنسهم يحرضهم الأسارى على السعي في فكاكهم ويطلبون منا أن نكون لهم واسطة وعونا في ذلك ونتسبب لهم فيه فساعدناهم لذلك

29 عبد العزيز السعود، مصدر سابق، ص.82.

30 محمد داود، تاريخ تطوان، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص.24.

ووقفنا لجلب خاطرهم ورضاهم عند مولانا أيده الله حتى استجاب لنا وقبل ما طلبناه منه .. 31.

ولعل هذا الوزن السياسي الذي كان يتمتع به الباشا المذكور والتجاوب الذي لقيه من السلطان فيما يخص شؤون العلاقات مع أوروبا هو الذي أسبغ عليه صفة "نائب السلطان" على سائر المغرب، فقد نعتة هذا الأخير طورا بوزير أسطولنا وحيناً بالمكلف بالعلاقات مع الأجناس وكل هذه النعوت والتسميات تعد بمثابة صك تراض منسق بين سلطة انبثقت من أسرة شريفة مؤسسة لحكم مركزي وسلطة أضحت قائمة ومدعمة بواسطة أوليغارشيا ريفية حصلت على تركية من المخزن المركزي وبلغت أوج النفوذ والصيت في عهد هذا القائد وابنه من بعده، وهكذا نجده يعين من يراه أهلاً لشغل منصب ويفوض له كتفويض السلطان أو يلجأ إليه البعض لالتماس العزل من الوظيف وغير ذلك، ونقدم كمثال على هذه السطوة مرسوم تعيين محمد عاشر خطة أبي المواريث على تطوان ونواحيها في عام 1701:

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم. من فضل الله سبحانه وبركة سيدنا أيده الله ونصره يستقر مسطورنا بيد ماسكه الأنجد الذكي الأنبه الزكي الأنوه المتقي السيد محمد عاشر التطاوني ليعلم الواقف عليه من أصحابنا ومن إلى نظرنا من المدائن والقرى والمداشر والبوادي والحواضر أننا ولينا خطة المواريث وما يلحق بها ويندرج تحتها كالموات وبطون الأودية وما لفظه البحر والركاز وغير ذلك من حقوق بيت مال المسلمين عمره الله وفوضناه بأتم التفويض وأكملته في أعمال الصلح إن تعين له وتفويت ما اختار تفويته وبيع ما أراد بيعه دون معارض ولا مانع وعليه في ذلك كله بتقوى الله العظيم والسعي في نيل ثوابه الجسيم واجتناب سخطه النقيم وأن ينتهج في عمله نهج الشرع القويم أخلده الله وأن لا يرتكب في هذه الخطة شيئا مما لا يسوغ له شرعا والله بمنه يتولى توفيقه ويجعل الخير أنيسه ورفيقه بمنه ءامين والسلام وبثامن ربيع النبوي عام ثلاثة عشر ومائة وألف [1701] كتبه خديم المقام العلي بالله علي بن عبد الله الحمامي رعاه الله.³² وقد توفي القائد علي بن عبد الله في قمة الحظوة والسلطة في شعبان عام 1125 بمدينة طنجة التي كان قد انتقل إليها بأمر من السلطان بعد استرجاعها من يد الإنكليز، وخلفه ابنه أحمد الذي ورث عن والده كل أمجاده وثرائه.

31 نفس المصدر السابق والصفحة.

32 نفس المصدر السابق، ص.33.

ولد الباشا أحمد بن علي بن عبد الله حوالي سنة 1093هـ/1682م³³ ونشأ وترعرع في كنف السلطة وقضى معظم صباه متنقلا بين مدينتي تطوان وطنجة في وسط اجتماعي غلب عليه طبع المدنية والرفاهية حيث كبر بعيدا عن كل مظاهر التقشف والتعفف وخشونة الطبع، وكما أنه توفرت لديه ظروف مواتية لتلقي تعليم أحسن والاتصال منذ شبابه بالأجانب فتكونت لديه بذلك فكرة عامة عن أحوال النصارى وعوائدهم. وقد وصفه كل من المهندس الإسباني كيوصو سنة 1720 والرحالة الإنكليزي وندوس بأنه شخص متعجرف شديد التكبر، وكما كانت له نفس طموحة وكان للتنظيم وال عمران ورغبة كبيرة في الحصول على هدايا وحب جم للمال.³⁴ والده قد عهد إليه في حياته عمالة تطوان وطنجة ولما توفي سنة 1713 اسند إليه السلطان مولاي إسماعيل ما كان لنظر أبيه وكساه من ألقاب عزه ومفاخره لقب الباشا وكلفه بمهام الاتصال بالسفراء الأجانب فتاب عنه في توقيع اتفاق مع الإنكليز في تطوان بتاريخ 27 يوليو 1714. وكان الباشا المذكور قد تعرض في بداية توليته لمنافسة عمه عبد الكريم بن عبد الله عامل الريف الذي كان قد ثار ضده السكان وأجبروه على الفرار واللجوء إلى تطوان، وبعد أن سئم توجه إلى مكناس وسعى بكل ما لديه من جهد لإزاحة ابن أخيه عن الباشوية، إلا أنه هزم من قبل ممثل الباشا في مكناس وتم اشتراؤه من السلطان بستة قناطير من الفضة وبيعت كل ممتلكاته وأودع السجن.³⁵

وقد ألقى الباشا أحمد بن علي نفسه حينما آل الأمر إليه أمام قضية الرباط على سبته وحصارها وقد مر على ذلك نحو من العقدين دون أن يتم فتحها، ووجد بجانبه أيضا جيشا من المجاهدين الريفيين يعتمد في بقائه واستمراره على ما يسمح له به الباشا للحصول على الأقوات ويحجبه به من رواتب، ورأى تحت سيطرته منطقة تمتد من وهران على البحر المتوسط حيث الحدود مع إيالة الجزائر شرقا إلى المعمورة على ساحل المحيط الأطلنطي غربا ومن البحر المتوسط شمالا إلى نهر سبو جنوبا على مساحة تعادل مملكة البرتغال مع ما يتطلب ذلك من مظاهر ونفقات غير عادية. ولكي يحافظ الباشا أحمد على مظاهر حكمه ونفوذه ويسدد المصاريف الواجبة

³³ قدر القبطان الإنكليزي بريثويت الذي زار تطوان عام 1727 عمره بنحو 45 سنة.

³⁴ Chantal de la Veronne, Sources françaises de l'histoire de Maroc aux XVIII siècle, Revue d'Histoire Maghrébine, n° 21-22, Tunis, 1981, p.103.

³⁵ جون وندوس، رحلة إلى مكناس، ترجمة زهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل، ب.ت.، ص.123.

للجيش والمبالغ العظيمة التي كان ملزما بدفعها للسلطان أو إلى حاشيته وحريمه بين الفينة والأخرى، فإنه لجأ إلى الاستحواذ على أراض ومساحات كبيرة قام باستغلالها فلاحيا وفرض على الناس ضرائب كثيرة وغرامات. ولقد أخذ على نفسه ليس على مستوى الابتزاز الذي مارسه في حق الرعايا فحسب بل وأيضا على مستوى السلطة التي كان يستأثر بها بالخصوص والمبالغ فيها لدرجة جعلته يشعر بالخوف عند زيارته للسلطان. ففي سنة 1721 قدم الباشا على السلطان مولاي إسماعيل بمعية السفير البريطاني ستيوارت وكان لم يزره منذ ثلاث سنوات، ولهذا فإنه استقدم معه إخوته الستة عشر بالإضافة إلى أبناء إخوته وكأنه يسعى بذلك أو يحاول أن يظهر أمام السلطان بمظهر القائد المتمكن بعشيرته، وفي نفس الوقت بمثابة إجراء قد يقيه من غضب السلطان أو يخفف من سخطه المرتقب وهو ما حدث بالفعل، فقد اتهمه وأمست (1720) السلطان بالتهاون عندما هزمه الإسبان وطرده من معسكره بسببته حياته معرضة لخطر كبير حيث هدده هذا الأخير ووصفه بأنه غير صالح للقيادة، ولم يأذن له بالعودة إلى منطقة حكمه إلا بعد أداء غرامة ثلاثمائة قنطار من الفضة فضلا عن الهدايا التي جلبها وقوامها ذهب وفضة وبضائع غالية الثمن وأعداد من الخيول الصغيرة والبغال ومنتجات منطقة حكمه. ولأجل توفير الغرامة المفروضة فقد اضطر الباشا المذكور إلى تجريد حريمه الخاص من الحلي والناض لجمع القدر المطلوب بعد أن جبي كل ما أمكنه استخلاصه من الرعية.³⁶ ولكي يظهر السلطان رضاه على خديمه فإنه أعاده إلى حكومته وأهداه جارية مع ست عشرة من الإماء وأربعة وعشرين عبدا من حرسه الخاص مزودين بأسلحتهم للقيام بخدمته.³⁷

وكانت الحاجة إلى المال تدفعه لفرض إتاوات على الناس لا يفلت منها حتى أقرب المقربين عنده فإنهم كانوا يقاسون من مطالبه ما يقاسيه ألد أعدائه وقد كان في تصرفه ذلك لا يختلف في شيء عما يصنعه السلطان مع قواده من فرض للغرامات والإتاوات ونحوها. وقد قدر الإنكليزي بريثويت أن الباشا أحمد بن علي كان يقدم للسلطان وحاشيته من الأموال مائة وعشرين قنطارا من الفضة وأربعين ألف ليبرة من الذهب علاوة عن الهدايا. وعندما أعلن عن خبر وفاة السلطان إسماعيل في رجب مارس 1727 وأعلن جيش وصفان البخاري عن بيعه ابنه أحمد الذهبي/1139 فإن هذا الأخير بعث للباشا أحمد الشريف مولاي الطيب في عشرين فارسا من خدامه

³⁶ نفس المصدر السابق، ص. 122.

³⁷ دومينيك موني، القنصلية الإنكليزية في تطوان، مصدر سابق، ص. 261.

وإثنين من كتبه بقصد جمع القبائل التي كانت تحت نظره من غمارة وصنهاجة السراير وأهل الريف وتمسمان لأجل تأكيد البيعة وفي نفس الوقت منحه كل الامتيازات التي كان يتمتع بها أيام والده مولاي إسماعيل. وقد قدم عليه في يونيو من نفس العام الباشا بالبيعة وبالهدية ومعه من أصحابه ألف وخمسمائة من الخيل والرماء³⁸ فألقى السلطان القبض عليه وألزمه بأداء غرامة مائتي قنطار من الفضة وكما تعرض منزل وكيله بمكناس للنهب.³⁹ وكان الباشا أحمد بن علي الرجل الأقوى بناحية الشمال الغربي للبلاد إن لم يكن في سائر أنحاء إذ برز كشخصية ثانية في الدولة بعد السلطان حيث كان يحمل لقباً ذا دلالة كبيرة ويتصرف تصرف السيد المطلق في إقطاعيته، ويحتفظ بحامية عسكرية مكونة من بضع مئات من العبيد وثمانمائة فارس وآلاف الراجلين من الريفيين الذين يتكلف بنفقتهم في غالب الأحيان، وقد أولى اهتماماً خاصاً بالثورات والانقلابات التي كانت تحدث على السلاطين وكما كان من المؤكد أنه لم يتخلف في تشجيع طرف ضد آخر ودعمه بالقوة والمال كي يجني ثمار تفرقة كلمة المطالبين بالعرش وقد وصفه مؤرخ الدولة العلوية بأنه بدأت تظهر عليه في أواخر عهد مخدومه "علامات التمرد والزروع إلى الاستقلال".⁴⁰ لقد نجح هذا القائد في فرض نفسه بناحية بعيدة عن مركز السلطة لدرجة أنه تمكن من الوصول إلى استقلال شبه مطلق عن الحكم المركزي مستغلاً الظروف السياسية بل وطمح في الاستفراد بالحكم. ولعل المقومات الأساسية لقوة هذا الشخص تكمن في الثروة التي جمعها وفي تبعات الحكم السياسي الذي تمتع به في منطقة حكومته، فلقد راكم ثروة هائلة بسبب تعايطه للفلاحة في سهول أنجرة وقيامه بالمتاجرة في منتجات الحبوب والماشية والجلود والشمع مع جبل طارق بالخصوص.

ولم تنقص الباشا أحمد بن علي القوة السياسية ولا العسكرية بل إن نفوذه لم يقتصر على منطقة حكمه فحسب وإنما استطاع أن يخترق القصر السلطاني بمكناس بأن جعل له صنائع أشياعاً يعملون على تلميع صيته لدى السلطان، ويبذل من أجل ذلك الغرض الأموال الوفيرة والسلع الثمينة للسلطان ولحريمه ولزمرته من حاشيته، وكان من

³⁸ ابن موسى اليفي، مصدر سابق، ص. 64/216.

³⁹ دومينيك موني، مصدر سابق، ص. 296.

⁴⁰ أبو القاسم الزباني، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص. 215.

أبرز صنائعه القائد عبد الرزاق ولعله من زمرة "قواد روسهم" وكان محل ثقة كبيرة عند الباشا المذكور ويكن له تقديرا واعتبارا كبيرين وقد أنفق أموالا طائلة حتى يحتفظ صاحبه بمكانته إلى جانب السلطان. وكما كانت للباشا حاشية من غير أفراد عشيرته تتكون من كتاب ومساعدين كانوا من بين أشهر رجال تطوان وأدبائها وتجارها، ومنهم الكتاب والشعراء محمد بن سليمان ومحمد بن يعقوب وعيسى الجزيري ومحمد الموفق الثعالبي وغيرهم بل وكان من المتقربين إليه والمستفيدين من فضله قاضي تطوان محمد بن محمد بن قريش. وفي ميدان التجارة ارتبط بشخصه عدد من التجار ومنهم العربي الشاط ومحمد أبغلي وأبراهام بنيدر. ومثلما كان له صنائع وأشياء كان هناك أفراد يتجسسون عليه ويبحثون بمعلومات عنه إلى السلطان وكان من بينهم عمه عبد الكريم بن عبد الله وأخوه عبد الكريم بن علي قائد العرائش الذي عزله وسجنه لشهرته بأنه جاسوس السلطان وكاتبه الحميدي الذي كان يخبر السلطان مولاي عبد الله بكل نازلة وقعت عند الباشا فكتب صاحب فراش السلطان بذلك للباشا وأعلمه بالخبر فكافأه هذا الأخير.⁴¹

وفي الجانب الآخر كان الباشا المذكور شديد الفضول لمعرفة كل ما يجري في أوروبا لذا فرض على كل زائر يأتي إلى تطوان عن طريق البحر تقديم فروض الطاعة والاحترام له وكان ذلك مناسبة يطلع فيها على أخبار أوروبا. كما لا يغيب عن بالنا الاستفادة التي حققها من العلاقات الدبلوماسية التي كان يبرمها المخزن مع البلدان الأوروبية وذلك لتعزيز مكانته كدبلوماسي بارز ومفاوض متمكن وتصرفه كوزير للشؤون الخارجية في الدولة الإسماعيلية، وقد ناب عن السلطان في توقيع معاهدة السلم والصداقة والمتاجرة المبرمة في تطوان مع الإنكليز في 27 يوليو 1714.⁴² وبسبب علاقته بالأوروبيين فإن السلطان أوكل إليه مباشرة التفاوض مع الأجانب حول المهادنة وافتداء الأسرى وأشياء أخرى. وكانت الحكومة البريطانية قد أرسلت سفيرها صوليكفر سنة 1734 إلى السلطان مولاي عبد الله في مكناس حاملا معه رسالة من الملك جورج الثاني وقد عاد إلى تطوان وبصحبه 136 من الأسرى، وقد كتب السلطان رسالة إلى الباشا مؤرخة في 6 صفر 1147 1734 فحوها إلى أخينا في الله حفظه الله الباشا الأصلح أحمد بن علي بن عبد الله كالتالي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته .. وصلتنا رسالتك .. وما قلته لنا في سبيل وصول

41 محمد داود، تاريخ تطوان، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 225.

42 ب.ج. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية - المغربية حتى عام 1900، الدار البيضاء، 1981، ص. 123.

السفير الإنكليزي إلى تطوان ودخوله المدينة وقد وصلت رسالته وقرأناها وفهمنا محتواها، وكل ما جاء من أجله ويرغب فيه يمنح له وفقاً للقواعد والأعراف وأما بخصوص افتتاح الأسرى والكلام في شأن النصارى فيكون طبقاً لما كان معمولاً به في عهد والدنا .. وعلى يدك بموجب ما تعرف، وعندما يصل السفير لبلاطنا فإننا⁴³ وقد أبرم الباشا مع المبعوث «سرده إليك لأجل التباحث وضبط الأمور .. الإنكليزي مهادنة بتاريخ 15 ديسمبر 1734.

وكانت قد حصلت النفرة بين الباشا المذكور وبين السلطان مولاي عبد الله سنة 1730 لكنه تمكن بفضل دهائه وعمل صناعته من فرض نفسه من جديد على جميع حدود منطقة حكمه في السابق بعد أن عزل السلطان القائد عمر لوقش عن حكم تطوان سنة 1732، وكما فكر في العودة إلى محاصرة سبتة حيث شرع في غشت من نفس السنة في بناء سراي جديد وولى أخاه عبد الكريم قائداً على المعسكر وترك حكم تطوان لأخيه القائد عبد الواحد وانسحب هو إلى طنجة حيث استقل بنفسه ولم يعد يبعث بمبالغ مالية للسلطان وكان هذا الأخير بدوره قد أصبح في وضع لا يحسد عليه بسبب تهديدات العبيد بخلعهم. وسيتيح له ذلك الفرصة للتدخل بشكل مباشر في الصراع حول السلطة ففي شعبان 1153/1740 حين نصر العبيد عبد الله بن إسماعيل في البيعة الثالثة امتنع القائد أحمد بن علي عن القدوم عليه وتحصن بطنجة ولم يبعث له بهدية ولا بكتاب ولا برسول ولم يعبأ به فاغتم السلطان من أجله كثيراً.⁴⁴ وكان الباشا قد اتفق مع عبيد الرمل على خلع مولاي عبد الله وبيعة أخيه زين العابدين الذي كان عنده بطنجة، فبايعه بطنجة وتطوان وبالجزبال ثم هياً له كتيبة من عبيد الديوان وغيرهم وتوجهت إلى مكناسة فبايعوه في ربيع الأول 1154 يونيو 1741.⁴⁵ ولما رأى العبيد أن السلطان الجديد على قدر الحال وليس معه المال نبذوه ورجعوا إلى تولية عبد الله للمرة الرابعة في شهر رمضان من نفس العام، ثم إن أحمد بن علي أكثر من الإرسال إليهم ووعدهم إن خرجوا على مولاي عبد الله ونصروا مولاي المستضيء يوصلهم بما وعدهم به، فاتفقوا على خلعهم وبيعة أخيه

⁴⁴ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق وتعليق وتقديم محمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986، ص. 134.

⁴⁵ البستان الطريف، ص. 296، تاريخ الضعيف، ص. 135، الاستقصا، ج. 7، ص. 155.

بيعة ثانية في شهر ذي القعدة من العام 1154هـ السلطان المستضيء وفي السنة الموالية تزوج بنت الباشا وصنع لها عرسا كبيرا.⁴⁶

ونهب جيش العبيد من شيعة مولاي عبد الله حاركا للباشا أحمد وسار إلى أن وصل واد المخازن ثم مر بالقصر الكبير فوجد أمامه جيش الباشا حيث التقى الجمعان فكانت الهزيمة على العبيد، فقطع رؤوسهم وبعث بها إلى القصر حيث دخل المدينة وقد استقبله أهلها بالطبول والهدايا. وكان الباشا المذكور قد أبرم صلحا مع إسبان سبته عام 1742 وهو حدث يعد سابقة من طرف رجل المخزن المغربي الذي كان قائما بمحاصرة الثغر المحتل، وكانت الغاية من هذه المهادنة هي ضمان منطقته الخلفية بالشمال بهدف تخويف السلطان مولاي عبد الله ودفعه للتنازل عن العرش لفائدة أخيه المستضيء الذي كان قد فر إلى ناحية صهره يناشده قتال أخيه بعد أن عزله العبيد. وقد ذكر الضعيف أن الباشا "رأى في بعض الأجفار أنه سيدخل مدينة فاس بالطليل وستولى عليها فاغتر بذلك وأخذ في جمع العدة والسلاح والمال. وهكذا نهض في جيش أوائل محرم 1156-1743 وسار إلى أن نزل بمكان يسمى العسال على ضفاف نهر سبو وقصده إكراه أهل فاس ومن انضم إليهم من قبائل العرب وكذلك ترويع السلطان بأن ألقى بقواته في اتجاه فاس وقدم بعده المستضيء ووقعت فتنة كبيرة ودهش الناس ومعه العبيد، ولما بلغ خبر قدومه قنط أهل فاس من هول هذا الريفى وانتهبت المواشي وماتت جوعا وارتفعت الأسعار بفاس .. وفي كل صباح ومساء تخرج المدافع وتقرع طبول الباشا وطبول المستضيء.⁴⁷ وقد حاول مولاي عبد الله إقناعه بالتراجع ووعد بالبقاء باشا على الشمال إلا أن عزم الباشا الحقيقي كان هو إخراج السلطان من فاس. ثم إن هذا الأخير استصرخ البربر فأجابه منهم آيت ادراسن وكروان فالتقى الجمعان يوم 22 صفر 1156 يونيو 1743 وانهزمت جيوش الباشا والمستضيء وتركوا أخبيتهم وما اشتملت عليه وفر الباشا إلى طنجة والمستضيء لبني حسن. ثم إن مولاي عبد الله خرج في جمادى الثانية من نفس العام ومعه الودايا وأهل فاس وقبائل العرب والبربر ونزل بوزان وبقي يقصر المراحل لتجتمع عليه الجنود حتى وصل إلى القصر، وخرج أحمد بن علي من طنجة في أهل الريف والخلط والطلاق وأهل الفحص وجباله والعبيد مؤازرة أخيه عبد الواحد قائد تطوان، فالتقى الجمعان من جديد بناحية القصر الكبير في 14 جمادى

⁴⁶ الضعيف الرباطي، مصدر سابق، ص. 141.

⁴⁷ الزيانى، البستان الطريف، مصدر سابق، ص. 309.

6 غشت 1743 فكانت الهزيمة على الباشا واحتز رأسه وعلق بباب /الثانية 1156
الشرعية بفاس إلى أن جاء الشفيح فيه من عائلة الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي
من الجزائر فقبل السلطان شفاعتهم وكتب بإنزاله.⁴⁸ وهكذا انتهت "ملحمة" هذا
الباشا الذي لم يظهر مثيله بالبلاد ولم يقم مقامه أحد من بعده، وقد تطفن السلطان
إلى مكمن الخطر فاستخلص من عماله وكتابه ما كان عندهم من الأموال واستعمل
على كل قبيلة رئيسا منهم ولم يضم جميعهم لأحد خشية أن يثور عليه كما فعل الباشا
المذكور. وقد أجمع الجل على أنه بعد موت السلطان مولاي إسماعيل كان باستطاعة
هذا الباشا أن يصير سلطانا على المناطق التابعة لحكمه لو أنه كان أقل قسوة في
إدارته وأقل جشعا في حب المال وأكثر شجاعة وبأسا.



⁴⁸ انظر عن هذه الواقعة الدر المنتخب، ج.9، ص.26، ولسان المقال، ص.32، ونشر المثنائي، ج.4، ص.45،
وتاريخ الضعيف، ص.145.

صدر حديثا



صدر عن مطبعة "الخليج العربي" بتطوان كتاب تحت عنوان رئيسي هو "عبد الكريم الخطابي وأسطورة الانفصال (1926-1921)"، وعنوان فرعي هو "حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية" للأستاذ الباحث محمد أونيا.

الكتاب من القطع الكبير، ويقع في 384 صفحة تتوزع على باين وعشرة فصول. والكتاب، إضافة إلى غزارة الرصيد الوثائقي الذي يقوم عليه، يصرح بالهموم المنهجية/ النقدية التي تشغله، فيسائل الأدبيات التاريخية المتراكمة وما اعتراها من انغماسات إيديولوجية، هي إسقاطات لمفاهيم ولطرق في النظر، "أورو-مركزية"، لـ "الجمهورية الريفية" بعيدة عن حقائق الواقع العيني "المحلي"، وذلك اعتمادا على على ما يسميه المؤلف "المرجعية المحلية".

أما المؤلف محمد أونيا فهو رئيس تحرير مجلة "حوليات الريف"، وله مساهمات تاريخية منشورة في عدد من المنابر، كما صدرت له، بالاشتراك، عدد من الترجمات العربية لمؤلفات حول الريف عموما وما يتصل خصوصا بالأمر محمد بن عبد الكريم الخطابي.

ساحل الريف والبحرية المخزنية قبل الحماية



محمد أحميان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية / وجدة

عمل المخزن على استغلال مجاله البحري المتوسطي، فسخره لتنقل جيشه من وإلى الريف، متجاوزا بذلك الطريق البري بمخاطره وأكراهاته؛ هذا في الوقت الذي كان قد وزع فيه وحداته البحرية الموروثة على إيلات شمال إفريقيا، نتيجة لتجريم المجتمع الدولي لنشاط القرصنة/ الجهاد البحري. فأقدم المخزن خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، على اقتناء مجموعة من الوحدات البحرية في إطار مشروعه الإصلاحية، والتي حاول من خلالها تسجيل حضوره البحري في الريف، وذلك بتخصيص بعضها للقيام بدور الحراسة، لقطع كل محاولة أوروبية للتدخل في هذه المنطقة؛ كما قامت أيضا بدور فعال في الحركات المخزنية، خاصة ما يتصل بنقل الجيش وتموينه، قصد تطويع القبائل. وتحاول هذه الورقة البحثية، تبيان الدور الذي قامت به البحرية المخزنية في ساحل الريف قبل فرض الحماية عليه، وتوضيح بعض مظاهر الحضور البحري للمخزن في الساحل المتوسطي للبلاد، وكذا العراقل التي حدثت من فعالية وحداته البحرية.

جهود المخزن لامتلاك أسطول بحري

أمام تزايد تعامل أهالي الريف مع الأوربيين المتقاطرين على السواحل الشمالية للمغرب، خلال القرن التاسع عشر، أدرك المخزن أن مرد ذلك يعود إلى غياب بحرية مغربية قوية⁴⁹؛ إذ كانت كل عمليات النقل بين المغرب وأوروبا تتم عبر سفن أجنبية، من جبل طارق وإسبانيا وفرنسا، فحتى نقل البعثات الدبلوماسية المغربية إلى أوروبا كان يتم عبر سفن أوروبية⁵⁰. مما سمح للدول الأوربية بالتدخل في البلاد، عبر تنشيط التجارية المحظورة مع قبائل الريف.

ونظرًا للحاجة إلى التحكم في ساحل الريف، في محاولة لتجاوز المشاكل الناشئة في "كوسطة" الريف، سعى المخزن إلى إحياء أسطوله البحري؛ فأقدم على شراء عدة وحدات بحرية، ووزعها على المراسي⁵¹، للتصدي لتجارة التهريب، والقيام بمهمتي الدفاع ونقل البضائع التجارية⁵²؛ فصارت حراسة شواطئ الريف، إحدى المهام الرئيسية المُسنَّدة إلى هذه البواخر والوحدات العسكرية المتنقلة على متنها، ومنها: باخرة "الحسني"؛ وهي باخرة عظمى، اقتناها المخزن من بريطانيا سنة 1885، حيث كلف موسى أفاللو (تاجر السلطان في لندن) بمعية النائب السلطاني بركاش بتلك المهمة، وهي سفينة مصنوعة في "مدلسبورغ"⁵³، وزنها 1100 طن، يسيرها طاقم

- لمزيد من التفصيل حول البحرية المغربية خلال القرن التاسع عشر، يُنظر: ⁴⁹ Jean Louis MIEGE, "La marine au 19 siècle". *Bulletin de l'enseignement public au Maroc*, n° 237, Oct - Nov - Dec 1956, pp. 51-60.

- أحمد علمي، النقل والتنقل في المغرب خلال القرن التاسع عشر. أطروحة الدولة في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز، السنة الجامعية 1999-2000، ص. 363.

- عمر أفأ، التجارة المغربية في القرن التاسع عشر: البنيات والتحويلات (1830-1912). ⁵¹ منشورات مكتبة دار الأمان، ط. 1، مطبعة الكرامة، الرباط، 1427هـ/2006م، ص. 121.

- نفسه، ص. 121. ⁵²

- بهيجة سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب (1844-1912). منشورات اللجنة المغربية ⁵³ للتاريخ العسكري، المطبعة الملكية، 2000، الرباط، ص. 333.

يتكون من 40 بحارا⁵⁴، وذات محرك بقوة 130 حصان دفع⁵⁵، وقد أوكلت قيادتها لربابنة إسبان⁵⁶.

سيدي التركي: اشترت من شركة "ويرمان" الألمانية سنة 1890⁵⁷، وكانت مجهزة بمدفعين، وطاقم يتشكل من 20 بحريا مغربيا، و6 ألمان يسهرون على قيادتها وتسييرها التقني، وزنها حوالي 460 طنا⁵⁸، وقوة محركها خمسون ومئة حصان بحري⁵⁹. وقد استخدمت لتموين مراكز الريف الحربية⁶⁰، كما لعبت دورا هاما في محاربة التهريب⁶¹، وبرز أيضا دورها المحوري في حركات المخزن إلى الريف الشرقي، لمواجهة تمرد الروكي⁶².

البشير: "بشير الإسلام بخوانق الاعلام"، وهي طراة (سفينة صغيرة)، صنعت في ورش لبناء السفن بإيطاليا سنة 1899⁶³، تم اقتناؤها في العهد الحسني، ولم تصل إلى المغرب إلا في العهد العززي، وعُيِّن على رأس قيادتها ضابط ألماني⁶⁴؛ وتم تزويدها بـ 22 مدفعا، وبمائة من البحارة الرباطيين والسلاويين والطنجاريين والتطوانيين، لوضع حد لنشاط "قراصنة الريف"⁶⁵.

- عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ. مطابع المغرب الكبير، الرباط 54
1387هـ/1967م، ص. 98.

- سيمو، الإصلاحات العسكرية، م. س، ص. 55333
- نفسه، ص. 334⁵⁶.

⁵⁷- Abdelkader TIMOULE, **Le Maroc à travers les chroniques maritimes: La mer dans l'histoire du Maroc**. Éd. SONIR, 2^{ème} ed., Casablanca 1990, t. 2, p.45.

⁵⁸ - Leonhard KAROW, **Neuf années au service du Maroc (1900-1908)**. Traduction et notes : Monique Miège et Jean Louis Miège, éd. la Porte, Rabat 1998, p. 9-8

- سيمو، الإصلاحات العسكرية، م. س، ص. 329⁵⁹
- المريني، الجيش المغربي، م. س، ص. 98⁶⁰.

⁶¹ - KAROW, **Neuf années au service**, op. cit., p. 200.

⁶² - Eduardo MALDONADO VÁZQUEZ, **El Rogui**. Eds. Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Árabe, Tetuán 1952, p. 289.

⁶³ - Mohammed KENBIB, « Contrebande d'armes et "anarchie" dans le Maroc précolonial (1844-1912) ». **Revue Dar Al-Niaba**, 1^{ère} année, n° 4, 1984, p. 11.

- أفا، التجارة المغربية م. س، ص. 121⁶⁴.

- المريني، الجيش المغربي، م. س، ص. 98⁶⁵.

يظهر أن المخزن المغربي، اعتمد في بناء أسطوله على الدول الأوروبية، وذلك بغية الاستفادة من تقدمها التقني واستغلال التنافس القائم بين القوى الاستعمارية لصالحه، وقد أولى اهتمامه في هذا الميدان بالتجربة الإيطالية والألمانية والبريطانية، مغنيا بذلك فرنسا⁶⁶. فسخر هذه الوحدات البحرية لعسة البحر، وتدعيم قوته العسكرية، خاصة من خلال دورها الفعال في حركاته إلى الريف مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين.

توجيه السفن إلى سواحل الريف للقضاء على التهريب

رغم تجدد الحركات التي وجهها المولى سليمان إلى ساحل الريف، فإنها لم تفلح في اقتلاع جذور ظاهرة "الكنطربض"⁶⁷. وقد أدرك خلفه المولى عبد الرحمان بن هشام، أن غياب بحرية مغربية قوية، سمح للدول الأوروبية والقبائل الريفية، القيام بالأنشطة التجارية المحظورة في ساحل المتوسط؛ فولى اهتمامه نحو إعادة بناء الأسطول، الذي شتته عمه "المولى سليمان"؛ من أجل وضع حد لعمليات التهريب وما ترتب عنها من قرصنة.

وبذلك أسندت مهمة الحراسة البحرية، سنة 1841، إلى المركب المسمى "الأسكونة"، وهذا ما تبينه الرسالة السلطانية التالية، التي أخبر فيها السلطان قائده بوسلهام بإيفاده هذا المركب، للقيام بجولة استطلاعية بحرية قصد محاربة سفن التهريب، عندما قال: "خديمتنا الأرضي الطالب بوسلهام بن علي (...). فقد عينا للتقرصين المركب الجهادي المعروف بالأسكونة، التي رئيسها الحاج أحمد والحاج بكوشطة الريف⁶⁸، على من سيق من مراسيه شيئا سرقة؛ إذ ذلك كله على وجه

- بهيجة سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية (1869-1912). منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، ط. 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2003، ص. 499.

⁶⁷ - Expédition du sultan Moulay Slimân dans le Rif et ses motifs, **Archives marocaines**, vol. X, Éd. Ernest Lehoux, Paris, 1907, p. 42-43.

- كلمة أصلها إسباني، تعني "الساحل"، ونصادفها بكثرة في الرسائل المخزنية المتعلقة بالريف⁶⁸ خلال القرن التاسع عشر.

الكنطربنض، وقد قدمنا لك الأمر بعدم كرائها إذا قدمت، فزدها أربعة طبجية وثمانية بحرية بمكاحلهم (...)»⁶⁹. وتمكنت هذه الباخرة (الأسكونة)، من إفشال عدة محاولات للتهريب في ساحل الريف⁷⁰، ومن ذلك حجز مركب إسباني بشواطئ غمارة⁷¹.

وبذلك تمكنت التدابير المخزنية من حظر الملاحة غير المشروعة في ساحل الريف على جميع السفن الأجنبية، لرغبة المخزن في السيطرة على المنطقة الشمالية للمغرب، حيث أن وسق الجبوب من الموانئ لم يكن مفتوحا في كل الأوقات، ولكل الدول، خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ مما جعل السفن الأوربية تتجه إلى سواحل الريف لوسقه، ضدا على إجراءات المخزن⁷².

لكن تدمير وحدات الأسطول الذي حاول المولى عبد الرحمان بن هشام بناءه، عقب حرب تطوان، جعلت ظاهرة التهريب تأخذ أبعادا خطيرة؛ حيث أصبح الأسطول المغربي، عقبها، معطلا ومهملا، وظلت السفن تبلى وتتآكل في العرائش؛ بسبب مصاعب الترميم والإصلاح. كما أشار الفصل الثاني من معاهدة رأس سبارتيل، الموقعة في ماي 1865، إلى أنه لم يعد لحكومة المغرب أسطول عسكري أو تجاري⁷³، ما يعني النهاية الرسمية للبحرية المغربية.

ومع الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أقدام المخزن على اقتناء وحدات بحرية جديدة، قصد تنظيم بعثات لحراسة السواحل الشمالية للبلاد⁷⁴؛ فخصصت الحكومة الشريفة مركبا حربيا لخفر هذه السواحل، وعُهد إليه تنفيذ إجراءات زجرية، في حق

- رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام إلى بوسلهام بن علي، مؤرخة ب 21 جمادى الأولى 1257هـ/ 11 يونيو 1841. أوردتها: محمد داود، تاريخ تطوان. المطبعة الملكية، الرباط 1398هـ/ 1978م، مج. 8، ص. 348-349.

- نفسه، ص. 348.⁷⁰

- نفسه، ص. 362.⁷¹

- عثمان المنصوري، العلاقات المغربية البرتغالية (1790-1844). مطبعة فضالة، المحمدية 2005، ج. 1، ص. 173.

- النص العربي لاتفاقية رأس سبارتيل الموقعة في 5 محرم 1282هـ/ 31 ماي 1865م. أوردته: عبد اللطيف الشاذلي، نصوص اتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية. المطبعة الملكية، الرباط 1428هـ/ 2007م، ج. 3، ص. 11.

- رسالة موجهة من مولاي عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، مؤرخة ب 14 74 شوال 1316هـ/ 25 فبراير 1899م. خ. ع. تطوان، مج. 74/17.

أي نشاط مخالف للسفن الأجنبية في الريف⁷⁵، وعدم السماح بعمليات السوق أو الاتجار غير المشروع⁷⁶.

ولتسهيل عمل الوحدات البحرية المخزنية في ساحل الريف، تم إحداث نظام لضبط حركة تنقل قوارب أهل الريف، بين مراكز ساحل المتوسط من طنجة إلى مصب ملوية، في محاولة لمحاصرة المهربين. فألزم المخزن الفلاّك الريفية بالحصول على تصاريح من ممثليه في هذه المناطق قبل السفر، تتضمن بيانا لنوع الحمولة ومصدرها واتجاهها، وتاريخ السفر. ونفس العملية من عامل تطوان أو طنجة أثناء العودة، وإذا ضبّطت هذه القوارب بدون "باسبورط" تعتبر خارجة عن القانون، وما تحمله فهو "كنطربانض". وهذا ما تؤكد هذه الرسالة السلطانية، التي جاء فيها: "خديما الأَرْضِي الحاج محمد بن العربي الطريس (...)، اقتضى نظرنا الشريف (...)، أن نجعل البابور الحسني إن كان لازال ثمة، أو التركي إن كان راجعا من الطرفية، عسة في البحر وردا كسطا يكون يطوف في الساحل بين طنجة ومليلية، بقصد ترصد أهل الريف الذين يجدونهم في القوارب بالبحر وتفتيشهم، ومعرفة ما هم حاملون له، فإن كانوا على غير استقامة أو بصدد نهب مراكب الأجناس، أو معهم كنطربانض أو متوجهين لمرسى أجنبية فيجروا بهم القوارب بما فيها ويأتوا بهم إليك، فالرجال يودعون بالسجن ثمة على يدك ويد العامل، والقوارب والأمتعة يحوزها أمناء المرسى ويتركونها تحت يدهم مصونة (...)، ثم تكلم مع رئيس البابور المذكور (...)، من وجده من أهل القوارب المشار إليها واردا ويده كتاب مفتوح من عامله ببيان تاريخ سفره وما هو حامل له من السلعة وبيان المحل الذي يقصده إما طنجة أو تطوان فيخلى سبيله في وروده، وفي رجوعه إن وجد عنده كتابا من عامل طنجة أو تطوان بمثل ما ذكر فيخلى سبيله أيضا. وأما إن وجده خاليا من المكاتب المشار إليها فيقبض ويوتى به إليك بما معه من القوارب وما فيها لينفذ فيه أمرنا الشريف بما قرر لك أعلاه. وقد أمرنا عمال أهل الريف بأن يكونوا يدفعون مكاتبهم بما ذكر لإخوانهم أصحاب القوارب المشار إليها، كما أمرنا عاملي تطوان وطنجة بأن يكونوا يدفعون لهم أيضا عند رجوعهم، لآكن لا يتم ضبط ذلك وحسم مادة هذا الفساد إلا بتفتيش

⁷⁵ - Nota circular que Sid Ben Nassar Ghannam dirige a los representantes extranjeros en Tánger, disponiendo que queda terminantemente prohibido el tráfico comercial entre los puertos de Tánger y Tetuán y las costas del Rif, 18 de Agosto de 1899. A.G.A. África, Sección Histórica (Marruecos), Caja 122.

- داود، تاريخ تطوان، م. س، مج. 8، ص. 348.

مراكب الأجناس التي يصادفها البابور المذكور حالة دورانه في السواحل، فإن وجد به شيئاً من الكنطربانض، كالعدة الرمية (...)، فيجره بما فيه ويأتي به إليك لتجرى عليه أحكام من يوجد بيدهم الكنطربانض، وإذا كان خالياً منه فيخلّى سبيله"⁷⁷. وبذلك، توعد المخزن كل من خالف هذا "الضابط" بأشد العقوبات؛ وإن كان واقع الحال كشف عن محدودية هذه الإجراءات التي لم تُفعل بشكل تام، لكنها أسهمت في خفض رواج التهريب؛ حيث أفشل تزايد ضغط القوى الخارجية مساعي المخزن، رغم جهوده لإغلاق المنطقة في وجه التدخل الخارجي، وتقليل أهمية اتصال الريفيين مع الأوربيين.

دور ساحل الريف في المحلات المخزنية

أسهمت المساحلة في تسهيل عملية التنقل بين المناطق الساحلية، والربط بين الموانئ والمدن الداخلية، وغدت عمليات التموين خلال المجاعات تقوم بها سفن أوروبية عبر المدن الساحلية⁷⁸. وستزداد أهمية المجال البحري للريف بالنسبة للمخزن، خلال نهاية القرن التاسع عشر، باستغلال الطريق البحري لتوجيه المحلات المخزنية إلى قبائل الريف، ففي الحملة الشهيرة التي قادها بوشتي البغدادي إلى قبيلة بقيوة، سنة 1898، حتى وإن سلك الطريق البري، فقد حضي البحر عنده بأهمية خاصة، حيث اختار أن يعسكر في موضع على شاطئ البحر بمجال قبيلة بني ورياغل⁷⁹.

وأقدم البغدادي بعد سيطرته على بقيوة، على الاستفادة من المجال البحري للريف، بنقله 122 رجلاً، على متن باخرة التركي في اتجاه سجن موكادور، أسرتهم المحلة⁸⁰. واستغل البقيويون من جهتهم المجال البحري أثناء هذه المحلة، سواء من خلال تنقلاتهم إلى تطوان ولقائهم بقنصل فرنسا هناك، أو من خلال فرار قسم من

- رسالة موجهة من المولى عبد العزيز إلى محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 18 ربيع الآخر 1313 هـ / 8 أكتوبر 1895 م. خ. ع. بتطوان، مح. 65/14.

- علمي، النقل والتنقل، م. س. ص. 374.⁷⁸

- محمد عمر بلقاضي، أسد الريف: محمد عبد الكريم الخطابي. ط. 2، مطبعة سلمى، الرباط 2006، ص. 37.

⁸⁰ - Ibid, p. 520.

القبيلة الذين تفتنوا لمكيدة بوشتى البغدادي، فقصدها بادل. حيث وصلت في اليوم الموالي، سفينة فرنسية تابعة لشركة "توشا"؛ وهذا ما يمكن أن نستشفه من الرسالة المخزنية الموالية التي أشار فيها كبير محلة الريف، "بأنهم لما ضربوا بقوة ورد بابور فرنسيص لحجرة النكور، وحمل منهم عددا من الرجال والنساء والصبيان (...)"⁸¹. فاتجهوا إلى طنجة، حيث قضوا 6 أيام في خليجها على ظهر السفينة، بينما كان الفرنسيون يتفاوضون مع محمد العربي الطريس من أجل إنزالهم في طنجة، لكن النائب المخزني رفض ذلك بقوة، باعتبارهم متمردين عن السلطان⁸². ولعدم جدوى الاتصالات مع الطريس، تم تحويل وجهة السفينة إلى وهران، حيث أقاموا في معسكر قرب عجرود أو ما يطلق عليه "ميناء ساي"⁸³، ووضعوا أنفسهم تحت الحماية الفرنسية.

- رسالة من الصدر الأعظم أحمد بن موسى إلى النائب السلطاني محمد العربي الطريس،⁸¹ بتاريخ 14 صفر 1316هـ/ 4 يوليوز 1898م. خ. ع. تطوان، مح. 25/25.
رسالة من النائب السلطاني بطنجة محمد بن العربي الطريس إلى الصدر الأعظم أحمد بن موسى، جاء فيها: "وبعد، فليكن في كريم علمك أن بابور الشهر لجنس دولة فرنسة المعظمة المحترمة، ورد لميناء مرسى طنجة حاملا لأناس من بقوة نساء ورجالا كان حملهم من حجرة النكور حيث فروا إليها، وأراد أن ينزلهم بمرسى الثغر المذكور فمنعه من ذلك كبير السنيذة ووقتئذ وهو نائب الطليان. ثم ورد علينا نائب الجنس وصار يحاول الإذن له في إنزال من ذكر بالمرسى، وأخبر أن فيهم النساء وبعض الصبيان وقد استجاروا به فأجارهم وردهم في حرمة بقصد النزول في الأمان، فأجبتاه عن النساء بأنه لا حكم عليهن وعن الرجال بأنه لا أمان عليهم ولا تقبل فيهم المشافهة من قبل جانب المخزن رعا الله حيث ما كانوا، وأن كل من نزل منهم للبر يصير إلى السجن حالا فأيس من المساعدة ثم سافر بهم البابور لناحية سبتة بقصد النزول بها فمنع من ذلك أيضا، ثم ردهم لمرسى طنجة لينزلهم بها فلم يساعده كبير السنيذة المذكور، فسافر بهم حينئذ ولم يدر هل ردهم لمحلهم بناحية الريف أو توجه بهم لناحية وهران. وأعلمنا سيادتكم بالواقع لتكون منه على بال". رسالة مؤرخة ب 29 محرم 1316هـ موافق ل 19 يونيو 1898م. أوردها: عبد العزيز خلوq التسماني، "وثائق مغربية حول حركة التهريب بقبيلة بقوة سنة 1898". مجلة دار النيابة، عدد مزدوج 24/23، صيف/ خريف 1989، ص. 87.

⁸³ - ET-TABYI (Eduardo MALDONADO VÁZQUEZ), **Retazos de historia marroquí**. Publicación de Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Árabe, Editora Marroquí, Tetuán 1955, p. 248.

وقدمت الوحدات البحرية خدمات مميزة للمخزن أثناء حركاته نحو الريف، كحمل العسكر والزاد والعتاد⁸⁴. فأمام قلق المخزن من سقوط مناطق الريف ووجدة في يد بوحمارة، "قرر إرسال بعض الشرفاء لإصلاح الأوضاع، وجلب مزيد من التعقل والترزق في صفوف أهالي تلك الناطق"⁸⁵، حيث توجه سيدي محمد الأمراني إلى طنجة (في نهاية يناير 1903)، ومنها غادرها بمعية 500 جندي بقيادة القائد البشير بن سناح إلى الريف⁸⁶، فزلوا بقصبة جنادة بجوار مليلية⁸⁷.

كما غادرت أيضا الباخرة المخزنية "الحسني" ميناء طنجة في اتجاه مليلية، وعلى متنها الشريف مولاي بوبكر مع ألف عسكري⁸⁸. وقامت باخرة سيدي التركي بدورها بنقل القوات المخزنية، التي كانت تتألف من 200 من الجنود بقيادة مولاي عرفة، في اتجاه الريف الشرقي، حيث نزلوا في رأس الفرشاة الثلاثة، ومنها تقدموا نحو قلعة فرخانة، مقر إقامة باشا المجال الحدودي لمليلية. بينما واصلت الباخرة طريقها إلى مليلية التي أنزلت بها البغال وأمتعة المحلة المخزنية⁸⁹؛ بعدما كاتب المخزن الشريف السلطات الإسبانية بمليلية، يستفسرها عن إمكانية نزول العسكر الموجه من طنجة بمليلية⁹⁰.

وبالموازاة مع ذلك، قامت باخرة التركي المجهزة بمدفعين وآخر رشاش، بدور فعال فيما يتصل بقصف القبائل المناصرة للروكي (بني سعيد، بني شيكر، بني بوغافر...)، فأشار قائدها إلى ذلك بقوله: "(...) توجهنا في الساعة الثالثة من ليلة

- ثريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر. منشورات كلية الآداب بالرباط، 84 مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1997، ص. 303.

- لويس أرنو، زمن المحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860-1912. ترجمة: محمد ناجي بن عمر، منشورات إفريقيا الشرق المغرب 2002، ص. 141 - نفسه، ص. 141. 86

87 - ET-TABYI, *Miscelanea Marroqui*. Instituto General Franco para la Investigación Hispano-Arabe, 1953, p. 58-59.

88 - Cologan a Abarzuza, Despacho no, 37, 4 de Febrero de 1903. *A.G.A.* África, Sección Histórica (Marruecos), Caja 164 / Ex. 2.

89 - Telegrama de Cologan a Abarzuza. 2 de Febrero de 1903. *A.G.A.* África, Sección Histórica (Marruecos). Caja 164/ Ex. 2F.

- من كبير الجيش بوجدة عبد الرحمان بن عبد الصادق إلى نائب السلطان الحاج أحمد الطريس، مؤرخة في متم ذي الحجة 1323 الموافق 24 فبراير 1906. أوردها: عكاشة برحاب، السلطان والثائر الفتان: صراع السلطة في شمال شرق المغرب (1902-1907). دار القلم، ط. 1، الرباط، 2018، ص. 426-427.

أمسه وضربنا مداشرهم المرئية من البحر من رأس ورك إلى بني سعيد (...)، وجملة المداشر المضروبة سبعة، بدون الخارجة عنها، منهم مدشر من بني شيكر، وخمسة من بني بوكفر، وواحد من بني سعيد، وما رجعنا لملييلة إلا بعد غروب الشمس (...)»⁹¹.

وقامت سفن البحرية المخزنية بدور فعال فيما يخص تزويد المحلة المخزنية بالمؤن، وفي هذا الصدد، عملت باخرة "التركي" و"الحسني" على نقل المواد الغذائية إلى ملييلة لصالح قوات الأمير مولاي بوبكر، التي عسكرت في الضواحي القريبة من ملييلة⁹². كما اتصل أيضا الطريس بالوزير المفوض الإسباني "بابيريا"، يعلمه بأن تاجرا فرنسيا قام بشحن 40 من الخيول لصالح المعسكر المخزني في مرتشيك، قصد شحنها إلى سفينة حربية مغربية كانت تعبر من تلك المياه، وفي حالة ما إذا لم يجده، التمس السماح له بالتزول في ملييلة. وقد وصلت الباخرة الفرنسية، في 27 يونيو، بتزامن مع مرور "السعيدي"، غير أنه بسبب الظروف الجوية الصعبة، سمح الجنرال "مارينا" للسفينة بالتزول في خليج ملييلة⁹³.

ومن جهته، عمل الروكي بوحمارة بدوره على استغلال المجال البحري في تمرده، فاخياره "سلوان" كمركز لحركته ينم عن إستراتيجية كبيرة، باعتباره نقطة اتصال مع الأوربيين⁹⁴. فتوافد عليه العديد من الأجانب والمغامرين، انطلاقا من البحيرة الصغيرة أو من ميناء ملييلة⁹⁵؛ كما استقبل عدد من السفن الأوربية المحملة بالأسلحة⁹⁶. وفي نفس الوقت، اتصل بشركة فرنسية قصد تشييد مرسى في البحيرة الصغيرة، مما جعل دار النيابة تكاتب وزير الخارجية عبد الكريم بن سليمان في هذا

- رسالة من القائد أحمد بن الطاهر إلى الطريس، مؤرخة في 29 صفر 1324 الموافق 24 ابريل 1906. أوردتها: نفسه، ص. 440-441.

⁹² - PASTOR GARRIGUES, *España y la apertura*, op. cit., p. 517-518.

⁹³ - MALDONADO, *El Rogui*, op. cit., p.314

⁹⁴ - Édouard DÉCHAUD, « L'Espagne au Maroc: Melilla et les présides » (2^{ème} partie). *Bulletin de la Société de Géographie Commerciale de Paris*, t. XXX, n° 1, Janvier 1908, p. 15.

⁹⁵ - محمد أمطاط، *الجزائريون في المغرب ما بين (1830-1960): مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر*. ط. 1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2008، ص. 140.

- العربي الورياشي، *الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان وأخبار مقاومته هو وإخوانه الريفيين لأبي حمارة ثم الإسبان*. ط. 1، المطبعة المهدية، تطوان 1976، ص. 120.

الأمر، مخبرة إياه" (...) أن الفتان دمره الله مستقر الآن في قصبة سلوان من كلعية، وأنه اتخذ يدا مع كمبانية فرنسية لفتح مرسى هناك تسمى بالبحر الصغير (...). وقد شرعت الكمبانية المذكورة في خدمة ما ذكر بنحو 150 من العَمَلَة ليلا ونهاراً"⁹⁷.

ونتيجة لتداعيات المشروع على سلطة المخزن، طالب الطريس من وزير الأمور البرانية بن سليمان، بإصدار أمره للجيش المخيم بوجدة قصد التحرك نحو البحر الصغير وهدم ما تم تشييده هناك⁹⁸. وبعد تأكد المخزن المركزي من تعاون الشركة الفرنسية مع الروكي، اقتضى نظره "تعزيز المحلة السعيدة على قضاء الغرض بتوجيه بابور لتلك الكوشطة، بمدافع ومدد تحت رياسة السيد أحمد بن الطاهر نائب كبير العسكر السعيد بوجدة، بقصد التطواف (الحراسة) بمياه تلك الناحية، وصرف وجهة الاهتمام بما يمكن التوصل إليه به لطرد الكمبانية المذكورة من هنالك، وهدم ما أحدثته من البناء حتى لا يبقى له أثر"⁹⁹.

وأمام رغبة الروكي في اتخاذ شواطئ البحيرة الصغيرة بوابة لحركته على الخارج، عملت الوحدات البحرية المخزنية على تقزيم طموحه، حيث عملت باخرة التركي والسعيد على تهديد المصالح الحيوية للروكي فيها¹⁰⁰، والتصدي للسفن الأوربية التي كانت تزود بوحماره بالسلاح¹⁰¹. إذ تقاطرت السفن الأوربية المحملة بالأسلحة على البحيرة الصغيرة، على نطاق واسع¹⁰²، وقامت البواخر الفرنسية؛ من مثل: "إدير" و"زينيت"، بتنظيم عدة رحلات بين البحيرة الصغيرة والموانئ الجزائرية، محملة بشحنات الأسلحة والذخائر¹⁰³. وفي هذا الاطار، أخبر أمين ديوانة المخزن بمليلية

- رسالة من الطريس إلى وزير الأمور الخارجية عبد الكريم بن سليمان، مؤرخة في 14 شوال 1323 / 12 دجنبر 1905، أوردها: برحاب، **السلطان والثائر**، م. س، ص. 403-404..

- رسالة من الطريس إلى وزير الأمور الخارجية عبد الكريم بن سليمان، مؤرخة في 23 شوال 1323 / 21 دجنبر 1905 م أوردها: برحاب، **السلطان والثائر**، م. س، ص. 405.

- رسالة من نائب الطريس إلى كبير الجيش بوجدة، مؤرخة في 2 ذي الحجة 1323 الموافق 28 يناير 1906 م أوردها: برحاب، **السلطان والثائر**، م. س، ص. 416-417.

¹⁰⁰ - MALDONADO, **El Rogui**, *op. cit.*, p. 303.

- الورياشي، **الكشف والبيان**، م. س، ص. 65. ¹⁰¹

¹⁰² - Gabriel De MORALES, **Datos para la historia de Melilla (1497-1907)**.
Publicación del Centro asociado UNED de Melilla, Imp. Copistería la Gioconda,
Granada 1992, t. 1, p. 352.

¹⁰³ - *Ibid.* p. 352.

عن تحركات سفينتين فرنسيتين بساحل الريف، كانتا بصدد إفراغ شحنتيهما من الأسلحة، حيث أنه "قبله بأيام 3 قدموا اثنين بابورات فرنسيس، أحدهم حربي صغير، والآخر تجاري (...)"، ذكروا لنا أناس أنه نزل هناك مائة صندوق قرطاس¹⁰⁴.

كما توافد المغامرون البلجيكيون على المنطقة، عقب حصولهم على امتيازات من الروكي مقابل تزويده بالأسلحة والذخيرة¹⁰⁵؛ فقامت شركة "كوكريل"، من لياج لتهريب الأسلحة إلى ساحل الريف، والذي البلجيكية، باستئجار اليخت "زينيت" قام بإفراغ مئات البنادق من نوع "كرا"، ومدفعين من نوع "نوردنيلد"، مع 500 قذيفة، و 400.000 وحدة من الخراطيش¹⁰⁶. كما نجح الروكي في استقطاب المهربين من ألمانيا¹⁰⁷، والسويد؛ إذ أنزلت الباخرة السويدية "هيلين"، في 23 يناير 1906، ذخائر حربية تقدر قيمتها بمليون بسيطة¹⁰⁸.

وهكذا تمكن بوحمارة، اعتمادا على التهريب البحري، من تسليح قواته¹⁰⁹. فضايقت هذه العمليات مخاوف السلطات الإسبانية، التي رصدت كثافتها، فبدأت تشتكي أمرها إلى المخزن، (...) "فقد ورد تلغراف على نائب الصنيول من حاكم مليلية بما جلبته تلك الكمبانية من الآلات الحربية، فمن ذلك مدفعان بآلتهما، مع عدد من المكاحل الخماسية، وصناديق الكور والقرطوس، وإن جميع ما ذكر دفع لأحد المكلفين من قبل الثائر (...) "¹¹⁰.

إن التسهيلات التي قُدمت للروكي، قصد التزود بالسلح والمؤن من الأسواق الجزائرية، في الوقت الذي ادعت فيه فرنسا أنها تسلك سياسة الحياد بين المتنافسين

- رسالة موجهة من الأمين محمد فرطوط إلى الطريس، مؤرخة بـ 29 صفر 1324 الموافق 24 104
ابريل 1906. أوردتها: برحاب، السلطان والثائر، م. س. ص. 437-438.

105 - Éd. DÉCHAUD, "L'Espagne au Maroc (2^{ème} partie), op. cit., p. 16.

- رشيد يشوتي، إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان (1909-1912): مساهمة في دراسة
العلاقات المغربية-الإسبانية في بداية القرن العشرين. منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي،
مطبعة ربانيت، الرباط 2012، ص. 90.

107 - Éd. DÉCHAUD, "L'Espagne au Maroc (2^{ème} partie), op. cit., p. 07.

108 - MALDONADO, El Rogui, op. cit., pp. 291-290.

- عبد العزيز بن عبد الله، سبتة ومليلية معقلان مغربيان أماميان على البحر الأبيض المتوسط. 109
منشورات كاب تور، الرباط 1996، ص. 110.

- رسالة من أحمد بن محمد الطريس إلى والده المندوب السلطاني بطنجة، بتاريخ 3 ذي 110
خ. ع. بتطوان، مح. 86/ 108. الحجة 1323 هـ/ 29 يناير 1906

على السلطة في المغرب، قد أثارت المخزن؛ فكان رده حازما، بإرساله باخرة "التركي" مزودة بمدفعين لضرب المنشآت التي أحدثتها الشركة الفرنسية¹¹¹، والتي نفذت تهديدها فعلا. وكان هذا الحادث على وشك أن يؤدي إلى أزمة بين الطرفين، حينما قام قائد "التركي" بفتح النار على السفينة الفرنسية، التي كانت تقوم بتهريب الأسلحة والذخيرة "لأعداء السلطان"¹¹².

كما يظهر دور البحر في الحملات المخزنية على الريف، من خلال توظيف هذا الطريق في عمليات الجلاء؛ فأمام الصعاب التي واجهتها المحلة التي كانت مرابطة في الريستينكا (البحيرة الصغيرة)، سيضطر العديد من أفرادها إلى الفرار واللجوء إلى مليلية، بعدما حاصرتها قوات الروكي¹¹³. فأمام إغفال القوات السلطانية بالريف الشرقي، "وبعد سنة كاملة مرت عليه في محن وشدائد في الجزيرة، صدرت إليه الأوامر من فاس بدخوله مليلية ليحمل من هناك على البواخر إلى موانئ المغرب، وكان ذلك بالاتفاق مع إسبانيا"¹¹⁴، التي حشدت على ساحل الجزيرة عددا من سفنها، خاصة الفرقاطة "نومانسيا"¹¹⁵، التي تكلفت بنقل عناصر المحلة إلى مليلية¹¹⁶؛ ومنها توجهت بحرا إلى العرائش¹¹⁷.

كما أن وقوف بعض قبائل قلعية (مزوجة وفرخانة)، إلى جانب قوات المخزن ضد الروكي، اضطرها للجوء إلى مليلية بعد انهزام قوات المخزن؛ وهو ما دفع أحمد الركينة (مبعوث المخزن لشرق المغرب)، يطلب من النائب محمد الطريس الاتصال بالسفير الإسباني لتسهيل مسألة قبول أهالي قلعية في مليلية، وجاء في رسالته إليه، ما يلي: "(...) وبعد، فمقرر لديكم ما أبلاه بعض جُوار مليلية بأحواز قبائلها، خصوصا مزوجة وفرخانة إخوان الطالب السيد مُحمدين أزريوح، من البلاء الحسن (...)",

- عكاشة براحاب، المغرب وفرنسا: من سياسة حسن الجوار إلى الاحتلال العسكري (1901-1911 - 1907). مطبعة الرباط نيت، الرباط 2007، ص. 71.

¹¹² - MALDONADO, El Rogui, *op. cit.*, p. 289.

¹¹³ - Francisco Manuel PASTOR GARRIGUES, **España y la apertura de la cuestión marroquí (1897-1904)**. Tesis doctoral, Universitat de Valencia Facultad de Geografía e Historia, Departamento de Historia Contemporánea, 2005, p. 40.

¹¹⁴ - ET-TABYI, **Miscelanea Marroqui**, *op. cit.*, p. 198.

¹¹⁵ - *Ibid.*, p. 198.

- الورياشي، الكشف والبيان، م. س، ص. 68-69.

- أرنو، زمن المللات السلطانية، م. س، ص. 141.

وبعد تغلب عليهم الفساد (...) لم يسعهم إلا أن هرعوا للحدادة المجاورة لهم، فحبك بورك في مجادتكم أن تكلموا بآشدر الصبنيول بإصدار أمره للحكام المكلفين عندهم بالحدادة (...)، ويستوصوا بهم خيراً¹¹⁸.

عراقيل البحرية المخزنية في ساحل الريف

واجهت الوحدات البحرية المخزنية في ساحل الريف، مجموعة من المعوقات، ولعل أبرزها غياب موانئ تلجأ إليها لتكون قاعدة لعملياتها، باستثناء مينائي طنجة وتطوان؛ لكنهما كانا بعيدين عن مسرح العمليات، لذا اضطرت هذه الوحدات في مناسبات عديدة اللجوء إلى ميناء مليلية المحتلة أو موانئ الغرب الجزائري. فالبخرة المخزنية "الحسني" التي غادرت طنجة وعلى متنها الشريف مولاي بوبكر مع ألف عسكري، لم تتمكن من إنزال عناصر المحلة في شواطئ الريف لسوء الأحوال الجوية، فطالب المندوب السلطاني في طنجة من الحكومة الإسبانية الإذن بالإنزال القوات وأمتعتهم في مليلية، للقيام بمهمتها المتمثلة في معاقبة "المتمردين" الريفيين المتعاونين مع الروكي، واستعادة سلطة المخزن¹¹⁹.

لم يكن استعمال ميناء مليلية متاحاً دائماً، ففي بعض الأحيان كانت السلطات الإسبانية تستعمله كورقة ضغط ضد المخزن، أو قد ترفض السماح باستخدامه نهائياً رعيًا لمصالحها الاستراتيجية في المنطقة. وفي هذا الصدد، وضع تمرد بوحمارة الدبلوماسية الإسبانية في مآزق بعد "مساندة" قبائل الريف الروكي ضد المخزن؛ فطلب الأمر من السلطات الإسبانية أن تكون حذرة في موقفها، لذا ساعدت القوات المخزنية بتوفير الذخيرة لها، لكنها رفضت استعمال قوات السلطات ميناء مليلية، كقاعدة لتوجيه الضربات إلى أنصار الروكي¹²⁰. كما تحفظت السلطات الإسبانية عن مسألة لجوء القوات المخزنية إلى مليلية، بعدما أبلغ مبعوث الروكيين الحاكم

- رسالة من أحمد الركينة إلى دار النيابة، مؤرخة في 12 رمضان 1321هـ / 2 دجنبر 1903م،¹¹⁸ أوردها: برحاب، **السلطان والثائر**، م. س، ص. 182.

¹¹⁹ - Telegrama cifrada de Emilio de Ojeda a Pio Gullón, 22 de Marzo de 1898.

A.G.A. África. Sección Histórica (Marruecos), Caja 199.

¹²⁰ - PASTOR GARRIGUES, **España y la apertura**, op. cit., p. 40.

العسكري لمليلية، أنه لن يتسامح مع إجلاء قوات السلطان عن طريق البحر إلى مليلية¹²¹.

رغم أهمية دور الوحدات البحرية المخزنية في هذه الحملات، فإنها لم تكن كافية سواء من حيث العدد أو الفعالية، للقيام بدورها في ساحل الريف¹²²؛ مما اضطر معه المخزن إلى الاستعانة بخدمات السفن الأجنبية، حيث وصلت إلى البحيرة الصغيرة سفينة بريطانية استأجرها السلطان وعلى متنها 500 من المقاتلين الجدد لتعزيز القوات المخزنية¹²³. كما سيلجأ المخزن إلى خدمات الوحدات الأجنبية، لإجلاء قواته المتمركزة في البحيرة الصغيرة بعد الهزائم التي ألحقتها بهم قوات الروكي، معتمداً في ذلك على الفرقاة الإسبانية "نومانسيا"¹²⁴.

ولعل ضعف فعالية الوحدات البحرية للمخزن، تكون قد حدت من أهمية حملاته على الريف، بل جعلت أفردتها يواجهون مجموعة من الصعاب، لعجزها على تمويل المحلة؛ مما أزم وضعية الجنود الذين اضطروا إلى بيع أسلحتهم وذخائرهم نتيجة للمحن والضيق الذي عاشته المحلة¹²⁵؛ فاصدر المخزن أوامره بدخولها إلى مليلية، لتُحمل من هناك على البواخر إلى موانئ المغرب¹²⁶.

كما أن دخول سفن المخزن المحملة بالموءن إلى ميناء مليلية، لم يكن حراً، فقد كان عليها دفع الرسوم كأى سفينة تنقل البضائع. رغم تأكيد مسؤولي الجمارك المغربية، على أن السفن كانت تقوم بمهام عسكرية، وهو ما يجعلها معفية من أداء هذه الرسوم¹²⁷.

محدودية فعالية الوحدات البحرية المخزنية

واجهت التدابير المخزنية المتخذة للتحكم في مجاله البحري عدة عراقيل وهي في مهدها؛ فرغم صفقات المخزن لشراء الوحدات البحرية لتشديد حراسة السواحل، إلا

121- Ibid. p. 1447.

- برادة، الجيش المغربي، م. س، ص. 303. 122

123 - MALDONADO, El Rogui, op. cit., p. 313.

124 - ET-TABYI, Miscelanea Marroqui, op. cit., p. 198.

125 - MALDONADO, El Rogui, op. cit., p. 335

126 - ET-TABYI, Miscelanea Marroqui, op. cit., p. 198.

127 - PASTOR GARRIGUES, España y la apertura, op. cit., p. 517-518.

أن تماطل الأوربيين في تسليمها، قوض جهوده. فمثلا، مكثت سفينة "البشير" معطلة في ليفورنو الإيطالية قرابة 18 شهرا بعد الانتهاء من صنعها¹²⁸، وعند وصولها إلى ميناء طنجة، حالت مجموعة من الظروف دون مباشرة عملها في ساحل الريف. كما تأخر إرسال سفينة "التركي" المكلفة بحراسة ساحل الريف، بسبب "الكرنطينة" (الحجر الصحي)¹²⁹؛ وبعد ذلك كان من اللازم إرسال السفينة المذكورة إلى مدينة "قادس" الإسبانية قصد إصلاحها. ومباشرة عند عودتها، ستتوجه إلى طرفاية كي تعوض سفينة "الحسني"، التي استوجب إصلاحها بالخارج كذلك، ولم تُعد (سفينة التركي) إلى الريف إلا بعد رجوع "الحسني" إلى طرفاية¹³⁰.

وهكذا، يظهر أنه بعدما استلم المخزن هذه الوحدات سرعان ما تعطلت؛ إذ مكثت سفينة "الحسني" معطلة في مرسى طنجة لسنوات طويلة¹³¹. وعلى غرار باقي الوحدات، لم تنج سفينة "بشير الإسلام" بدورها من لعنة العطالة، بعدما تعذر استغلالها، إثر تعرضها لخسائر فادحة جراء تغير أحوال الطقس، وانعدام الصيانة¹³². وقد ألزمت هذه الأعطاب، التي طالت الوحدات البحرية المخزنية، التوقف عن الخدمة مؤقتا. فضلا عن قلة الإمكانيات، التي كانت تجبر هذه الوحدات على العودة إلى قاعدتها بطنجة للتزود بالفحم والتموين؛ مما جعل مهمتها في ساحل الريف غير منتظمة¹³³.

والأدهى من ذلك، أن قيادة هذه المراكب تهاونت في القيام بمهامها على الوجه المطلوب، نتيجة الفساد الإداري؛ كما كان الشأن بالنسبة "للحسني"، الذي تجاهل طاقمه المهمة التي أرسل من أجلها إلى ساحل الريف، وخلد إلى الراحة في

- سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، م. س، ص. 517. ¹²⁸

- محمد الأمين الباز، المجلس الصحي الدولي في المغرب 1792-1929. منشورات كلية ¹²⁹ الآداب بالرباط، ط. 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2000، ص. 174.

- محمد أونيا، "القرصنة الريفية (1856-1898): الأسطورة والواقع". ضمن: الجهاد البحري ¹³⁰ في التاريخ العربي الإسلامي. منشورات جمعية أبي رقراق، سلا 1999، ص. 341.

- سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، م. س، ص. 674. ¹³¹

- نفسه، ص. 671. ¹³²

- عكاشة بרחاب، تدبير الأزمات بين المغرب وفرنسا: قضية برج كبدانة بساحل الريف ¹³³

1901. ، مطبعة ربا نيت، ط. 1، الرباط 2008، ص. 39

طنجة¹³⁴. ومما زاد الطين بلة إسناد قيادة هذه السفن إلى الأوربيين؛ إذ تولى الألمان قيادة "التركي"¹³⁵، والإسبان كُلفوا بقيادة "الحسني"¹³⁶، بينما تمكنت إيطاليا من الظفر بقيادة البشير¹³⁷، ودعمت الدبلوماسية الإسبانية المسعى الإيطالي؛ لكونه يخدم مصالحها، من خلال استبعاد المنافسين البريطانيين والفرنسيين الأكثر منافسة لإسبانيا في المغرب¹³⁸. واعتبرت السلطات الإيطالية أن النجاح الذي حققته مفوضيتها، في إسناد قيادة سفينة البشير إلى قبطان إيطالي، وسيلة برهنت من خلالها على أنها طرف معني بـ "القضية المغربية"، وبكل ما له علاقة بتوازن القوى في حوض المتوسط¹³⁹. قبل أن تغدو قيادة جميع هذه المراكب إلى الألمان¹⁴⁰.

- جاء في رسالة، موجهة من مولاي عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، ما يلي: ¹³⁴ "خديمتنا الأرضي النائب الحاج محمد بن العربي الطريس، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله. وبعد، فقد أخبرني كبراء المحلة السعيدة بالريف بأن البابور السعيد الحسني لا يأتيهم إلا مرة واحدة في الشهر (...)، مع أنه لا يخفك أن المخزن قومه بكل ما يلزمه للسفر، ويصير عليه الصوائر الكثيرة في ضرورياته اليومية وغيرها على أن يكون عمله ورديا كوشطى بالريف يترصّد الفلايك التي تحمل الكنطربانض، والمراكب التي تمر بسواحل من ذلك. ويفضل المحلة المنقطعة هناك مرة أخرى على أن يترك الفساد المشتغلة به تلك الفلايك على حاله، وهي لازالت غادية ورائحة من الريف وتطوان بما هو أكبر مما كان (...). ومع ذلك، بلغنا أنها منقطعة لإيالتها البابور إلا مرة في الشهر؛ فتبين إذًا من تساهل الرايس، وإخلاده إلى الراحة بالإقامة في طنجة، وإذا ألزمه التوجه يعتذر له بما ظاهره الصحة، فتقبله منه، وتتركه على تساهله، والحال يصير عليه بغير فائدة ولا طائل؛ وعليه، فنأمرك أن تتكلم معه". مؤرخة بـ 14 شوال عام 1316 هـ/ 25 فبراير 1899 م، خ. ع. تطوان، مح. 74/17.

(، وهو بحار ألماني عمل في البحرية Karow Leonard كاروف ليونار (- كان من أبرزهم¹³⁵ المغربية في عهد مولاي عبد العزيز من سنة 1899 إلى سنة 1908، ولد سنة 1872 واشتغل في سن مبكرة في البحرية التجارية، وفي سنة 1899 التقى في طنجة ببشار ألماني "مينير" (، الذي كان يشتغل كرايس لبابور سيدي التركي، حيث أقنعه بمزايا العمل في Miebner) المغرب، وعهدت إليه قيادة سيدي التركي عوض "مينير" الذي أوكلت للأخير قيادة باخرة البشير. لمزيد من التفصيل يُنظر: ثريا برادة، **معلمة المغرب**، ج. 20، ص. 6717-6718-6719-6720.

- سيمو، **العلاقات المغربية الإيطالية**، م. س، ص. 516.¹³⁶

- وصلت باخرة "البشير" إلى طنجة يوم 2 نونبر 1899، يقودها قبطان إيطالي هو كويجي¹³⁷ مع شخص تطواني يشغل وظيفة نائب الأميرال اسمه عبد الكريم (Luigi Montano) (مونتانو زيوزيو. يُنظر: نفسه، ص. 517.

138 - PASTOR GARRIGUES, *España y la apertura*, op. cit., p. 623.

139 - سيمو، **العلاقات المغربية الإيطالية**، م. س، ص. 516.

140 - سيمو، **الإصلاحات العسكرية**، م. س، ص. 331.

لقد شكل تدخل الأوربيين في السفن المخزنية، مظهرًا آخر من مظاهر التنافس الإمبريالي حول المغرب، والذي كان من شأنه أن ينسف جهود المخزن للتحكم في ساحل الريف، خاصة بعد تواطؤ القباطنة الأجانب، الذين أسندت إليهم قيادة السفن التي كلفت بمراقبة السواحل، مع بعض المهربين والمغامرين؛ فالمغامر الفرنسي "ال. ساي" الذي قام بدور كبير في تنشيط التهريب في البحيرة الصغيرة، أثناء تمرد الروكي، كانت له صداقة مع "زاروكو" الألماني، الذي شغل منصب قبطان سفينة "التركي"¹⁴¹.

وأمام هذه الأعطاب التي لاحقت الوحدات البحرية المغربية، وعدم فعاليتها، بالإضافة إلى الصعوبات المالية التي كانت تتخبط فيها خزانة الدولة، بدأ المخزن يفكر في التخلص منها¹⁴²، وذلك بإيعاز من القوى الأوربية؛ بهدف إغراق المخزن في مستنقع من المشاكل. وبدون شك، فقد ساعدت دسائس العملاء الأوربيين، ورجال الأعمال الطامعين، على بروز فكرة تخلص المخزن من وحدات أسطوله¹⁴³. وهكذا، راح عملاؤهم يراقبون بدقة كل الملبسات المحيطة بإعادة بيع "البشير"، التي آلت صفقتها إلى شركة برتغالية، قامت بها لصالح حكومة كولومبيا في مارس 1902، مقابل 700000 بسيطة¹⁴⁴. وهكذا، لم يتبق، مع أواخر القرن التاسع عشر، من الأسطول البحري الذي علق عليه المخزن آماله، سوى باخرة التركي¹⁴⁵.

وبذلك، لم يتمكن المخزن من الاستفادة من مجاله البحري بشكل كبير، بسبب عجز أسطوله على فرض هيمنته على السفن الأوربية، التي أصبحت أكثر تطورًا وتسليحًا، رغم محاولات المخزن تحديث قواته البحرية، التي شكلت مفارقة تاريخية انتصر فيها منطق الوضع القائم على محاولاته الإصلاحية، لتذهب مجهوداته سدى¹⁴⁶. ولم يتمكن من التصدي لهذه الأوضاع، خاصة في ظل اتساع رقعة المجال اللازم مراقبته عن كثب، وطبيعة الشواطئ الريفية، وتعدد المخابئ الصغرى. كل ذلك أعاق الجهود

¹⁴¹- MALDONADO, El Rogui, *op. cit.*, p. 287.

¹⁴²- محمد بن أحمد أكنسوس، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا السجلماسي. تقديم

وتحقيق وتعليق: أحمد بن يوسف أكنسوس، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 1994، ج. 1،

ص. 300.

¹⁴³- سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، م. س، ص. 671.

¹⁴⁴- نفسه، ص. 673.

¹⁴⁵- برادة، الجيش المغربي، م. س، ص. 307.

¹⁴⁶- سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، م. س، ص. 674.

المبدولة في هذا الصدد، وقلص من الآمال المعقودة على الوحدات البحرية في ساحل الريف¹⁴⁷.

خلاصة

لقد عجز المخزن عن تنفيذ إستراتيجيته البحرية في ساحل الريف؛ فأقدمه على إصدار قرار إبطال الجهاد البحري، لم يُعزز بتشديد حراسة سواحله المتوسطية، بل قام بتوزيع قطع أسطوله البحري على إيلات شمال إفريقيا، رغم المحاولات التي قام بها في وقت متأخر بشراء بعض القطع البحرية، قصد محو مخلفات "القرصنة" في ساحل البحر الأبيض المتوسط، التي أصبحت تتحكم بشكل كبير في تعامله مع دول الضفة الشمالية لحوض المتوسط. إن نشاط الأسطول المخزني لم يكن ذا فعالية كبرى، لعدم كفايته، وضعف قوته العسكرية، وبطئه في التنفيذ لمواجهة تحركات "الفلايك" الريفية، وتقزيم حركة التهريب، وكذا للقيام بدور فعال في الحركات المخزنية إلى الريف، عندما أدرك المخزن أهمية الطريق البحري في نقل جنوده، لتقليل المسافة والزمن وتجاوز اكراهات الطريق البري.



(1) الفلاح الذي يشتغل في أرضه لقاء خمس المحصول (المترجم)

(2) جمع ليف وهو نمط من التحالف في الريف

¹⁴⁷ - محمد كنيب، المحميون. منشورات كلية الآداب بالرباط وباب أنفا، ط. 1، مطبعة دار أبي

رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2011، ص. 220.

صدر حديثا

صدور مذكرات المجاهد الهاشمي الطود..
"خيار الكفاح المسلح" حوار سيرة ذاتية
من إعداد الأستاذ الباحث أسامة الزكاري



صدرت مؤخرا مذكرات المجاهد الهاشمي الطود، في شكل عمل تجميعي ضم وثائق
دقيقة وشهادات غير مسبقة لفترة انتقال تاريخي عاشه المغرب ومحيطه العربي خلال
عقود النصف الأول من القرن 20.

تشكل الوعي الوطني والسياسي لدى النخبة الريفية في بداية القرن العشرين (آل الخطابي نموذجا)



عبد الحميد الرايس

أستاذ باحث مهتم بتاريخ ومجتمع الريف

استطاعت حركة المقاومة التي نظمها الأمير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في عشرينيات القرن المنصرم أن تجسد أروع معاني التحدي والمجد الذي أبانت عنه الشعوب المستضعفة في تلك الحقبة التاريخية، وقد أثارت أحداث ووقائع المقاومة الريفية بشمال المغرب وتداعياتها أقلام العديد من الدارسين والمؤرخين عربا وأجانب الذين اهتموا بإبراز معالمها ودلالاتها، وبالرغم من كثرة الإصدارات وتنوع مصادرها ومشاربها ومقارباتها فإن موضوع المقاومة الريفية احتفظ بقيمته وأهميته كموضوع

للتأمل والتفكير وإعادة القراءة، وإلى يومنا هذا تنشر كتب جديدة تحمل رؤى مختلفة ومتجددة، بقراءات خاصة فيها الكثير من الجدة والأصالة.

يعود هذا حسب نظرنا إلى عمق وغنى هذه التجربة التحريرية التي قادتها منطقة شمال المغرب ضد قوى الاستعمار، خصوصا في مستوى تفرداها في إبداع أشكال وصيغ المقاومة مما جعل منها نموذجا متميزا مقارنة مع باقي حركات التحرر والمقاومة التي خاضتها الشعوب ضد الاستعمار في مختلف بقاع العالم.

في هذا السياق العام نروم في هذه الورقة تسليط الأضواء على بعض الجوانب المنسية في فكر المقاومة وتحديدًا عند قائدها الأمير الخطابي. فعلى الرغم من تعدد الدراسات التي تطرقت لهذه النقطة إلا أن المؤرخين تعاملوا معها بكيفيات مختلفة وفق مسارات إيديولوجية متباينة، مما يجعل مسألة تشكل الوعي الوطني والسياسي لدى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي موضوعا في حاجة إلى مزيد من التوضيح.

منطلق أولي

من المعلوم أن الزعيم الخطابي أمضى أزيد من عقد من الزمان يشغل مع السلطات الأسبانية بمليلية، وقد اندمج كليا مع دواليب الإدارة الأسبانية واطلع على خباياها، إذ تنقل في مناصب عدة ومهام متعددة، بدأ كمعلم بالمدرسة الإسلامية التي استحدثها الأسبان بمليلية منذ خريف 1906 للمغاربة المقيمين بالمدينة، ثم معلما للأمازيغية والعربية للضباط الأسبان وفي نفس الوقت اشتغل في المجال الصحفي كمسؤول عن العمود العربي في جريدة تلغراف الريف من 1907 إلى 1915، كما عين سكرتيرا مترجما بمكتب الشؤون الأهلية بمليلية، وفي سنة 1913 سيعين قاضيا للشؤون الأهلية، ليرقى بعد ذلك في منصب قاضي القضاة بالناحية.

لقد كان من شأن هذا النشاط المتعدد الأشكال أن يكسبه تجربة ميدانية عملية ونظرية، وإطلاعا واسعا ومعرفة دقيقة بتفاصيل المجتمع الأسباني وإدارته، اكتسب صداقات ومكانة اجتماعية مرموقة، جعل منه إطارا شبه مندمج كليا في المجتمع

الاسباني يوحى وكأنه جد مقتنع بالسياسة الاسبانية وبعقد الحماية المفروض على المغرب، كيف لا وهو يعمل ويستثمر طاقاته لإنجاح سياسة اسبانيا وخططها، ولكنه بعد حين يتحول إلى موقف مضاد بمواقف متناقضة، أي إلى عدو رافض للمشروع الاسباني السياسي والعسكري، كيف يمكن تفسير ذلك ؟

فهل كانت القطيعة نتيجة تراكم أسباب وعوائق مترادفة ؟ هل استيقظ الشعور الوطني لدى الزعيم بعد طول سبات ؟ أم أن هناك عوامل ثانوية متعددة ساهمت بتراكمها وتفاعلها في توجيه مسار وعي وفكر القائد محمد بن عبد الكريم ؟

اعتقد جازما أن لا أحد يمتلك جوابا نهائيا وسهلا، لذلك ، فكل مقارنة إلا ولها جانب غامض عصي على الفهم، ونحن هنا أمام محاولة تفسيرية لتحول في السلوك والمواقف/ موقف سياسي وفكري، هذا التحول الذي لم ينحصر ضمن إطار المستوى الذاتي المحدود المتمثل في شخص قائد المقاومة، بل ترتبت عنه وعليه أحداث سياسية تاريخية أرخت بظلالها على المحيط المحلي الريفي وكذا على المستوى الوطني بل وحتى الدولي، ولهذا تعددت القراءات واختلفت التأويلات.

المسار الأول: التحول السياسي والفكري / تعبير عن طموح شخصي في السلطة والسيطرة

كثيرة هي الكتابات والمقالات المعبرة عن هذه القراءة الكولونيالية التي تنفي كل صفة للروح الوطنية التحررية عن حركة المقاومة ، خاصة عن قائدها وتجرده من كل حس وغيرة وطنية، وترجع أحداث المقاومة ومنجزاتها الميدانية والسياسية إلى الطموحات المتعاضمة للأمر الخطابي الذي يتطلع إلى السلطة، مدعية أنه بعدما أسندت الإدارة الاسبانية منصب خليفة السلطان بتطوان للمهدي بن إسماعيل من الأسرة العلوية، اندرجت حركته ضمن سياق الثورات المغربية ضد السلطنة والمخزن.(1)

وفي نفس السياق يذهب "دولا شاغير": «بأن مقاومة الريف ما هي إلا انتفاضة ضد الشرعية شأنها شأن الزعامات الأخرى كنموذج الريسوني والتي سرعان ما بدأت تتلقى الدعم الخارجي من أعداء فرنسا خاصة الألمان ومعها الشركات المعدنية».¹⁴⁸

المسار الثاني: التغيير السياسي الفجائي موقف برغماتي أملته ظروف ميدانية وسياسية

ينطلق المؤرخ المغربي جيرمان عياش¹⁴⁹ في أطروحته عن حرب الريف بالتركيز على الجذور والمقدمات العامة الممهدة لقيام حرب الريف كما يسميها، ويتناول فيها بكثير من التدقيق تفاصيل ومحطات العلاقات الريفية /الريفية و الريفية/الاسبانية، وكذا علاقة آل الخطابي مع الريفيين والأسبان ليخلص في النهاية بناء على قراءته وتوجهه النظري العام واعتمادا على الوثائق الأجنبية وحدها إلى أن السياق العام وحدة الأحداث وتطور مجراها هو الذي جعل القائد محمد بن عبد الكريم يركب قطار المقاومة، ويأخذ مشعلها، لقد جاء في لحظة معينة ومحددة ليملاً شغورا في القيادة، ويستدل المؤرخ بذلك استندا على تأويل خاص لبعض الأحداث ومواقف لمحمد بن عبد الكريم السياسية، ألا وهو حرصه الشديد على التفاوض مع الأسبان، ألم يكن حسب جرمان عياش وإلى حدوث معركة أدهار أوبران يتفاوض سريا مع الأسبان، وأنه لو كان حاضرا في أوبران لما حدثت المواجهة مع الأسبان ؟

3/ المسار الثالث: وطنية متأصلة عجلت الأحداث والمواقف السياسية للأسبان في إبرازها

بخلاف المواقف والتفسيرات المذكورة سلفا تذهب العديد من الكتابات التاريخية الاسبانية وخاصة العسكرية منها التي ألفتها ضباط كبار من الجيش عقب انتهاء

¹⁴⁸ - Jacques Ladreit De la Charrière : Le rêve D' Abdelkrim, Edi. coloniales Paris 1925. p :113-115

¹⁴⁹ - جيرمان عياش : أصول حرب الريف، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التسماني منشورات سمير، الرباط. ص 344 .

الحرب/ المقاومة إلى الإقرار والاعتراف بالمواقف الوطنية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي. فالجنرال الاسباني " مانويل كوديد"¹⁵⁰ في كتابه المغرب ومراحل التهدة يستعرض المهام المختلفة التي مارسها محمد بن عبد الكريم ليخلص في نهاية تحليله إلى أن أسباب قطيعته مع الأسبان تعود لأسباب محددة وهي:

أ- المواقف العدائية تجاه فرنسا؛

ب- أحلامه التحررية وإيمانه باستقلال الريف؛

ج- خلافاته مع حاكم مليلية؛

وفي نفس السياق يؤكد توماس كارثيا فيكيراس¹⁵¹ أن الأفكار الوطنية كانت دائما حاضرة لدى محمد بن عبد الكريم مما كان سببا في اعتقاله بمليلية سنة 1915، والذي طالما اشتغل لدى الأسبان وعبر لهم عن تعاطفه معهم، غير أنه بعد إطلاق سراحه أقدمت إسبانيا على تسليم عناصر ريفية مطلوبة للفرنسيين وكانوا من ضمن المقاتلين ضد فرنسا (1914-1918) داخل المناطق الحدودية الاسبانية/الفرنسية في إطار الحماية على المغرب.

وعلى هذا الأساس اعتبر محمد بن عبد الكريم هذا السلوك السلبي للأسبان كموقف جد عدائي مما أثر بشكل حاسم في تحول موقفه من صديق حليف إلى عدو لدود، إذ كان يتخوف أن يلقي نفس المصير.

ونحن إذ نقدم نماذج من المقاربات والقراءات الممكنة لتفسير التحول والتطور الفكري السياسي لمحمد بن عبد الكريم الخطابي نجد أنفسنا أمام إشكال تفسيري يبقى السؤال ومطروحا مستصيا يصعب الإمساك بتلابيه المتشعبة ، لربما تفهمنا الدواعي الذاتية والموضوعية التي دفعته إلى الانخراط في المجتمع الاسباني ، ولكن يصعب علينا تفسير وتعليل تخليه عن الحظوة والامتيازات والتحول إلى خصم عند يرفض إغراءات الأسبان بكل أشكالها.

لقد أثرت الفترة التي قضاها بمليلية في تعميق استيعابه للمحيط الاسباني ودواليب إدارته ..« لقد استطاع عبد الكريم (محمد) أن يتعلم الشيء الكثير من خلال تعامله

¹⁵⁰ - Manuel Goded Marruecos Las Etapas de la pacificacion p :80

¹⁵¹ - Tomas García figureras : Acción de España en Marruecos 1492- 1927 imprenta municipal Madrid 1929 p 310

اليومي مع الوسط الليلي، وبالرغم من هدوئه واحتراسه وصمته فقد كان يعتبر ذا أفكار وطنية واضحة».¹⁵²

نحن إذن أمام محطة بارزة في حياة محمد بن عبد الكريم وفي نقطة تمفصل هامة وخطيرة في مسار نضاله الوطني التحرري ، مرحلة تطور في الوعي السياسي ، وقطية مع التصورات السياسية السابقة، ولكن ما هي العوامل التي ساهمت في بلورة وتطوير فكره السياسي وجعلت منه قطب الرchy الذي ستأسس عليه حركة المقاومة في المنطقة الشمالية من المغرب؟

يمكن استجماع هذه العناصر المتعددة في نقطتين أساسيتين :

1/ مكانة آل الخطابي في المجتمع الريفي / سلطة المعرفة :

تتتمي العائلة الخطابية إلى فرقة أيث زاعا (زرعة) إحدى المكونات الثلاثة لمدشر أجزير المنتمي لأبث يوسف وعري (علي) الذي يشكل مع رديفه أيث عري (علي) إحدى القسمات الخمس للقبيلة الورياعلية، وتنتمي ذاخاند (بيت) "إعبدكريمن" (آل عبد الكريم) إلى البيوتات الستة عشر المكونة لمدشر أجزير، وقد أطلق على هذا البيت/ العائلة أسم إعبدكريمن لتكرار اسم عبد الكريم في سلسلة نسبهم العائلي، وهي عائلة علم وتفقه توارثوا رصيدهم العلمي جيلا بعد جيل، اشتهر من أفراد عائلتهم أحد أعمامهم القائد المخزني السي زيان الذي عينه السلطان الحسن الأول قائدا على أيث يوسف وعلي، كما اشتهر أحد أعمام الأمير المجاهد السي موحد الملقب بالمنفوشة والذي كان من النباهة والنبوغ كما تشهد به الروايات المتواترة أن عينه السلطان الحسن الأول لشهرته وذيوع صيته معلما لأبنائه المولى عبد الحفيظ والمولى عبد العزيز وهو لا يزال إَذَاكَ طالب علم بالقرويين .

ويبقى الفقيه القاضي الشهيد عبد الكريم الخطابي والد محمد بن عبد الكريم الذي قال عنه الصحفي الاسباني "كانديدو لوبيرا" الذي تعرف عليه بعمق- بأنه أذكى الريفيين ،هو المساهم الأول في توجيه مسار ابنه محمد بن عبد الكريم.

¹⁵² José manuel y luis de arminan :Francia, el dictator y el moro, Javier morata

Madrid 1930 p : 96

وقد كان الوالد القاضي عبد الكريم متميزا وشهيرا في الأوساط الريفية وحتى من طرف ساكنة الجبل البعدين بل وحتى داخل القبائل الريفية المجاورة ، وكان يمثل بحق النخبة المثقفة في تلك الفترة التاريخية ، لقد درس بالقرويين، وتلقى العلم الشرعي من أبرز فقهاء وعلماء تلك المرحلة ، وتسلم ظواهر التعيين والتولية كقاضي بالقبيلة الورياغلية تباعا من السلاطين المولى الحسن الأول وابنيه المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ.

إليه يرجع الفضل في تربية ابنه وتوجيهه في المسار الذي سار فيه منذ البداية، حيث وجهه إلى فاس للدراسة بالقرويين، وهو الذي ألزمه بالانتقال إلى الجزيرة للاشتغال في إحدى المكاتب التجارية للأسبان، قبل أن يحمسه للذهاب إلى مليلية للاشتغال كمدرس للغة العربية.

معظم الآراء والمواقف السياسية التي تبناها محمد بن عبد الكريم قبل أن يصبح أميرا كانت بتنسيق وتشاور أو بإيحاء من والده، لقد بقي السي موحد - كما كان يدعى محليا - صغيرا أمام والده طالما استمر والده على قيد الحياة، فلا موقف ولا رأي دون تركية الفقيه القاضي الأب.

مجمل القول أن الفقيه القاضي الأب كان هو الموجه وواضع اللبنة الأولى والمرتكزات الأساسية لنمو شخصية وفكر القائد محمد بن عبد الكريم، وهو الذي فتح أعين أبنائه جميعا على أبعاد المسألة المغربية وإشكالاتها ومسألة الحماية، فقد كان مدركا لأوافق الحماية وبالمصير المحتوم للمغرب، مدركا لمدى عجز المخزن لفرض سلطته وحماية بلده، كل هذا وغيره من الأمور تمكن الأب بقوة شخصيته وبوسائله وحكمته من غرسه في أبنائه خاصة الابن البكر عبر تنشئة تجمع في مضامينها وبين الثقافة المحلية للريفيين تنهل من التراث والثقافة الأمازيغية الأصيلة وتراث فقهي عربي اسلامي، وتوعية سياسية مبكرة بالمحيط العام الوطني والدولي كما تعكسه مقالاته التي كان ينشرها في جريدة "تلغراف الريف" الصادرة بمليلية، وهنا نجد بقولها: "... بدون أب مثله أنفسنا نشاطر ما رددته المؤرخة الاسبانية المقتدرة "مادارياغا" لم يكن من الممكن أبدا أن يصل محمد بن عبد الكريم يوما ما المكانة التي وصل إليها".

2/ العامل الجغرافي/ سلطة المكان :

الموقع الجغرافي لمدشر أجدير يتميز بخصوصية فريدة عن باقي المداشر الورياغلية إذ أنه ليس فقط أقرب مدشر في القبيلة إلى ساحل البحر ، بل لأنه أيضا أقرب موقع للتماس مع الثقافة والحضارة الاسبانية الغربية ، إذ يقع على بعد مئات الأمتار من

جزيرة النكور المستعمرة من طرف اسبانيا منذ 1673. ومن المعلوم أنه منذ المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر شرعت الجيوب المستعمرة ومن بينها جزيرتي النكور وبادس في فتح أبوابها أمام ساكنة الساحل الريفى، وهكذا نشأت بين الطرفين الريفى والاسبانى علاقات تبادل تجارى هامة ساهمت بشكل كبير في خلق رواج سلعى واسع سمح بخلق فرص عمل متعددة وأنشطة مختلفة مرتبطة بهذه الحركية الاقتصادية، ولم تقف العلاقات عند هذا الحد بل ترتب عنها نسج علاقات اجتماعية وارتباطات سياسية مصلحية بين الطرفين سيما بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء وبداية التغلغل الاسبانى السلمى والعسكرى في المناطق الشمالية، وهكذا وجد الاسبان أنفسهم يبحثون عن حلفاء محليين جدد مرتبطين بالسياسة الاسبانية ويعملون من أجل التمهيد لها للسيطرة على المنطقة، ولم يكد ينتهى العقد الأول من القرن العشرين حتى كانت اسبانيا قد تمكنت من ضم العديد من العناصر الريفية خاصة الورياعلية مع بعض البقيويين والتمسمانيين ساكنة الساحل المجاور، وكان هؤلاء يتقاضون رواتب شهرية نظير خدماتهم للقضية الاسبانية، وكان من أبرز هؤلاء الفقيه القاضى عبد الكريم الذى انخرط في اللعبة السياسية ودعم القضية الاسبانية، وجراء موقفه تعرض منزله للحرق ثلاث مرات.

الجدير بالذكر أن القاضى الفقيه عبد الكريم لم يكن منغمسا بدون تبصر في دعمه وتأييده للسياسة الاسبانية، ولم يكن يذعن لها ويسير على هواها بدون روية، والأحداث التاريخية- كما تشهد بذلك التقارير الاسبانية نفسها - تؤكد ذلك، لقد كان رجلا سياسيا محنكا ذو تكتيك سياسى مرن يدرك لحظة التراجع ولحظة التقدم استمرت سياسته مع الأسبان بين الشد والجذب إلى أن حدثت القطيعة النهائية بينه وبين الأسبان سنة 1919 حينما نظم رباط الجهاد والمقاومة بتفريست إلى أن دبر الإسبان اغتياله في غشت 1920.

خلاصة

بروز ونضج الوعي السياسي لدى محمد بن عبد الكريم خضع لصيرورة متدفقة من الأحداث والمواقف في شكل تمظهرات سياسية عدة استغرقت مدة طويلة تزيد عن عقدين من الزمان حتى انبثق و أخذ شكله النهائي إبان قيادته لتجربة المقاومة المسلحة من سنة 1921 إلى غاية 1926

أما الإحساس بالوطنية في حد ذاته وتشكل الوعي به كشعور عميق بالانتماء إلى الوطن، والذي يتجاوز هنا البعد القبلي والمحلي إلى ما هو أبعد وأعمق و أشمل يتجلى في محاربة الاستعمار والسيطرة الأجنبية في أي مكان، فإنه لم يغرب أبدا عن بال آل الخطاب. كانت المسألة دائما حاضرة في نقاشاتهم العائلية ومع محيطهم والمتغير عندهم هو تلك النقلة الفكرية أو التحول في التصور السياسي من مستوى الاقتناع بضرورة الانخراط في مشروع الحماية كحل وحيد لإخراج الريف والوطن عامة من التخلف والفقر والجهل اعتمادا على الدعم الاسباني بالأساس وضمن أوافق معاهدة الحماية ، إلى الإيمان والاقتناع بالنقيض والقطيعة مع الأسبان ونهج الكفاح المسلح اعتمادا على الطاقات المحلية. وهو الطريق الذي خطه وبدأه الوالد واقتفى أثره الأبناء.





**قراءات في
وثائق ومؤلفات
حول
الريف وتاريخه**



قراءة في ما ألف حول منفى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بجزيرة لاريونيون 1926-1947



جمال أمزيان

«خروج الإنسان من الوطن كخروج الروح من الجسد، حالة صعبة لا يتغلب عليها المرء إلا بالإيمان بالقضاء والقدر»

محمد بن عبد الكريم الخطابي

من الشخصيات الكارزمية التي حصدت، وما تزال، تأييد العالم أجمع وليس المغرب فقط، أو ريفه، شخصية تصنف ضمن العشرين الأوائل التي أثرت في عالم القارة الإفريقية خلال القرن العشرين،¹⁵³ نجد الأمير، "الظاهرة"، "الأسطورة"، محمد بن عبد الكريم الخطابي. «شخصية عابرة للزمن»¹⁵⁴ حسب تعبير الأستاذ الباحث محمد أمزيان. شخصية إن رحلت عنا وعن

¹⁵³ - انظر، علي الإدريسي، عبد الكريم الخطابي، التاريخ المحاصر، منشورات تفراون أريف، الكعبة الأولى، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007، هامش 1، ص. 223.

¹⁵⁴ - محمد أمزيان، لعة عبد الكريم، منشورات تفراون أريف، 2018، ص. 13.

هذه العاجلة، فإنها ما تزال تحيا فينا ومعنا، ويجب أن تكون كذلك سواء في حياتنا اليومية أو في تفكيرنا. شخصية فيها تتماهى هويتنا وهوية كل أحرار العالم. شخصية كُتِبَ ويُكتب وسيكتب عنها الكثيرون، مهما حاول المغرضون إقبارها.

تباين الاهتمام بالكتابة عن الخطابي من مرحلة لأخرى

إن النصوص المتداولة، وبمختلف اللغات، أكانت عبارة عن دراسات أكاديمية محضة، أو مقالات صحفية، أو ارتسامات، سواء أكانت مع، أو ضد، قد ركزت على الحلقة الأولى من حياة وكفاح وتاريخ هذا الأمير المنفي حيا وميتا، وإلى حد ما على حياته ونشاطاته ضد الاستعمار أو أذنبه مهما كانت ملتهم وتلويثاتهم لما كان بقاهرة المعز. وفي هذا الصدد يقول الباحث محمد أمزيان: «تكاد تكون فترة المنفى التي تجاوزت العشرين سنة، تغيب عن الدراسات المهمة بتاريخ الأمير عبد الكريم الخطابي، بحيث لا يتم التركيز إلا على الجانب العسكري، إلى جانب إقامته في القاهرة ولو بدرجة أقل (...) ونتيجة لهذا الغياب أو التغييب، يبدو وكأن مرحلة المنفى لا قيمة لها في التاريخ النضالي للأمير عبد الكريم، أو ليس فيها ما يثير فضول المؤرخين والباحثين».¹⁵⁵

لقد تم الاهتمام بآب عبد الكريم، البطل، السياسي والديبلوماسي المحنك، العسكري المقدام الجسور حينما انتصر ميدانيا، رغم تباين الإمكانات، في مواقع عديدة نذكر منها ادهاراً بَرَّان (يونيو 1921)، إغرين، أنوال، أعروي (يوليو 1921)، ثم البيان على الجبهة الجنوبية، وعين الحمراء والشاون على الجبهة الغربية. تلك الانتصارات التي تجاوز صداها الآفاق كما يقال، وأسست لاستراتيجية جديدة حينما تواجه الشعوب المستضعفة عتادا والقوية إيمانا وعزيمة جبوت الاستعمار، إستراتيجية اعتمدها في تصديه للتكالب الإمبريالي الإسباني الفرنسي ومن والاهم على الريف في بداية الأمر.

155 - محمد أمزيان، محمد عبد الكريم الخطابي، آراء ومواقف، منشورات تفراز ن أريف، رقم 7، الطبعة 3، 2010، ص. 49.

غير أن الاهتمام به كإنسان، كرب أسرة وعائلة، كمفكر، كحدثي وكمفني في جزيرة قصية نائية في الجنوب الشرقي من أقصى القارة الإفريقية، وسط الأمواج المتلاطمة لمياه المحيط الهندي، وهي جزيرة لاريونيون، قد ظل اهتماما ضعيفا محتشما لا يرقى إلى مكانة الرجل وما عاناه وقاساه في ذلك المنفى السحيق. والكتابات، حول هذه المرحلة الأولى من منفاه،¹⁵⁶ تكاد تنعدم لاعتبارات عديدة نذكر منها:

- بعد الجزيرة وصعوبة التنقل إليها تقفيا لأثر الأمير بها.
- غياب الإرادة واهتمام المؤسسات، أكانت رسمية أو مدنية، وكذا معاهد البحث، حول هذه المرحلة، وهي مؤسسات إما أنها لا تريد النبش في هذا الموضوع وإعادته إلى الواجهة، أو أن الإمكانات المادية تعوزها، وهو الأمر الذي يسري على الباحثين بشكل فردي.

- سعي سلطات الحماية طيلة سنوات النفي، إلى تغييبه عن الساحة السياسية للمغرب المحتل، إذ قطعت عنه التواصل مع الوطن الأم أو الأب، وهذا ما غيب أخباره فلم يتأت بذلك خلق تراكم معلوماتي حوله خلال هذه المرحلة، فغابت بذلك المادة المصدرية للبحث العلمي. لكن الأمور ستتغير بعد ماي 1947 لما نزل أو أنزل في مصر، وبدأت أخباره ومواقفه تتصدر صفحات الجرائد ونشرات الأخبار سيما وأنه شمر على ساعديه ليواصل نضاله ضد الاستعمار، وبذلك ساهمت تحركاته السياسية في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى رحيله من دار الفناء إلى دار البقاء في فبراير 1963، في توفير مادة مهمة جدا للبحث التاريخي.

- منع تداول اسمه ولا البحث في تاريخه طوال مدة لا يستهان بها في المغرب المستقل. لقد كان ذكر الاسم فقط في الأماكن العمومية يعد جناية يعاقب عليها القانون وتفضي بالمرء إلى السجن.

صحيح أنه حسب علمي تغيب الكتابات المخصصة لهذه المرحلة من تاريخ الأمير عبد الكريم الخطابي، قائد ثورة الريف الأولى وملهم إستراتيجية "حرب العصابات" ورئيس "جمهورية اتحاد القبائل الريفية"، ومع ذلك يمكن الوقوف عند بعض المبادرات التي حاولت ملاسة هذه المرحلة، ولو جزئيا بلغة الضاد، ذلك أن الظروف

156 - لابد من التنويه إلى أن الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ما زال منفيًا ومبعدًا عن بلده حتى وإن كان قد التحق بالرفيق الأعلى، ما دامت تلك الحفنة من التراب والعظام توجد هنالك في القاهرة المعز.

لم تكن لتسعفها فتتعمق في الموضوع أكثر. وسنذكرها بالتتابع حسب تاريخ إنجازها.¹⁵⁷

نماذج من التأليف حول مرحلة منفى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي

1 - كتابات محمد سلام أمزيان، قائد انتفاضة الكرامة 1958-1959.
تجدر الإشارة في البداية إلى أن هذه الكتابات استقت مادتها التاريخية من الأمير مباشرة منذ حلول القائد بالقاهرة أبريل 1960، وهي كتابات غير منشورة طبعاً، نذكر منها: "قصة عبد الكريم في المنفى"، "قصة نزول عبد الكريم بالقاهرة" والذي تناول في فصله الأول رحلة السفر من الجزيرة حتى نزوله بالقاهرة، وصدى ذلك في العالمين الإسلامي والأوربي. يقول القائد محمد سلام أمزيان: «جلست إلى عبد الكريم في شرفة منزله بحدائق القبة، صبيحة يوم الأحد 10 أبريل 1960، وكان قد مضى أسبوع فقط على وصولي إلى القاهرة من مدريد، وكنا قد انتهينا من حكاية وقائع رحلة الباخرة من جزيرة لاريونيون إلى مدغشقر وزنجبار وتوقفنا عند ميناء عدن، فماذا حدث؟»¹⁵⁸

2 - كتاب "عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف"، لصاحبه محمد أمزيان.
هو الآن في طبعته الثالثة سنة 2010، وكان في الأصل أطروحة جامعية قدمها إلى مجلس كلية الآداب بجامعة بغداد للحصول على دبلوم الدراسات العليا، أي الماجستير في التاريخ الحديث في يناير 1988، وكانت تحت عنوان: "عبد الكريم الخطابي ودوره في لجنة تحرير المغرب العربي، 1947-1956". لقد اعتمد الباحث في هذا المؤلف وبشكل وافي وأساسي على وثائق محمد سلام أمزيان، تناول في فصله الثاني المعنون "سنوات المنفى في جزيرة لاريونيون (1926-1947)، من ص. 45 إلى 55.¹⁵⁹ حياة الأمير وعائلته بالجزيرة وما عانوه من صعوبات في بداية

¹⁵⁷ - تجدر الإشارة إلى أن الجزء الثالث من مذكرات الأمير قد خصص لهذه المرحلة من حياته تحت عنوان "المنفى"، بعد الجزء الأول تحت اسم "مأساة وطني"، والجزء الثاني "الشعب يواجه الاستعمار".

¹⁵⁸ - محمد سلام أمزيان، قصة نزول عبد الكريم بالقاهرة (مرقون)، القاهرة 1960/04/24

¹⁵⁹ - محمد أمزيان، محمد عبد الكريم الخطابي، آراء ومواقف، م.س. في الطبعة الثالثة

الاستقرار، ثم الضائقة المالية والأمراض والتقييد من حرية التنقل بالمراقبة للصيقة في السنوات الأولى من النفي، والخيفة فيما تلا من السنوات، وكذا الإشارة إلى بعض محاولات تهريبه، لكنها باءت بالفشل. وفي الأخير تناول مسألة نهاية الأسر والمنفى ورحيل الأسرة في اتجاه القاهرة. وحتى وإن كانت المادة التاريخية المتضمنة في الكتاب موجزة ومختصرة، فإنها تعطي للقارئ فكرة عن منفى الأمير وأسرته ونمط عيشهم وحياتهم اليومية بالجزيرة. وعن هذا المؤلف سيعتمد آخرون لتناول هذه المرحلة من حياة الأمير ابن عبد الكريم.

3 - المنشور الثالث يحمل عنوان: "الخطابي في المنفى 1926-1947 في الجزيرة و1947-1963 في مصر" لصاحبه الأستاذ محمد الخلوفي الصغير، بدون تاريخ، ومن المرجح أن يكون صدر سنة 2000 لما كانت تصدر مجلة "ملفات من تاريخ المغرب". لقد اعتمد الكاتب في هذا المؤلف الذي يبلغ عدد صفحاته 154 من الحجم الصغير، على كتابات محمد سلام أمزيان التي تمكن من الحصول عليها، إذ حينما نقرأ نص الخلوفي ونصوص أمزيان، نجد تشابها كبيرا إلى حد التماهي في الصيغ والعبارات، وهو لا ينكر ذلك، بل غالبا ما يحيل على تلك المصادر، لكن بشكل محتشم ومبتور. وربما سنجد له عذرا في ذلك باعتبار اسم محمد سلام أمزيان كان ممنوعا من التداول زمن سنوات الرصاص، شأنه في ذلك شأن الأمير عبد الكريم الخطابي. وفي هذا السياق، نقتطف نصا من هذا المؤلف يوضح ما ذهبنا إليه في الفكرة السابقة. يقول الأستاذ الخلوفي: «الحديث عن الخطابي في المنفى (1926-1963) قد يفيد الباحث والقارئ المهتم بجانب من تاريخ الحركة الوطنية من وجهة نظر الخطابين على الأقل، هذا الحديث اعتمدنا في سرد وقائعه على مذكرات الخطابي المطبوعة والمخطوطة، وعلى كتابات القائد محمد سلام أمزيان مع الإشارة إلى مصادر أخرى منها المعاصر ومنها غيره من جرائد ومجلات وكتب.

هذه الدراسة الموجزة والتي سبق أن نشرنا جزءا منها بمجلة "ملفات من تاريخ المغرب" لا ندعي أنها كافية وشافية ومعمقة قد تفي بالغرض المطلوب، بل نعلم

القارئ أن بها بعض الثغرات التي منها المتعمد. وأملنا أن يتفهم القارئ حساسية الموضوع والظروف التي أملت علينا اللجوء إلى البتر والتلخيص».¹⁶⁰

4 - أما المنشور الرابع فيعود للأستاذ علي الإدريسي: "عبد الكريم الخطابي: التاريخ المحاصر"¹⁶¹ والذي اعتمد، حينما تناول مرحلة المنفى، على الكتابات السالفة الذكر، وكذا على ما استقاه من معلومات ووثائق (الصور بالأساس) مباشرة من أبناء الأمير عبد الكريم الخطابي.

5 - وفي الأخير نشير إلى كتاب الباحثة ماريا روسا دي مدارياغا: "محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال" الصادر سنة 2009 باللغة الإسبانية، وقام بنقله إلى لغة الضاد كل من محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي وعبد الحميد الرايس سنة 2013¹⁶² والذي تحدث فيه عن مرحلة المنفى ما بين ص. 527 وص. 543، التيمة التي شكل فيها مؤلف محمد أمزيان مرجعا أساسيا.¹⁶³ وهكذا تعرضت في مضمون هذا الفصل لصعوبات الاستقرار في بداية الأمر بقصر مورانج،¹⁶⁴ موردة جردا لأثاثه الذي كان «يتسم بطابع الزهد والتقشف، الأمر الذي

160 - محمد الخلوفي الصغير، الخطابي في المنفى" في الجزيرة 1926-1947، وفي مصر 1947-1963، مطبعة بني ازناسن، سلا، المغرب، دون تاريخ، ص. 5-6. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الصور المنشورة في هذا الكتاب هي من وثائق أمزيان.

161 - منشورات تفرانز ن أريف، رقم 3، الطبعة الأولى 2007، الثانية في نفس السلسلة من تفرانز سنة 2010.

162 - منشورات تفرانز ن أريف، رقم 10، الطبعة الأولى 2013.

163 - تقول الباحثة ماريا روسا دي مدارياغا في كتابها محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، ترجمة وتقديم محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي وعبد الحميد الرايس، تقول في صفحة 30: «استفدنا بالنسبة لهذه المرحلة التي لم نعالجها بنفس التروي مقارنة مع سابقتها من مراجع غربية بالإضافة إلى مراجع أخرى عربية، نذكر منها بالخصوص كتاب محمد أمزيان، نجل محمد سلام أمزيان، قائد انتفاضة الريف في 1958-1959 والمعنون: محمد عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف 1926-1963 الصادر بالرباط سنة 2002 والذي يشكل خلاصة أبحاثه لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة بغداد سنة 1988»، واعتمدت أيضا على مقال بالإسبانية نشر بمجلة Estampal لصاحبه فرنسيسكوملكار Fransisco Melgar، والمقال المعنون "حياة عبد الكريم في المنفى" هو عبارة عن مقابلة أجراها صاحبها مع موظف فرنسي سام في المستعمرات، كان يشغل منصبا في جزيرة لاريونيون. ماريا روسا، ص. 528

164 - اعتمدت على تقرير النقيب الترجمان صاني بتاريخ 24 غشت 1926، وحينما يسمع القارئ لفظة "القصر" غالبا ما يعتقد أنه كان مسكنا مريحا، فيه الخدم والحشم وكل وسائل العيش الرغد، كما كان يعتقد ويقول بعض السياسيين. يقول علي الإدريسي في مؤلفه المشار إليه أعلاه: « (...) ثم إن هذا القصر كان قد مر على بناءه

لم يكن ليشغل بال عبد الكريم كثيرا ما دام تعود على شظف العيش»¹⁶⁵، وتحدثت عن الرقابة¹⁶⁶ والمرض ومحاولات تهريب عبد الكريم و"محاباته" للسلطات الفرنسية حتى تعيده إلى المغرب.

كل الدراسات التي أشرنا إليها هي باللغة العربية إذا ما استثنينا كتاب الباحثة الدقيقة والصارمة في تعاملها مع الوثيقة والتي جابت مختلف أرشيفات أوروبا من أجلها، الدكتورة ماريا روسا دي مدارياغا. وكل هذه الدراسات كتبت في مرحلة لاحقة ولم تعايش الأمير في منفاه. كما أن أصحابها استحال عليهم، لسبب أو لآخر، الاطلاع على مجال الجزيرة وفضاءاته ليدركوا فعلا ردود فعل المنفيين وسلوكاتهم وحجم معاناتهم، وكذا قرارات وطبيعة علاقات رب الأسرة التي «كانت تتكون من أعضاء أسرة مولاي موحد وأعضاء أسرتي سيدي امحمد وسيدي عبد السلام، إضافة إلى مرافقيهم»¹⁶⁷ مع السلطات الفرنسية، سواء بالجزيرة أو المتروبول، أو مع سكان الجزيرة الذين ما زال الكثير منهم يتذكرونه ويتذكرون أبنائه إلى اليوم.

6 - كتاب الدكتور تييري مالبرت "نفي عبد الكريم الخطابي إلى جزيرة لاريونيون 1926-1947"، وهو من تصميم وإخراج كورين بيرو، منشورات أورفي أبريل 2016، وهو آخر ما كتب عن هذه المرحلة من حياة الأمير وأسرته، قبل أن يحل بالقاهرة بدءا من 1947.

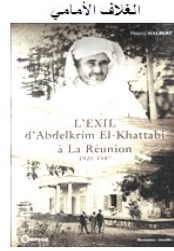
أكثر من قرن من الزمن، دون أن يحظى بالعناية والصيانة اللازمين، إضافة إلى أن ارتفاعه عن سطح البحر لم يكن يتعدى 7 أمتار، ولذلك أطلق عليه الأمير الخطابي صفة "مستعمرة الحشرات والزواحف".

¹⁶⁵ - ماريا روسا دي مدارياغا، محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، ترجمة محمد أونينا، عبد المجيد عزوزي وعبد الحميد الرايس، منشورات تفرافز، 10، 2013، ص. 528

¹⁶⁶ - يقول الأمير: «طوال فترة المنفى كانت تصلني الخطابات بشكل غريب للغاية. إن الخطاب يرسل من مراكش في يناير مثلا، فيصل إلي في أكتوبر أو ديسمبر أو يناير التالي. كانت الرقابة الفرنسية تعطل الخطابات (...). لتحرمني من الاتصال بأهلي ووطن.» محمد أمزيان، آراء ومواقف، ص. 51، هامش 15.

¹⁶⁷ - علي الإدريسي، عبد الكريم الخطابي، التاريخ المحاصر، م. س، ص 226

كتاب نفي عبد الكريم الخطابي
إلى جزيرة لاريونيون



أ - مؤلف الكتاب:

هو تيري مالبرت أستاذ محاضر بجامعة لاريونيون، تخصص علوم التربية، يرأس جمعية المغاربة وأصدقاء المغرب بالجزيرة. شغفه وحبّه لشخصية عبد الكريم، ومكانة وأثر هذا الأخير بجزيرة لاريونيون وعلاقته الجيدة مع سكانها، جعلت هذه الجمعية تنظم عدة أنشطة على شكل معارض للصور وعرض الأفلام للتعريف به. وبموازاة ذلك نشر المؤلف مقالات حول الأمير منها:

عبد الكريم، المنفي المجهول، وهو نفس شعار معرض الصور.

منفي قصر مورانج.

على خطى عبد الكريم.

أمير قصر مورانج.

أثناء مشاركتنا في تخليد الذكرى الخمسين لرحيل الأمير، المنفي قيد حياته وحتى مماته، وذلك بمدينة الحسيمة يوم 8 فبراير 2013، وهو النشاط الذي دأبت جمعية ذاكرة الريف على تنظيمه سنويا، أسر لي المؤلف - الذي جاء من جزيرة لاريونيون إلى الحسيمة للمشاركة رغم بعد المسافة - عن الظروف التي بدأ فيها اهتمامه بشخصية عبد الكريم. لقد كان، وهو صغير السن، يمر، أثناء ذهابه إلى المدرسة، عبر طريق يحمل اسم عبد الكريم (ص.184) وآخر يحمل اسم الطريق المغربي (صورة ص.118) كان بمحاذاة ضيعة الأحواض الثلاثة، فتولد لديه السؤال، مذاك، حول هذه الشخصية. وهو الذي دفعه للسؤال، لما كبر، و للبحث عن الجواب، فكان الجواب هو هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم.



*La rue Abdelkrim
borde l'ancien domaine
Castel-Fleurie au
Chaudron à Saint-Denis
de La Réunion.*

ب- دواعي تأليف الكتاب:

يقول الدكتور تيري مالبرت في كتابه: نفي عبد الكريم الخطابي إلى جزيرة لاريونيون 1926-1947¹⁶⁸ ما يلي:

«إذا كانت هناك عدة مؤلفات قد عالجت حرب الريف بين 1921-1926، أو نهاية حياة عبد الكريم بالقاهرة 1947-1963، وهي المرحلة التي غدا فيها زعيم العالم العربي مع إنشاء الجامعة العربية ولجنة تحرير المغرب العربي، فإنه وحتى يومنا هذا، ليس هناك أي مصدر عالج المنفى الذي عرفه خلال إحدى وعشرين سنة في المحيط الهندي بجزيرة لاريونيون».¹⁶⁹

ويضيف: «لذا فالغياب التام لمرحلة المنفى هو الذي كان أحد أسباب هذا الكتاب».¹⁷⁰

«إن أبحاثنا التي قمنا بها في أرشيفات إدارة لاريونيون واستجواباتنا مع سكانها، ذكورا وإناثا، والذين عاشروه أو لدى أبنائه، قد سمحت بتجميع معطيات مكتوبة وشفوية عديدة. لقد شكلت الصور وروايات أعضاء عائلته الذين عاشوا طفولتهم

¹⁶⁸ - **Thierry MALBERT**, L'EXIL D'ABDELKRIM EL-Khattabi à La Réunion, 1926-1947, Ed. Orphie, 2016

¹⁶⁹ - **Thierry Malbert**, L'Exil d'Abdelkrim El Khattabi à La Réunion, 1926-1947, Ed. Orphie, Avril 2016, p.3

¹⁷⁰ - نفسه، ص.11، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ محمد أمزيان كما أسلفنا الذكر.

بجزيرة لاريونيون، مرفوقة بالرسائل والشهادات والمقالات، بيانات أساسية لإنجاز هذا المؤلف.¹⁷¹

ج - معطيات عن الكتاب:

يقع الكتاب المؤلف الذي كتب بلغة فرنسية سهلة الإدراك والفهم في 193 صفحة من الحجم الكبير، وهي من ورق مصقول لماع أنيق يستحق وضعه في واجهة المكتبة الخاصة للفرد (بعد قراءته طبعا)، فراغات ما بين الفصول زينت برسومات جميلة قد نعتبرها لوحات تشكيلية. كل الفصول مقسمة إلى فقرات فرعية بعضها قد لا يتجاوز مضمونها بضعة أسطر ويؤثثها نص أو أكثر. كما أن تلك الفصول تتباين من حيث عدد صفحاتها.

الملاحظة الأساسية التي نستخلصها بمقارنتنا بين الأقسام الكبرى للكتاب هي استحواذ القسم الثاني المخصص لمرحلة المنفى بحصة الأسد، وهذا يتماشى، بطبيعة الحال، مع عنوان الكتاب والأهداف المتوخاة من تأليفه. إذ الغاية هو تغطية هذه المرحلة من حياة محمد بن عبد الكريم الخطابي وذويه. أما لماذا هذه الحالة، فالأمر واضح وجلي. ذلك أن المؤلف، ابن الجزيرة، ولد فيها، وشب فيها عوده وترعرع، توفرت له إمكانيات الوصول إلى المعلومة والمادة المصدية بيسر، عكس الذين سبقوه إلى الاهتمام بهذه المرحلة من حياة الأمير. لذا جاء هذا القسم الثاني من الكتاب حافلا بالصور والوثائق التي بعضها ينشر لأول مرة.

نستنتج وجود غزارة في مختلف أنواع الوثائق المعتمدة في بناء وصياغة القسم الثاني من الكتاب، القسم المتعلق بحياة المنفى. فإذا جمعنا الصور والنصوص والتقارير والمراسلات سيكون مجموعها 235، بينما القسم الأول لا يتعدى عدد وثائقه 40، والقسم الثالث 47. ومرد هذا التباين، وكما أشرنا أعلاه، هو كون الباحث استغل المادة المصدية المتاحة له الوصول إليها من جرائد وصحف، وأرشيف إدارة المستعمرة، وحتى الذاكرة الجماعية باللقاء والتواصل مع شخصيات كان لها حضور مع الأسرة الخطابية في الجزيرة. وهذا الأمر هو قيمة إضافية ونوعية للبحث العلمي تسجل لصالح الدكتور تيري مالبيرت.

كما نستنتج أن جل هذه الوثائق جديدة ولم تتداول فيما قبل لدى الباحثين والمهتمين إذا استثنينا رسالة 1937 من عبد الكريم إلى رئيس الحكومة الفرنسية التي أوردتها

ماريا روسا في مؤلفها، وأن كل تقارير ورسائل النقباء المكلفين بأمر المنفيين تشير إلى حسن سلوكهم ومواقفهم الإيجابية من الحكومة الفرنسية وقد تجعل القارئ يخال بأنه استسلام وانقياد وخضوع لها. وهذا أمر قد يغير تلك الصورة التي رسمناها عن شخصية الأمير في أذهاننا وتتعارض مع صورة البطل المغوار المقدم الذي كان عليه إبان معارك التحرير بين 1921 و1926.

د- مضمون كتاب نفي عبد الكريم الخطابي
في بداية عرضنا لمضمون الكتاب أود التنويه إلى أنه، ولضرورة منهجية، اضطرت إلى تجميع فقراته في ثلاثة أقسام كبرى تبعا لمراحل حياة الأمير ابن عبد الكريم حسب ما أثبتته في الجدول أعلاه، وهي: مرحلة الحرب إلى الاستسلام وبداية المنفى"، "المنفى والحياة اليومية للأسرة الخطابية"، ثم في الأخير "الإفراج وبداية مرحلة القاهرة" حتى وفاته.

في القسم الأول من الكتاب، "حرب الريف"، ما بين صفحات 13 و 33، استعرض السياق الجيوسياسي لهذه الحرب، ثم الظروف التي أصبح فيها عبد الكريم زعيما يتمكن من توحيد قبائل الريف وانتصاره في معركة أنوال (22 يوليوز 1621). فيقول الباحث: «في يناير 1922، وفي غمرة الحماس بالانتصار أعلن عبد الكريم عن جمهورية اتحاد القبائل بالريف، ببرلمان يشكله أعيان القبائل، وبحكومة وعملة ومحكمة ومدرسة. بينما مدريد كانت تفكر في إخلاء المنطقة.»¹⁷²

أما الفقرات الموالية، فقد خصصها لمسألة نهاية الحرب حتى استسلام عبد الكريم لفرنسا التي قررت نفيه. هذه الحرب التي يقول عنها نقلا عن جرمان عياش: «لم تكن حرب الريف (...) مجرد مناوشات، بل كانت معارك دموية كما في أوروبا مدعمة بالكتائب والمدفعية والطائرات والسفن الهجومية. حرب مرغت وجه أوروبا الاستعمارية كلها في التراب.»¹⁷³

وهكذا غادر الأمير الأسير جبال الريف نحو فاس، ومنها إلى الرباط بعد شهرين من الزمن تقرر فيها نفيه هو وعائلته إلى أقاصي جنوب القارة الإفريقية، ثم الدار البيضاء ليصعد جميع المنفيين البالغ عددهم 30 فردا¹⁷⁴ على ظهر باخرة عبدة ويغادروا

172 - نفسه ص. 15

173 - نفس المرجع والصفحة

174 - «على تلك الباخرة، كانوا ثلاثون منفيًا: عبد الكريم (أربعون سنة)، زوجته وخمسة أبناء، أكبرهم بحما ايم أبيه؛ سي امحمد (إحدى وثلاثون سنة) مع زوجته وأبنائه الثلاثة؛ عمهما عبد السلام مرفوقا بزوجه وأطفالهم الأربعة، آخرهم سيولد على ظهر الباخرة الأميرال بيير في عرض سواحل كينيا؛ الوفي أمغار بن سي زيان الذ ترك

المغرب يوم 28 غشت 1926 صحبة الضابط "صاني"¹⁷⁵ المكلف بمرافقتهم ومراقبتهم حتى الجزيرة حيث سيسلمهم إلى سلطاتها. طيلة هذه الرحلة، كما الأخرى من مرسيليا إلى جزيرة لاريونيون على ظهر باخرة أخرى¹⁷⁶ وهي "الأميرال بيير"، ابتداء من 2 شتنبر 1926، «كان عبد الكريم هادئا مطمئن البال. لقد أكدت له السلطات الفرنسية بأنه ذاهب لمدة ست سنوات سيعود على إثرها إلى بلده الأم. لذا كان يبدو واثقا من عودته يوما إلى الريف، منطقته الأصلية.»¹⁷⁷ هذه العبارة ستترسخ في ذاكرته وسيحتفظ بها طيلة منفاه الطويل لأنه «لم [يكن] يدور في خلد أنه لن يرى بلده نهائيا.»¹⁷⁸ .

في هذا القسم أيضا، أورد المؤلف بعض التصريحات الأخيرة التي أدلى بها عبد الكريم، وكذا رغبته في أن يكون مآل ممتلكاته بيد فرنسا.

ما يشد الانتباه في هذا القسم من الكتاب هو الإيجاز في تناول الوقائع التاريخية، معتمدا في ذلك على نصوص مقتبسة من مؤلفات مطبوعة ومتداولة، منها مثلا: "أسد الريف" لصاحبة محمد محمد بلقاضي (الطبعة الفرنسية 2007)، "تاريخ المستعمرات، من الاحتلال إلى الاستقلال" لصاحبه فيرو (1994)، "دراسات في تاريخ المغرب" لجرمان عياش (1979)، مذكرات عبد الكريم لروجر ماتيو (1927)، ومقالات عدنان السبتي في مجلة زمان (2014).

زوجته وابنيه بفاس. بعد عبد الكريم، كان أمغار، الرجل أكبر المطلوبين من طرف الإسبان. لقد كان هو المسؤول عن معسكرات الاعتقال الرهيبة حيث تعرض الإسبان أشكال متنوعة من الإساءة. ثم هناك ثمانية من الخدم، منهم ست نساء (...) ورجلان. واحد منهما هو حسن بن الحاج محمد (...) من بني توزين والذي رافقهم طوعا. المنفي رقم ثلاثون هي والدة عبد الكريم، فطوش بنت أحمد البالغة ستون سنة من العمر والتي فضلت مشاركة أبنائها في هذا المضير المؤلم بمغادرتها لمنطقتها الأصلية.»، ص. 32، نقلا عن: عدنان السبتي، تاريخ المغرب، زمان، 2014

175 - هذا الضابط، صاني، هو الذي طلب من الأمير كتابة مذكراته عن الحرب وهي التي ستعرف فيما بعد بمخطوط لاريونيون أو بمذكرات لاريونيون والتي قام بتقديمها وتحقيقتها والتعليق عليها بالنسبة للنص العربي كل من: عبد المجيد عزوزي، محمد أونينا، عبد الحميد الرايس وجمال أمزيان، 2017، وبالنسبة للترجمة بالفرنسية كل من التهامي الزموري، مراجعة وتحقيق كل من Maria Rosa de Madariaga و René Gallissot مطبعة أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب

176 - الباخرة التي ستقلهم من مرسيليا إلى لاريونيون مرورا بقناة السويس ابتداء 3 شتنبر 1926، وستدوم الرحلة أربعين يوما.

177 - ص. 26

178 - ص. 28

في القسم الثاني من الكتاب من صفحة 35 إلى صفحة 165 والذي عنوانته بـ "مرحلة المنفى"، وهو القسم الأهم، أسهب الكاتب في اقتفاء أثر عبد الكريم وعائلته منذ حلولهم بجزيرة لاريونيون يوم 10 أكتوبر 1926 حتى مغادرتهم لها يوم 30 أبريل 1947. لقد تتبّع حياة العائلة الخطابية بالجزيرة خطوة بخطوة، بدءاً بالاستعدادات القبلية لوصولها والتعريف بقصر مورانج الذي سيحضنها قبل انتقالها إلى "كاستل فلوري" ثم "الأحواض الثلاثة" صعوبات الاستقرار والاندماج التدريجي مع الساكنة، والتكيف مع الخصائص المناخية الجديدة، وأشكال المراقبة التي تغيرت من الشدة والعزلة التامتين إلى التخفيف منهما، وكيف تعامل عبد الكريم مع سلطات الجزيرة التي ارتابت منه في بداية الأمر حتى تأكدت من "حسن نواياه" تجاهها وتجاه فرنسا. كما تناول في هذا القسم أيضاً الصعوبات الصحية والمالية التي واجتها الأسرة الكبيرة العدد (40 فرداً) وتربية الأبناء وتعليمهم، وعما قامت به من مجهودات لتجاوز تلك العقبات. هذا إلى جانب إيراد مجموعة من رسائل ابن عبد الكريم لما أخذ المنفى يثقل بكاهله عليهم جميعاً، طالبا العودة إلى البلد الأصلي، وموضوع رفات والدته ومواقفه السياسية وتفاعله مع المستجدات العالمية الكبرى من قبيل الحرب العالمية الثانية ومحاولات تهريبه وليس هروبه، كما رددت بعض الأبواق الإسبانية وقتذاك، ثم دخوله مجال التجارة وعالم الأنشطة الفلاحية لتحسن بذلك الوضعية المالية للعائلة. وهذه هي العناوين الكبرى التي توضح ذلك:

بداية المنفى بقصر مورانج (ص. 51).

1929: تغيير الإقامة إلى كاستل فلوري (ص. 63).

أمل العودة يتبخر (ص. 79).

المراقبة تتخفف ومزيد من الحرية ابتداء من 1937 (ص. 89).

الحرب العالمية الثانية: عبد الكريم تنكسف آماله في العودة إلى الوطن (ص. 111).

استراتيجيات لوضح نهاية للمنفى (ص. 135).

نهاية المنفى: المغادرة (ص. 149).

عبر هذه العناوين الكبرى، استطاع الكاتب أن يقدم لنا موضوعاً متكاملًا مهماً عن مرحلة منفى الأمير، وذلك بحكم ما توفر لديه من مادة مصدريّة غنية ووثيقة تكمن في الرسائل والتقارير العسكرية والصور والشهادات.

إن ما يميز هذه الوثائق كون الكثير منها ينشر لأول مرة على ما أعتقد، وهذا ما يجعل الكاتب متفردا بهذه الخاصية عن باقي الباحثين، وستسجل له دوما على أنه كان الأول الذي بادر إلى البحث في هذا النوع من التيمات التي انضافت كقيمة مهمة في البحث التاريخي.

وحتى نأخذ فكرة عن مضمون هذا القسم الهام من البحث، سأورد نصوصا مختارة منه تتوالى حسب مواضيع الكتاب:

لماذا تم اختيار جزيرة لاريونيون كمنفى؟

«إن البعد والانعزال الجزيري للاريونيون كانا أهم الأسباب التي دفعت السلطات الفرنسية إلى اختيار هذه الجزيرة كمكان للنفي، إضافة إلى سكان الجزيرة كانوا دوما مضيافين وغير معادين للوجوه التاريخية المخلوعة.» (ص. 35)

« قبل وصول عبد الكريم، استقبلت الجزيرة شخصيات سياسية أخرى كانت ترغب فرنسا في إبعادها عن بلدانها لتسهيل الاستعمار: السلطان سعيد علي لجزر القمر سنة 1893، الملكة الملبغاشية رانافالوفا في 1897، ملك الأنام الفيتنامية في 1919. » (ص. 36).

«عندما حضرت إلى الفيلا ذات صباح من أكتوبر، لم يكن الأطفال (...) حذرين قطعا من آتلي وأخذت لهم الصور كما شئت. لكنني لم أكن محظوظا مع الخادما اللواتي كن يعبرن الساحة لجلب الماء، فقد كن يسرعن وهن يغطين وجوههن. ومع ذلك حصلت على صورة جيدة للجميلة زينب (...) التي كانت تغسل الملابس عند العين تحت أشجار الموز، بينما موحد، الخادم، كان يرمقها.»¹⁷⁹ (ص. 48)

Marcel Warbled¹⁸⁰

بداية الاستقرار في لاريونيون وظروفه:

«استقبل الأمير يومين بعد وصوله من لدن الحاكم "ريبيكي". كان عبد الكريم معجبا بحسن الاستقبال الذي حظي به، وأوضح الضابط صاني الذي رافقه من المغرب إلى أنه قام بسفر طويل دام أربعين يوما وأن كل شيء مر بسلام وأن عبد الكريم وعائلته حظوا بتقدير قائد الباكسة لحسن سيرتهم. شكر عبد الكريم الضابط صاني على تفانيه، وكذا مؤهلاته كمترجم ووسيط (...) ثم نصحه حاكم الجزيرة بتجنب

المجموعات الإسلامية الصغيرة، سيما الهندية، إذ أن السلطات كانت تتخوف من أن تجعله زعيما روحيا لها. وقد وعد الأمير بذلك.» (ص.51)

«بمجرد وصوله وخلال شهر، كتب عبد الكريم مذكراته عن الحرب برفقة الضابط صاني. وفي كتاباته هذه يحكي عن الحرب ورغبته في إنشاء دولة جمهورية. لقد كان عبد الكريم أدبيا دقيقا، يشتغل بكثرة (...) إن المذكرات عن الحرب نشرت سنة 1927 بدار النشر من طرف روجيه ماتيو.»¹⁸¹ «في قصر مورانج الواقع في منطقة "الشانزليزية" تنتشر فيها الملاريا بشدة، لم تكن الحياة يسيرة وحتى أسرة عبد الكريم لم تنج من هذا المرض. لقد أصابت الحمى الصفراء والددة الأمير وخدمه منذ الأشهر الأولى.» (ص.54)

«مراقب أربع وعشرون ساعة على أربع وعشرون، وحر في التنقل داخل حديقته، عبد الكريم، القائد الكبير للحرب، دخل في مرحلة انتظار طويلة (...) لقد كان هدف السلطات هو الاحتفاظ به معزولا عن ساكنة الجزيرة. وفي أفق خلق مناخ الخوف من القائد الريفى السابق، أقدمت السلطات، انطلاقا من لغة "كريول" [المحلية] على نحت أساس فرنسي لمقطع "الكريم" التي تعني في العربية "الجواد" وقابلته في الفرنسية المتداولة في الجزيرة بلفظة متماثلة صوتيا "أي crime" (ص.55) = "الجريمة".

الصعوبات المالية وانعكاسات النفي:

«تكاليف العيش ارتفعت بشكل مطرد، كما ارتفع عدد أفراد الأسرة بسرعة إذ انتقل بين 1926 و1937 من إحدى وثلاثون إلى أربعين (...). كثر الأطفال وارتفعت مصاريف تدرسههم وملابس الذكور غالبية سيما لما ولجوا الثانوية، لقد كانوا يلبسون مثل التلاميذ الفرنسيين. على مستوى الصحة، كانت أثمان الأدوية علاج الملاريا مرتفعة (...) رغم هذه الصعوبات لم يشتك عبد الكريم قطعا، بل كان مسلما جيدا معتمدا على العناية الإلهية لتجاوزها.» (ص.57)

«في 8 يونيو 1927، نشب شجار بين حسن، بن زيان وحمو، توجه عقبها حسن إلى الدرك لتقديم شكاية عبر فيها عن كونه تعرض للعنف (...) هذا الحدث يكشف

181 - أعتقد أن المقصود هنا مذكرات صاني المعروفة بمذكرات لاريونيون وليس مذكرات روجيه ماتيو التي هي عبارة عن مقابلات صحفية أجراها مع الأمير وشقيقه ونشرها تحت عنوان خادع، كما تقول ماريا روسا ذي مدارياغا، انظر: عبد الكريم والكفاح من أجل الاستقلال، مرجع سابق، ص.527.

على صعوبة استمرار العيش جماعيا بحكم عددهم المرتفع وفي مسكن واحد». (ص.58)

عبد الكريم يعتقد أنه أنهى عقوبته والمنفى بدأ يؤثر عليه ويشرع في طلب العودة في أول رسالة موجهة لرئيس مجلس الوزراء (1932) :

«سيدي رئيس مجلس وزراء الشؤون الخارجية [...] إنكم تعلمون بعض الظروف التي كانت وراء استسلامنا. نعم لقد كان بإمكان المقاومة أن تستمر أكثر لكنني رغبتنا في حقن الدماء وإنهاء حرب غير متكافئة وغير مجدية، أخذنا بنصائح السيد "بارون"، والذي كان بين ظهرانينا منذ شهور خلت منذ استضافناه لتوفير المؤونة وتقديم الرعاية للأسرى الفرنسيين. وتبعنا لنصائحه ربطت اتصالا مع المقيم العام السيد ستيغ طالبناه بوقف الأعمال الحربية.. كما قمنا بنفس الخطوة نحو المندوب الإسباني. وفي ذات الآن كنت أطلق سراح السجناء الفرنسيين والإسبان.

زارنا آنذاك ضابطان أرسلهما العقيد...¹⁸² الذي توصلنا منه لاحقا برسالة يخبرنا فيها بمنحنا الأمان، أي الحماية الفرنسية لشخصنا وذوينا وأملاكنا.

أمضينا شهرين بفاس ولم نعلم بقرار نقلنا إلى جزيرة لاريونيون إلا بعد انصرام هذه المدة.

وخلال إقامتنا في فاس أكد لنا أعضاء السلطة الذين اتصلوا بنا وأخبرونا بأننا سنعاقب بهذا النفي القاسي، وبأنه بالرغم من كون هذا الإبعاد أمرا ضروريا في تلك الفترة، إلا أن مدته في المقابل لن تطول، وذلك لأن الثقة التي وضعناها في فرنسا لن تكون دون جدوى، حيث سنعود قريبا إلى المغرب الفرنسي لنعيش هناك مع أهلنا تحت حماية هذه الدولة الفرنسية القوية التي عرفنا عنها منذ أمد إلزامها برسالتها السامية التي تعهدت بها لحماية المسلمين.

إن نفينا هنا بلغ ست سنوات. صحيح أننا نعامل بشكل جيد والإقامة مريحة، والسيد الحاكم "ريبكيكيت" الذي كلف النقيب فيرين، يعاملنا دائما بأقصى قدر من اللطف ويمنحنا كل معروف التمسناه منه، لكن النفي يبقى قاسيا، إذ أنه العقاب الأكثر إيلاما والذي يمكن أن يلحق بنا.

تعيش بيننا هنا والدتي المسنة والتي لا ترغب في الموت دون العودة لرؤية بلدها الأصلي وبناتها، أي شقيقاتي اللواتي بقين هناك. بالإضافة إلى زوجتي اللتين توجد عائلتهما في المغرب، وأبنائنا وأنجال شقيقنا وعمنا الذين نرعاهم ونربيهم في ظل

182 - هو العقيد كوراب Corap

احترام وحب فرنسا، ونبذل ما في وسعنا لتلقيهم تعليمًا وتربية فرنسيين، متمنين بصدق أن يعودوا بالنفع على فرنسا حينما يكبرون. لن ترغب سعادتكم أن تستمر في المنفى هذه الكائنات التي تعتبر براءتها جلية.

بإمكان صديقي النقيب فيرين تأكيد ما نكنه من مشاعر طيبة تجاه فرنسا. فبعد معاشرتنا لمدة عشر سنوات أصبح هذا الضابط يعرف فيما أفكر ويدرك رغبتنا القوية لخدمة فرنسا.

سنكون ممتنين لسعادتكم ولفرنسا.

عبد الكريم الخطابي 1932»¹⁸³ (ص.ص. 74-75)

وينتفض ضد مقال نشر بجريدة "باريس المساء" تتهمه بالتخطيط للهروب (1933) «لم يكن قط في نيتي، في رسالة له موجهة إلى وزير الشؤون الخارجية بفرنسا، الهرب أو القيام بأية خطة أو عمل ضد فرنسا أو إسبانيا. أود أن أعلم الجميع، ولآخر مرة، بأنني قد تعهدت بذلك سنة 1926 وبأنني عازم على الوفاء بعهدي ما دمت على قيد الحياة. ولدي من جهة ثانية القناعة الثابتة بأنني سأتمكن من إثبات ولائي وإخلاصي بالرغم من ارتياب المتشككين.»¹⁸⁴ عبد الكريم (ص.75)

«لماذا لا تثق بي فرنسا، ولأوضع تحت الاختبار، ولنسأل الريف عما إذا دفعت القبائل للشروع في قتال فرنسا. ليس لدي إلا رغبة واحدة، السيد فيرين، هي أن أكون في خدمة بلدي لما سأعود إليه. ليوثق بي في النهاية. لقد أدت الثمن غالبا بهذا النفي القاسي علي وعلى أهلي أيضا على الأخطاء المرتكبة والتي لم تكن إلا بجانب.» عبد الكريم (ص.75)

ويكسب ود الحاكم والنقيب عكس المقيم العام:

«في 1936، أصدر حاكم الجزيرة رأيه في أفق منح عفو ما على المنفيين والتفكير في عودتهم إلى وطنهم. في المقابل، كان رد المقيم العام هو الرفض. ذلك أن هذه العودة قد تثير بعض الاضطرابات. كما أن الاتفاقات مع الإسبان تتنافى وأية عودة محتملة.» (ص.84)

الزعيم الريفي يظل ريفيا حتى ولو تبخر حلمه في العودة:

183 - اعتمدت هنا الترجمة الواردة في كتاب: عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، مرجع سابق، ص.ص. 531-532

184 - نفسه ص. 535

«طيلة منفاه، حافظ عبد الكريم على لباسه الريفى التقليدى. كان يخرج دائما متدثرا
عمامته، جلابته وبلغته (...). وكل صباح كان يتمشى حول منزله وهو مستغرق في
التفكير.» (ص.84).

ويكسب صداقات مع عائلة فرجيس والنقيب فيرين:
«كان عبد الكريم يتفاهم مع والدي كثيرا إذ كان يأتي لزيارتنا ب"سانت أندري".
لقد كانت بينهما علاقات ودية وتوافق في الآراء. كانوا يتحدثون في التاريخ، حول
حرب الريف، الاستعمار...الموضوع الذي كان يربطهم أكثر. سي امحمد كان يتكلم
الفرنسية بطلاقة ويكون حاضرا حتى يقوم بالترجمة لأخيه. كان عبد الكريم قليل
الكلام، وعمه، الكبير، لا يقول شيئا. كان عبد الكريم مثيرا بجلايبه الواسعة
وعمامته. وكان محترما من لدن الجميع ولا يشارك بتاتا في السياسة
المحلية....»¹⁸⁵ (ص.89)

«في1937، غادر الجزيرة النقيب فيرين الذي تكلف بمراقبتهم منذ وصولهم سنة
1926. وخلال الإحدى عشرة سنة، كان الرجل يتردد يوميا على المسكن المراقب
لعبد الكريم. تعلم الرجلان كيف سيتفاهما. وحول شاي الصباح تمكنا من نسج
علاقات صداقة. لقد سهل النقيب "فيرين" تسجيل الأبناء بثانوية "لوكونت دي ليسل"
وكان "فيرين يناديهم "أبنائي". في تقريره، وضح بشكل دقيق كون تصرفات
وسلوكات الزعيم الريفى السابق جيدة، لائقة وجادة، وأنه "خاضع" لفرنسا. لقد كانوا
يعيشون بإمكانيات قليلة، ومع ذلك لم يشتكوا.»¹⁸⁶ (ص.92)

إشكالية وفاة المرحومة والدة الأمير:

«سان دوني بتاريخ 22 أبريل 1938

من النقيب "باريو" قائد ثكنة درك الجزيرة

إلى السيد حاكم لاريونيون

الموضوع: في شأن نقل رفات والدة عبد الكريم

¹⁸⁵ - Paul Verges, 2014

¹⁸⁶ - Patrick de Gmiline, Le Lieutenant jean Vérines, 1935,page 35

لي الشرف أن أقدم لكم تقرير هذا اليوم بأنه على الساعة 11:30 أخبرت عبد الكريم بتوصلي ببرقية بحرية رقم 9 بتاريخ 18 أبريل 1938 متعلقة بنقل رفاة والدته إلى آسفي (المغرب)

لقد تأثر كثيرا وذووه بالإجراء الذي اتخذته الحكومة الفرنسية التي يعربون لها عن فائق شكراتهم المرفوقة بامتنانهم الدائم. ويوجهون عنايتهم السخية للسيد الوزير الذي سمح لأحد أفراد الأسرة بمرافقة الرفاة.

إن مجلس العائلة قد وافق وبالإجماع على تعيين سي امحمد، الابن الأصغر للمرحومة وأخ عبد الكريم للقيام بهذه المهمة الراهية.

هذا المغربي تعهد بشرف للعودة إلى لاريونيون حينما تنتهي مهمته وعلى أن لا يقوم بأية دعاية في الأوساط العربية. تاركا رفقة أخيه زوجيته وأبنائه كعربون على صدق كلامه. وحتى تأتمنه الحكومة الفرنسية وتطمئن إليه، فإن عبد الكريم سيسعد إذا ما رافقه أحد ليراقبه خلال سفره.

في حالة ما إذا لم يقع الاختيار على سي امحمد، فإن الجثمان سيرافقه سي عبد السلام، عم عبد الكريم الذي يبلغ من العمر سبع وخمسون سنة والمصاب بالملاريا وسيقوم بالمهمة حالما يسمح له وضعه الصحي بذلك.

إن السيرة المثالية للزعيم الريفي السابق، وكل أفراد عائلته، ومشاعرهم تجاه فرنسا وخضوعهم الذين يعبرون عنه حينما يقبلون بقرارات الحكومة الفرنسية يجعل من واجبي اعتبار كلمتهم كعربون على وفائهم.

ولذلك فإن رأيي إيجابي لتعيين سي امحمد أو في غيابه سي عبد السلام. إذا سمحت الظروف، فإن إرسال الجثمان يمكن أن يكون ابتداء من 5 ماي المقبل..»¹⁸⁷ (ص. 95)

ملاحظة لا بد منها:

قد يبدو، من خلال أسلوب كتابة الرسائل التي أشرنا إلى بعضها أعلاه، أو من خلال بعض المواقف تجاه فرنسا سيما خلال الحرب العالمية الثانية، أو من خلال التصريحات التي أدلى بها على ظهر الباخرة (عبدة والأميرال)، أن عبد الكريم قد

¹⁸⁷ - رسالة النقيب "باريو" إلى حاكم مستعمرة لاريونيون، 22 أبريل 1938، وتجدر الإشارة إلى أن أمر نقل رفاة والده الأمير سيقع فيه تماطل ولن يغادر الجزيرة إلا مع رحيل الزعيم عنها في 1947، وسيظل على ظهر الباخرة التي أقلته ليصل إلى فرنسا، ومنه سينقل إلى المغرب ليدفن بآسفي.

خضع لفرنسا وانقاد لها، وأن شخصيته قد انهزمت وانهارت وفقدت تلك القدرة على المقاومة، وأن عبد الكريم لم يعد ذلك الزعيم الذي رسمنا له في أذهاننا صورة الزعيم والبطل الذي لا يقهر، أو قد نكتشف من خلال حكي المؤلف في هذا الكتاب صورة أخرى ووجها آخر لعبد الكريم لم نألفه عنه انطلاقاً مما سمعنا عنه، سواء من خلال ما تتداوله الذاكرة الجماعية في الريف، أو ما كتب عنه في المؤلفات والمقالات التي تقدر بالميئات.

كما تقول ماريا روسا: «لم تتسم لهجة هذا الملتمس بالخضوع فحسب، بل لابد أن نضيف أنه كان يطبعه أيضاً نوع من التزلف. من المؤكد أن عبد الكريم ما كان ليشكي كثيراً من المعاملة التي تلقاها من الفرنسيين، إذا أخذنا بعين الاعتبار بالخصوص ما كان سيصبح عليه مآله لو وقع بين أيدي الضباط الإسبان. لقد عمل عبد الكريم جاهداً منذ استسلامه للفرنسيين على التعبير في مناسبات شتى، عن مشاعر الامتنان والوفاء للبلد الذي منحه الأمان والذي كان يوجد هو وذووه تحت حمايته. حاول بكل الوسائل استرضاء السلطات الفرنسية مبينا لها أنه لم يعد يشكل أي تهديد، ويمكنها بالتالي السماح له بالعودة إلى المغرب ذاته (منطقة الحماية الفرنسية)، وإن تعذر ذلك إرساله على الأقل إلى أحد بلدي المغرب العربي».¹⁸⁸

وتضيف قائلة: «علينا أن نأخذ بالحسبان أيضاً أن عبد الكريم لم تكن له إمكانية التعبير بكل حرية فيما يخص بعض القضايا المحددة. فلا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن وضعه كمنفي تحت الحماية الفرنسية لا يسمح له بهذا النوع من المخاطرة، بل سيتجنبها بدوره لأن ما كان يهمه بشكل أساسي في ذلك الوقت هو التفكير في طريقة تنهي بأسرع وقت ممكن فترة المنفى».¹⁸⁹

لكن عبد الكريم يظل هو عبد الكريم. لقد حتم عليه المنفى أن يستكين ويوالي السلطات الفرنسية ويتجنب الانزلاقات التي قد تأتي بما يضره ويضر عائلته التي تحملت معه عبء النفي. إنه ذلك الدبلوماسي الفطن الهادئ، وهي الصفات التي تحلى بها يوم اختارته قبائل الريف لقيادة المقاومة، تلك الصفات ستعود بمجرد أن وضع قدميه على أرض مصر، فتشبث بها حتى رحيله سنة 1963 رغم الإغراءات الكثيرة.

188 - ماريا روسا دي مدارياغا، مرجع سابق، ص. 532

189 - ماريا روسا، م. س. ص 34

هذه المرحلة الأخيرة هي التي شكلت مضمون القسم الثالث من هذه الدراسة التي قام بها الدكتور تيري مالبرت ما بين صفحتي 167-182، وهي صفحات قليلة بالمقارنة مع غزارة الأنشطة التي قام بها عبد الكريم بالقاهرة. ومع ذلك يبقى مهما جدا إذ تضمن مجموعة من الشهادات لأشخاص ينتمون إلى بعض أسر الجزيرة التي ربطتهم علاقات إنسانية وتجارية جيدة مع الأمير. وفي هذا الصدد يقول الكاتب: «ذكريات عبد الكريم وعائلته لا تخلو منه جزيرة لاريونيون. ذلك أن واحد وعشرون من المنفى على هذه الأرض من المحيط الهندي قد تركت آثارا في أذهان عدة شخصيات قدمت لنا شهاداتها حول أوقات من حياتهم قضوها بجانب هؤلاء المغاربة.» (ص.183).

ومن هذه الشخصيات يذكر السيد "بيفرلي" والسيد "ميرلو" والسيد "أوسمان دندار"، والمحامي "بول سالز" وغيرهم.

خلاصة:

ما يميز هذا الكتاب، هو كثرة النصوص، إذ نجد أحيانا بعض صفحاته تتشكل من النصوص وحدها، مع غياب أي تعليق عليها. زد على ذلك أن الكثير منها لم تكن متداولة من قبل، وهي الملاحظة التي أشرت إليها فيما سبق.

إن كثرة الصور، ومنها ما لم ينشر سابقا، تجعل منه وثيقة مهمة في تتبع حياة أفراد الأسرة الخطابية في منفاها هناك بجزيرة لاريونيون وتسد تلك الثغرة التي كانت تؤرق الباحث في تاريخ الأمير. أعتقد أن الكاتب قد اطلع على صور ووثائق أخرى كنا نتمنى لو أضافها إلى مؤلفه. هذه الملاحظة أشرنا لها لكوننا اطلعنا مؤخرا على صور جديدة كشفها بعض المهتمين الذين زاروا الجزيرة.

بدون موارد ولا تزلف، إن هذا الكتاب جدير بالاهتمام والقراءة لكل مهتم بتاريخ البلد عموما والريف على وجه الخصوص ويرد تعميق معلوماته حول مرحلة من مراحل حياة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، المرحلة التي أهملها الباحثون والمؤرخون إلا من رحم ربنا. كما غيب من البحث التاريخي، سواء على المستوى الرسمي أو نخب المغرب المستقل. إنه كتاب غني بمادته المصدرية، الجديدة والمستقاة من منابعها الأصلية.

صدر حديثا عن مركز محمد بن سعيد آيت إيدر للأبحاث والدراسات كتاب:
"الاتحاد الوطني لطلبة المغرب"
اطلبوه من مقر المركز



قراءة وتقديم لكتاب عبد الكريم الخطابي وجمهورية الريف

أحمد سهوات

مرور عشر سنوات على وفاة الزعيم الريفي محمد بن عبد
الكريم الخطابي نظمت بباريس ندوة علمية كبرى في شهر
بمناسبة شتمبر 1973 ، شارك فيها عدد كبير من المؤرخين والباحثين
المختصين في التاريخ المعاصر والحركات التحررية ، ويكفي الإشارة الى أسماء
مثل جاك بيرك ، وشارل أندريه جوليان وعبد الله العروي وجان لوي ميج... ورونيه
غاليسو ودانييل ريفي... وعبد الرحمن اليوسفي ومحمد زنيير... وميجور... وآخرين
لنتبين أهمية الحدث ومكانة حرب الريف في التاريخ المعاصر.
وللأسف الشديد لم يتوصل القارئ المغربي العادي بأخبار هذه الندوة ولا
بالدراسات القيمة التي قدمها المشاركون إلا بعد أن تم تجميع أشغالها في كتاب
صدرت طبعته الأولى والوحيدة باللغة العربية سنة 1980 من طرف دار ابن رشد
للطباعة والنشر ببلبنان ، وهي طبعة تمت على ما يبدو في جو من السرعة أثر على

الترجمة التي تمت تحت اشراف صالح البشير فجاء نقل المواد الى اللغة العربية شبيها بذلك النقل الذي انتقده عبد الله العروي حين قام ذوقان قرقوط بترجمة كتابه تاريخ المغرب ، وقد أدت سرعة الطبع والنشر كذلك الى أخطاء في ترتيب الصفحات واختلالات في فقرات الكتاب ..ومع ذلك فقد حصلنا على نسخة ليست جيدة الطبع لكنها شكلت بالنسبة لنا آنذاك ، وثيقة غاية في الاهمية ..لنعطشنا لمعرفة ما جرى والتعرف على جزء من تاريخنا الوطني ، ولكون الكتاب من جهة شمل أشغال ندوة دولية حول حدث متميز في تاريخ المقاومة المغربية ، كما أنه جمع دراسات وشهادات لنخبة من كبار المؤرخين والباحثين الذين نحتوا اسمائهم في سجل البحث التاريخي خلال القرن العشرين ، منهم من عايش ثورة الريف مباشرة ومنهم من عايش أحداثها عن قرب..كمؤرخ أو مسؤول ياحدى المؤسسات أو مقاوم بالحركة الوطنية المغربية .

أهمية هذا الكتاب

الندوة هي التي جعلتني أحتفظ به في وقت اتسم بشح الدراسات والوثائق وعدم القدرة على التوصل بما هو منجز منها الى أن فصح المجال أمام الباحثين لاغناء الخزانة الوطنية بإلقاء الضوء على جوانب هامة من حرب الريف بانجاز دراسات واطروحات أكاديمية ومن بينها ما انجزه الأستاذ جيرمان عياش وما كشف عنه ارشيف الدول التي كانت معنية بحرب الريف ، وبذكر الأستاذ جرمان عياش رحمه الله ، فإننا نجهل أسباب عدم مشاركته في هذه الندوة الهامة ، حيث لم يرد اسمه سوى في اشارة لمقرر الندوة روني غاليسو متأسفا عن عدم تقديم السيد جرمان عياش لمحاضراته ، قائلا : (أود القول إننا خسرنا معطيات جد هامة كان من شأنها ان تقودنا الى فهم أكثر لطبيعة تكوين شخصية عبد الكريم الخطابي ولمحيطه ..وذلك بخسارتنا التقرير الذي كان على جرمان عياش تقديمه لنا ، ، وخسرنا أيضا خسارة قاسية بعدم حضور التهامي الأزموري الذي كان قد شرع في دراسة حول المجتمع الريفى) .

كتاب الخطابي وجمهورية الريف، هو كتاب من الحجم الكبير يضم 426 صفحة اضافة الى صفحتين لفهرس غير دقيق ، وتشمل الصفحات خمسة وعشرون دراسة هي عبارة عن مداخلات شارك بها باحثون ومؤرخون مختصون ، تضاف اليها

صفحات خاصة بالمناقشة التي كانت تعقب كل محور من العروض المقدمة ، مع خلاصة تركيبية تقدم بها روني غاليسو ، ولظروف نجهلها فإن واضعي الكتاب لم يكلفوا أنفسهم لا بتبويب أعمال الندوة ، وترتيبها ، ولا بتقديم يضع القارئ أمام معطيات مفسرة لسياق وخلفيات تنظيم الندوة والتعريف بالمشاركين فيها .. ومهما يكن الأمر فقد شكل الكتاب كما جاء سابقا ، فرصة حول أعمال الندوة التي التف حولها ثلة من كبار المؤرخين لم يسمح الزمن فيما اعتقد بالتفافهم مرة أخرى ، لوفاة بعضهم أو لكبر سنهم ، رحم الله المتوفين وأطال عمر الباقين على قيد الحياة. وقد جاءت أعمال الندوة متنوعة وشاملة ، نسوق بعضها الى قارئ مجلة الربيع في الأسطر التالية ، ولا بد من الإشارة بداية الى أن المؤرخ شارل أندريه جوليان الذي اهتم بتاريخ المغرب وشمال افريقيا ، كان هو رئيس الندوة ، واكتفى لكبر سنه بتقديم توجيهي لأعمال الندوة تاركا المجال لروني غاليسو ليقوم بمهام التسيير والتقرير وتقديم الخلاصات، قائلا : (أود أن أقول لكم إن المهمة التي وعدت نفسي بها ، أي المساهمة بشكل نشيط في نقاشاتكم، ممنوعة علي لأسباب صحية (...)) ولذلك فقد استعنت بشخص أقل مني سنا : روني غاليسو الذي أبدى استعداداه لتعوضني في كل المشاكل التي يمكن أن تطرح ، مشيرا في كلمته الافتتاحية الى أنه نظرا لعامل السن ، فقد عايش فترة عبد الكريم ، وسمع أول أخباره في موسكو خلال شهر يوليو 1921 حيث كان الناس يعتقدون من خلال الصحف ، أن ثورة عبد الكريم لا تعدو أن تكون إحدى الثورات التي تدوم عدة أسابيع أو أشهر ثم تخمد كما برزت .. لكن نظرا لضخامة الأحداث التي تفاعلت لمدة خمس سنوات فإننا - يقول أندريه جوليان - اليوم نتساءل عن معناها العميق ، ولذلك ، لا بد لنا اليوم، أولا من الإحاطة بشكل أقرب بشخصية عبد الكريم الخطابي ، وتكوينه ، ومختلف العناصر التي ساهمت في تطور ذهنيته ، وعدائه للإستعمار ، وهو عداء ظهر حسب تقييمي ضد فرنسا ثم ضد اسبانيا . ودعى شارل أندريه جوليان في كلمته الافتتاحية الى البحث في مختلف المسائل الأساسية التي تطرحها حرب الريف ، مشيرا إلى أن ندوة واحدة لا يمكنها أن تستوفي ضخامة وتنوع القضايا المرتبطة بحرب الريف، وشملت كلمة أندريه جوليان جملة من التساؤلات والمعطيات نجملها فيما يلي :

- الى أي حد ساهمت نشاطات عبد الكريم الإدارية باسبانيا وثقافته العربية في تكوين شخصيته ؟ وما تأثير دراسته في جامعة القرووين، في وقت بدأت هذه

الجامعة العريقة تشعر بأن عليها أن تتجدد ، وفي وقت جعل الشباب ينظرون أبعد من أساتذتهم ، وينفتحون على الثقافة الشرقية ، إلى حد جعل عبد الكريم يطلع على مختلف الحركات الإصلاحية عن طريق صداقاته ، وكذلك عن طريق شخصية أخيه (أمحمد .بسكون الميم كما سنوضح لاحقا) الذي لعب دورا هاما الى جانبه رغم صغر سنه .

حين اندلاع حرب الريف انتشر صداها آنذاك ، وقد كان الناس يستغربون من تمكن جيش مرتجل من الانتصار على جيشين منظمين مثل الجيش الاسباني والجيش الفرنسي، وعم الاستغراب في العالم ، وكانت له في فرنسا أصداء أعمق مما كان يعتقد، وأصبح للقوة الريفية صدى متميز ..جعلتنا نتساءل عن كيفية تدخل أحلام رجال الأعمال الألمان والانجليز ..ويضيف أندريه جوليان قائلا في تقد يمه : لقد تفاجأ الناس بانتصارات عبد الكريم، ليس في المغرب فحسب، بل وكذلك في الخارج خصوصا في فرنسا حيث أدت بالحكومة الى إنهاء مهمة ليوطي ، وأثارت خلافات بين الشيوعيين والاشتراكيين ساهمت في تفتيت كتلة اليسار . ويقول المؤرخ إن الأرشف الانجليزي والألماني يكشف عن تدخلات شبه رسمية لا تظهر أن هناك مطامع ما عدا إذا أخذنا بعين الاعتبار النشاط الذي أبدته أوساط الأعمال في هذين البلدين ، حيث يبدو في حدود لم يتم الكشف عنها أن الأموال والسياسة تداخلت مرة أخرى بشكل جد وثيق . ويستمر صاحب تاريخ شمال افريقيا في توجيه الندوة قائلا : لا بد من إعادة دراسة المحادثات التي جرت مع الأمير ، خصوصا مؤتمر وجدة سنة 1926 وظروف استسلام عبد الكريم ، كما علينا الاهتمام بطريقة عبد الكريم في استعمال المدد الذي كان يأتيه من الخارج ومساعدات القبائل ، اذ أنها تدخل في اطار تصور جديد للحكم ، يهدف إلى تنظيم الجبهة الريفية ، وإلى إقامة دولة عصرية ذات استلهام اسلامي شديد الانفتاح على مكتسبات العلم والتقنية الغربيين .

ويختم شارل اندريه جوليان كلمته بالإشارة إلى الروابط الحميمية التي تربطه بالمغرب الكبير وخاصة بالمغرب الأقصى قائلا: (لقد عشت في المغرب الكبير ابتداء من سنة 1906، مما يعني تجربة طويلة ..ويمكنني أن أضيف أنني بقيت مشدودا بشكل خاص إلى المغرب الأقصى وإلى صداقات مغربية مازالت قائمة ، ولن أتحدث إلا عمن وافتهم المنية ، وكانوا عزيزين ، صديقي الزغاري الذي ائتممني وزوجتي على تربية ابنته لما كانت طالبة، والعالم الكبير مولاي العربي

العلوي ، الذي عندما جاء إلى فرنسا لأول مرة ، جاء لبيتي ليحادثني في قضايا الفكر المغربي....كما حافظت أكثر من كل شيء على ذكرى الصداقة التي كانت تربطني بمحمد الخامس) وبتنويه عاطفي بشخصيتين بارزتين في تاريخ المغرب هما مولاي العربي العلوي والسلطان محمد الخامس ختم صاحب كتاب المغرب في مواجهة الامبريالية ، تقديمه قائلا : إنما أتيت على هذه الذكريات لرغبتني العميقة في أن يكون عملنا في نطاق روح الأخوة الممائلة ، وبهذه الروح افتتح هذه الندوة المكرسة لعبد الكريم ..

أعود الآن لأوضح أن الندوة التي خصصت لحرب الريف ومحمد بن عبد الكريم الخطابي ، كانت تحت اشراف لجنة علمية مكونة من :

- جاك بيرك : وهو مؤرخ وأستاذ بكوليج دو فرانس
 - ريجيس بلاشير : أستاذ شرفي بالسوربون وعضو المعهد الوطن
 - جان دريش : أستاذ بجامعة باريس السابعة
 - فانسان مونتاني : أستاذ بجامعة باريس الثامنة .
- أما الرئاسة فكانت لشارل أندريه جوليان ، وكان أستاذ شرفي بالسوربون وعميد شرفي لكلية الآداب بالرباط .
- وتكفل بامانة الندوة كل من مهدي العلوي ، والسيد عبد الرحمن اليوسفي ، والتقرير لرونيه غاليسو.

أما الدراسات والتقارير والمداخلات العلمية فتقدم بها نخبة من المختصين، وهي مداخلات مكتوبة ومصحوبة بلائحة للمراجع والهوامش، وأسوق فيما يلي لائحة بأسماء المتدخلين وعناوين مداخلاتهم كما هي مرتبة في الكتاب

- جيرار موريي : البيئة الجغرافية للريف
- جان لوي ميسج : مدخل تاريخي العلاقات الدولية
- ديفيد مونغمري : المؤسسات الاجتماعية -السياسية الريفية وإصلاحات عبد الكريم.

- جاك بيرك : المد الوطني والديمقراطية القاعدية في الامة العربية -1915-1925

- روبرتو شافيز دياز : السلم الاسباني
- عبد الرحمن اليوسفي : مؤسسات جمهورية الريف
- دانييل ريفي : القيادة الفرنسية وردود فعلها اتجاه الحركة الريفية
- فانسان مونتاني : الحرب الريفية

- ريجيس بلاشير: الانتفاضة الريفية رائدة حركات التحرر في المغرب الكبي
- بول انزوار: حرب الريف والبرلمان الفرنسي + ملحق حرب الريف أمام البرلمان الفرنسي.
- روبير شارفن: الحزب الشيوعي الفرنسي في مواجهة حرب الريف.
- روني غاليسو : الحزب الشيوعي وحرب الريف
- شارل روبير اجيرون : الاشتراكيون الفرنسيون وحرب الريف
- جان مايير : الانعكاسات السياسية لحرب الريف في اسبانيا
- ماريا روزادي ماداريغا: الحزب الاشتراكي الاسباني والحزب الشيوعي الاسباني في مواجهة حرب الريف
- عبد الحق حاروشي: الولايات المتحدة في مواجهة حرب الريف
- مغالي مرسي : رهينة عبد الكريم
- روزاليا دافيكو: الحرب الليبية 1911-1932، الامبريالية ومقاومة الاستعمار في الشمال الافريقي
- محمد أحمد أنيس : عبد الكريم ومصر
- ايغور هادلي: بيلوغرافيا أولية
- ميجور : البعثة العسكرية البريطانية في برلين
- محمد شريف : حرب الريف وتونس
- كينيث براون : المقاومة والحركة الوطنية
- عبد الله العروي: عبد الكريم والحركة القومية المغربية حتى 1947
- محمد زنيبر: دور عبد الكريم في حركة التحرر الوطني في المغرب.
- وأخيرا نجد في الصفحة 412 من الكتاب شهادة ليوسف رويس تليها خلاصة تركييبة من قدمها رونه غاليسو.
- ومجمل هذه الدراسات القيمة والتي تشكل كل واحدة منها أطروحة تتناول جانبا من جوانب حرب الريف ، انطلاقا من الوسط الجغرافي للريف وخصائصه الطبيعية ، والسياق التاريخي الدولي والتفاعلات التي أحدثتها المقاومة الريفية على مستوى العلاقات الدولية، وعلى المستوى العربي والوطني ، إضافة الى الهوامش والشهادات والملاحق المرفقة بالدراسات ، هذه المداخلات والتقارير السياسية كان يعقبها نقاش وتعقيبات لثلة من الأساتذة والباحثين المختصين ، أذكر منهم : أندريه آدم - ابراهيم بوطالب حسين أيت علي - محمد بن هلال - ف كليمون - مارك فيرو -

جان غوتيه - دانيال غيران - جيلير ماني - محمد نيمي وآخرين ... وهي تعقيبات تغني التقارير والأبحاث المقدمة ، وتثري النقاش كما تلقي الضوء على مختلف القضايا المرتبطة بالمقاومة المغربية الريفية .. اذ تعتبر بحق مفاتيح ومداخل هامة لدراسات وابحث في الموضوع لايمكن الاستغناء عنها بالنسبة للدارسين .

وقبل الشروع في تقديم خلاصات لبعض المداخلات المقدمة خلال الندوة -إذ لايسمح المجال بالتطرق لكل المحاور ، أود الإشارة بداية الى توضيح تقدم به الأستاذ ابراهيم بوطالب خلال مناقشة المحور الأول خصصه للتأكيد على أهمية تحديد بعض المفاهيم والتسميات يقول فيه : (أود أن اقدم بعض الملاحظات وأطلب أن يتم الاهتمام أكثر بالمفاهيم والكلمات المستعملة أثناء الحديث عن حرب الريف ، إحدى هذه التوضيحات تساهم في جعل شخصية محمد بن عبد الكريم أكثر وضوحا ، وذلك بتجنب اطلاق اسم عبد الكريم على الزعيم اليفي لأنني أجزم بأن اسمه هو محمد بن عبد الكريم ، وأذكر أننا ونحن أطفال كنا نسمع الناس يسمونه بن عبد الكريم ، أو (اليفي) وليس عبد الكريم ، لذلك يستحسن أن نعتاد على تسميته باسمه الحقيقي وهو محمد بن عبد الكريم). وقد اعتبرت شخصا أن هذه الملاحظة في محلها لأن الناس إلى حد الآن يحتارون بين عبد الكريم الخطابي الأب الذي توفي في ظروف غامضة ، وبين الأخ الأصغر محمد الخطابي (بجزم الميم) وبين محمد بن عبد الكريم الخطابي قائد معركة انوال وستتضح هذه المسألة فيما بعد من خلال الدراسات المقدمة في الندوة أو الدراسات التي جاءت بعدها وأهمها دراسة جرمان عياش في كتابه أصول حرب الريف .

أما الملاحظة الثانية التي سجلها ابراهيم بوطالب ، فتتعلق بما يمكن تسميته بالكثير من التحفظ، التاريخ المغربي المعاصر ، ويوضح ذلك قائلا : (الظاهرة الرئيسية والفعل الذي يتمحور حوله هذا التاريخ بداية من القرن السادس عشر هو مقاومة التسلل الأوروبي، أي أن محمد بن عبد الكريم ، لم يكن الوجه الأول للمقاومة المغربية للتسلل الأجنبي، إنه يأتي في نهاية عملية طويلة...فحتى سنة 1830 كان علينا أن نقاوم بلدين مرا على هامش القرنين السادس عشر والثامن عشر ، اي أنهما لم يحققا الثورة الصناعية ، وهما اسبانيا والبرتغال اللذين لم يتصنعا حتى ذلك التاريخ ، كان بإمكاننا أن نكون انداد الطليعة الاستعمارية الأوروبية ، ويمكننا أن ندافع عن استقلالنا . لكن ابتداء من سنة 1930 بدأ التفاوت ، ومحمد بن عبد الكريم يلخص ذلك بشكل جيد في ملحمة : بما أنه كان عليه أن يناضل ضد قوة

غير مصنعة ، والتي كان معها على قدم الندية والمساواة تمكن من أن يلحق بها هزيمة كبرى ، طالما أن معركة أنوال تبقى من عيون العمل العسكري ، لكنه عندما واجه قوة مصنعة هي فرنسا، فقد لعبت البنى التقليدية والتي ولد فيها ضده) انتهت ملاحظة د ابراهيم بوطالب .

وأنتقل الآن لتقديم خلاصات لبعض المداخلات التي عرفتھا الندوة وتضمنها الكتاب الذي بين أيدينا على أمل أن يسعى مركز محمد بنسعيد الى البحث عن المداخلات الأصلية تعميما للفائدة .

1- محاضرة جان لوي ميج : كانت بعنوان "مدخل تاريخي: العلاقات الدولية" ،
حيث ركز المؤرخ على طبيعة الصراع الذي عرفته منطقة البحر المتوسط بين الدولتين الامبرياليتين بريطانيا وفرنسا ثم دخول المانيا الى حلبة الصراع ابتداء من خريف 1884 مؤكدا أن دخول فرنسا إلى المغرب كان نتيجة هدف طويل الأمد وعنيد فرض نفسه على الدبلوماسية الفرنسية ، ويدخل ضمن سياسة متوسطة قائمة الذات ، إلا أن هذا الهدف يقول ميج اصطدم عبر قرون بهدف آخر ليس أقل وضوحا أو عنادا في محاولة تحقيقه هو هدف بريطانيا العظمى في المتوسط ، هذه المواجهة الأساسية بين الامبرياليتين اتسمت بإيجاد مؤامرة جزء كبير منها يتكون من عناصر ريفية ، خصوصا محاولة استعمال سكان منطقة طنجة الريفية ومحاولة استعمال المصالح الاقتصادية الأوروبية في الجبال الريفية وكذلك باستغلال القوى الدينية (...). ويضيف ج . ل. ميج ، إن هذا الخط الأساسي في العلاقات بين الدولتين تلاقى مع عداء بيسمارك للسياسة الفرنسية ..وقد تمكنت إنجلترا وألمانيا من جمع مظاهر المعارضة لفرنسا بتغذية المطامح المحبطة لإيطاليا ، وكذلك بإحياء وتغذية عداوة قديمة بالنسبة لاسبانيا ضد الفرنسيين. وبتجميع هاتين الدولتين ، تم إبرام مجموعة من الاتفاقيات سنة 1887 ضد فرنسا ، وضد محاولاتها في المغرب ، كما وقعت مجموعة من الاتفاقيات بهدف الحفاظ على الوضع القائم في البحر المتوسط ، وتجميد النشاط الفرنسي في المتوسط وفي المغرب حتى سنة 1897 ويستمر الأستاذ ج. ل. ميج في تحليل الوضع الدولي بدقة مشيرا إلى مختلف محاولات التسوية بين الدول المتنافسة قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها ، ليرز أنه على المستوى المحلي تبقى حالات التوتر قائمة ، خصوصا في ما يتعلق بالوضع في طنجة، وتطبيق اتفاقية الجزيرة وما يمكن تسميته بالتسلل السلمي الى المغرب ،

موضحاً أن هذه النقاط الثلاثة ستبقى قائمة باستمرار في سياسة القوى الكبرى اتجاه حرب الريف، إذ بالنسبة لطنجة جددت كل اتفاقية دبلوماسية ضمان اعطاء وضع خاص لطنجة وضواحيها (منطقة الريف) .

(...) ونتيجة التوتر الدولي فإن منطقة الريف كانت تواجه التسلل الفرنسي والاسباني حيث كانت فرنسا تستعمل علاقاتها القديمة مع الطرق الدينية ، وتستغل هجرة العمال الريفيين نحو وهران ، إذ كانت تقود سنويا بين 40 الى 50 الف عامل ريفي نحو حقول الجزائر ، إضافة - وهذا أمر لم يكن معروفا - إلى تجنيد الريفيين في سلاح المدفعية الفرنسي، وكان رد فعل اسبانيا اتجاه هذا التسلل هو تطوير موانئ سبتة ومليلية، ويؤكد ميج أنه في هذه النقطة توجد خلفية يصعب الإحاطة بها في العلاقة بين السياسة و المال .

وفي معرض حديثه عن الموقف البريطاني يرى ميج أنه بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى استعاد الوضع الدبلوماسي ملامح الوضع لسنة 1887 حيث أصبح المتوسط مركز النظام الامبريالي البريطاني، إلا أن سيطرة بريطانيا كانت تصطدم بادعاءات فرنسا في هذه المنطقة ، لكن لندن كانت تسعى إلى الحفاظ على زعامتها في المتوسط ، وهو ما يبدو من وثائق عرضها ج. ل. ميج مع مذكرة لوزير الخارجية البريطاني تشمبرلين يؤكد فيها على ثلاث مبادئ هي التي ظلت تحكم الموقف البريطاني خلال حرب الريف ، وهي مبدأ توازن القوى ، سيطرة بريطانيا على المتوسط ، أمن المضيق.

ويقول وزير الخارجية البريطاني في نفس المذكرة: (لسنا على استعداد لأن نرى الشاطئ المتوسطي المغربي وخصوصا الضفة الجنوبية لمضيق جبل طارق بين أيدي قوة عظمى وإذا ما أدت النجاحات الريفية إلى طرد الاسبان من منطقة الريف المغربية فإن ذلك سيؤدي الى بروز وضع محير ، ولكننا لسنا على استعداد أيضا للسيطرة على الريف بأنفسنا ، ونحن على غير استعداد لرؤية الفرنسيين أو الايطاليين يقومون باستفزازات بين سبتة ومليلية) وهكذا يبدو بوضوح الموقف السلبي والحذر والقلق للدبلوماسية البريطانية، يقول ميج .

وليس بوسعنا الإلمام بكل تفاصيل العرض القيم لمؤرخ كبير هو ميج ولكن .. يمكن استنتاج بعض الخلاصات منها ما هو مصرح به ومنها ما يفهم من سياق الأحداث الواردة في العرض ومنها :

- أن حرب الريف انتعشت في أوج التدخل البريطاني الراض لأى سيطرة امبريالية أخرى على المنطقة .

- أن هناك اتجاها بتدخل المال والدعم لضمان هيمنة ابريطانيا .
- نهاية حرب الريف جاءت بعد توافقات امبريالية وهدوء دبلوماسي مع إشارة يقول فيها المؤرخ مبيج إن الفترة الأهم في حرب الريف تقع بالتحديد ودون أن يكون لذلك طابع السبب والنتيجة، في فترة تحسن العلاقات بالمتوسط .

2- ديفيد مونغمري هارت : عنوان محاضرة مونغمري هارت: "المؤسسات الاجتماعية السياسية الريفية وإصلاحات عبد الكريم".

ينطلق مونغمري في بحثه من تحديد التنظيم القبلي القائم في المجتمع الريفي ، معتمدا نظريته القائمة على الانقسامية ودور الخمسة /أخماس التي اعتمدها في دراسة النظام القبلي في المغرب، مؤكدا أن محمد بن عبد الكريم بإعلانه (الجمهورية الريفية) كان قد وضع حدا لفترة طويلة من التاريخ الريفي تعرف محليا باسم (الروبيليك) مضيفا أن كلمة روبيليك هي لدى الريفين مرادفة تماما لكلمة (سيبة) التي نجدها لدى سكان الأطلس، وهي تشير تاريخيا إلى الفترة السابقة لما عرف ب (التهدة)، أي استقرار الحمايتين الفرنسية والاسبانية في المغرب ، وتشير سوسولوجيا إلى حالة من الانشقاق القبلي السياسي/ الاجتماعي...

كانت، يقول مونغمري، حالة من الانشقاق الهامشي تجاه الحكومة المركزية في ثنائية المخزن / السيبة ، ورغم إشارته للشكوك المثارة حول المفاهيم التي استعملها بدعوى أنها حجر الزاوية للسوسولوجيا الاستعمارية في المغرب، فإن مونغمري يستمر في تحليله القائم على هذه المفاهيم قائلا : إن ما يهمنا نحن أن حالة السيبة أو الروبيليك، والتي أتبنتها شهادات المشاركين في الحدث (حرب الريف) إنما تعني عنصر اختيار مع أو ضد النظام ، معتبرا أن هذه اللعبة بين القبيلة والمجتمع الموسع أي المجتمع القومي ، كانت مشكلة يومية في العالم الاسلامي وفي العالم الثالث على الأرجح . ولتوضيح نظريته أكثر يقول : (يبقى لنا أن نسوي المعادلة : سيبة / روبيليك /فوضى قبلية . مشيرا إلى أن الفوضى ليست موجودة إلا في نظر المخزن ، فقد كانت نوعا من انعدام الرأسية (انعدام القيادة المركزية) المنظمة ، وبنية هذه القبائل المنعدمة الرأسية ، وفي أغلبها تتكلم الأمازيغية ، كانت إلى هذه الدرجة أو تلك مجتمعا مجزأ على حد تعبير علماء الإثنولوجيا، ونظام مجزأ كهذا

يعني دائما توزيعا منظما للسلطة على كل المستويات مما ينتج عنه وجود نظام المجالس التمثيلية المترامية: عضو أو عضوين من المجتمع المحلي - تتكون في الريف من مساكن متباعدة - يمثلان هذا الأخير على مستوى مجلس المجموعة الصغرى أو المجموعة الكبرى وبعض أعضاء هذه الأخيرة يمثلونها على مستوى القبيلة، والجميع نظريا يمكنهم المساهمة في النظام، كما أن الجميع ما عدا الفئات الدنيا غير المعترف بها.... لهم الحق في المساهمة، لكن عمليا الذين يضمنون دائما مكانا في المجلس إنما هم (الإمغارن) وهم الأقوى قرابة وأملاكا وسلاحا، حتى وإكان المكان الشرفي محجوز دائما لشريف أو مرابط يمتلك (البركة) ومن قرابة أحد أولياء الله مع الإقامة داخل القبيلة، ودور الرجل وإخوانه إنما دور الوسيط بين الأجنحة المتنافسة داخل القبيلة... وإن هذه المنافسات وما تؤدي إليه من من عمليات ثأر إنما هي لازمة في الحياة الاجتماعية/السياسية للريفيين مع تعايش في مسألة القضاء بين العرف والشرعية وبعض القوانين الوضعية.

ويسترسل مونغمري في تحليله للمجتمع الريفي ليبرهن على استنتاجاته فيما بعد مؤكدا أن تحليله يعطي فكرة عن جماعات المزارعين القبليين في الريف أثناء فترة الروبيليك. يقول: "فإذا كان البعض ممن أعطونا المعلومات قد أكدوا أن الروبيليك قد بدأت بعد الحملة على الريف التي قامت بها (محلة) بوشتي البغدادي الشريفة تحت إمرة مولاي عبد العزيز سنة 1898 ضد قراصنة البقية، فإننا نعتقد شخصا أن كلمة روبيليك تلخص فترة طويلة من التاريخ الاجتماعي للريف.

ولكي يبرز الظروف التي ساعدت مجموعات بني ورياغل على احتلال الصدارة يعود إلى حملة بوشتي البغدادي الذي أرسله السلطان عبد العزيز لمعاينة قبيلة البقية بطلب من اسبانيا، نتيجة عمليات القرصنة التي يقوم بها هؤلاء ضد سفن اسبانية وفرنسية وإيطالية، مؤكدا أن مجموعات آيت ورياغل التي تسكن سهل الحسيمة، قفزت على الفرصة وساعدت محلة بوشتي البغدادي إلى أقصى حد خلال هذه الحملة ضد البقيويين (.....) وذلك ليس حبا في المخزن ولكن لأنها تريد الإسهام في إهانة قبيلة مجاورة أقل قوة منها بكثير.... وحسب معلوماتنا يقول مونغمري فإن القبائل الكبرى الثلاث هي: آيت ورياغل (بني وريغل) والتسمان وغزناية إلا أنه من بين كل قبائل الريف، فإن قبيلة بني وريغل كانت دائما الأكثر عددا والأشد بأسا والأكثر قتالية وشراسة. والريف الأوسط كان دائما منطقة مكتظة بالسكان، ونظرا لهزالة موارد الزراعة وجدوا دائما حلين لهذه المشكلة:

1- هجرة العمال الى الجزائر حيث بدأت الهجرة الى وهران مند وصول المستوطنين الفرنسيين .

2- عادات الثأر ودية الدم وغير ذلك من الأمور التي كانت منتشرة لدى بني ورياعل أكثر من بقية القبائل المغربية، ولايسمح المقام بنقل تفاصيل التحليل الذي قدمه مونغمري حول بنية التشكيلة الاجتماعية لقبائل بني ورياعل وأنظمة القضاء وأساليب حل النزاعات عندهم ، ولكن أشير الى أنه توقف عند دور القضاء الذي تتعايش فيه الأعراف ، بالشرعية ، ممهدا لدور القاضي الذي كان يوجد في كل قبيلة حيث ظهر لدى بني ورياعل أحد القضاة يتمتع بوجاهة خاصة بين أهله، رغم أنه لم يكن من الإماغارن الأساسيين في المجلس، يقول مونغمري هذا الرجل هو السي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم ، وكان من سلالة عبد الكريم من بني زارة من تجمع أجدير، في منطقة آيت يوسف أو علي، ويقال إن جده السي عبد الكريم الأول الذي منح اسمه للعائلة كان شريفا إدريسا ، وأعضاء مجموعة آيت خطاب التي تتكون من خمسين ، يدعون أن جدهم هو عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي، لكن هذا الادعاء لم يتم التعبير عنه إلا من طرف الابن الأكبر للقاضي عبد الكريم، وهو الذي كان مقدرا له أن يصير من أهم الشخصيات الريفية في المغرب، إذ كان رجلا كارزماتيكيا وكان يسميه أهله السي محمد، وانطلاقا من هذا التقديم يشرع مونغمري في إبراز شخصية محمد بن عبد الكريم والظروف التي ساهمت في تكوينها ... مركزا على العناصر التالية :

- دراسته لمدة ثلاث سنوات بجامع القرويين بفاس، هناك حيث أصبح على علم كامل بالحركات الإصلاحية الإسلامية التي حملت اسم السلفية ..
- أصبح في سنة 1915 نائب قاضي قضاة مليلية التي تقع تحت قبضة الاسبان ، وقد كان ذهب إلى هذه المدينة سنة 1907 قبل أن يلحق رجال قبيلته الهزيمة بالثائر بوحمارة ، وهو الحدث الذي ارتاح له.
- في نفس الوقت كان أخاه الأصغر محمد (بتسكين الميم) قد أرسله والده الى مدريد ليوصل دراسته كمهندس مناجم ، مما يبرز التكوين التقليدي لمحمد مقارنة بأخيه محمد ، وكانا الوحيدين اللذين يتقنان العربية والاسبانية كتابيا وشفهيا، إذ لم يكن سكان القبيلة يعرفون سوى الأمازيغية الريفية ، مما جعل الأخوين منفتحين أكثر عن العالم، وقد أصبح السي محمد قاضيا مثل أبيه عبد الكريم مع تفوق أكثر.

- كان محمد بن عبد الكريم في البداية على اتفاق تام مع الاسبان ، لكن ابتداء من سنة 1912 ابتعد عنهم وغير موقفه على إثر خصومة بينه وبين الجنرال فونديز سيلفيستر حيث تم اعتقاله.

- رغبة محمد بن عبد الكريم في استقلال الريف بأي ثمن، جعلته يغادر مليلية في نهاية الحرب العالمية الأولى، واستقر بقرية أجدير ليلتحق به أخوه امحمد، هذا الالتحاق الذي فند بعض الادعاءات القائلة إن السي امحمد (الأخ الأصغر) كان يعمل لحساب الاستخبارات التركية - العثمانية - وكذلك لحساب الألمان أثناء الحرب .

في سنة 1920 توفي السي عبد الكريم الأب في ظروف غامضة، وكان الجيش الاسباني يعلم أن مفتاح مشكلة الريف هي قبائل بني وريغل ، لذلك تحرك الجيش الاسباني من مليلية نحو الغرب ووسط الريف فنشبت أحداث يوليو 1921 على حدود قبائل التمسيمان وآيت اوليشك وهي المنطقة التي يسميها الريفيون ظهر أوبران ويعرفها الاسبان تحت اسم أنوال .

استغل أبناء السي عبد الكريم انتصاراتهم الأولى بمهارة وتحول السي محمد بن عبد الكريم قاضي أجدير الى (عبد الكريم) مجاهد وزعيم الريف. بعد تأكده من أن قوة الاسبان قد تحطمت بدأ يجري اصلاحاته :

1- استهدف إيقاف عمليات التار التي تمزق المجتمع، وتحقيق وحدة ريفية ، وبدأ بقبيلته التي شكلت نواة الجيش النظامي الريفي.

ولظروف الحرب قام بإصلاحات أخرى مثل الحد من احتفالات الزفاف من سبعة أيام الى ثلاثة ، ومنع النساء المتزوجات من الرقص و تركه للفتيات فقط. وحين استتب له الأمر واجه الطرق الصوفية ، خاصة الطريقة الدرقاوية التي لم يكن لها كثير من الأتباع.

ويستمر مونغمري في تعداد إصلاحات محمد بن عبد الكريم قائلا : تجدر الإشارة إلى أن السجون كانت أيضا من تجديدات عبد الكريم في الريف ، وحرسه الخاص كان من جنود نظاميين من قبيلة بني ورياغل.

وكانوا يقومون بتصفية كل من يشتبهون في أنهم جواسيس، ويضيف لقد كانت إصلاحات بن عبد الكريم ، منها ما كان متواضعا مثل منعه الرجال من حمل السوالف وإجبارهم على خلق رؤوسهم بالكامل، لقد كانت إصلاحاته تسير في اتجاه قلب الحياة الاجتماعية والسياسية لأعضاء القبائل الريفية التي أطاعت سلطته وخضعت

لها بسبب الحرب، إلا أن ذلك لا يعني أنه لم تكن هناك ثورات ضد سلطته ، فقبيلة لخماس الجبلية التي تستقر في منطقة الشاون في أقصى غرب الريف انتفضت سنة 1924 ، إضافة الى بعض الحركات القبلية غير المنضبطة ، إلا أن الجيش النظامي الذي يتكون في معظمه من رجال بني ورياغل والذي يقوده السي امحمد شقيق محمد بن عبد الكريم قد قمع الانتفاضة بقسوة شديدة ، على إثرها تم القاء القبض من جديد على الشريف أحمد الريسوني أكبر أعداء بن عبد الكريم والعقبة الأساس أمام التحاق قبائل جباله بعبد الكريم وألقي به في سجن تامسيت حيث بقي إلى أن توفي...وفي أوج سلطته سنة 1925 ، وفي الفترة التي غزا فيها المنطقة الفرنسية ، تحول بن عبد الكريم إلى زعيم يجمع كل السلطات بيده (قال عنه مونغمري الى مضيفا: هذا الرجل الصلب كان زعيم شعب جد صلب هو الآخر!!دكتاتور حقيقي) ويؤكد مونغمري على مسألة اتفق حولها معظم المؤرخين المشاركين في الندوة ، (وهي أنه ، وإن كان محيط بن عبد الكريم وأقرباؤه وأصدقائه في أجدير ينادونه سيدي فإنه لم يكن في نيته أبدا أن يعلن نفسه سلطانا للريف، وعلى عكس الاتهامات التي كانت تروجها الأدبيات الاستعمارية الاسبانية والفرنسية فإن عبد الكريم لم يسمح بأن تلق الخطب في الجوامع باسمه لسبب واحد هو أنه يوجد على العرش سلطان علوي شرعي هو مولاي يوسف، وفي هذا الصدد يقول مونغمري إنه قابل أشخاصا أكدوا له الطابع المؤقت لقيادة عبد الكريم من سنة 1921 فترة معركة أنوال الى سنة 1926....وبنو ورياغل يطلقون على هذه القيادة مصطلحات خاصة بهم إذ يقولون (الجبهة الريفية) أو (قيادة عبد الكريم) ولم يطلقوا أبدا اسم الجمهورية الريفية ، وأكد البعض أنه لو ربح الحرب فقد كان في نيته أن يستقيل . ويختم مونغمري محاضرتة قائلا: (لقد أحدث محمد بن عبد الكريم في ظرف خمس سنوات فقط تغييرا اجتماعيا مدهشا في الريف، كانت الظروف ملائمة ، فعرف كيف يستغلها بذلك....)ومهما يكن الأمر فإن ابن عبد الكريم يحتل مكانته الخاصة في تاريخ الوطنية المغربية ، وهذه المكانة ليست تقليدية ولا حديثة ، إنها تقف بين النزعتين . (انتهى عرض مونغمري).

3- جاك بيرك : عنوان محاضرة جاك بيرك وهو مؤرخ فرنسي معروف بكتاباته حول المغرب، كان بعنوان : "المد الوطني والديموقراطية القاعدية في الأمة العربية 1915-1925" : يقول جاك بيرك : (إن قيمة البطل التاريخي لا تكمن فيما قام به

ولكن فيما تركه للناس ليقوموا به) لينطلق في تحليل الوضع العربي انطلاقا من فرضية ديناميكية الجماعة ، مشيرا إلى أن هذه الديناميكية الجماعية في الفترة التي حددها كانت ردا لعدوان متعدد الجوانب : عدوان ترابي عسكري وعدوان اقتصادي وعدوان ثقافي ، وفي عهد عبد الكريم فإنه ليس من قبيل الصدفة أن العدوان الترابي قد تم الرد عليه بديناميكية مجموعة بشرية رفعت من شأن مبدأ الوطنية ، كما تم الرد على العدوان الاقتصادي بعمليات تضامن واسعة لها تعبيراتها الايديولوجية الكبيرة، أما العدوان الثقافي فتم الرد عليه بعمليات تضامن وانفتاح حمل تجربة الريف بعيدا نحو الشرق، خاصة ناحية دمشق التي كانت تنتفض في نفس هذه الفترة (....) إلا أن جاك بيرك يضيف [إن هذه الديناميكية وإن كانت من ناحية متأثرة بالعدوان الذي حركها، إلا أنها من ناحية أخرى لها بنية سوسيولوجية إما في شكل تجمع سكاني ، أو طبقة ، أو تجمعات ترابية ...بعد ذلك شرع المؤرخ جاك بيرك في تحليل بعض الحركات التحررية التي عرفها العالم العربي القائمة على فرضيته في ديناميكية الجماعات الترابية ، قائلا : ودون التوقف عند الجانب المغربي أو المغاربي أو الإشارة الى ظاهرات أخرى ، غير معروفة كانت تجري في تلك الفترة في العالم العربي يبدو أنها مرت وبشكل متنوع لديناميكيات جماعية - ترابية : منها مثلا التحرك القبلي لدى سكان ما بين النهرين الذي كانت السلطة التركية فيه تنهار وتستقر مكانها سلطة الانجليز، وهي أماكن غير معروفة لدى الباحثين الغربيين وخاصة الفرنسيين لكنها معروفة من قبل الطيران البريطاني الذي قام بأولى تجاربه بإيحاء من الكولونيل لورانس. كما أشار الباحث إلى ماتم في مصر سنة 1919 أثناء تقديم عريضة حزب الوفد والفترة التي شهدت تحولا عندما هب الفلاحون المصريون يقطعون السكك الحديدية، ويهاجمون المراكز الانجليزية، حتى تم عزل مركز أسيوط بالكامل. وبعد تحليله للوضع في مصر مشيرا إلى أن الفلاحين وفي غياب أية سلطة مركزية ، استطاعوا تكوين جمهورية مصغرة بمنطقة طنطة وكونوا بها ما يشبه حكومة محلية، انتقل إلى ليبيا حيث تم الحاق هزائم ثقيلة بالعدوان الإيطالي ...وقد حدث أن بلدة صغيرة هي مصراتة كانت تعيش في حالة جمهورية مستقلة مدة عشر سنوات مشيرا إلى أسماء زعماء منهم المعروفون مثل الشيخ عمر المختار ، وآخرين غير معروفين مثل الأخوين سعدون ، وغمدان الشتيوي من عائلة السويحلي ، وسليمان البادوني ...

كما أشار جاك بيرك إلى ما حدث في الرقة وهي بلدة صغيرة أيضا تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات على الطريق بين حلب ودير الزور ، حيث عاشت بين الفترة التي انهارت فيها السلطة العثمانية ومملكة فيصل العابرة (بين 17 دجمبر 1920 و 10 غشت 1921) عاشت كمدينة حرة بميليشياتها الخاصة وزعيمها الخاص وهو بدوي من إحدى القبائل .

هكذا يركز جاك بيرك في بحثه على الجانب التاريخي / الاجتماعي لفهم حركات المقاومة التحررية التي عرفت مجموعة من المناطق في العالم العربي متزامنة مع ما كان يحدث في المغرب ، وذلك انطلاقا من ديناميكية الجماعات الترابية ، لبيان السياق العام الذي اندلعت فيه حرب الريف ، باعتبارها جزءا من الحركات التي عرفت مناطق عربية أخرى ضد الهيمنة الاستعمارية .

4- روبرتو سافشيز دياز : قدم الباحث الاسباني روبرتو دياز ملخصا فرنسيا لبحثه الذي أعده باللغة الاسبانية وعنوانه ب (السلم الاسباني) موضحا أن الدول الثلاثة عشر بما فيها المغرب ، والتي وقعت على ميثاق الجزيرة الخضراء سنة 1906 قد توقعت أشياء كثيرة ، باستثناء المشاكل الناتجة عن الحرب العالمية الاولى ، لكنها لم تتوقع مدى قوة المقاومة المسلحة لقسم كبير من الشعب المغربي الذي رفض سلطة [المخزن] من خلال رفضه لدولتي الحماية . ففي أواخر شهر أبريل عام 1925 تمكن عبد الكريم من تفكيك خطوط القوات الفرنسية في ورغة ، واستند الباحث إلى شهادات من مراسلات عسكرية وصحفية قائلا : (فقد جاء على لسان الكونت سان أولير [لقد سقط سور قواتنا الحي والمتحرك والممتد على طول الريف ، سقطت هذه الترسانة غير المكشوفة للعدو على عمق 300 متر .. ومع الخطر المحدق بمدينة فاس ، ومع الهجمة التي تضيق الخناق على مواقعنا يكون مغربنا قد أصبح في خطر] ... كما أورد مراسلة بعث بها مراسل جريدة التايمز في يناير 1925 إلى جريدته بخبر يقول [تحتل قوات عبد الكريم مسافة عرضها 16 كلم داخل أراضي المحمية الفرنسية وسيجد الفرنسيون أنفسهم مضطرين لإخلاء هذه الأراضي بعد أن تعرضوا للهجوم ، بيد أن الهجوم الريفني يبدو واقعا لا محالة .. فعبد الكريم سوف يبدل قصارى جهده ليسترد هذه الأراضي] .

ويضيف الباحث الاسباني قائلا : (إنه من المفيد اليوم مراجعة ماكتبته الصحافة التي كانت ردود فعلها مرتبكة نتيجة الهجوم ... في تلك الفترة مطمئنين إلى الحكم

الذي أصدرته الأعوام الخمسون الماضية ، دون ضغينة تعمي المرء ودون إطراء يبعث على الخمول)، ليشرع في طرح جملة من القضايا استهلها بالتعريف بشخصية محمد بن عبد الكريم ، بعد أن أكد أن الباعث على وقوف الريف في وجه دول الحماية ومقاومتها ، ماهو إلا تاريخ العزلة الطويلة التي عاشتها القبائل الأمازيغية [البربرية] منذ القرن السابعومما جاء في معرض حديثه عن شخصية ابن عبد الكريم ننقل بعض العناصر التي اعتبرناها مثيرة للنقاش حيث قال : محمد بن عبد الكريم هو الابن البكر للسي محمد عبد الكريم وأصله من أجدير ، وكانت عائلة عبد الكريم تشكل نواة جماعة بني وريغل الموالية لاسبانيا [؟؟؟] وكان والده من المتقاعدين الذين يتقاضون رواتبهم من القيادة العامة للمالية ، وتبلغ قيمة هذا الراتب 300 بيزيتا ...وما تزال إيصالات الرواتب الموقعة باسم الشيخ محفوظة في سجل عبد لكريم ، في دائرة التاريخ الحربي بمدريد .ويشير الباحث الاسباني إلى تلقي ابن عبد الكريم تربية اسبانية وعربية في مدرسة الحسمة إلى أن أوكلت له سنة 1908 وظيفة في مكتب الشؤون البلدية في مليلية ، ولقد استرعى الانتباه بمقدرته وإخلاصه في العمل مما يفسر ترقيته في مدى سنوات قليلة إلى وظيفة مساعد أمين سر المكتب ثم رئيس المحكمة القضائية ، ويضيف روبرتو إن عبد الكريم كان يمارس في الوقت نفسه وظيفة مدرس اللغة الأمازيغية في الأكاديمية العربية ؟؟؟كما كان محررا لجريدة (رسالة الريف)التي كانت تصدر في مليلية ...وكافأته الحكومة الاسبانية تقديرا لعمله بوسام فارس إيزابيلا الكاثوليكية كما منحه الصليب الأحمر ميدالية الاستحقاق العسكري ووسام الصليب الأبيض ...الخ.

وبعد هذه الإشارات في التعريف ببطل الريف التي لم يذكر فيها الباحث دراسة عبد الكريم بجامع القرويين ، ينتقل للحديث عن وجود ثروة معدنية ومصادر للطاقة قائلا: في تلك الفترة شاع في العالم خبر مفاده أن بني وريغل لديهم مناجم حديد وفضة ونحاس وذهب ..وحتى مناجم ملح ، ناهيك عن مناجم الرصاص وآبار البترول وكان جبل حمام كتلة من الذهب لا يستثمره السكان المحليون لجهلهم بطرق هذا المعدن [....] ويتساءل روبرتو : ما هو الدور الذي لعبه ابن عبد الكريم في قضية المعادن ؟ ليجيب عن ذلك بتقديم وثيقة قال إنها صورة طبق الأصل عن رسالة أصلية وصحيحة منشورة ، تقطع الطريق عن كل تأويل ، ومؤرخة ب 9 مارس 1921 ، كانت قد أرسلتها شركة سولتزار إلى عبد الكريم الذي كان يقيم آنذاك في أجدير ، موقعة باسم الدون فرانسيسكو كابليرو ممثل الشركة في مليلية ، ونظرا لطبيعة الرسالة وما

تثيره من تساؤلات أنقل بعض مقاطعها في هذه الخلاصة : [يبدو لي من التقارير التي أرى أكثر دقة، أننا حصلنا على أفضل ما يوجد ،وعلى مساحة تكفي وحدها لتجعلنا جميعا أغنياء]... [لا ينبغي أن تكون متشوقا للحصول على المال ، فالذهب سيكون في متناول جميع الناس ..] ... [بالنسبة للسياسة أعتقد أنه عليك التفكير مليا لمعرفة ما سوف تقوم به فالجميع هنا يعرف أن أخاك أمحمد يتزعم (الحركة) ضد اسبانيا ، وبإمكانك أن تدرك أن ذلك سيجعل علاقاتك مع حكومتنا صعبة في المستقبل وقاسية ، وأخيرا أنت أدري الناس بما تفعله حاليا ، إلا أن هناك شأ ثابتا وهو أن الجميع في مليلية من الكبير إلى الصغير يحبونك ويريدون استقبال عودتك بكل حفاوة وتكريم]...

ويحدد الباحث عدد المناجم قائلا : بلغ عدد المناجم التي أحصاها بعض الأشخاص والشركات الكبرى الانجليزية والاسبانية والفرنسية والهولندية : 538 منجما ، ولا نرى ما يثير الدهشة أن يكون السيد محمد بن عبد الكريم صاحب المقام الرفيع على الصعيدين السياسي والاجتماعي مطلعا على هذه المسألة. وشركة شولو تزار وحدها يضيف الباحث ، قد أرسلت إلى عبد الكريم 400 ألف بيسطا ، أي ما يعادل اليوم (1973) 12 مليون بيسطا أو مليون فرنك (فرنسي)، والحقيقة أنه لانملك معطيات لحسب الأموال التي استطاع محمد بن عبد الكريم جمعها ، إلا أنه يمكن تصور قيمتها من خلال الحرب التي قادها لمدة خمس سنوات ويستدرك الباحث بعد ذلك قائلا : جمع عبد الكريم ثرواته بكاملها بالطرق المشروعة. ثم ينتقل الباحث الاسباني للحديث عن انتصارات محمد بن عبد الكريم ، منوها بنضاله الذي أحرز فيه انتصارات مجيدة على رأسها معركة أنوال ومعركة ورغة .ويقول : عمليا لم يكن محمد بن عبد الكريم مهزوما في أبريل سنة 1925 ، فطالب فرنسا أن تباشر بمفاوضات السلام ، فكان جوابها أنها لن توقع معاهدة سلام متفردة دون اسبانيا ، وبعد تنسيقها مع حكومة مدريد وإطلاعها على مقترحات الزعيم الريفي ، قدمت كلا الحكومتين الفرنسية والاسبانية المقترحات المضادة التالية :

- الخضوع للسلطان؛
- إبعاد عبد الكريم ونفيه؛
- تجريد القبائل من السلاح؛
- تبادل الأسرى؛
- وقف القتال وإنهاء حالة النزاع والعداء.

وقد أعلن الوفد الريفي موافقته على سلطة السلطان رافضا تعبير [الخضوع] لثنافيه مع تعبير الاستقلال الذاتي ، وأعلن عبد الكريم موافقته على تجريد القبائل من السلاح شرط أن توكل المهمة إلى لجنة مشتركة فرنسية إسبانية ، مع العمل على إنشاء قوة مسلحة ريفية خالصة دون أي تدخل خارجي وصرح ممثلو الريف في النهاية أنهم يعتبرون الاستقلال الإداري نظاما قائما على قاعدة حكومة داخلية ضمن المملكة الشريفة (....) وبذلك استحال التوصل إلى السلام .

بعد ذلك يخصص الباحث روبرتو بقية عرضه للحديث عن المعارك التي دارت بين المقاومة الريفية والأسبان إلى حدود استسلام الزعيم الريفي محمد بن عبد الكريم في 20 ماي 1926 واصفا الفرق الريفية بالقوات النظامية ذات القدرات القتالية العالية حيث كانت تحارب تحت شعار (الموت ولا تراجع) كما وصف بدقة اساليب القتال وكيفية استخدام الأراضي بمرونة، وأشار إلى أن [الحركة] كانت تضم في صفوفها عددا من الأوروبيين وبعض الفارين من الجيش الاسباني لتعاطفهم وكذا من الجيش الفرنسي وكذلك بعض المدربين الأتراك ...

5- عبد الرحمن اليوسفي : عنوان مداخلته : "مؤسسات جمهورية الريف" اتضح في بداية عرض الأستاذ اليوسفي الذي كان يعيش آنذاك في منفاه ، اتضح أنه يتحدث كمعارض سياسي لسلطة المخزن وليس باحثا أكاديميا في الموضوع ، اتضح ذلك من خلال التعابير والأوصاف التي ساقها حول المخزن ، مثل :نظام المخزن النسخة المشوهة والفاصلة عن الدولة الاسلامية، نظام المخزن التعسفي والباغي... إلخ ، حيث قال في مقدمة عرضه : (إن إبداع عبد الكريم الخطابي على الصعيد السياسي تجلّى في محاولة إيجاد حل لإشكالية الدولة المغربية ، فالمغرب في الواقع كانت قد أنهكت طيلة قرون حروب قاسية بين بلاد المخزن وبلاد السبية ، وهي حروب مبررة قاومت فيها الجماهير المغربية بكل صلابة نظام المخزن ، هذه النسخة المشوهة عن الدولة الاسلامية) ثم يضيف الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي لقد حاول عبد الكريم أن يؤقلم مفهوم الدولة الحديثة مع التشريع السياسي (الراشدي) هذا التشريع يقول اليوسفي، يتناسب مع تقاليد الشعب المغربي الديمقراطي والتضامنية ، فلم تكن جمهورية الريف تعبيرا عن قطع كل صلة مع نظام المخزن فقط بل إنها أيضا محاولة دمج كل ما هو صالح في التراث الاجتماعي - الثقافي المغربي مع مكتسبات المجتمع السياسي الحديث، مع رفضه لسلبية (دولة السبية)

وكذلك لتعسف نظام المخزن، وبعد ذلك ينطلق السيد عبد الرحمن اليوسفي في تقديم عرض قيم بداهة بتحليل نظام المخزن وتركيبته ، وكذلك بإبراز رفض الخطابى لعوامل العجز فى نظام السببة مبينا كيف شرع عبد الكرىم فى تنظيم ما أسماه المحاضر بالدولة الحديثة التى اعتمدت الجانب الإيجابى فى التراث المغربى /الإسلامى...وفى حديثه عن تحديث مفهوم الدولة أكد ع. اليوسفى أن عبد الكرىم بما اكتسبه من موارد وشهرة ، أسس جمهورية الريف التى ترأسها بنفسه ، جاعلا من قبيلته قاعدة لحكمه ولكن من ناحية ثانية كانت الجمهورية مدعومة بتنظيم حديث، ومؤكدا مرة أخرى، أن عبد الكرىم كان يريد تجهيز الشعب الريفى ببنية دولة تتطابق مع التعريف الغربى للدولة ، أى مع الواقع القومى والأممى المؤلف من ثلاث عناصر : [هى الشعب ، الأرض ، والسيادة] وقد استرسل الأستاذ ع. اليوسفى فى سرد مختلف الإجراءات التنظيمية التى أحدثها عبد الكرىم الخطابى على المستويات الإدارية والعسكرية والقضائية...الخ

وقد أثارت مداخلة الأستاذ اليوسفى نقاشا حول استعماله لمفاهيم ، مثل [دولة الريف] و[جمهورية الريف] والقطيعة مع المخزن...إلخ حيث رأى البعض أن الزعيم الريفى لم يستعمل كلمة دولة..ولا جمهورية..كما لم يرد عنه أى تصريح برغبته فى القطع مع المخزن..أو السلطة المركزية...وأترك للقارئ فرصة الاطلاع على النص الكامل لمداخلة الأستاذ اليوسفى إذ لايسمح المقام بتلخيص كل ما جاء فيها كما لايسمح بتقديم كل المحاضرات والتقارير والمناقشات التى تتلوها على أن أخصص جزءا آخر لمداخلة كل من الأستاذ عبد الله العروى نظرا لأهميتها وكذا للمرحوم محمد زنيبر وآخرين إن سمحت الظروف بنشرها فى عدد آخر من مجلتنا.



الريف بين التاريخ الرسمي و مذكرات السياسيين المغاربة



رشيد شريت

لماذا حرب الريف؟ ولماذا مذكرات السياسيين المغاربة؟
اخترنا في هذه الورقة الوقوف على الحرب الريفية التي خاضها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ما بين 1921 و 1927، والتي يمكن تسميتها بالحرب الريفية الثالثة، لأن الأولى كانت في سنة 1893 و المعروفة بمعركة سيدي ورياش، في حين كانت الحرب الثانية تلك التي خاضها الزعيم الشريف سيدي محمد أمزيان 1909-1912، و آخرها و ثالثها، بل و أطولها و أقواها عتادا وعدة وعدوا هي الحرب الثالثة بقيادة آل الخطابي الابن و الأخ والعم.

فلماذا مذكرات السياسيين المغاربة و ليس فقط الباحثين؟ و الجواب أننا ركزنا على السياسيين المغاربة و ما كتبوه عن الحرب الريفية تقييما و إشادة و تقويما نقدا، سواء الرعيل الأول من الحركة الوطنية، جيل التأسيس ممثلا في الأستاذين محمد بن الحسن الوزاني و علال الفاسي، أو الجيل الثاني من الحركة الوطنية كالأستاذ عبد الرحمان اليوسفي و الأستاذ محمد العربي لمساري، و ذلك نتيجة المادة الثرية

التي تفيدنا بها مصادر الكتابة، ثم قوة السند. فعدد معتبر منهم عاشر رجالات الحرب الريفية و التقوا بهم وأخذوا منهم، بداية من الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، و وصولا إلى اللقاءات التي كانت تتم مع العائلة الخطابية، وكذا المحيط الخطابي عموما. وهذا من شأنه أن يجعل من المادة السياسية عن حرب الريف مادة ذات جودة خبرية ممتازة و عالية السند، ثم نتيجة تناسيها و تجاوزها مع عوامل التعرية السياسية و الزمن. فضلا عن إيمان الحركة الوطنية بأنها سليله الهبة الريفية الخطابية، وهذا اعتقاد عام سائد، وأطروحة أساسية و مدخل مركزي لفهم الحركة الوطنية التي تقدم نفسها كحركة سياسية و حلقة من حلقات الوعي الوطني التي بدأت مع الحرب الريفية التي انتهت في 1926 لتعاود الانبعاث بعد ذلك في سنة 1930 كحركة وطنية سياسية شبابية.

لم نسرد ما كتب عن الحرب الريفية سردا اعتباطيا بلا وجهة و لا بوصلة، بل ركزنا على قضايا جوهرية كانت مبعث اختلاف و تضارب لوجهات النظر حسب الموقع و الموقف لقضايا مركزية حسب تقديرنا متمثلة في:

- 1- جمهورية الريف.
- 2- مؤسسات جمهورية الريف.
- 3- الموقف من الاصطدام مع الجانب الفرنسي في الحرب التحريرية و بداية الأفل.
- 4- حرب الريف و ظهور الحركة الوطنية بداية الثلاثينات: بين الوصل و الفصل.

حرب الريف في التاريخ الرسمي التأريخ تحت مظلة سياسية

تأسس المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب بأمر ملكي بتاريخ 11 أكتوبر 2005، وهو مؤسسة وطنية للبحث العلمي، يعهد إليها بمهمة تفعيل عملية البحث في تاريخ المغرب والارتقاء بالمعرفة المتصلة بـماضي المغرب القريب والبعيد بهدف ترسيخ الهوية المغربية وتأسيس الذاكرة الجماعية، مع التفتح على مختلف الأطراف المتفاعلة مع الذات والشخصية عبر العصور. و يعد المعهد و هو إحدى ثمرات وتوصيات حياة الإنصاف و المصالحة.

ويعتبر كتاب تاريخ المغرب: تحيين و تركيب أهم الإصدارات التي افتتح بها المعهد حياة رحلة التأليف و النشر، و المؤلف الذي هو ثمرة أعمال أنجزت على مدى خمس سنوات متراصة من قبل مجموعة من الباحثين المتعاونين مع المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب. حيث انتظمت هذه المجموعة ضمن فرق متعددة الاختصاصات¹⁹⁰.

لماذا الاعتماد على مؤلف تاريخ المغرب: تحيين و تركيب؟

اعتمدنا على المؤلف السابق نظرا لعدة اعتبارات، أبرزها :
أولا: لأنه من إنتاج مؤسسة رسمية، الذي هو المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب.
ثانيا: لأنه أحد ثمرات توصيات هيئة الإنصاف و المصالحة، و التي دعت إلى إعادة كتابة التاريخ المغربي كتابة موضوعية غير "إقصائية".
ثالثا: لأنه استغرق في رحلة وضعه مدة خمس سنوات، و هي مدة ليست باليسيرة بالمقارنة مع عدد الباحثين البالغ عددهم 50 باحثا، و حجم الكتاب الذي اهتم بكل تاريخ المغرب منذ النشأة إلى 1999.
رابعا: لأنه ضم نخبة من المؤرخين و الباحثين في العلوم الإنسانية المصاحبة¹⁹¹.

الخطابي: بين الثورة و المقاومة

يصر الكتاب على انتزاع لقب الأمير عند ذكره للأمير الخطابي، حيث يعتمد على طول الفقرات الوارد فيها ذكر الخطابي، و التي بلغ عدد مواطن ذكر اسمه في الكتاب ست مرات، في كل واحدة منها يقدم باسمه محمد عبد الكريم الخطابي من دون إضافة لقب الأمير ! علما أنه اللقب التاريخي الذي عرف بها داخليا و خارجيا.

¹⁹⁰ - أنظر تقديم الكتاب: تاريخ المغرب: تركيب و تحيين ط أولى 2011.

¹⁹¹ - صدر الكتاب في 2011 لكنه لم يوزع إلا بعد مرور أكثر من سنة على ذلك، علاوة على ثمنه المرتفع ما طرح أكثر من علامة استفهام ؟

أما المسألة الثانية اللافتة للانتباه، فهي عدم ذكر الكيان الريفي باسمه، سواء الإمارة الريفية أو الحكومة الريفية أو جمهورية الريف ! أكثر من ذلك فالمرّة الوحيدة التي ذكرت فيها تسمية "الجمهورية الريفية" كان حينما تم الحديث عن هزيمة الريف، وورد ذكرها بلفظ "السحق" مثل سحق المتمردين ، حيث نقرأ في الصفحة 537 : "و كان من نتائج تطور هذا الوضع العام في المنطقة الشمالية أن عجل بالتقارب العسكري بين فرنسا وإسبانيا، لا سيما بعد استقالة ليوطي و تعويضه بالماريشال على رأس جيوش الاحتلال، و كان الهدف النهائي هو سحق Pétain بيتان "جمهورية الريف"¹⁹².

لقد اهتدى واضعو الكتاب إلى عبارة مخففة للتخلص من ثقل عبارات: "جمهورية الريف" أو "حكومة الريف" أو "إمارة الريف" وهي عبارة "إدارة ممرضة" حيث نقرأ في الكتاب: "علاوة على المجهود الحربي، فإن الخطابي قد أقام إدارة ممرضة تتضمن مجموع المؤسسات اللازمة لتنظيم القبائل و تسييرها، ؟ فعين وزراء وقواد و قواد حرب و أمناء و قضاة و ما إلى ذلك"¹⁹³.

هل صحيح أن فرنسا في البداية تعاطفت مع الأمير الخطابي ؟

يذهب الكتاب إلى القول صراحة بأن فرنسا كانت في الأول متعاطفة مع جمهورية الريف أو حركة التحرر بالريف! أكثر من ذلك فقد أمدتها ببعض العتاد لإضعاف إسبانيا! حيث جاء : "و لم تكن مثل هذه التطورات لتغيب عن فرنسا، إذ ظلت منشغلة كل الانشغال بالأوضاع في المنطقة الشمالية، أجل، ففي بداية المقاومة، لم تتوان سلطات الحماية الفرنسية قط في استقبال مبعوثي الخطابي و السماح لهم بالتزود بالمؤن و الأسلحة و قطع الغيار من منطقة نفوذها بالمغرب، بل و من الجزائر أيضا"¹⁹⁴. و أما عن الهدف فيردف الكتاب : "و كان الهدف في الواقع هو خلق متاعب لإسبانيا قصد الحصول على تنازلات منها حول ترسيم الحدود بين منطقتي الاحتلال، و كذا حول منطقة طنجة"¹⁹⁵.

¹⁹² - تاريخ المغرب/ تركيب و تحيين ص 535..

¹⁹³ - م ن ص 536.

¹⁹⁴ - م ن ص 535.

¹⁹⁵ - م ن ص 535.

وإذا كان لا بد من الحديث عن التعاطف، فبالأحرى التعاطف الانجليزي مع الريف و ليس الفرنسي، ليس حبا في الريف، و لكن من أجل عدم السماح لفرنسا بسط سيطرتها على الشواطئ الشمالية للمغرب و الأمر نفسه ينسحب على إسبانيا، فلا يجب أن ننسى العداوة القائمة بين إسبانيا و إنجلترا على خلفية احتلال هذه الأخيرة لجبل طارق. و يذكر الأستاذ الوزاني في كتابه عن حرب الريف: " و هكذا نرى أن عددا من الانجليز لعبوا بصفة شخصية أدوارا مهمة أثناء الثورة الريفية، و أدوا لها خدمات لا يستهان بها، و لم يفعلوا هذا بمجرد العطف والصدقة، بل كانت لهم مصالح و بواعث سياسية... ومما لا شك فيه يضيف الأستاذ الوزاني أن مدينة جبل طارق استعملت من قيادة الريف كمركز للاتصال بالخارج بواسطة طنجة، حيث كان يوجد تمثيل خفي للثورة يتولاه رجال ثقة مغاربة، و مما ساعد على ذلك الاتصال وجود بريد انجليزي في طنجة متصل مباشرة بجبل طارق¹⁹⁶."

أكثر من ذلك لم تقبل السلطات الفرنسية مجرد استقبال البعثة التي أرسلت من الريف بقيادة كل من أخ الأمير امحمد الخطابي و محمادي الحاتمي حيث أقاما ستة أشهر بفرنسا بلا طائل¹⁹⁷!

التهوين من عامل الحرب الريفية في ظهور الحركة الوطنية

الملاحظة اللافتة أن هناك تهوينا كبيرا إلى درجة القفز على الدور الكبير الذي مثلته حرب الريف 1921-1926 و أثرها البالغ في ظهور وعي وطني جديد، إذ يعتمد الكتاب إلى ذكر كل العوامل والسياقات إلا سياق الحرب الريفية! والتي ذكرت في معرض السحق و الاندحار، و كأن الهزيمة كان له أثر أكبر من الانتصار؟ حيث نقرأ: "لقد كان لانتصارات محمد بن عبد الكريم الخطابي، كما كان لهزيمة، صدى قوي في أرجاء البلاد، مما دفع الأنتلجانشيا المغربية إلى اختيار العمل السياسي

¹⁹⁶ - مذكرات حياة و جهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحررية المغربية، محمد بن الحسن الوزاني، نشر مؤسسة محمد بن الحسن الوزاني/ ط بدون تاريخ نشر. ص 419.

¹⁹⁷ - مذكرات المنفى أو مذكرات لا ريونيون بقلم محمد بن عبد الكريم الخطابي/ المخطوط الأصلي تحقيق و تقديم: عبد المجيد عزوزي، محمد أونينا، عبد الحميد الرايس؛ جمال امزيان، ط 1: 2017 مطبعة أبي رقرق للطباعة و النشر الرباط، ص 99.

كوسيلة لمواجهة الاحتلال، و اتخذ العمل الوطني في البداية شكل نشاط ثقافي قادته جماعات من الشباب المتعلم داخل المدن¹⁹⁸. و كأن العمل السياسي غير العسكري كان بمثابة بديل أفضل من العمل المسلح، عقب الانتقال إلى العمل سياسي بعد خفوت صوت البندقية المقاومة. و يوضح الكتاب من العوامل الخارجية على حساب العوامل الداخلية و مخلفات الحرب الريفية تحديداً، فقد جاء مثلاً: "فإن تطور الحركة الوطنية التي تزعمها علال الفاسي ورفاقه يعكس ارتباطها الوثيق بظرفية خاصة متأثرة بشكل أو بآخر بتجربة حزب الوفد بمصر و ثورة مصطفى كمال بتركيا، و اهتمام القوى التقدمية الأوربية بمقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي بالريف، و كذا بمبدأ تقرير المصير، و أزمة سنة 1929 و ما نتج عنها من ركود اقتصادي في بداية الثلاثينات، و مع أن أثر هذا الركود قد لحق المجتمع المغربي كله، فإنه قد أفرز تجاوبا متصاعداً مع الخطاب الوطني كانوا معجبين بطريقة العمل التي اتبعها غاندي في الهند، و اختياره للوسائل السلمية وحثه المواطنين على استهلاك المواد المحلية عوض المواد المصنعة المستوردة"¹⁹⁹.

حول حدث نزول الأمير الخطابي بمصر ؟

يعتبر الكتاب أن نزول الأمير بمصر في 1947 كان نتيجة مجهودات قام بها الزعيم الوطني عبد الخالق الطريس حيث نقرأ: "الجبهة العربية، حيث استقر الطريس بالقاهرة، وأسفرت الجهود الوطنية هناك عن المشاركة في تأسيس مكتب المغرب العربي الذي كان وراء عملية نزول الأمير ابن عبد الكريم الخطابي بالديار المصرية و تأسيس "لجنة تحرير المغرب العربي". برئاسة²⁰⁰.

في حين أن هناك قراءات مصرية من أرض الحدث تقول برواية أخرى على الأقل لم يكن الطريس لوحده في الواجهة مثلما حاولت أن تظهر الرواية الرسمية لكتاب تاريخ المغرب، فمثلاً نقرأ في كتاب: فاروق و سقوط الملكية في مصر (1936-1952) للمؤرخة المصرية لطيفة محمد سالم: "في 29 ماي 1947 وصلت إلى السويس باخرة فرنسية تقل الأمير و أسرته و حاشيته من منفاه بجزيرة رينون بالمحيط

¹⁹⁸ - تاريخ المغرب ص 585.

¹⁹⁹ - م ن ص 583.

²⁰⁰ - م ن ص 302.

الهادي إلى فرنسا، و يذكر السفير البريطاني لحكومته أن الأمير لم يكن في نيته النزول بمصر- ولكن ممثلين مصريين و مغاربة صعدوا إليه، و كانت النتيجة أن غادر الباخرة في بور سعيد، والحقيقة أن الخطة أعدت لالتقاطه، فعندما علم رجال المكتب العربي بالقاهرة بالتوقيت اتفقوا على انتهاز فرصة مرور الأمير بالأراضي المصرية وإنقاذه، وعرضت الفكرة على المقام السامي فلقيت من حامي العروبة والإسلام ما هو من القبول و الترحيب²⁰¹.

و الحال أن قرارا بهذه الخطورة لم يكن ليتم لولا الموافقة و الدعم الكبير من الدولة المصرية و الملك فاروق تحديدا لما له من عواقب وخيمة على مستقبل العلاقات بين فرنسا و مصر، لا سيما مع بريطانيا التي كانت لا تزال تبسط نفوذها على مصر، و طبعا كتاب تاريخ المغرب لم يشر إلى دور الملك فاروق البطولي في هذه الخطوة، و هذا قفز متعمد على التاريخ.

و نقرأ في كتاب المؤرخة لطيفة محمد سالم تتمة الحكاية بكل تفصيلها وتداعياتها،:" و في السويس صعد للأمير محافظها حاملا له رسالة ملكية ورافقه مندوب جامعة الدول العربية و مغربيان أحدهما ممثل مراکش في اللجنة الثقافية التابعة للجامعة و الآخر ممثل المكتب العربي بالقاهرة، و تم الاتفاق على خطة نزوله. و في بور سعيد صعد إليه محمد حلمي حسين موفدا إليه من قبل الملك، و لبي المجاهد الرغبة الملكية، و بمجرد أن وطأت قدماه الأرض صرح بأن فاروقا حامي الأحرار و ناصر العروبة و الإسلام . واتجه مباشرة إلى قصر عابدين و سجل اسمه في سجل التشريفات معلنا التجاءه لحمي فاروق بعد سنوات المنفى.... ثم توجه إلى بيت المغرب بالقاهرة و احتفل به، و ألقى عبد الخالق الطريس رئيس حزب الإصلاح المغربي كلمة و تبعه الحبيب بورقيبة زعيم الحزب الحر التونسي و حملت كلمته نفس المعنى²⁰² ."

وعن تداعيات حدث احتضان مصر للأمير الخطابي نقرأ:" و رغم أن فاروقا أعلن في بيان نشرته الصحف أنه ليس هناك غرض سياسي أو شخصي من ضيافة الأمير، و أن ما قام به نبت عن اقتناعه بأنه واجب من عربي لأخيه العربي و من مسلم لأخيه المسلم، إلا أن فرنسا لم تهدأ، و توجه سفيرها بالقاهرة إلى وزارة الخارجية في 24

²⁰¹ - فاروق و سقوط الملكية في مصر (1936-1952)، لطيفة محمد سالم ، مكتبة مدبولي القاهرة ط2 نوفمبر 1996، ص 807.

²⁰² - م ن ص 808.

يونيو 1947 و قابل النقراشي و قدم مذكرة احتجاج الحكومة الفرنسية على استضافة الأمير و قبوله كلاجئ سياسي. رغم أن ظروف مصر الدقيقة والحرجة من الناحية الدولية و حاجتها إلى أن ترضي جميع الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة كي تضمن أصواتها إلى جانبها عن عرض النزاع المصري البريطاني على مجلس الأمن²⁰³.

و أما عن حرب الريف 1958-1959 فقد تم اختصارها في سطرين يتيمن بلا معنى و لا تداعيات! حيث جاء الأمر كالآتي: "بعد فترة وجيزة، عرف المغرب مجموعة من الفلاقل التي انطلقت بإيعاز من القوى المناهضة لحزب الاستقلال عبر أرجاء البلاد، و خصوصا بالأطلس المتوسط و منطقة الريف حيث تم إخماد الحركة التمردية بقسوة بالغة في مطلع سنة 1959²⁰⁴".

محمد بن الحسن الوزاني مؤرخا لحرب الريف حرب الريف: حركة وطنية تحررية

يعد الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني (1910-1978) فلتة سياسية و فكرية مغربية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، طالها ما طالها من الإقصاء و النسيان الممنهج والاغتيال المعنوي. و هو الرجل الذي جمع بين التنظير الأكاديمي و الفكري والممارسة على أرض الميدان، حيث مارس السياسة و الصحافة بعد تخرجه كأول مغربي يحمل شهادة في العلوم السياسية و أخرى من علوم الإعلام بسويسرا، علاوة على أنه من المؤسسين الأوائل للحركة الوطنية الذي ظهرت بداية الثلاثينات من القرن الماضي.

وينضاف إلى كل هذا، مواقف الرجل المبدئية الواضحة غير الملتبسة، ما جعله مصدر ثقة، بل و حظوة عند الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، حيث كانت تربطهما علاقات وثيقة. ثم إنه لم تكن رياح هوى الشمال على وفاق مع حزب الاستقلال، حيث كانت ذات هوى شوري، نسبة لحزب الشورى و الاستقلال الذي أسسه الأستاذ الوزاني.

²⁰³ - م ن ص 811.

²⁰⁴ - تاريخ المغرب ص 628.

بعد إصابته بجرح بالغ عقب انقلاب الصخيرات في يوليوز 1971، فقد على إثرها بشكل شبه تام القدرة على التحكم في ذراعه اليمنى، اعتكف الأستاذ الوزاني في منزله عاكفا على كتابة مذكراته قبل أن يوافيه الأجل المحتوم، والتي صدرت تحت اسم حياة و جهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية المغربية. وانطلاقا من الموضوعية على مستوى الكتابة و التشخيص السياسي، إذ تعد الحركة الوطنية التي رأت النور مطلع الثلاثينات إحدى ثمرات حرب الريف المباركة، و معها و عودة الوعي الوطني الذي ضخته انتصارات الأمير الخطابي و إعلان قيام جمهورية الريف. لذلك خصص الأستاذ الوزاني الجزء الثاني من مذكراته للحرب الريفية، على اعتبار أنها حلقة مؤسسة من حلقات انبثاق الوعي الوطني. و يمكن القول و من دون مبالغة بأن الكتاب و الجزء الذي ضم 465 صفحة من أبداع ما كتب عن تاريخ حرب الريف، لا سيما على مستوى الرعييل الأول، و تتجلى أهمية الكتاب في كون المؤلف قد عاشر الأحداث و هو شاب يافع و من مدينة فاس، والتي كانت على مرمى حجر من الأحداث، علاوة على اللقاءات المباشرة بل الصحبة التي جمعتها مع صناع الحدث و على رأسهم الأمير الخطابي، زد على ذلك سعة اطلاع الوزاني على المصادر والمراجع العديدة، بما فيها الأجنبية نتيجة إجادته للغات الأجنبية، و هو الذي عمل في ريعان شبابه رئيسا على إدارة عدد من الصحف الوطنية التي ظهرت مطلع الثلاثينات سواء باللغة العربية أو الفرنسية.²⁰⁵

يعتبر الوزاني بأن الحرب الريفية هي حركة وطنية تحريرية بامتياز، و عن الهدف من كتابه يقدم له قائلا: " لا نريد أن نكتب هنا تاريخ الحرب الريفية بتفصيل و تدقيق، فهذا عمل يتطلب مجهودا كبيرا، و وقتا طويلا للبحث و الاطلاع، و التحقيق و التمهيص اعتمادا على مصادر صحيحة و هي نادرة، إن لم تكن مفقودة، و نعني المصادر الجدية التي تسجل الوقائع و تروي الأخبار بصدق و نزاهة، و بكل آسف لا نعلم شيئا عنها إن كانت موجودة أما المصادر الأجنبية، و خاصة منها الفرنسية و الإسبانية فهي أكثر من أن تحصى كتباً، و جرائد و مجلات، كلها مشحونة بالتحريف و التشويه، و باعتبارها مصادر عدوة فهي مغرضة و ناقصة و أما ما طبع بالعربية فهو

²⁰⁵ - للاطلاع على المزيد من سيرة و مؤلفات الرجل المرجو زيارة موقع مؤسسة محمد بن الحسن الوزاني للديمقراطية

<http://mohamedhassanouazzani.org>

على قلته مترجم أو متأثر بالكتابات الأجنبية التي يلتبس فيها الحق بالباطل²⁰⁶ ". ويعبر الوزاني عن أمر في غاية الأهمية ما يزال مصدر إبهام و قيل و قال، و هو المتعلق بمذكرات الأمير الخطابي، حيث يقول: " وإذا كان بعض المغاربة المطلعين قد كتبوا شيئا في الموضوع فإنهم لم ينشروه لأسباب تخصهم، و بهذه المناسبة أذكر أن بطل الحرب الريفية كتب مذكراته، و لكنه امتنع من إخراجها للوجود على قيد حياته، و بما أنني كنت على اتصال وثيق و مستمر به و بشقيقه في القاهرة طيلة سنوات فقد حاولت أن أقنع الأمير بضرورة نشر مذكراته لأنه أولى من يتحدث عن الثورة التحريرية بالريف، و لأنه بهذا يمكن من دحض ما في المؤلفات الأجنبية من ترهات و أباطيل حولها، و لأن في ذلك خدمة للتاريخ المغربي الحديث و حركته الوطنية التحررية، و مع اقتناعه بهذا فقد كان يعتذر، و مرة كنت أتحدث مع عبد الرحمان عزام باشا، الأمين العام لجامعة الدول العربية في موضوع الحرب الريفية و مذكرات بطلها، فألح علي، نظرا لما كان يعلمه من حظوتي عنده، أن أقنعه بطبعها، و التزم لي عزام باشا بأن تتولى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية الطبع بالعربية و الترجمة مع الطبع بالانجليزية و الفرنسية و الإسبانية على نفقتها الخاصة و أضاف عزام أنه مستعد ليعطيني التزامه كتابة فنقلت هذا للأمير محمد، و لكنه أصر على رأيه، هو أن الوقت لم يحن بعد لإخراج مذكراته إلى الوجود، و كنت أنتهز كل فرصة لإعادة الكرة حتى فزت في آخر الأمر بموافقته، و هو أن أتولى مراجعة المذكرات مع شقيقه الأمير محمد في بيته بالدقي، و أن نفرغها في صيغتها النهائية مع الرجوع إليه كلما دعت الحاجة، و التزمت بأن أضيف إليها التعليقات و الإيضاحات المناسبة، و كذلك كل ما تحتاج إليه من فهارس و نقد أهم ما في الكتب الأجنبية و العربية من تحريف و زيف، مع الأمير محمد ثم انقطعت عنه لما توجهت لحضور دورة هيئة الأمم المتحدة، و بعدها أقمت بلوزان في سويسرا لما أخذت القضية المغربية تتطور، و الأزمة المغربية الفرنسية تسير بسرعة نحو حلها المنشود.²⁰⁷

و يعبر الوزاني عن أسفه في عدم إتمام مشروع المذكرات قائلا: " ثم حدث لقاء إيكس- ليان التاريخي، و كنت في لوزان على مقربة من مكانه للاتصال و التشاور مع وفد حزب الشورى الاستقلال في ذلك اللقاء، و بعد هذا تتابعت الأحداث

²⁰⁶ - مذكرات حياة و جهاد ص 17

²⁰⁷ - م ن ص 18.

والتطورات، فكانت عودة الملك من المنفى لفرنسا، و المحادثات المغربية الفرنسية وكل هذا جعلني أنقطع عن عملي بالمذكرات بالقاهرة، وأنا جد آسف.²⁰⁸

و عن فكرة الكتابة عن حرب الريف يقول: "وطالما راودني التفكير في كتابة ذلك التاريخ مستعملا ما عندي من وثائق، وما أظفر به من مصادر، مع تحري الصدق والأمانة، وكثير عن علموا هذا ألحوا علي في إنجاز المشروع، وأنا كوطني مغربي، وكرجل وفي لأبطال بلادي الذين جمعتني بهم المودة و الثقة أعد ذلك دينا في عنقي، وكل أمني أن أوفق لأدائه على الوجه المطلوب، و ريثما يتاح لي هذا أعرض فيما يلي خلاصة لحرب الريف اعتمادا على مصادر موثوقة، و وثائق صحيحة، وبذلك أعطي نظرة عامة عنها مقتصرًا على أشهر الأحداث و الوقائع والرجال، ومبرزًا دور البطالين الريفيين اللذين ملأ الأسماع، والأبصار، و الأفئدة بما بوأها مقعدا رفيعا بين الخالدين من العظماء."²⁰⁹

في التشكل

يرى الوزاني أن هناك هاجسين ساهما بشكل حاسم في تشكل الجمهورية الريفية، الهاجس الأول اقتناع الأمير الخطابي بضرورة التنظيم، و الهاجس الثاني هو الطابع

²⁰⁸ - م ن ص 19. و يضيف قائلا : "وقد توفي البطلان الأميران محمد ومحمد - رضوان الله عليها- دون أن تتحقق الأمنية العزيزة على قلوب جميع المخلصين، وعسى أن يوفق الله خلفهما لإخراج المذكرات كخير وأصح مصدر لتاريخ الحرب الريفية التحريرية، وهذا أقل واجب نحو المجاهدين، والوطن، وتاريخه، والأجيال المغربية. وبهذه المناسبة أذكر خبرا مزعجا أرجو أن يكون شائعة، وهو أن أحد الورثة لا حاجة لذكر اسمه قبض مبلغا مهما من المال ممن سعوا للاستيلاء على المذكرات. لإتلافها أو إخفائها من الوجود، لأنه لا مصلحة لهم في نشرها وللتعريف بالتاريخ الصحيح لحرب الريف التحريرية، فإذا صح الخبر المذكور - لا قدر الله - فإنه يكون عارا بل خيانة للأمانة التي تركها السلف للخلف. وإذا كان الخبر شائعة باطل فلماذا لم يسعد الحظ المذكرات لتخرج من الظلمات إل النور خدمة للوطن وتاريخه وذلك بعد ما مضت الأعوام على وفاة بطلي الثورة والتحرير في الريف؟ سؤال يضعه تاريخ المغرب على عقبهما، وفي نفس الوقت يضع المعنيين بالأمر أمام مسؤولياتهم العائلية و الوطنية و التاريخية، فهل سيقدرونه يهبون لنشر المذكرات إن كانوا يملكونها؟

19 - مذكرات حياة و جهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، مؤسسة محمد بن الحسن الوزاني، ج2 حرب الريف ص مؤسسة محمد بن الحسن الوزاني بدون تاريخ. ص 19

²⁰⁹ - م ن ص 20.

الشعبي للتنظيم الجديد، و في هذا يقول : " انصرف تفكير قادة الجهاد بالريف، وعلى رأسهم الأميران محمد وشقيقه، إلى تنظيم الشؤون الداخلية سياسيا و إداريا حتى يصبح للثورة الوطنية كيائها البارز وحتى لا تضع مكاسبها العظيمة التي نالتها بالجهاد والتضحية، وحتى تبدو حركة قومية، ونهضة وطنية ذات كيان وشأن. و أول ما اهتم به البطلان إبراز الصفة الشعبية الصحيحة للثورة التحريرية، وتحقيقا لهذا دعا جميع سكان القبائل المنضوية تحت لواء الجهاد الوطني إلى إيفاد نوابهم والناطقين باسمهم إلى اجتماع عام ينعقد في معسكر الثورة بأجدير، فهرع الجميع إلى مكان التجمع الشعبي العظيم، وفيه خاطب القائد الأعلى الحاضرين بأن تحدث لهم عن مطامع وخطط الاستعمار الاسباني²¹⁰."

و يعتبر الوزاني أن المناسبة كانت سانحة من أجل تشكيل مجلس شورى شعبي وطني: " بل طلب من الحاضرين أن يتداولوا في الأمر عملا بمبدأ الشورى، ويوضحوا بكل حرية وصراحة آراءهم ومواقفهم، فما كان من الجميع إلا أن استجابوا بحماس للدعوة معلنين كامل استعدادهم للجهاد حتى آخر قطرة من دمهم، واتفق رأيهم إذاك على تكوين مجلس شعبي يكون المرجع الأعلى، ويتولى وضع برنامج العمل وخطة الجهاد، ويؤلف حكومة محلية وطنية تشرف على تدبير شؤون البلاد ويكون من اختصاصها التنظيم، وبذلك تشكل برلمان الجمهورية الوليدة المتمثل في المجلس الوطني من نواب القبائل المجاهدة، وأصبح يمثل إرادة سكان الريف المكافح وفي أول اجتماع عقده المجلس الوطني الريفي اتخذ قراره الأول بإعلان استقلال البلاد وبتشكيل حكومة "دستورية" برئاسة الأمير محمد الخطابي بصفته زعيما الثورة، وقد تم هذا في منتصف عام 1921²¹¹."

أمير الجهاد أو أمير الريف

يرى الوزاني أن تنظيم كيان الدولة تطلب عامين، و فيها رفض محمد بن عبد الكريم أن يكون له لقب سلطان، بل رضي بلقب أمير الريف، ولم يكن إلا أمير الجهاد دون مدلول آخر، و القائد الأعلى لقوات المجاهدين، و رئيس الدولة الناشئة وحكومتها

²¹⁰ - م ن ص 357.

²¹¹ - م ن ص 358.

معا، فلم تكن هناك مملكة و أسرة ملكية قط، كما لا يمكن أن يورث لقب الإمارة الذي كان خاصا بالقادة الفعليين والرسميين للثورة الريفية ولحركتها التحررية الوطنية من آل الخطابي وهم محمد و محمد بن عبد الكريم وعمهما وشريكهما في قيادة الثورة عبد السلام دون سواهم. ومن الإجراءات الصارمة التي اتخذها الأمير الخطابي هو منعه أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة بمساجد الريف كرئيس لدولته وحكومته. وفي المقابل يرى الوزاني بأن الريفيين لم يكونوا يرفضون مبدأ سيادة السلطان على المغرب كله، ولعل من أجل هذا والحديث دائما للوزاني، امتنع ابن عبد الكريم من اتخاذ لقب السلطان، وفضل عليه لقب أمير الجهاد، خصوصا وأنه يرى كسائر المغاربة في منصب السلطنة رمز وضمان استمرار الدولة، والسيادة والوحدة في المغرب المبتلى مؤقتا بالاحتلال.

ومما يؤكد ذلك أن جميع الذين لزموا الأمير ابن عبد الكريم مدة الثورة أو بعد عودته من المنفى - وكنت منهم - أيقنوا بأنه لم يكن له أي طموح إلى الملك، بل كان يفكر في استقلال الوطن بعد أن يتحقق استقلال الريف أخذا بالمبدأ الذي يقتضي أن يمارس جميع المغاربة حقهم في اختيار حكامهم²¹².

وفي المقابل وفي محاولة لتقييم التنظيم الريفي الذي سيعرف بالجمهورية الريفية، يعتبر الوزاني أنه ليس معنى هذا أن الحكم بالريف كان ديمقراطيا عصريا، ولا شوريا إسلاميا، بل كان استشاريا في نطاق رؤساء القبائل و مندوبيهم أكثر منه شيئا آخر، وهكذا كان الأمير يجمع السلطة بين يديه، و يدبر الأمور بنفسه مع أخذه آراء المجالس القبلية عند الاقتضاء، ولكن من غير أن يتقيد لزوما برأيها سواء في الحرب أو في السياسة". وبذلك يرى الوزاني أن مفهوم الحكم في التجربة الريفية كان أشبه بما كان عليه الأمر في عهد الخلافة الإسلامية، لهذا لم يتخذ كعادة الملوك بلاطا، وحاشية و بطانة، وإن قرب أقاربه الذين أسدى إلى بعضهم مناصب كبيرة في الجيش والحكومة نظرا لما بينهم من الأوامر العائلية، و لبواعث الثقة فيهم، فقد سئل من الصحفي الانجليزي وارد برايس عن نوع الحكم الذي يفكر فيه، بعد استقلال الريف، فأجابه: إن الدين الإسلامي لا يعترف إلا بشكل واحد من الحكم، وهو حكم الأمير، إن الحكم بمجالس تمثيلية يناقض المبادئ المحمدية، ومع هذا فإن نظامنا ديمقراطي جدا، لأن الأمير ينتخب بحرية من رؤساء القبائل²¹³، ويمكن خلعه إذا

²¹² - م ن ص 359.

²¹³؛ م ن ص 360.

لم يرض الناس، و ينتخب أمير آخر يحل محله، وكذلك فإن خلفه ينتخب بالاقتراع عند الوفاة". و بذلك يكون تصور نظام الحكم عند الأمير الخطابي أقرب منه إلى نظام رئاسي منه إلى نظام برلماني لأن الرئيس نتيجة الصلاحيات المعتبرة التي يحوزها الأمير/ الرئيس..

ويرى الوزاني أن حياة الأمير كانت حياة شعبية بسيطة و في ذلك يقول: " ومع ما أدركه الأمير محمد بن عبد الكريم وشقيقه من رئاسة وقيادة ونفوذ، وسطوة فقد بقيا على حالهما لا يميزها شيء عن أهل الريف، الذين كانا يتزينان بزيتهم التقليدي، ويسكنان في بيت عادي من بيوتهم ويعيشان نفس عيشهم، ويختلطان بالناس في القبائل والأسواق ويتحدثان معهم في شؤونهم فضلا عن أفراد الشعب، وإن كانا رئيسين، وقائدين وزعيمين بدون منازع، وتلك هي الشعبية الصحيحة، والديمقراطية الحق، وكلتاها قائمة على الطبيعة المغربية، وآخذة للأخلاق الإسلامية فرضا".²¹⁴

المسألة الدستورية

و عن دستور الجمهورية الريفية يردف الوزاني بأنه قد وضع المجلس "دستورا" للبلاد يقوم على سيادة الأمة ومما تميز به هذا "الدستور" أنه جعل السلطين التشريعية التنفيذية في يد المجلس الوطني، وذلك من غير أن يفصل بين السلطين، ويسند والسلطة التنفيذية للحكومة مما هو معهود في الدساتير العصرية، كما أن "الدستور" جعل رئيس الحكومة الريفية رئيسا في نفس الوقت للمجلس الوطني و مسؤولا كذلك أمامه، و حتم على أعضاء هذا المجلس تنفيذ ما يتخذه من قرارات، فجمع الأمير كل الرئاسات نظرا لظروف الريف، وضرورة توحيد سلطة القيادة فيه²¹⁵.

الميثاق الوطني

وبعد ذلك وضع المجلس الوطني ميثاقا قوميا ليتخذه الشعب مثله الأعلى في الجهاد، وبعد مداولات متوالية جاء الميثاق كما يلي:

²¹⁴ - م ن ص 360.

²¹⁵ - م ن ص 362.

- 1 - عدم الاعتراف بكل معاهدة تمس بحقوق البلاد المغربية وخاصة بمعاهدة "الحماية" المفروضة في 1912.
 - 2- جلاء الأسبان عن الريف الذي لم يكن في حوزتهم قبل إبرام المعاهدة الفرنسية الأسبانية سنة 1912، بحيث لا يبقى لإسبانيا غير سبتة و مليلية.
 - 3- الاعتراف بالاستقلال التام للحكومة الريفية.
 - 4- تشكيل حكومة دستورية بالريف.
 - 5 - دفع إسبانيا للريف تعويضات عن الخسائر التي ألحقتها بسكانه من جراء الاحتلال، و لفداء الأسرى الذين وقعوا في يد المجاهدين.
 - 6- إنشاء علاقات ودية مع جميع الدول بدون استثناء، وإبرام اتفاقات تجارية معها²¹⁶.
- و بمقارنة ما كتبه الأستاذ علال الفاسي نجده أنها حصرها في خمس نقاط، في حين جعلها الأستاذ الوزاني ست نقاط و ذلك بإضافة، نقطة تشكيل حكومة دستورية بالريف.

الصدام مع فرنسا "حماقة" لا بد منها !

يقف الأستاذ الوزاني مطولا عند مسألة في غاية الأهمية في الحرب الريفية، ألا وهي الصدام مع فرنسا، ليقرر أنه يقف وقفة لبعث اعترافات من انتقدوا إقدام الريفيين على الدخول كذلك في حرب مع فرنسا، نقد قالوا إنها (غلطة) عرضت الثورة الريفية إلى سوء المصير بعد الانتصار على إسبانيا، ثم أدت في النهاية إلى اختفاء كل ما حققته، و إعادة إسبانيا إلى احتلال الشمال بعد أن انسحبت منه، وكل هذا واقع و صحيح، وبكل أسف...ليطرح سؤالا وجيها: ولكن على من تقع المسؤولية؟ مجيبا على ذلك بأنه على هذا يمكن لكل واحد أن يبنّي حكمه على اعتبارات واقعية وحيثيات منطقية يعسر الرد عليها، ونحن لا نريد أن نستعرض كل ما قيل جوابا على ذلك السؤال مما تضاربت فيه الآراء، وتناقضت فيه الأحكام²¹⁷.

و يعود الوزاني للسرد التاريخي و السياق العام في محاولة لتوضيح الحقيقة العسكرية والتاريخية، مذكرا بما قاله حول الموقف الفرنسي من ثورة الريف، وهو عنصر أساسي

27 - م ن ص 363.

²¹⁷ - م ن ص 323.

في تقدير الوضع وقتئذ بالسبة لقادتها، فالبادئ أظلم، كما يقال، وقد كان الفرنسيون هم البادئين لا برفضهم للمسالمة من لدن الأمير ابن عبد الكريم فحسب، بل بما أقدموا عليه من تقدمات عسكرية داخل أراض تعتبرها ثورة الريف ملحقة بها، وعلى طول المنطقة الشمالية التي أصبحت فيها سيدة مطلقة بحكم الحرب والظفر فيها، فهذه حقيقة تفرض نفسها حتما على كل باحث نزيه ومنصف، وحقيقة أخرى لا تقل عنها قيمة وأهمية وهي أن قبيلة بني زروال التي ناصرت الثورة الريفية تلقائيا ضد الأسباب هي التي كانت أوفدت إلى الأمير ابن بن عبد الكريم وفدا طلب منه المساعدة لرد هجومات الفرنسيين على أراضيها، وبما أنها استنجدت به ضد العدوان عليها فهل كان من المعقول، و المقبول، والمصلحة الوطنية رفض طلب النجدة، خصوصا وأن الوضع فيها، كما أوجده الفرنسيون على طول حدود منطقة الشمال، أصبح إذاك خطيرا ومهددا بكل شر بالنسبة للثورة الريفية الظافرة؟ معتبرا أن ابن عبد الكريم قد لبي ذلك الطلب كرها لا طوعا وأعلن أنه ارتكب حماقة لا بد منها.

أضف إلى ذلك كله أن الأمير كان على يقين تام بأن حرب فرنسا آتية لا ريب فيها بعدما استعدت لها، وشرعت في التخطيط والتمهيد لها في انتظار اليوم الموعود، وقد كان قريبا غير بعيد، كما دلت عليه كل القرائن والأحوال وقتئذ.²¹⁸

²¹⁸ - ويستشهد الأستاذ الوزاني بما كتبه ليوطي نفسه لحكومته: "إن قبائل الريف تخضع لأول مرة في تاريخها الطويل لرجل فرد، وتعيوه أذنأ صاغية، إن ابن عبد الكريم يرغب، فيما يبدو، في تمثيل دور مصطفى كمال، إن أمير الريف هو بطل الاستقلال المغربي، كما أن صورا ملونة له تنتشر في شمال أفريقيا، بل آسيا الصغرى، إن الريفيين يهتفون علنا بغير الجبهة ضدنا، وطالما أننا لم نوطد مواقعنا شمال نهر ورغة فإن سيطرتنا على فاس، وخط مواصلاتنا الرئيسي تازة- فاس يظلان تحت رحمة غزو ينهال من الشمال، إننا نواجه حقيقة حية تزداد تطورا يوما بعد يوم". أما على الميدان فقد ثم طلب ليوطي إحدى عشرة فرقة جديدة على أقل تقدير للرد على أي هجوم، ولتتمكن من القبض على زمام المبادرة في الهجوم المبيت. فهل بعد هذا يقال إن قرار ابن عبد الكريم الدخول في حرب مع فرنسا غلطة، وليس موقفا أملا منطلق الأحداث والتطورات، زيادة على الواجب والصالح الوطنيين؟

الحرب الريفية بقلم علال الفاسي

يرجع الفضل في تأليف كتاب الحركات الاستقلالية في المغرب العربي الذي ألفه الأستاذ علال الفاسي (1910-1974) سنة 1948 إلى الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية بالقاهرة، والتي قررت استكتاب أدباء العرب في عدد من الموضوعات التي تنكب على تصوير حالة الأمة العربية في حينه. و بناء على ذلك طلب رئيس اللجنة الثقافية في حينه الأستاذ أحمد أمين أن يكتب الأستاذ علال الفاسي فصلا عن الحركات الاستقلالية في بلدان المغرب العربي. ولأن الموضوع بتلك الأهمية البالغة فإن فصلا واحدا لم يكف، حيث تحول الفصل إلى كتاب، مع إشارة ثانية إلى كبر المساحة المخصصة للقضية المراكشية/ المغربية نتيجة ما توفر عليه الأستاذ علال من وثائق و معاصرت له أحداثها، و مساهمته الشخصية في بزوغ نجم الحركة الوطنية المغربية مطلع الثلاثينات.

و قد خصص للحرب الريفية، كما عنون بذلك فقرات الموضوع، زهاء 15 صفحة، عرج فيها و بعبالة على عدد من الموضوعات و الأحداث المتعلقة بالحرب الريفية (1921_1926).

الصدام مع فرنسا

يقف الأستاذ علال الفاسي موقفا موضوعيا من مسألة ما سماه بالحرب مع فرنسا، حيث يسرد الوقائع كما جاءت من دون محاولة للتأويل أو التأثير، إذ اعتبر بأن سياسة الأمير كانت تعمل في بادئ الأمر جاهدة لئلا تنضم فرنسا لإسبانيا في مقاومة الحركة التحررية، و كان يرى الأفق لنجاح القضية هو العمل على كسب الوقت، و تمديد أمد المجاملة لفرنسا ريثما يتم إقصاء إسبانيا عن المنطقة الشمالية بالمرّة، كان الفرنسيون في بادئ الأمر ينظرون إلى عمل الأمير بكل تحفظ، و حاول المارشال ليوطي أن يربط مع ابن عبد الكريم علاقات ظاهرها الود و باطنها المكر و الخداع. و لكنه في الوقت نفسه كان يرفع تقاريره للحكومة الفرنسية، مبينا ضرورة الحذر من قيام حكومة حرة في جزء من المغرب مجاورة للمنطقة الفرنسية، لما في ذلك من الخطر على سلامة الشمال الإفريقي. نعم كان ينصح فرنسا بالتربص عسى أن تستطيع إسبانيا قهر الريفيين وحدها فلا تضطر فرنسا لخوض غمار الحرب، و ربما تواجه

تضحيات مادية ليست بحاجة إليها. و يضيف علال و لكن الفرنسيين لم يستطيعوا الصبر، بل تقدموا لمهاجمة قبائل ورغة التي تعتبرها حصونا أمامية للمناطق الريفية بدعوى حماية القبائل التي تحت النفوذ الفرنسي من مهاجمة الريفيين²¹⁹. و صف الأستاذ علال المواجهة مع فرنسا بأنها كانت قاسية شديدة، و كان الأمر فيها سجلا بين المغاربة و الفرنسيين، و لا يمكننا أن نسردها هنا مواقعها و لا أيامها المجيدة لأن ذلك يخرج بنا عن الغاية التي نقصدها من هذا المبحث، و يكفي أن نقول بأن موقعتي "البيان" و "الكيفان" و أمثالهما هزت أركان القوة الفرنسية-الإسبانية وجعلت الماريشال بيتان يجلب كل ما لفرنسا من مختلف القوات البرية والبحرية والجوية التي قهرت من قبل بها ألمانيا في فيردان، و لذا لا غرابة أن نرى القوة تفوز على الحق مؤقتا، خصوصا بعد أن قام جماعة من أدعياء المشيخة كعبد الرحمان الدرقاوي و حميدو الوزاني ببعض الضعف في نفوس بعض أتباعهم باسم الدين، و الدين منهم و من تعاليمهم براء، و انتهت هذه الحرب التحريرية بتسليم الأمير في يوم 25 ماي سنة 1926، فنقل إلى فاس و منها على منفى رينيون) حيث بقي هو أخوه و عمه واحدا و عشرين عاما²²⁰.

في الطريق إلى تكوين جمهورية ريفية

و يستمر علال الفاسي في التنويه و الإشادة بما حققته الحركة الريفية قائلا: "هذه الحرب الريفية من الوجهة العسكرية، و قد رأينا كيف استطاع قائدها العظيم أن يحشد فيها كل القوات المعنوية التي كانت كامنة في الشعب و محتاجة لمن يحركها في سبيل الدفاع عن حريته، و لقد أخبرني الأمير عيد الكريم: أنه وصل الاتفاق بين الأفراد و الجماعات إلى حد أن ذوي الثأر الذين لم يكونوا يكلمون رazziهم تأخوا معهم، و تناسوا كل ما بينهم من حزازات و سامحوا قاتلي آبائهم و أقاربهم في سبيل المثل الأعلى الذي بعثه هذا الزعيم في نفوسهم، و ألهم الدفاع عنه الموت في سبيله، و هذا المثل الأعلى لم يكن إلا تحرير المغرب و استعادة وحدته الترابية"²²¹.

²¹⁹ - الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي، علال الفاسي، ط 6، 2003، مؤسسة علال الفاسي

الرباط، ص 133.

²²⁰ - م ن ص 136.

²²¹ - م ن ص 136.

محاولات لاغتيال الأمير

و يسرد علال الفاسي بعض الأحداث التي يمكن القول إن عموم الناس لم يكونوا على اطلاع عليها، من قبيل محاولات اغتيال الأمير من طرف بعض العملاء المندسين، حيث يحكي: "ولقد حاول المستعمرون القضاء عليه بمختلف الوسائل فلم ينجحوا، و فكروا في قتله غيلة و لكن إخلاص قومه له كان يحول دون تنفيذ ذلك بصفة من الصفات. حدثني الزعيم محمد بن عبد الكريم بالقاهرة: "أن الكولونيل مونيسيرو القائد الإسباني لمعركة النكور اتفق ذات مرة مع محمد بن الحاج محمد أوفقيير المكنى عند الإسبانين ببايز يكي على تسميم الأمير، و كان حاضرا على الاتفاق ابن سعيد السلاوي، و حمل أوفقيير قنينة سم، و جاء معه ثلة من الإسبانين حاملين عديدا من الديناميت لنسف دار الأمير بعد تسميمه. و ما إن وصل إلى أجدير حتى بلغ الأمير ما قدم من أجله، و قدم له القنينة، و حمل له الإسبانين الذين معه كأسارى²²²"

و عن بعض اختيارات الأمير في القراءة و المطالعة يسرد علال الفاسي: "و لقد أخبرني الفقيه أولحية الذي كان وزير العدل في الحرب الريفية، ثم نفي إلى آسفي بعد نهاية الحرب: أن البطل عبد الكريم كان يلزمه مطالعة كتاب التفسير للشيخ رشيد رضا، و غيره من كتب الإصلاح الديني قاصدا بذلك تنوير فكره، و كان رحمه الله من أسرة تعتقد في الكثير من الخوراق، و تتبع أربابها دون تفريق أو تمييز²²³!...

الجمهورية الريفية المؤقتة

يذهب علال الفاسي إلى أن قيام جمهورية الريف كانت اختيارا ديمقراطيا من دون أدنى تحفظ أو غضاضة، بيد أنه يعتبرها مجرد مرحلة سياسية و زمنية مؤقتة، و يربطها بشروط، كما يضعها في سياق عام:

²²² - م ن ص 136.

²²³ - م ن ص 137.

أولاً: يعتبر أن هناك حاجة ملحة لقيامها و تتمثل في عدم استطاعة أهل الريف الحديث باسم ملك المغرب الذي كانت تمنعه ظروفه القهرية في منطقة النفوذ الفرنسي.

ثانياً : أن الجمهورية الريفية لم تكن عدولا عن فكرة الملكية في نظر من قاموا به من زعماء الريف.

ثانياً: أن جمهورية الريف كانت حركة تحررية كسابقتها ذات اتجاه ديمقراطي يرمي لتحسين حالة الشعب، في الوقت الذي يعمل فيه للذود عن كيانه و حماية حوزته.

رابعاً: لم يريدوا أن يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه الهبة و والده ماء العينين حينما أعلننا نفسيهما ملكين بعد أن كانا من المخلصين للعرش و المدافعين عنه.

خامساً : أنها كانت بمثابة الحل الوسط في تأسيس نظام مؤقت يمكنهم من تنظيم الإدارة و تدريب الجمهور على أن يحكم نفسه بنفسه.

سادساً: أنه متى تم التحرر الكامل لسائر البلاد سلموا البلاد المحررة لصاحب العرش.

سابعاً : لم يكن مطمح الحركة التحررية منازعة الحكم بالمغرب بل فقط المطالبة بنظام دستوري يحقق رغبات الشعب من مراقبة أعمال الدولة و التعاون على

تسييرها.²²⁴

ولا يستفيض الأستاذ علال كثيرا في الحديث عن مؤسسات الجمهورية "المؤقتة"

ويرى أنه بعد قيام الاتحاد الذي كان في صيغة جمهورية لتسويقه سياسيا، خاصة على المستوى الخارجي ، سارع إلى تأسيس مجلس عام يكون هو المرجع الأعلى،²²⁵

ويكون له برنامج الذي يسير عليه ويؤلف حكومة وطنية تدبر الشؤون و تضع القوانين و الأنظمة اللازمة.

الجمعية الوطنية

و يضيف بأنه : " فعلا قد تشكل هذا المجلس العام باسم "الجمعية الوطنية" من جماعات القبائل و الأهالي و المشايخ و القواد طبقا للعادة المتبعة في المغرب الأقصى، وكانت هذه الجمعية هي التي تمثل إرادة الشعب، و تتولى تنظيم الكفاح

²²⁴ - م ن ص 139.

²²⁵ - م ن ص 139.

وإدارة البلاد، و أول اجتماع عقدته كان سنة 1921، وأول قرار اتخذته هو إعلان استقلال الوطن، و تأسيس حكومة دستورية جمهورية يرأسها محمد بن عبد الكريم بصفته زعيم الحرب التحررية. و كان ذلك يوم 15 محرم سنة 1340 هجرية الموافق 1921²²⁶.

وعن دستور الجمهورية يردف قائلا: " ثم توالى الجمعية الوطنية عقد اجتماعاتها، فوضعت للبلاد دستورا مبدؤه سلطة الشعب، إلا أنه لم يفصل بين السلطين التشريعية والتنفيذية طبقا لما جرى به العرف الدستوري في البلاد الديمقراطية، بل وضع السلطين معا في يد الجمعية و جعل رئيس الجمهورية هو رئيسها، وأوجب على كل شيخ وزعيم وقائد من أعضاء المجلس تنفيذ المقررات التي تقررها الجمعية، و قد راعت الجمعية في اتباع هذه القاعدة تقاليد البلاد وعاداتها²²⁷.

الميثاق القومي للجمهورية الريفية

وعن الميثاق القومي، يقول الأستاذ علال: " و بعد أن أتمت الجمعية وضع الدستور شرعت في وضع ميثاق قومي يصبح المثل الأعلى للشعب يجاهد من أجله و يموت في سبيله، ثم يسرد من مواد الميثاق القومي الذي أقرته بعد عدة جلسات:

1 - عدم الاعتراف بأي معاهدة لها مساس بحقوق البلاد المغربية وبخاصة معاهدة 1912.

2- جلاء الإسبان عن المنطقة الريفية التي لم تكن في حوزتهم قبل إبرام المعاهدة الإسبانية الفرنسية ل 1912.

3- الاعتراف بالاستقلال التام للدولة الريفية الجمهورية (الاستقلال عن إسبانيا وفرنسا).

4- أن تدفع إسبانيا تعويضا للريفيين عن الخسائر التي لحقت بهم من جراء الاحتلال في السنوات الإحدى عشرة الماضية، و فدية للأسرى الذين وقعوا في أيديهم.

5- إنشاء علاقات ودية مع كافة الدول دون تمييز و عقد محادثات تجارية معها²²⁸.

²²⁶ - م ن ص 140.

²²⁷ - م ن ص 139.

²²⁸ - م ن ص 139.

من الحرب العسكرية إلى المقاومة السياسية

ليس من المبالغة في شيء القول بأن الأستاذ علال الفاسي كان من أشد المعتقدين بأن الحرب الريفية كانت لها تبعات واضحة على مستوى نشأة الوعي السياسي الذي سيظهر لاحقا في شخص الحركة الوطنية المغربية مطلع الثلاثينات، وفي هذا يقول: "وطيلة الحرب الريفية كانت تعلق على الجداران وتوزع على البيوت الرسائل والنشرات التي كان يبعثها البطل عبد الكريم يدعو فيها الرؤساء والعلماء لتأييد ومؤازرة حركته التحررية... وقد اكتشفت عام 1924 بالدار البيضاء مركزا مهما للدعاية للأمير عبد الكريم وقبض على أشخاص كثيرين من رجاله، وصادرت كميات من النشرات العربية تحرض الوطنيين على الثورة، وهاجر وفد من الشبيبة إلى أجدير برئاسة صديقنا عبد القادر التازي²²⁹."

بيد أن صدى الثورة الريفية قد تعدى الساحة الوطنية ليصل إلى فرنسا نفسها، وفي ذلك يضيف الأستاذ علال: "وقام العمال المغاربة بفرنسا بعدة مظاهرات تضامنية، وعقدوا مؤتمرا عاما بجون فيلييه سنة 1925 وجهوا منه للزعيم عبد الكريم تحيتهم ومعلنين تأزريهم مع المغاربة المجاهدين على طرد المستعمرين الإسبان، وأقام كل من المواطنين: عبد الرحمان بن العربي رئيس الفرقة المغربية لوريثال ومعمل فريز ايسي الذي هو من مهاجري وادي بوعلي بتافيلالت، والسيد محمد بن محمد من تيزنيت بدعاية قوية في أوساط أبناء الشمال الإفريقي بفرنسا لمساعدة الريف وعضد رجاله²³⁰."

ولم يكن أيضا عالم الأدب بمعزل عما يحدث حيث يضيف: "و لم يكتف أدباء المغرب إعجابهم بشهامة الريفيين وبطولاتهم برغم الضغط الشديد والتنكيل الوبيل الذي كانت تقوم به كل من فرنسا وإسبانيا مع أي فرد يظهر عليه عطف على الحركة التحررية أو دعوة لها. ومن أشعار المغاربة في حرب الريف قصيدة الأستاذ المؤرخ محمد بن الأعرج السليمانى المنشورة في "العصر الجديد" التونسي التي يقول في مطلعها:

دع الفتيات تمرح في القصور... ويمم مسعفا وادي النكور

²²⁹ - م ن ص 146.

²³⁰ - م ن ص 146.

وقصيدة الأستاذ الحاج محمد الناصري التي نظمت بمناسبة المولد النبوي والحرب
الريفية في عنوانها و مطلعها:

شهر النبي محمد وافي يفشى السلام ويحمل الألفاظا

و من أبياتها :

سل البرانس والتسول و جاية و السبت و الكيفان و الأكفانا

تلك المواقع حطمت أبطالهم و أرتهموا من ويلها أصنافا²³¹.

ملاحظات

بعد سردنا لرواية الأستاذ علال الفاسي للحرب الريفية كما جاءت في كتاب الحركات
الاستقلالية في المغرب العربي، لا بد من الإشارة هنا إلى عدد من الملاحظات.
الملاحظة الأولى: أن الكتاب قد تم تأليفه بطلب من جامعة الدول العربية، ما يعني
أنه تقرير رسمي رفع إلى الجامعة، والحال أنه كان إلى حد كبير موضوعيا و منصفاً
للحرب الريفية، مع إقحام للذاتية لا سيما على مستوى مسار الحديث عن الحركة
الوطنية السياسية الشابة التي ظهرت مطلع الثلاثينات.

الملاحظة الثانية أن حديثه عن الحرب الريفية في 1948 تزامنت مع وصول الأمير
الخطابي إلى مصر في 1947، و هو الصدى الكبير الذي شاع في حينه، علاوة على
اللقاءات المباشرة التي يعقدها مع الأمير، حيث يذكر في الكتاب أن الأمير حدثه
بكذا وكذا...

الملاحظة الثالثة: الكل يعلم أنه في 1948 كانت العلاقة بين الأمير الخطابي والزعيم
الاستقلالي علال الفاسي، طيبة و على درجة من الوفاق، في حين أنه وبداية من
منتصف الخمسينات بدأ صفو العلاقة يتعكر نتيجة الاختلافات و المناورات السياسية
التي جرت، حيث لم يعد الأمير يثق كثيرا في مواقف ولا آراء الأستاذ علال، و هذا
ليس بالسراً، أكثر من ذلك فقد تكهرت العلاقة بين الأمير و الزعيم الاستقلالي كلية
بعد مغامرة إيكس لبيان غشت 1955، و التي كان يعتبرها الأمير مؤامرة متكاملة
الأطراف للقضاء على الحركة التحررية المغربية، في محاولة لعزل المغرب عن محيطه

²³¹ - م ن ص 146.

المغاربي والتنصل من مما جاء في كل من مكتب المغرب العربي و لجنته بالقاهرة الداعية إلى تحرير كل بلدان دول المغرب العربي دفعة واحدة.

الملاحظة الرابعة: هو الموقف التوافقي الذي يقفه علال الفاسي من قضية الجمهورية الريفية، فهو يعترف بوجودها و أنها فعلا قد قامت، بيد أنه يربطها بمرحلة وسياق سياسي معين هو الحرب التحررية التي خاضتها المنطقة و ظروف الحماية التي يئن تحت وطأتها المغرب.

الملاحظة الخامسة: يصعب فك الاشتباك في كتابات الأستاذ علال، حيث يحضر علال الفقيه و المفكر الإسلامي رجل المواقف، و في الوقت نفسه نجد حضور علال السياسي المحاور و المناور! ما يجعل من الضرورة طرح سؤال أي علال يكتب؟

محمد العربي المساري بين الاستدراك و إعادة التأويل

نشر الأستاذ محمد العربي المساري (1936_2015) سلسلة حلقات عن التجربة الخطابية بالعنوان نفسه الذي صدر به الكتاب: "الخطابي: من القبيلة إلى الوطن"، على صفحات يومية العلم في 1980 لتتوقف الحلقات. و التي كتبت أثناء بحث ميداني قام به في 1972 حيث رتب له صديقه الأستاذ أحمد المرباط عددا من اللقاءات مع الذين ما يزالون على قيد الحياة من المشاركين في الحرب الريفية سواء الذين استوطنوا تطوان أو لم يبرحوا مسقط رأسهم الحسيمة و النواحي. الرحلة التي قام بها في غشت 1972 ، مستعينا كذلك بابن الأمير الخطابي نجله سعيد الخطابي الذي كانت بينه و بين المؤلف اتصالات . و يضيف أنه حين حرر المادة أحالها على الأستاذ علال الفاسي²³² الذي راقه الجهد المبذول، لا سيما على مستوى صياغة أطروحة الكتاب، علاوة على عدد من ملاحظاته و توجيهاته للبحث و التدقيق في عدد من الجزئيات، و مع ذلك انتظر الكتاب أزيد من ثلاثة عقود في رف الانتظار إلى غاية 2012 تاريخ النشر.

²³² - محمد بن عبد الكريم الخطابي: من القبيلة إلى الوطن، محمد العربي المساري، ط 1 2012، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ص 7.

هل كانت جمهورية؟

هل كانت جمهورية بالريف؟ السؤال الذي أعاد طرحه و صياغته الأستاذ المساري محاولاً تأويله قدر الإمكان أو إعادة تفسيره تفسيراً مغايراً لما كان عليه الجواب، في أنه كان مجرد اسم فرضته المرحلة، حتى لا يختلط بمفهوم المملكة و السلطة فهو منزلة ما بين المنزلتين! و يحيل على: "نقل د. وولمان في كتابه ص 174 الطبعة الإسبانية عن مونغمري هارت، متبنياً تأويلاً لوجهة نظر مغايرة في أن ابن عبد الكريم حينما أعلن "الجمهورية" كان يقصد أنه لا يجب أن يفهم أنه يمثل وضعاً يشبه بلاد السببية في العرف المغربي في العهد السابق لفرض الحماية. و قد نقل هارت بدوره عن المساعدين الأقربين للأمير، و ذكر من بينهم أزرقان و بودرة و حدو نموح أمزيان، أن العبارة التي كانت شائعة في ما بينهم هي "الجهة الريفية" و ذلك للتلاؤم بكيفية أقرب ما تكون مع حالتهم و هي الانغمار في عمليات قتال متلاحقة²³³ ليخلص إلى أنه: "وعلى أي حال فإنه مهما كان اللفظ المستعمل في الداخل أو الخارج للدلالة على الكيان السياسي الذي تمت إقامته على أرض واقع الأراضي المحررة، فقد كان هناك دافع قوي للنأي عن مصطلح المملكة أو السلطنة، و ذلك حتى لا يختلط الأمر في المخيلة العامة للشعب، مع نماذج سلبية حاضرة في الأذهان، تمخضت عن تجارب سابقة لم يمر عليها زمن طويل، خاصة وأن المنطقة كانت لسنوات خلت مسرحاً لتحركات خارجة عن الشرعية قام بها بوحمارة الذي ناصبوه العداء و الاحتقار، و كانت بداية نهايته على أيديهم²³⁴".

و يعتبر المساري بأن مصدر التعقيد أن الأمير كان يرغب بشدة في أن يبعد عن نفسه صفة المغامر الطامع في التسلط، وأن يبعد عن حركته شبهة الخروج الشرعية. فاتخذ لنفسه وصفاً يبعده عن أن يصنف كأبي "روغي" من زمن السببية. فهو و جماعته من المجاهدين كانوا متمسكين برفض الخضوع للإسبان، بينما كان هؤلاء يدفعون بأنهم إنما كانوا يقاومون عبد الكريم باسم السلطان. و حينما تولى ملف الريف الديكتاتور بريمو دي ريفيرا صرح بأن إسبانيا تقوم في المغرب بمهمة دولية. و قال

²³³ - م ن ص 137.

²³⁴ - م ن ص 137.

إن الاستقلال الذي يدعيه بن عيد الكريم ليس له أساس قانوني. ووضع الريفيين هو وضع العصاة وليس وضع أمة مستقلة²³⁵.

معادلة القاموس الكوني

يواصل الأستاذ المساري البحث عن تأويل إيجابي لمفهوم الجمهورية الريفية، معتبرا بأن "هذا بالذات ما دعا الأمير إلى صياغة شعارات مستبعدة للشبهة ورافضة لهذه الدعاوى. وكان حريصا على أن يثبت في أذهان مخاطبيه الأوروبيين أنه يتقصد شيئا مخالفا تمام لما يروجه الإسبان بشأن الرعية. وكان مبعوثوه إلى المجتمع الدولي يعلنون أنهم يمثلون كيانا مستقلا ومتميزا عن المغرب الذي فرضت عليه الحماية، بينما هم أحرار في بلادهم. وكانت هناك حجة إضافية طعموا بها خطابهم مفادها أن الحماية مفروضة على المغرب وهم ليسوا منه وكان ذلك غلوا من جانبهم. وكانوا يتخيرون لذلك قاموسا متداولاً في الأمم الأوربية يحمل مفاهيم اصطنعوها لترويج خطابهم بكيفية قريبة من الأفهام²³⁶.

والدليل أنه حينما أبلغت كل من إسبانيا وفرنسا الزعيم اليفي طرحا مشتركا في 1925 كأرضية للتفاوض، وهي بالمناسبة كانت مجرد مناورة ليس إلا، حول اتفاق محتمل قصد إنهاء النزاع، كان الشرط الأول الذي اقترح على بن عبد الكريم هو الاعتراف بسيادة سلطان المغرب (الذي كان تحت حماية فرنسا وإسبانيا ما ينسف مفهوم السيادة من أساسه). وفي مقابل اعتراف إسبانيا وفرنسا بحكم ذاتي إداري في الريف، وبصلاحيات تجارية. ما جعل الرد قاطعا بالرفض²³⁷.

وفي هذا، يضيف المساري بأنه إذا كان محور الرهانات المطروحة منذ البداية حتى سنة 1925 هو الاعتراف بالوضع القائم في المغرب على إثر فرض الحماية. وكان هذا الرفض وهذا المنطق هو المحرك والمبرر للخطاب الذي انتحلته الثورة، وضمنته المذكرة التي أبلغتها إلى المجلس العام لعصبة الأمم في 6 أيلول/ سبتمبر 1922. بل ونجد - والكلام للمساري- في هذه الوثيقة كلاما عن وجود حكومة في الريف "تمثيلية منتخبة حسب الأصول المرعية" كما ذكرت المذكرة أن هذه الحكومة

²³⁵ - م ن ص 138.

²³⁶ - م ن ص 139.

²³⁷ - م ن ص 140.

"تتكون من نواب 41 قبله من قبائل الريف و غمارة بالمغرب. كذا نصت المذكرة أيضا على أنه "يحكم بلادنا مجلس تمثيلي منتخب هو البرلمان مدته ثلاث سنوات متجددة" و من جهة أخرى "يتم تعيين أعضاء الحكومة من بين الممثلين المنتخبين". ولا بد أن هذه الصياغة تحكمت فيها اعتبارات معينة أملت استعمال قاموس متداول في الأدبيات الدولية²³⁸.

في حين يرى المساري أنه على أرض الواقع، الهيكل الحكومي المختصر الذي كان يدبر الأمور في الريف داخليا وخارجيا يشكله في الواقع أقرب مساعدى الأمير الذين تكبدوا إلى جانبه أعباء الميلاد الأول للحركة. و الأعيان الذين يجري الكلام عنهم بين الفينة والأخرى بوصفهم أعضاء لمجالس تمثيلية هم غالبا من ذلك الرعيل الأول من خاصة أهل الريف مع ترجيح لكفة المنتسبين لبني ورياغل، و هذا أمر مفهوم دعت إليه اعتبارات عملية. و استعمال القاموس الكوني لا يعدو أن يكون ضربا من الترجمة الني اقترب المفاهيم من المخاطب²³⁹.

إكراهات غلبت النوايا

ويضيف المساري معللا لطرحه حول مفهوم الجمهورية و تشكلها على أرض الواقع بأنه يمكن أن نفهم ما أعلن عنه في 1922 بقي مسجلا بوصفه نوايا كانت تحذو زعيم الثورة، و لكن لم يتح لها أن تطبق على أرض الواقع. و لنا أن نفهم أيضا أن البيانات المنفوخ فيها التي أبلغت في جنيف و لندن الرأي العام الدولي عن عدد القبائل المنضمة لحكومة الريف، و عن المساحة التي تحتلها المنطقة المعنية، إنما كان يتم ترديدتها لأغراض دعائية. و ما كان قائما في عين المكان لم يخرج عن إطار الهياكل التقليدية، و هي في الغالب الأعم الهياكل القبلية التي كانت الثورة تنصب عليها قوادا تختارهم من بين الزعامات المحلية الملتزمة بأهداف الحرب التحريرية. و يحيل على ما ذكره السكيرج نقلا عن أزرقان دواليب تنظيمية ذكر من بينها مجلس الأمة وهو حسب المواصفات المذكورة مزيج من مجلس حربي ومجلس نيابي في آن واحد. و في مرات محددة انعقدت مؤتمرات حاشدة كان يحضرها أعيان من مختلف القبائل. وكانت هذه المؤتمرات تنعقد للفصل في أمور حيوية لسير الأعمال.

²³⁸ - م ن ص 140.

²³⁹ - م ن ص 140.

ومن الطبيعي أن يكون الأمر هكذا في ظل أوضاع يغلب عليها الانشغال بالأعباء القتالية²⁴⁰.

التفسير الإيجابي لمقولات الخطاب

و نعتقد أن هذا أهم وأبرز فصل في الكتاب ككل، وربما هو التيمة المحورية التي بنيت عليها فكرة الكتاب، إذ يذهب المساري إلى إعادة تأويل ما كتبه أستاذه في الحزب و المدرسة الاستقلالية ككل، الأستاذ علال الفاسي، معتبرا بأنه، أي علال الفاسي، قد فسر مختلف المبادرات التي أقدم عليها الخطابى بأنها تنم عن حس ديمقراطى أصيل. و فسر إنشاء "الجمهورية" بأنه لا يعنى عدولا عن فكرة الملكية عند زعماء الريف، ولكنهم فى الحقيقة لم يكونوا يستطيعون الكلام باسم ملك المغرب الذى جعلته ظروف قهرية فى منطقة النفوذ الفرنسى. و لم يريدوا أن يقعوا فى الخطأ الذى وقع فيه الهبة و والده ماء العينين حينما أعلنوا عن نفسيهما ملكين بعد أن كانا من المخلصين للعرش و المدافعين عنه. و لذلك فقد وجد زعماء الريف حلا وسطا هو تأسيس نظام مؤقت يمكنهم من تنظيم الإدارة و تدريب الجمهور على أن يحكم نفسه بنفسه، و متى تم التحرر الكامل لسائر أبناء الوطن سلموا البلاد المحررة لصاحب العرش. و لم يطالبوا بأكثر من تطبيق نظام دستوري يحقق رغبات الشعب فى مراقبة أعمال الدولة و التعاون على تسييرها²⁴¹.

و يحيل المساري على ما ذكره روبرت فورنو²⁴² عن بوجيار أن الأمير كان راغبا فى اتخاذ الدستور البريطانى مثلا للدولة الريفية، و أصدر تعليماته إلى وزير الشؤون الخارجية من أجل الحصول على نسخة من تلك الوثيقة من عملائه بطنجة، و لشدة ما كانت دهشته حين علم أنه لا وجود لدستور بريطانى مكتوب بل ويضيف المساري بأن علال الفاسي كان من القلائل الذين تحدثوا عن وجود دستور للجمهورية الريفية ص 139/140 و أورد تاريخا لإعلان الحكومة الدستورية لجمهورية الريف و هو بالهجرى 15 محرد 1340 / 18 سبتمبر 1921 و هذا التاريخ

²⁴⁰ - م ن ص 141.

²⁴¹ - م ن ص 139.

²⁴² - الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، روبرت فورنو، ط2 2018 الملتقى مراكش، ص 140.

مطابق لما ذكره الخطابي نفسه لمحاورة روجر ماتييو حينما تحدث عن إعلان الدولة و بيعته أميراً²⁴³.

بين الغلو و العبقرية في التكتيك

و يعتبر المساري أن ما قام به الأمير الخطابي كان غلوا في التكتيك! و عبارة الغلو في التكتيك عبارة مخففة جدا بل ودبلوماسية، و يستند في ذلك إلى الوضع الملتبس الذي نشأ في حينه، و الذي يقوم على أساس أن جيوش الدولتين الحاميتين إنما كانت تعمل باسم السلطان لتهدئة الأحوال في القبائل المتتفضة ضد النظام. ولمواجهة تلك المقولة ارتكز خطاب الثورة الخطابية على أساس دفع التهمة بأنها مجرد تمرد على السلطان. و كان ابن عبد الكريم يرفض القول إنه متمرد و خارج عن الشرعية. و كان عليه أن يواجه ذلك الطرح الذي ينفي عن حركته نعت "الخروج عن الطاعة". و حتى الخمسينيات كان الأمير رحمه الله يرفض كلمة "الثورة"، ويقول إنه لم يثر على أحد و لا على أي سلطة، إنما كان يدافع عن بلاده ضد جيش أجنبي كان يريد أن يحتلها²⁴⁴.

و يعلل المساري طرحه بأنه من هذه الزاوية، فإن الأمير حينما كان يخاطب الخارج كان يريد أن يقدم نفسه ممثلاً لبلد غير ملزم بنظام الحماية الذي التزم به سلطان المغرب. و ذلك على عكس ماء العينين الذي بنى تحركه على أساس أن السلطان غلب على أمره، و أنه جاء لينصب نفسه سلطاناً لكي يحرر البلد رفضاً لمعاهدة اضط

²⁴³ - م ن ص 143. و يضيف المساري: في ذلك كتب علال الفاسي بأن الجمعية الوطنية الريفية التي انكبت على إعداد الوثيقة عقدت عدة اجتماعات فوضعت دستوراً قوامه سلطة الشعب، إلا أن هذا الدستور لم يفصل بين السلطتين التشريعية و التنفيذية كما هو المعمول به في البلدان الديمقراطية. و هذا هو ما لاحظناه قبل قليل حينما سجلنا أن المجلس الذي تحدث عنه السكيرج كان يعتبره خلط ناتج عن الثقل الذي كانت تمثله أعباء العمليات القتالية. و لاحظ علال أن ذلك الدستور وضع السلطتين معاً في يد الجمعية الوطنية، و جعل رئيس الجمهورية هو رئيسها، و أوجب على كل شيخ و زعيم و قائد من أعضاء المجلس تنفيذ المقررات التي تقرها الجمعية و قد راعت الجمعية في اتباع هذه القاعدة تقاليد البلاد و عاداتها. و من الممكن أن نستنتج أنه كان لعلال الفاسي مصدره المختلف عن الباقيين في الكلام عن الدستور. و يمكن أن نسجل أن المصدر ذاته الذي رجع إليه كان يستعمل لفظة "الجمعية الوطنية" للدلالة على محافل تمثيلية كما ورد عند ماتينيو الذي نقل عن الأمير مباشرة. و كان السكيرج يسمي تلك الهيئة بـ "مجلس الأمة" و "المجلس الحربي" و هذه الفروق الطفيفة في التسميات توجد أيضاً في ما يتعلق بتاريخ بعض المواقف و بعض الوثائق. ص 144.

²⁴⁴ - م ن ص 128.

السلطان إلى توقيعها. وهناك نص وجهه الأمير إلى عصبة الأمم توسع في بسط هذه الأطروحة، وصل إلى حد محاولة الدفاع عن مقولة أن الريف ليس من المغرب. وأنه غير معني بالاتفاقيات المتفرعة عن معاهدة الخزيرات التي تعني المغرب وهو ليس جزءا منه. وهذا ضرب من الغلو في القول، يتناقض مع سابق تأكيدات الأمير خاصة²⁴⁵ لدى "بيعته".

و الحال، أننا لا نفهم لماذا لم يرد الأستاذ المساري أن يضع هذا "الغلو في التكتيك" في سياقه الموضوعي العام، أي في إطار الحروب الدبلوماسية، وإطار الفهم والتأويل الإيجابي لمقولات الأمير الخطابية في كونه يقصد بأن الريف ليس جزءا من المغرب أي المغرب المحمي الفاقد لسيادته بموجب اتفاقية فاس 1912، لذا لا نرى أن هناك غلوا في التكتيك على الإطلاق طالما أننا في إطار الحرب الدعائية الدبلوماسية التي تحاول فيها كل من إسبانيا وفرنسا أن تصور و تسوق لحكومة الريف على أنها مجرد ثورة و تمرد لا غير.

و يستدرك الأستاذ لمساري في هذه النقطة، أي ما اعتبره بالغلو في التكتيك، معتبرا بأنه يمكن أن تدرج مواقف من هذا القبيل في نطاق التعبيرات التكتيكية التي تملئها على الحركات السياسية أحيانا اعتبارات الملاءمة. فقد كان تكتيكا أن يبلغ فرنسا أنه يريد السلم معها بقصد التفرقة بينها وبين إسبانيا، و كان تكتيكا أيضا أن يقول للرأي العام الخارجي أنه ليس جزءا من المغرب، و إنه ليس على ارتباط بالحركة الإسلامية. و لا بد أن نكرر أن مثل هذه التعبيرات لم تتكرر، بل إن تصريحات الأمير بعد تحرره ونزوله في القاهرة حتى وفاته بها تركز دائما على مقولة وحدة التراب المغربي ووحدة الكيان، وحتى تدخلات الأمير ضد الاختيارات السياسية في البلاد في الستينات كان التعبير عنها يتم بوصفه زعيما وطنيا في بلد موحد له كيانه الموحد²⁴⁶.

أبعاد مغامرة الصدام مع فرنسا باعتبارها حثيمة

يقف المساري موقفا وسطا في مسألة الصدام مع فرنسا، فهو لا يدين صراحة سياسة الأمير فيما وقع من اصطدام مع الجانب الفرنسي، و في المقابل لا يدافع بشراسة

²⁴⁵ - م ن ص 129.

²⁴⁶ - م ن ص 132.

عن موقفه و في كون الصدام كان محتوما كما فعل الأستاذ الحسن الوزاني في كتابه عن حرب الريف كما رأينا. و في ذلك يصرح المساري : " يذهب بي الظن إلى أن اقتحام خط ورغة لم يكن قرارا اتخذته ابن عبد الكريم عن طيب خاطر، وأنه بعد أن وجد نفسه أمام أمر واقع، ربما ساورته فكرة غير محسوبة جيدا بشأن العداء الفرنسي الإسباني الذي قد لا يسمح للجانبين بأن يخوضا في عمل مشترك ضد قواته، في وقت كان التدهور الإسباني بلغ أشده".²⁴⁷

يضيف المساري أنه في حديثه لروجر ماتيو تكلم الأمير بوضوح عن الوصول إلى الصدام مع فرنسا. و ذكر أن تحرك فرنسا نحو وادي ورغة العليا، هو السبب. و شرح كيف تقع شمال شرقي فاس و كان الفرنسيون يدعون أنها جزء من محميتهم. و ظلت فارغة إلى أن قرر هو أن يوجه إليها قواته. و هنا قرر ليوطي احتلالها فعليا فوقع الاصطدام. و نقل ماتيو عن الأمير بهذا الصدد، نظرية يؤمن بها، مفادها: أنه ليس في العالم إلا امتحان واحد لصحة الملكية وهو الاحتلال الفعلي، و لهذا احتل جنودنا تلك المراكز. و هكذا، فإنه يقر بشكل ما بأنه كان هو البادئ بالمناوشة التي انتهت بما انتهت إليه. و قال معقبا لماتيو " لقد ظن رجالي أن الجبهة الفرنسية سيكون مصيرها مثل الجبهة الإسبانية". و مما يمكن أن يشار إليه أنه كانت للأمير إذ ذاك كما ينقل ماتيو، أسلحة قوية. مدافع رشاشة كثيرة و 50 مدفعا كبيرا مما غنمه المجاهدون أو اشتروه بفضل الأموال التي حصلوا عليها من التعويضات و لكن الأمير أكد لماتيو أن الرصاصة الأولى انطلقت من الجبهة الفرنسية. و هو يذكر هذا لتأكيد أنه لم يكن راغبا في الاصطدام مع فرنسا²⁴⁸.

انتقال المشعل في 1930

على غرار باقي مشارب مدرسة الحركة الوطنية، يرى الأستاذ المساري أنه وفي لحظة تشكل وعي جديد في مغرب العشرينات كانت حركة الخطابي محتفظة براهنتها. وبكل تأكيد فإن شباب 1930 كانوا سواء في الجنوب أو الشمال، يدينون بأبوة حركة الخطابي، كما يؤكد ذلك صراحة محمد إبراهيم الكتاني، وكما تعبر عن ذلك المساجلة الشعرية للثلاثي المختار السوسي و علال الفاسي والمدني العلوي. ومعلوم

²⁴⁷ - م ن ص 132.

²⁴⁸ - م ن ص 132.

أن حركة الخطاب لم تكن مثل باقي أعمال المقاومة المسلحة في القبائل، وهو الجسم الرئيسي في هذه الأطروحة التي نقدمها. إنه كان يحمل مشروعا متكاملًا لتحرير الوطن و بناء المواطن. وإذا كان قد انتقل بالفكر السياسي المغربي من مستوى القبيلة إلى مستوى الوطن. فإنه كان على الشبيبة التي تناولت منه المشعل أن تقيم فوق ذلك الوطن دولة بمواصفات عصرية تحل محل المغرب المريض الذي سقط في براثن الحماية²⁴⁹.

في نقد السوسيولوجيا الكولونيالية و الدفاع عن التجربة الخطابية

يقف المساري موقفًا منتصرًا للتجربة الريفية الخطابية، وناقداً للسوسيولوجيا الكولونيالية التي حشرت تجربة الخطاب في خانة ضيقة بنظرة قبلية جامدة! إذ تعاملت معها بوصفها ظاهرة قبلية. ورغم التمجيد الذي حملته تلك المدرسة دائماً للقبيلة، بوصفها كيانا هو وحده المعبر عن "المغرب" الحقيقي. فإن الظاهرة الخطابية رغم أنها إنتاج وسط قبلي، تم التعامل معها من قبل تلك المدرسة كشيء يكسر النظرية التي جهزتها لتفسير النوازل التي حفلت بها "الحروب الإفريقية". وهذا الفهم لا يريد أن يقبل أن القبيلة إنما هي مرحلة في التطور وليس تعبيراً سمردياً، وبالأحرى أن تكون واقعا جامدا في حدود ما تم ترسيمه في أجهزة "الشؤون الأهلية". ومن جهة أخرى فإن تلك الأجهزة أرادت أن تقاوم عواقب الأثر الذي أحدثته الخطابية في أفكار النخبة الحضرية، والتفاعل الذي وقع بين الحركة الوطنية و عالم القبائل²⁵⁰

العربي المساري بين مبضع المحلل و قلم المؤرخ

من دون أدنى شك أن كتاب الأستاذ محمد العربي المساري "محمد عبد الكريم الخطابي: من القبيلة إلى الوطن"، يعد من أعمق الكتابات المتميزة التي لا نقول إنها

²⁴⁹ - م ن ص 199.

²⁵⁰ - م ن ص 188.

أرخت لحرب الريف (1921-1926) بقدم ما انبرت لتحليل و تفكيك و إعادة تركيب للظاهرة الخطابية. صحيح أننا قد نختلف في التحليل دون اختلافنا في التأريخ لأن الوقائع ثابتة لا يمكن القفز عليها، و لكن أيضا هذا لا يمنع من القول بموضوعية الرجل وحرفيته في تفكيك النصوص وإعادة بنائها في سياقاتها التاريخية، مع الوفاء دائما وأبدا للمدرسة الاستقلالية، فالرجل لا يتدثر خلف الصفة البحثية الأكاديمية، كما يفعل آخرون، لينتصر لمذهبه وفريقه، بل يعلنها صريحة من دون أن تكون على حساب الموضوعية و الأمانة التاريخية و النزاهة البحثية، وهو ما يعطي قيمة مضافة للكتاب في كونه، يجمع بين الصفة الأكاديمية البحثية مع الوفاء للبصمة السياسية.

عبد الرحمان اليوسفي و مؤسسات جمهورية الريف

قدم الأستاذ عبد الرحمان اليوسفي عرضا بعنوان: "مؤسسات جمهورية الريف"²⁵¹. في ندوة التي احتضنتها باريس في 18-20 يناير 1973، و قبل الخوض في مؤسسات الجمهورية الريفية حسب وجهة نظر اليوسفي لا بد من الوقوف على عدد من الملاحظات و الاعتبارات:

الملاحظة الأولى: لماذا غاب عرض الأستاذ عبد الرحمان اليوسفي في مذكراته²⁵² التي صدرت في مستهل السنة الحالية 2018 رغم أنها كانت عبارة عن ثلاثة أجزاء

²⁵¹ - ندوة الخطابي و جمهورية الريف ترجمت إلى اللغة العربية و صدرت عن دار ابن رشد بيروت 1980، كما أعادت دورية أمل المغربية إعادة نشرها في عدد 8 ط 2 سنة 1999. بعنوان: قضايا في حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

²⁵² - أحاديث في ما جرى: شذرا من سيرتي كما رويتها لبودركة، عبد الرحمان اليوسفي، الطبعة الأولى فبراير 2018. دار النشر المغربية- عين السبع الدار البيضاء.

صدرت مذكرات الأستاذ اليوسفي مستهل هذه السنة أي 2018، في ثلاثة أجزاء من اقتراح و إلحاح من امبارك بودركة، في ثلاثة أجزاء، و الحال أن المذكرات الفعلية تتوقف في الجزء الأول بعنوان: أحاديث في ما جرى: شذرا من سيرتي كما رويتها لبودركة، أي الصفحة 240. في حين باقي الجزء الأول خصص لملحق الصورة و خمسة ملاحق:

الملحق الأول: مواقف و أحداث خاصة

الملحق الثاني: مراثيات تأبين العديد من الشخصيات الوطنية

الملحق الثالث: اللقاءات مع المهنيين و القطاعات.

الملحق الرابع: الأهمية الاشتراكية الفضاء الأورومغاربي.

الملحق الخامس: حقوق الإنسان.

ضمت معظم الحوارات التي أجراها اليوسفي و الكلمات التي ألقاها و التي تعود لعقود خلت و في مناسبات شتى؟ علما أن عرض اليوسفي حول مؤسسات الجمهورية هو عرض أكاديمي- تاريخي يفوق من الناحية العلمية و الأكاديمية باقي الكلمات التأبينية و المجاملاتية التي ضمتها المذكرات؟

و الجواب أنه لا يمكن القول بأن ما صدر هي مذكرات لليوسفي، شكلا و مضمونا، كما فعل رفاقه من قبل، مثل عبد الواحد الراضي في مذكراته التي صدرت في 2017. بل هي مجرد أحاديث عابرة تكلف امبارك بودركة و بإلحاح شديد منه ومطاردة له، من جمعها على مضض، حيث لم يتعد عدد صفحاتها 240 صفحة. والحال أنها لم تأت بأي جديد، في حين، نصف الجزء الأول، علاوة على جزأين كاملين، خصصهما بودركة لكلمات وخطب اليوسفي و أحاديثه الصحفية، ما يجعل من عبارة مذكرات مجرد مجاز.

الملاحظة الثانية: لماذا أقصي عرض اليوسفي حول مؤسسات الجمهورية الريفية علما أنها تزامنت مع حراك الريف الذي انطلق مع مقتل الشهيد محسن فكري نهاية أكتوبر 2016 و بلغت أوجها ربيع 2017، في حين صدرت المذكرات في بداية 2018؟ و الجواب أن هناك قصدا إراديا للقفز على العرض لحساسية الظرفية، و هذا ليس بالجديد فالسيد أمبارك بودركة ممن يوصفون بأنهم من رجال الإطفاء كما حدث في تجربة حياة الإنصاف و المصالحة.

الملاحظة الثالثة: لماذا الحديث عن مؤسسات جمهورية الريف في 1973؟ والجواب أن هناك سياقاً موضوعياً لا يجب القفز عليه، فبداية 1973 تؤرخ لنهاية المغامرة الانقلابية الثانية التي كانت في غشت 1972 المعروفة بانقلاب القنيطرة والتي كان الجنرال أوفقيير أحد مهندسيها، الانقلاب الذي كانت الحركة الاتحادية لا سيما في الخارج على علم بتفاصيلها، و التي كللتها رسالة الفقيه البصري²⁵³ الشهيرة و القوية التي تؤكد علم الاتحاديين بل ومحاولة تنسيقهم مع الجنرال للإعداد لمرحلة ما بعد الحسن الثاني. لذا كان الحديث عن النموذج الريفي والخطابي للجمهورية حديث تدليل على وجود نموذج تاريخي للجمهورية ونموذج يمكن القول بأنه ناجح تمكن من الصمود لمدة 5 سنوات في وجه قوتين استعمارييتين هما

و قد خصص الجزء الثاني و الثالث من المذكرات بالكامل لخطب و كلمات اليوسفي ما بين 27 مارس 1992 إلى 30 أكتوبر 1999، و الجزء الآخر من 21 يناير 2000 إلى 10 شتنبر 2003.

²⁵³ - أنظر رسالة الفقيه البصري في كتاب : ثورة لم تكتمل: مذكرات امحمد التوزاني. ط1/ 2018 مؤسسة آفاق مراكش،

إسبانيا وفرنسا. وهو نموذج ما بين المتزلتين، فلا هو من قبيل السبية ولا هو نموذج مخزني²⁵⁴.

مؤسسات جمهورية الريف

يعتبر اليوسفي أن إبداع الخطاب قد تجلى على الصعيد السياسي في محاولته إيجاد حل لإشكالية الدولة المغربية. فالمغرب في الواقع، كانت قد أنهكت طيلة قرون حروب قاسية: بين بلاد المخزن وبلاد السبية، حروب مريرة قاومت فيها الجماهير المغربية بكل صلابة نظام المخزن، هذه النسخة المشوهة والفاصلة عن الدولة الإسلامية²⁵⁵ وهو ما دفع بالخطابي إلى أن يؤقلم مفهوم الدولة الحديثة مع التشريع الإسلامي (الراشدي) كما وضعه مؤسسو دولة المدينة (الخلفاء الراشدون). هذا التشريع الذي يتناسب كل التناسب مع تقاليد الشعب المغربي الديمقراطية والتعاونية. لم تكن جمهورية الريف تعبيراً عن قطع كل صلة مع نظام المخزن فقط بل إنها أيضاً محاولة دمج كل ما هو صالح في التراث الاجتماعي - الثقافي المغربي مع كل مكتسبات المجتمع الحديث. فإذا كانت دولة السبية - أي دولة المنشقين - هي الرد الشعبي على نظام المخزن التعسفي والباغي، فإن عبد الكريم يتبنى الحاصل الجدلي لكلا الظاهرتين: بناء دولة حديثة في آن معاً ضد تعسف المخزن وضلاله وسلبية دولة السبية²⁵⁵.

كما يرى الأستاذ اليوسفي على مستوى تحديث مفهوم الدولة أن الخطابي قد وضع الحجر الأساس بما اكتسبه من موارد وشهرة لـ "جمهورية الريف" التي كان بنفسه رئيساً لها. وقد اتبع تقاليد جاعلاً من قبيلته قاعدة لحكمه ولكن من نواحي ثانية، كانت جمهوريته الصغيرة مدعومة بتنظيم حديث. ما جعل منه قطباً جاذباً لا فقط للمنشقين من أتباعنا بل ولهذه العناصر المغربية، والشابة منها على الخصوص التي

²⁵⁴ - انظر ما كتبه العربي المساري في كتابه الخطابي/ من القبيلة إلى الوطن، عن مقارنة اليوسفي لا المخزن ولا السبية: فقد قدم عبد الرحمان اليوسفي تفسيراً مقارناً لهذه المقولة المثير للتأمل، حيث وظفها في اتجاه ركز عليه أكثر من غيره، وهو القول بأن ابن عبد الكريم عمل على تأسيس نظرة جديدة لمسألي الدولة. وكان في هذا مختلفاً عن المسعى التوفيقى الذي قدمه علال. وقد وردت تأويلات اليوسفي هذه في عرض قدمه في الندوة التي نظمت في باريس 1973 وكان عنوانه "مؤسسات جمهورية الريف". ودار العرض حول فكرة رئيسة وهي أن إيديولوجية الثورة الخطابية كانت تنبني على قطعية تامة مع نظام المخزن، إلا أنه برغم طرحه لكون الثورة الريفية كانت تمثل قطعية مع المخزن العتيق، فإن اليوسفي يبرز أم الأمير كان يؤكد وجود "امة مغربية" و "شعب مغربي" ز و هذه جزئية ذات بال بالنسبة إلى الحركة الوطنية المغربية.... ص 146

²⁵⁵ - مجلة أمل م س ص 91.

وسعت مداركها المستقبلية الأحداث الجديدة في الشرق والتي تطورت في فكرها مطامح العداء للأجانب، ليصل إلى أنه ليس من المبالغة الجزم أن ابن عبد الكريم كان يريد تجهيز الشعب الريفي ببنية دولة تتطابق مع التعريف الغربي للدولة أي مع الواقع القومي والأممي المؤلف من عناصر ثلاثة: الشعب، الأرض والسيادة. وحسب اليوسفي فإنه لم يغب عن بال عبد الكريم مفاهيم كالحدود والموارد الطبيعية بل إنها كانت سببا وحجة في تدهور العلاقات بين جمهورية الريف والحكومة²⁵⁶الفرنسية.

ولم يكن عبد الكريم ليقبل بالتخطيط الذي قسم بشكل اصطناعي القبائل الجنوبية إلى قسمين حارما الجمهورية، بهذا الشكل، من مخازنها ومن حدودها الطبيعية أي²⁵⁷السهول و وادي ورغة.

وقد سرد اليوسفي أهم ما ورد في ما عرف بالميثاق الوطني²⁵⁸، والتي جعلها خمس نقاط، حيث لم يذكر النقطة السادسة والتي تتجلى في جلاء الإسبان عن المنطقة الريفية التي لم تكن في حوزتهم قبل إبرام المعاهدة الإسبانية الفرنسية ل 1912: - عدم الاعتراف بكل اتفاق ينتهك حقوق المغرب أو يرتبط باتفاق 1912.

- الاعتراف بالاستقلال الناجز دولة الريف.

- تأسيس الحكم الجمهوري الدستوري.

- التعويض عن الأضرار التي لحقت بالريفيين خلال السنتين المنصرمتين وإجراء تبادل الأسرى.

- توطيد علاقات الصداقة مع كل الدول دون تمييز وعقد اتفاقات معها.

في تكوين السلطة

بناء على نتائج التحقيق الاستقصائي الذي أجري مع أفراد عائلة عبد الكريم ومع معاونيه المباشرين الذين ما زالوا على قيد الحياة، اتضح حسب اليوسفي بأن عامل التوحيد الحاسم لم يكن في اجتماع مندوبي القبائل في مجلس وطني - فقد

²⁵⁶ - م ن ص 92.

²⁵⁷ م ن ص 92.

²⁵⁸ - م ن ص 93.

حصلت في تاريخ المغرب اجتماعات كثيرة على هذا المستوى وفي مختلف مناطق المغرب- بل كان إنشاء تنظيم قضائي يبت في النزاعات ويطبق الشريعة . لتقدير أهمية هذا العامل علينا أن نتذكر حالة الحرب الأهلية الدائمة والمعقدة التي كانت تعيث فسادا في جميع أنحاء المجتمع الريفي وعجز القضاء العرفي عن وضع حد للصراعات الدموية²⁵⁹.

ووقف اليوسفي عند الجهاز القضائي ودوره الحاسم في تطوير التجمع الفدرالي وفي إنجاز الاتحاد القبائلي. وليس اعتباطا أن يسمى مركز أجدير (العاصمة) (المحكمة) وأن تغلب في بادئ الأمر صفة عبد الكريم كقاض على صفته كزعيم سياسي. لذا فقد تم تأسيس سلطة الدولة انطلاقا من تحليل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للريف، باستخدام مؤسسات كفيلة بتلبية الحاجات الفعلية للشعب والتعبير فعليا عن إرادته في التحرر القومي . وقد تبلورت نواة الدولة الريفية في الاجتماع المدعو باجتماع القامة في بلاد تسمان وذلك قبل معركة أنوال واشترك في هذا الاجتماع ممثلو بني ورياغل وتسمان وبني ارزين وبقية²⁶⁰.

إن هذه النقطة على مستوى الدولة تتطلب على حسب تعبير اليوسفي قرارا ثوريا بالنسبة لتلك المرحلة، و تجلّى ذلك في إلغاء الأسلوب القبلي في حل النزاعات والوجه الآخر لهذا القرار كان العودة إلى تطبيق الشرع في جميع القبائل على أيدي قضاة يعينون لهذا الغرض وأول نتيجة لذلك كان تطبيق قانون العقوبات : " من يقتل يقتل " وبذلك لم يعد للثأر وللقدية أية قيمة. وعلى غرار من سبقوه في الحديث عن جمعية الريف مثل الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني و علال الفاسي أكد اليوسفي على العقوبات التي وقفت مانعا أمام تطور جمهورية الريف القروية فيرى (اليوسفي) أن السبب الحاسم كان هو التفوق العسكري والتكنولوجي الساحق للدولتين الاستعمارييتين الأوروبيتين. لكن هذا لا يعني أنه لم تكن هناك أسباب سياسية لا تقل أهمية كذلك... وحسبنا أن نعلم فقط أن م. بغدادي ردد أمامنا ندم قادة الريف، لأنهم شجعوا اتصالات عديدة ومهدوا لبعض الدراسات والملاحظات التي تمكن²⁶¹ العدو من الاستفادة منها.

²⁵⁹ - م ن ص 94.

²⁶⁰ - م ن ص 94.

²⁶¹ - م ن ص 100.

وعن السبب الذي يجب التأكيد عليه هو أن جهاز الدولة الريفية ظل موجزا ومختصرا نوعا ما ولم يستفد من دعم النخبة المغربية، و لم يتلق أي عون مباشر أو غير مباشر من مؤسسة الأعيان و المثقفين و أصحاب الزوايا و الاقتصاد...؟
يجيب اليوسفي بأنه صحيح أن قسما كبيرا اشترك في المقاومة قبل 1912. لكن بدا التراجع واضحا مع إعلان الجمهورية و تصاعد حرب التحرير لا سيما في جانب طائفة الأعيان الذين أظهروا تخوفا كبيرا وتحفظا أكبر من أحداث بالريف... وعلى عكس من سبق و كتب في الموضوع و الذين لم يتناولوا موقف السلطان يوسف من الحركة التحررية الريفية، فقد أكد اليوسفي بأنه يخليل لمولاي يوسف أن يجد تفسيراً لهذه الظاهرة بتأكيده بأن الطامعين في المناصب و الذين يشكلون خطراً كانوا عادة يأتون من الجنوب، المنبت الحقيقي للزاوية و الرباط و بأن أي رقي موضع ثقة لا يمكن أن يأتي من الشمال. و الحقيقة أن هذا التفسير غير صحيح، فالهبة التي جاءت من الجنوب مكللا بالشهرة التي لا تقارن بشهرة الشيخ ماء العينين تمكن هو الآخر من الانخراط في المؤسسة و لم يكن فشله ناتجا فقط عن مصير معركة "سيدي بوعثمان" شتنبر 1912، و إنما بشكل خاص نتج عن خيانة إقطاع الجنوب والبورجوازية المراكشية له²⁶².

ليخلص في الأخير إلى أن ابن عبد الكريم قد اتخذ عبرة من هذا الحدث و قلما كان يرغب في احتلال فاس، فقد كان على وعي تام بأن جهاز دولته الذي ما زال جدينا لم يكن من المقدرة بحيث يواجه المشاكل الضخمة من كل نوع التي كان يمكن أن يطرحها القيام بعبء دولة كهذه وهو لا يملك دوائر القيادة و انتقد ابن عبد الكريم في رسالة بعث بها إلى قاضي تطوان انتقادا عنيفا لسلوك مولاي يوسف و نظامه المخزني، كما انتقد كذلك عددا من العلماء الأوسع شهرة لأنهم يتعاونون مع نظام الحماية. و كان ابن عبد الكريم يأمل كثيرا بضم شيخ تازة الأمر الذي كان سيؤدي إلى نتائج لا تحصى بسبب انقطاع طرق المواصلات مع الجزائر.²⁶³
و الحق أن حركة التحرير - الكلام لليوسفي - التي قادها عبد الكريم وإلى حد ما كذلك حركة التحرر التي قادها الهيئة وعام 1912 كانت ذات مضمون جديد بل

²⁶² - م ن ص 101.

²⁶³ - م ن ص 101.

ثوري²⁶⁴ لا يمكن أن ترتبط به مؤسسة كان نموها يتم على حساب القطاع الزراعي بالتعاون مع المصالح الأجنبية.

عبد الهادي بوطالب

في مذكراته التي كانت عبارة عن حوار صحفي مطول بعنوان : نصف قرن من السياسية²⁶⁵، أتى المستشار الملكي و أحد مؤسسي حزب الشورى والاستقلال الدكتور عبد الهادي بوطالب على ذكر طبيعة العلاقة بين الملك محمد الخامس والزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي. على أننا أردفناها بشهادة ثانية ومن قلب الحدث، و لقامة سياسية مغربية، وهي رواية الأستاذ الرئيس عبد الله إبراهيم التي تخالف جملة وتفصيلا على ما قاله الدكتور عبد الهادي بوطالب.

قال الدكتور بوطالب في مذكراته: "لم تكن ثورة الريف للإطاحة بالملكية بالمغرب أو التمرد عليها. منطقة الريف كانت مهمشة في عهد حكومات الاستقلال، زيادة على ارتكاب خطأ فرض اللغة الفرنسية على منطقة الشمال و تنحية اللغة الإسبانية التي كانت الثانية في المنطقة الخليفية بعد العربية. كما لم يلتحق بعد الاستقلال

²⁶⁴ - و تحت عنوان الجيش الشعبي، يعتبر اليوسفي، إن الإبداع الثاني الذي قام به هو الوسيلة الصحيحة التي ابتكرها لخوض التحرير، ففي هذا المجال أيضا خالف ابن عبد الكريم التقليد المتبع في نظام المخزن. فقد اعتمد بشكل أساسي على الجماهير، إلا أن العنصر الجوهري كان في ابتكاره و تنظيمه للجيش الشعبي...
مجلة أمل ص 98.

للمزيد من المعلومات يمكن العودة ل:

- التاريخ السري لحرب الريف: المغرب الحلم المزعج، خوان باندو، ترجمة سناء الشعيري، ط 2013، سلسلة ضفاف، منشورات الزمن الرباط.
- عبد الكريم الخطابي: التاريخ المحاصر، علي الإدريسي، ط 2010 منشورات تيفراز الحسيمة.
- العناق المميت: من حرب الريف إلى الحرب الإسبانية، سياستيان بلفور، ترجمة و تقديم عبد المجيد العزوزي، ط 2016/1 منشورات تيفراز 13 .

²⁶⁵ - نصف قرن من السياسية، عبد الهادي بوطالب، سلسلة شرفات 6 ط 1 أكتوبر 2001، منشورات الزمن الرباط.

بالحكومة و السفارات و الدوائر الحكومية مواطنون من هذه المنطقة الحكومات المغربية المتوالية تصرفت كما لو كانت المنطقة الخليفة إنما أدمجت المنطقة السلطانية دون مراعاة لخصوصياتها. ومما لا شك فيه أن هذه السياسة أو اللا سياسة طالت منطقة الريف أيضا، وكان لسكانه رد فعل عنيف إزاءها.

حوادث الريف كانت احتجاجية لإسماع صوت الريف المهمش المنسي، ولم يكن الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي ضالعا فيها لسبب وحيد هو أنه تولى قبل أحداث الريف بنفسه تكذيب التهمة الموجهة إليه بأنه ثار على النظام الملكي، وذلك عندما استقبلني في سنة 1950 بمنزله بالقاهرة وأدلى إلي بحديث نشرته في كتابي: "ذكريات وشهادات و وجوه"، وهو حديث احتفظت به لأنه لم تكن لنا عندما تلقينته منه صحف لنشره. و قال فيه: "إن منطقة الريف لم يكن لها مطلقا أي نزوع للتمرد على سلطة السلطان. وأن الثورة التي قادها في منتصف العشرينات من القرن العشرين كانت للتحرر والانعقاد من سلطة الأجنبي والدليل على ذلك أنه حارب استعمارين كان من الممكن أن يستفيد من تأييد أحدهما ضد الآخر ولكنه حاربهما معا في آن واحد. ولم يكن له حقد على الملك أو على الملكية، بل قال إن الثورة كانت لتحرير المغرب من حمايتي فرنسا وإسبانيا معا"²⁶⁶.

و يضيف الدكتور بوطالب: "لذلك فأنا أبرئ الخطابي من أن يكون ضالعا في حركة التمرد التي وقعت في الريف أو محرزا عليها. ثم إن الخطابي وأعضاء أسرته زاروا الملك محمد الخامس بالقاهرة أثناء زيارته الرسمية لمصر قبل اندلاع أحداث الريف، و جددوا له البيعة ملكا على المغرب، وارتبطوا معه بعهد و ميثاق و ماتوا²⁶⁷ على الولاء للعرش والإخلاص للملك.

عبد الله إبراهيم ووساطة اللقاء

في مذكراته التي نقلها محمد لومة في كتابه سنوات الصمود وسط الإعصار: أبرز المحطات النضالية في حياة الأستاذ عبد الله إبراهيم²⁶⁸، والتي كانت عبارة عن حوارات ولقاءات مسجلة، نجد رواية مغايرة لتلك التي سردها الدكتور عبد الهادي

²⁶⁶ - م ن ص 94.

²⁶⁷ - م ن ص 95.

²⁶⁸ - سنوات الصمود وسط الإعصار أبرز المحطات النضالية في حياة الأستاذ عبد الله إبراهيم، محمد لومة، ط2، الرباط

شتبر 2006، ص 160.

بوطالب حول علاقة الأمير الخطابي و الملك محمد الخامس لا سيما على مستوى عدد من النقاط بما فيها اللقاء ووجهة نظر الخطابي مما حدث بعد إكس لبيان 1955، حيث نقرأ في المذكرات: "خلال تواجدي في زيارة رسمية إلى مصر إلى جانب محمد الخامس، قمت بزيارة خاصة إلى بيت الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، و كان الهدف فضلا عن زيارته، ترتيب لقاء له في بيته بالملك محمد الخامس، و هذا اللقاء خاص بالملك، يليه لقاء مستقل خاص بي. و قد قبل الأمير هذا الاقتراح على مضض، لا سيما وأنني نجحت في إقناعه بصعوبة بأهمية استقباله للملك بعد ممانعة شديدة من طرفه، هذه المقابلة التي أعرب لي عن عدم جدواها منذ البداية، فالرجل كانت له مواقف صارمة تجاه مسلسل إيكس لبيان و نتائجها، فطالما هناك شبر واحد من الأرض محتل في نظره، لا داعي لتنصيب ملك جديد²⁶⁹.

المقابلة الأولى مرت بسلام، أما المقابلة الثانية فقد حضرها جمع غفير من الموظفين والصحفيين المغاربة وعلى رأسهم أحمد العلوي المكلف بالصحافة بالديوان الملكي في ما يبدو آنذاك عملا محبوبا، ليلتفوا حولنا و لينبطح آخرون على الأرض في مسعى واضح لتميع المقابلة، ولإظهارها في طابع جماعي خال من أية دلالة نضالية. و لاحظت أثناء لقائنا الثاني في دار جمال عبد الناصر²⁷⁰ كيف أدخلت تغييرات على البروتوكول بحيث جلس الأمير مولاي عبد الله إلى جانب الملك و جمال عبد الناصر، عكس المقابلة الأولى، حيث كنت إلى جانب الملك مباشرة فخدام التشريعات الملكية بالتأكيد قاموا بعملهم في الاتجاه المطلوب نحو التقليل من قيمتي السياسية.

تجدر الإشارة إلى أن أحد أبناء الأمير كان يزورني بانتظام في الرباط بين سنوات 1957 و 1958 قادما من القاهرة مزودا بما كان يراه والده من آراء و توجيهات، وغالبا ما كان يعود إلى القاهرة في اليوم التالي، و قد كان والده يلح كل الإلحاح في أن أقبل منصب رئيس الوزراء.

ويضيف الأستاذ عبد الله إبراهيم بحضور العائلة الخطابية، وفي موضوع بالغ الحساسية يبدو أنه ما يزال معلقا قائلا: " و قد فاتحت الملك محمد الخامس بالإلحاح

²⁶⁹ - م ن ص 160

²⁷⁰ - محمد الخامس و ابن عبد الكريم، و إشكالية استقلال المغرب، زكي مبارك ، ط 1، 2003 منشورات فيديبرات الرباط، ص 260.

في موضوع التعجيل بإعادة ممتلكات عائلة الخطابي والتي تم نهبها أو مصادرتها بعد نفيه في صيف 1926، و أكدت للملك بأن من شأن ذلك امتصاص التمرد المسلح الذي قام في منطقة الريف على عهد حكومة أحمد بلا فريج، فإذا ساعدني على ذلك، فإن مهمتي المقبلة كرئيس للوزراء ستكون بلا شك موفقة²⁷¹."

على سبيل الختم

حاولنا في هذه الورقة أن نعرض على أبرز مواقف الرعيل الأول و المؤسس للحركة الوطنية و تقديراته حول حرب الريف و الحركة الخطابية عبر تسليط الضوء و التركيز على نقاط بعينها أثارت و تثير جدلا عارما، و على رأسها طبيعة الكيان بالريف ما بين 1921 و 1926؟ و المعروف تاريخيا بجمهورية الريف أو حكومة الريف أو إمارة الريف، ثم طبيعة مؤسسات جمهورية الريف، و معه سؤال الانتقال من كيان القبيلة إلى محاولة بناء الدولة، و أسئلة سياسة الأمير الخطابي و صدامه المحتوم مع فرنسا التي قضت على مشروع جمهورية الريف نتيجة لاختلال موازين القوة و عدم تكافؤها، ثم سؤال الاستمرارية و العلاقة بين حرب الريف (1921- 1926) و ظهور الحركة الوطنية مطلع الثلاثينات.

و الحال، أن ورش الريف و المرحلة الخطابية تحديدا، هو ورش مفتوح لأنه لم تتم معالجته بصيغة حضارية سليمة و متوازنة، سواء على مستوى التصالح مع الذاكرة أو على مستوى فهم العقل الريفي الذي ما يزال يحمل و يتفاعل بشكل كبير مع التراث الخطابي، والذي أضحى وقودا للعقل الجمعي و المخيلة الريفية، الرجل الحاضر- الغائب و الذي انتقل من بطل تاريخي إلى رمز للهوية الريفية، لا سيما مع تداعيات الأحداث التي عرفتها منطقة الريف 2017 أو ما يعرف بحراك الريف، و الذي أعاد إلى السطح ما تم القفز عليه، حيث اختلط الثقافي الهوياتي بما هو سياسي تكتيكي. و في المقابل لم تتأخر التهم التاريخية بانفصال الريف التي عادت بقوة أثناء الحراك و تحت مظلة رسمية هذه المرة.

و في المقابل، تحاول بعض الكتابات المحلية ريفية، التأسيس لأطروحات لها، ولكن على حساب الحركة الوطنية و الرعيل الأول و حتى الثاني ناعمة تراث الحركة الوطنية حول حرب الريف تارة بأنه بأبعاد مشرقية مثل كتابات الأستاذ علال الفاسي،

²⁷¹ - سنوات الصمود م ص 161.

و تارة بنعت الكتابة الأنثروبولوجية مثل تراث الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني! وهذا تبخيس لتراث الحركة الوطنية. لا سيما و أننا نقيم مواقفهم من حرب الريف انطلاقا مما ما كتبوه و تركوه في كتاباتهم و مذكراتهم من تراث يصعب طمسه أو تأويله .

إننا في هذه الورقة، و بتسليطنا الضوء على تراث الحركة الوطنية بجيلها المؤسس والثاني، نود أن نعيد الاعتبار ليس للأشخاص بل لكتاباتهم و تراثهم الذي لا يمكن تجاوزه عند كتابة التاريخ المغربي المعاصر، فهم شهود على الأحداث. و لعمري لا نعرف كيف تقدم شهادة الباحث الذي هو مجرد رافد يستقي من المصدر، الذي هو تراث الحركة الوطنية، في حين يتم تبخيس المصدر نفسه!

و نذكر بأن المنهج العلمي الرصين يفرض علينا أن نميز بين التاريخ والسياسة، و بين المواقف السياسية والشهادة التاريخية والتراث المكتوبة. وأعلىها قيمة وسندا هي المذكرات الشخصية والتي عادة تكتب في ساعة بوح تلقائي، و انتهاء المعركة. وهو ما يفرض علينا ليس مجرد التصالح مع التاريخ بل أيضا التصالح مع الذات، لأنه لا يمكن فصل الذات عن الموضوع.





تقييم الأبحاث حول عملية تحرير محمد بن عبد الكريم الخطابي ببورشعيد

(فاتح يونيو 1947)



امحمد بن عبود

هناك اختلاف كبير بين الباحثين المغاربة والفرنسيين والإسبان حول قضية تنظيم الوطنيين المغاربة عملية تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، لأنهم رأوا تضاربا وتناقضا بين رواياتهم. ولقد نشر هؤلاء مواقفهم منذ سنة 1947 وهي السنة التي نظمت فيها عملية التحرير عبر بعضهم، فيها عن مواقفهم المتناقضة وعن إمكانية فك هذا اللغز بعد ظهور الأرشيف الفرنسي بعد انتظار المدة اللازمة قبل وضعه رهم إشارة الباحثين.²⁷²

²⁷² مذكرات المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في كتاب محمد أمزيان، محمد بن عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 2011. ص. 79-81.

; María Rosa de Madariaga, *Abd el-Krim El Jatabi la lucha por la independencia*, Madrid, Alianza Editorial, 2009, pp.509-511.

إلا أن الوثائق الرسمية الفرنسية والإسبانية قد وضعت رهن إشارة الباحثين الآن وتمكنت بفضلها أن أجيب عن الأسئلة التي كانت مطروحة منذ أكثر من أربعين سنة والتي ظلت معلقة إلى أن تمكنت من الاطلاع أولا على وثائق الجنرال بريلا الإسبانية التي توجد في الأرشيف التابع لبلدية قادس ثم على وثائق وزارة الخارجية الفرنسية.²⁷³

سأبدأ أولا بعرض أهم ما نشر في الموضوع، وتقديم طبيعة الاختلاف بين الروايات المتعددة لأحللها فيما بعد وأقيمها وأنتقدها. كما أنني سوف أحدد المقاييس التي سوف أستخدمها لتقييم هذه المواقف التي اجتمعت بعض الروايات على نفس الرأي واختلفت مع بعضها في حالات أخرى. يجب أيضا أن نحدد طبيعة الموضوع وطرح أسئلة دقيقة حول جوانب مختلفة منه قبل الوصول إلى الاستنتاجات.

سوف أناقش المواقف المتعددة حول جوانب دقيقة من موضوع تنظيم الحركة الوطنية المغاربية في المشرق عملية تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، كما أنني سوف أناقش مواقف الباحثين من موقف إسبانيا وفرنسا من العملية وكذلك موقف الوطنيين المغاربة في مكتب المغرب العربي الذين نظموا العملية ونفذوها علاوة على موقف الحكومة المصرية من القضية. وسوف يقودنا هذا إلى الجواب عن مجموعة من الأسئلة وهي: كيف نشأت فكرة تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في القاهرة وهو في طريقه إلى فرنسا؟ كيف تطورت الفكرة لتتحول إلى مشروع تم تنفيذه بنجاح عندما غادر محمد بن عبد الكريم باخرة كاتومبا صحبة أربعين فردا من عائلته في بور سعيد ليتوجه إلى القاهرة صحبة عائلته بعد أن منحه الملك فاروق حق اللجوء السياسي في صباح فاتح يونيو 1947؟ متى أعلنت فرنسا عن نقل محمد بن عبد الكريم الخطابي من منفاه في جزيرة لا رينيون في المحيط الهندي إلى فرنسا؟ وكيف شرعت في تنفيذ هذا القرار؟ ما هي الشروط الضرورية التي ضمنت نجاح تنفيذ الوطنيين المغاربة عملية تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي؟ ما هي درجة مصداقية الوثائق المختلفة التي تطرقت لعملية تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي؟ ما هي أقرب صورة لما حدث فعلا وكيف ابتعدت بعض الروايات عن هذه الصورة؟ ما هي الصورة الحقيقية التي خرجنا بها؟

273 انظر مقالة الدكتور محمد بن عبود بعنوان تقييم الأبحاث حول عملية تحرير المجاهد عبد الكريم الخطابي ببور سعيد التي ستصدر في العدد المقبل لمجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي بالرباط .

أبدأ بطرح سؤال جوهري وهو متى أعلنت فرنسا عن قرارها لنقل المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي من لارينيون إلى مرسيليا بفرنسا؟ لقد حصل ذلك في فبراير من سنة 1947 وكان رد فعل إسبانيا هو الاحتجاج والغضب والاستنكار. لقد عثرت في أرشف بريلا على محفظة فيها تقارير رسمية لإسبانيا علاوة على قصاصات للجرائد المصرية التي نشرت الخبر. يمكن تلخيص موقف إسبانيا حسب بريلا في النقط التالية:

أولا، تعجبت إسبانيا من كون فرنسا لم تخبرها بهذا القرار رغم أن اسبانيا كانت قد خاضت حرب الريف من 1921 إلى 1926 ضد محمد بن عبد الكريم الخطابي بتحالف بين الجيشين الإسباني والفرنسي وأن الخبر وصلها بواسطة الصحافة العربية. ثانيا، تعبر التقارير في وثائق بريلا الإسبانية عن تخوف اسبانيا من النية السيئة لفرنسا التي قد يكون الهدف من نقلها ابن عبد الكريم الخطابي إلى فرنسا هو استعمال هذه الورقة ضد اسبانيا وضد السلطان محمد الخامس بل وقد تساعده على زعامة ثورة في الريف من جديد.

ثالثا، في جميع الحالات، من المؤكد أن نقل ابن عبد الكريم الخطابي إلى فرنسا قد يشكل خطرا كبيرا على اسبانيا فهو عدوها الكبير وقد يربط اتصالات من فرنسا مع الحركة الوطنية المغربية أو يتزعمها ضد مصالح اسبانيا بتزكية من فرنسا. نجد هذا التحليل في المقالات التي نشرت بعد هذا الإعلان في كتابات بعض الصحفيين والعسكريين الفرنسيين أمثال Monteil كما زكى بعض الباحثين الجامعيين المغاربة والفرنسيين والإسبان هذه الأطروحة و نذكر منهم د. عبد المجيد ابن جلون و محمد أمزيان وماريا روسادي مادرياغا. وهذا التحليل منطقي إذا اعتبرنا طبيعة العلاقات المتوترة بين فرنسا وإسبانيا في فبراير 1947. ولكن يجب اعتبار هذا الموقف في هذا السياق المحدد وليس خارجه كما سنرى لاحقا في هذه المقالة.

المهم هنا هو أن الوثائق الإسبانية الرسمية تؤكد موقف اسبانيا الرسمي والنقطة الثانية التي يجب توضيحها هي تاريخ انطلاقة باخرة كاتومبا من لارينيون متوجهة إلى فرنسا وأهم الموانئ التي رست فيها، هنا يمكننا أن نعتمد على مصدرين، أولهما الصحافة، خصوصا الصحافة المصرية ومنها جريدة الأهرام وكذلك بعض الجرائد المغربية مثل جريدة مراكش الصادرة في طنجة الدولية. أما المصدر الثاني فلم يتابع خبر تنقل باخرة كاتومبا منذ انطلاقتها ولكنه أخبر الوطنيين في مكتب المغرب العربي في القاهرة بوصول المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى عدن ثم توجهه إلى

مصر، مما ساعدهم على التفكير في تنظيم عملية تحريره عند مرور باخرة كاتومبا. لقد توصل الصحفي الفلسطيني علي طاهر ببرقية من عدن تحمل خبر توجه محمد بن عبد الكريم الخطابي نحو مصر فاتصل ببعض الوطنيين في مكتب المغرب العربي وأخبرهم بذلك.²⁷⁴ من المؤكد أن مصادر خبر تنقل المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي من عدن إلى مصر كانت متعددة، ومن المؤكد أيضا أن هذا الخبر وصل مصر قبل رسو الباخرة في بورسعيد يوم 31 ماي 1947. انطلقت باخرة كاتومبا من لارينيون يوم 3 ماي 1947، حيث تم تنظيم حفل استقبال من قبل وفد رسمي وشخصيات وطنية، كما نظمت لهم جولة في مدينة عدن. وتابعت الباخرة رحلتها عبر قناة السويس فرست في ميناء السويس (بور توفيق) يوم 29 ماي 1947 والتحق به وفد ليرحب به في مصر يضم عدة شخصيات رسمية ووطنية.

في السويس:

السويس في 30 (ماي) - لمراسل الأهرام - وصلت حوالي منتصف ليلة أمس إلى ميناء بور توفيق الباخرة الأسترالية "كاتومبا" تنقل المجاهد المراكشي الكبير الأمير عبد الكريم، يصحبه أعضاء أسرته وأفراد حاشيته.

وقد استقبله على ظهر الباخرة حضرات محافظ السويس، والسيد امحمد أمحمد بن عبود رئيس الوفد المراكشي، والأستاذ وحيد الدين الدالي مندوب الجامعة العربية، والأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين رئيس جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا، والأستاذ بشارة يواكيم، وممثلو الجمعيات العربية وغيرهم.

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم واصلت الباخرة سفرها إلى بورسعيد.²⁷⁵ عرض الشهيد امحمد بن عبود على المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي البقاء في مصر لأول مرة، لقد صعد إلى الباخرة مع الوفد الذي اتصل به ليرحب به ولكنه ظل معه إلى ساعة متأخرة من الليل محاولا إقناعه بتقديم طلب للملك فاروق ليمنحه حق اللجوء السياسي في مصر.²⁷⁶

أولا، جاء ذلك في مذكرات محمد بن عبد الكريم الخطابي نفسه التي رواها على السيد سلام أمزيان في القاهرة ونقلها ابنه محمد أمزيان في كتابه حول هذا

²⁷⁴ ذكر عدد من الذين تطرقوا لهذه القضية منهم عبد الخالق الطريس وعبد المجيد ابن جلون وعبد الكريم غلاب ويوسف الرويسي.

²⁷⁵ جريدة الأهرام، 1 يونيو 1947، ص. 1.

²⁷⁶ ذكر هذه التفاصيل كل من عبد الخالق الطريس في رسالته إلى الأستاذ الطيب بنونة وعبد المجيد بن جلون وعبد الكريم الخطابي.

الحدث مشيراً إلى اللقاء بينه وبين الشهيد امحمد بن عبود على متن باخرة كاتومبا.
يقول محمد بن عبد الكريم الخطابي:

"اندفع نحوي شاب -يضيف الخطابي- يقدم
نفسه: أنا محمد بن عبود من تطوان. رئيس الوفد الخليفي
لدى الجامعة العربية، مدير مكتب المغرب العربي في
القاهرة ورئيس هذا الوفد لاستقبالكم.²⁷⁷

روى المجاهد محمد بن عيد الكريم الخطابي كيف اقترح بن عبود
اللجوء السياسي إلى مصر لأول مرة:

ولم يلبث بن عبود أن انفرد بعبد الكريم ليفاجئه
باقترح عجيب وغريب، لدرجة أنني اعتقدت أنه يريد إثارة
أعصابي. قال لي: هل لكم أن تنزلوا هنا في أرض العروبة؟
واستسلمت لهواجس التشكيك والتصديق في وقت واحد،
وبدأت سريعاً أفكر في وسيلة لطرد الشك فيسهل الرد على
الاقتراح الغريب...²⁷⁸

وأجاب بن عبود عن استفسارات الخطابي بتقديم
مجموعة من الحجج ثم أكد حسب رواية الخطابي قائلاً "إن
المعركة تتطلب شخصيتكم وتخطيطاتكم وأسلوبكم..."²⁷⁹:

ثانياً، نقل الرواية نفسها الأستاذ عبد الخالق الطريس في رسالة مؤرخة في 4 يونيو
بعثها من القاهرة إلى تطوان للأستاذ الطيب بنونة، الكاتب العام لحزب الاصلاح
الوطني. فسرّد الأستاذ عبد الخالق الطريس طريقة إقناع الزعيم محمد بن عبد
الكريم الخطابي بالنزول من الباخرة واللجوء لمصر:
جاء فيها ما يلي :

²⁷⁷ محمد أمزيان، محمد بن عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 2011،

ص. 79-81.

²⁷⁸ نفس المصدر، ص. 79-81.

²⁷⁹ نفس المصدر، ص. 79-81.

وبعد أن نزل جميع المستقبلين ذهبنا نحن الخمسة عبد الكريم [الخطابي] سيدي محمد [الخطابي] علال [الفاسي] [امحمد] بن عبود وأنا إلى الغرفة الصغيرة التي ينامون فيها بالباخرة، وحددت لعبد الكريم نفسه ما قر عليه قرارنا من وجوب النزول، وأن استئناف السفر جناية على المغرب والملك وسمعتة العظيمة ومصلحته الحاضرة ومستقبل أبنائه. وقد تأثر حتى بكى - وحقا أنه تأثير عظيم وهذه العظمة تشاهد في الرجل في جميع أحواله - واكتفى بأن قال: إنني معكم ولما أعرفه عنكم لن تفعلوا إلا ما فيه الخير. وفي تلك اللحظة - وكانت الساعة الثانية ليلا- نزلنا جميعا إلى البر، فذهب توا إلى المحافظة حيث سجل رغبته التي رفعت إلى القصر، ثم رجع إلى الباخرة هو وأولاده، كأن النزول كان للتجول فقط، ورجع للنوم معه هناك البطل ابن عبود على أساس النزول في الصباح الباكر دفعة واحدة رجالا ونساء وأطفالا وعتادا.²⁸⁰

ولقد لخص الأستاذ الطريس انطباعه للحدث في قوله: "إننا أنقذنا زعيما وأرحنا ملكا وسفنها مناورة وكسبنا دعاية".²⁸¹

ثالثا، أكد الأستاذ عبد المجيد بن جلون هذه المعلومة في استجواب أجريته معه في الرباط سنة 1980 ونشرته لأول مرة ضمن مقدمة الطبعة الثانية لكتاب "مركز الأجانب في مراکش" للشهيد امحمد أحمد بن عبود ضمن الوثائق المرتبطة بدور الشهيد امحمد بن عبود في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي. لقد نشرت استجوابا مع الأستاذ عبد المجيد ابن جلون وهو شاهد عيان وذو موقف سياسي محايد حول تفاصيل عملية تحرير عبد الكريم الخطابي.

تتجلى أهمية شهادة المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في كونها شهادة من الداخل، لأن ابن عبود اتصل به وهو في عزلة بالباخرة في طريقه إلى فرنسا وعرض عليه اللجوء إلى مصر باسم زعماء الحركة الوطنية المغربية والوطنيين الشباب في مكتب المغرب العربي بالقاهرة، فلم يثق به لأنه تعرف على هذا الشاب التطواني لأول مرة في حياته، فرفض عرضه الغريب. سافر الشهيد امحمد بن عبود بعد ذلك من ميناء السويس إلى القاهرة واتصل بالزعماء المغاربة عبد الخالق الطريس

²⁸⁰ مركز الاجانب، ص. 14.

²⁸¹ نفس المصدر ص. 14-17

والحبيب بورقيبة وعلال الفاسي، علاوة على المناضل الوطني عبد المجيد ابن جلون بمكتب المغرب العربي بالقاهرة وسافر معهم في سيارة واحدة إلى بور سعيد. وصلت السيارة إلى الميناء قبل رسو باخرة كاتومبا بقليل، فصعدوا للترحيب ببطل حرب الريف، ثم أقنعوه بضرورة اللجوء إلى مصر رغم التضحية الكبيرة التي سيكلفه إياها ذلك. واقتنع أخيراً، فنزل صحبة جميع أفراد عائلته وتوجه إلى مكتب محافظ سيناء ببور سعيد وطلب منه السماح له بالسفر إلى القاهرة. لم يوافق المحافظ في بداية الأمر ولكنه شرع في الاتصال بالسلطات المصرية ليؤذن له بذلك. لما بلغ طلب الخطابي للملك فاروق، قبل منحه حق اللجوء السياسي في مصر فسافر الخطابي وعائلته إلى القاهرة بعد السادسة صباحاً من فاتح يونيو 1947 ليستقر فيها إلى وفاته.²⁸² يجب أن نجيب عن سؤال مهم هنا وهو، هل كان في علم القنصلية الفرنسية في بور سعيد وسفارة فرنسا في القاهرة التخطيط لعملية تحرير الخطابي؟ لقد دار هذا النقاش حول القضية منذ سنوات واختلفت الآراء بشأنه. وسبب ذلك عدم توفر الوثائق الفرنسية للباحثين آنذاك، ولكنني حصلت عليها بفضل مساعدة الباحث التونسي، الدكتور خالد عبيد، الأستاذ بجامعة منوبة بتونس. تأكد بعد دراستها أن السفير الفرنسي لم يكن على علم بذلك وأنه قدم احتجاجاً رسمياً للسلطات المصرية على تواطؤها مع الزعماء الوطنيين المغاربة لإنجاح العملية. لقد نشرت مقالين أحدهما بالعربية والثاني بالإنجليزية في الموضوع.²⁸³ هناك حجة قوية تفسر سبب عدم معرفة المسؤولين الفرنسيين بما كان يجري وذلك للأسباب التالية:

²⁸² جريدة الأهرام، 1 يونيو 1947، ص. 1.

²⁸³ انظر مقالة الدكتور امحمد بن عبود بعنوان "تقييم الأبحاث حول عملية تحرير المجاهد عبد الكريم الخطابي ببور سعيد" التي ستصدر في العدد المقبل لمجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي بالرباط. وكذلك مقال بالإنجليزية بعنوان:

Muhammd Ibn Abdelkrim's Liberation at Port Said in the Light of the French Archives (1st of June, 1947) Evasión de Mohammad Ben Abdelkrim al-Jattabi a El Cairo según el

Archivo Varela

Lucía Calancha Paredes, M'hammad Benaboud, Hesperia culturas del Mediterráneo, ISSN 1698-8795, Nº. 16, 2012 (Ejemplar dedicado a: Portugal I), págs. 239-258.

أولاً، لم يتصور أحد بأن المجاهد عبد الكريم الخطابي وهو في باخرة كاتومبا في طريقه إلى فرنسا بعد عشرين سنة في المنفى بجزيرة لاريونيون يمكنه أن يتصل بالسلطات المصرية من الباخرة أو حتى بالزعماء الوطنيين من أجل تنظيم تحريره، فهذا من باب المستحيل.

ثانياً، لم تخطر فكرة اللجوء إلى مصر في ذهن محمد بن عبد الكريم الخطابي إلا بعد أن نقل له الشهيد امحمد بن عبود اقتراح مناضلي مكتب المغرب العربي في القاهرة يوم 30 ماي في لقاءه السري معه على متن باخرة كاتومبا في ميناء السويس، بل رفض هذا الاقتراح حسب عدة روايات ولم يقتنع ويوافق على ذلك إلا في 31 ماي ليلاً بعد وصول باخرته إلى بور سعيد وبعد أن استقبله وفد مكتب المغرب العربي والزعماء المغاربة وبعد اجتماعهم معه و اقتناعه بالحجج التي قدموها له.²⁸⁴

ثالثاً، كيف يمكن لفرنسا وإسبانيا أن تكون بطم على علم بما كان يجري مع أن الوطنيين المسطرين للعملية أنفسهم لم تتوفر لديهم كل الشروط لإنجاح العملية ما بين الحادية عشر ليلاً من يوم 31 ماي 1949 عندما أقنعوه باتخاذ قرار النزول والتوجه إلى القاهرة. أما محافظ بور سعيد الذي لم يكن قد توصل بالأوامر من السلطات العليا للسماح بذلك، فقد تلقى صباح اليوم التالي على الساعة السادسة عندما وصلت مكالمات هاتفية رسمية تؤذنه بالسماح لابن عبد الكريم وعائلته بذلك. بعبارة أخرى، لم تتوفر لدى الوطنيين المنظمين للعملية شرط أساسي لضمان نجاحها وهو منح الملك فاروق نفسه ابن عبد الكريم الخطابي حق اللجوء، لأن هذه الموافقة لم تتوفر إلا في السادسة صباحاً ولم يكن أحد يدري ماذا ستكون نتيجة الجواب الملكي طوال ليلة 31 ماي لأن الجواب لم يأت إلا في فاتح يونيو في السادسة صباحاً. إن السرية والفعالية التي نظمت بها العملية أدت إلى نجاحها وتفسير الطريقة التي وجهها الوطنيون للسلطات الفرنسية وكذلك للسلطات الإسبانية وتمكنوا على إثرها من إعادة تملك ورقة ابن عبد الكريم بعد انتزاعهم إياها من يد المستعمر الفرنسي. من المرجح أن قائمة أسماء الذين سافروا من القاهرة إلى بورسعيد لإقناع

²⁸⁴ قدم ابن جلون مجموعة والطريس جميع الأسماء المذكورة أعلاه وذكر بورقية إسمه دون غيره أما علال الفاسي فذكر إسمه وإسم (.....؟)

محمد بن عبد الكريم الخطابي باللجوء إلى مصر تختلف من رواية هم حسب رواية الأستاذ الطريس²⁸⁵ مثلاً إلى رواية عبد المجيد بنجلون²⁸⁶. بل قد صرح الحبيب بورقيبة أنه حرر الخطابي وحده²⁸⁷. المشكل في رأيي بسيط وهو أن بعضهم (الطريس وابن جلون) ذكروا أسماء جميع الذين التحقوا به بينما ذكر بورقيبة نفسه دون غيره وذكر علال الفاسي نفسه والطريس دون ذكر الآخرين. أما الشهيد امحمد بن عبود فلم يكتب عن الحدث ولكنه ذكر روايات متعددة. إن سبب ذكر بورقيبة نفسه دون غيره واضح ويعود إلى صفته كرئيس لحزب الدستور التونسي كما أن رئاسة علال الفاسي كان يرغب في إبراز دوره في هذه العملية بصفته رئيساً لحزب الاستقلال. وادعى عبد الخالق الطريس أنه كلّف ابن عبود بالاتصال بابن عبد الكريم في السويس بينما تكلف هو وعلال الفاسي بالاتصال بالسلطات المصرية. ولكن الأرجح هو ما جاء في رواية عبد المجيد ابن جلون وهو أن ابن عبود هو الذي اتصل بالديوان الملكي نظراً لصفته الرسمية كرئيس للوفد الخليفي لدى الجامعة العربية وهي الصفة التي ذكره بها محمد بن عبد الكريم نفسه في مذكراته عندما وصف أول لقاءاته مع ابن عبود على متن باخرة كانتومبا إثر رسوها في ميناء السويس في 30 ماي 1947.²⁸⁸

نلاحظ أن ماريا دي مادريان اعتمدت على شهادة بعض الوطنيين المغاربة أمثال يوسف الرويسي وعبد الكريم غلاب وفتحي رضوان ولكن هؤلاء ليسوا شهود عيان ولم يوجدوا في عين المكان عند مغادرة الخطابي وعائلته الباخرة ببور سعيد²⁸⁹. بل نقل شهادة الأستاذ امحمد عزيمان الذي كان في تطوان إثر الأحداث والبلجيكي جان ولف الذي عرض الحدث في مرحلة لاحقة. وكذلك الأستاذ عبد المجيد ابن جلون العيساوي المتخصص في تاريخ الحركة الوطنية في شمال المغرب. إن رواية

²⁸⁵ محمد أحمد بن عبود، مركز الأجانب في المغرب، منشورات مؤسسة الشهيد امحمد أحمد بن عبود، تطوان، 2015، ص. 14-17

²⁸⁶ أنظر استجواب الدكتور امحمد بن عبود للأستاذ عبد المجيد بن جلون المنشور في كتاب امحمد أحمد بن عبود، مركز الأجانب في المغرب، منشورات مؤسسة الشهيد امحمد أحمد بن عبود، تطوان، 2015، ص. 14-17

²⁸⁷ جريدة مراكش، العدد 14 يونيو 1947، ص. 1.

²⁸⁸ مذكرات المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في كتاب محمد أمزيان، محمد بن عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 2011، ص. 79-81.

²⁸⁹ María Rosa de Madariaga, *Abd el-Krim El Jatabi la lucha por la independencia*, Madrid, Alianza Editorial, 2009, p509.

عبد المجيد ابن جلون والأستاذ عبد الخالق الطريس من أمتن الروايات. لقد تطرق عبد المجيد ابن جلون لدور الشهيد امحمد بن عبود في الإشراف على عملية تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي أكثر من مرة. وصف دور الشهيد امحمد بن عبود في سنة 1950 إثر وفاة ابن عبود في كتيب بعنوان "الثلاثة الذين استشهدوا في كراتشي"²⁹⁰ وتطرق لتفاصيل العملية في استجواب نشرته معه ونشرته ضمن تقديم الطبعة الثانية لكتاب مركز الأجانب في مراكش.²⁹¹ وأخيرا ذكر تفاصيل كثيرة لعملية تحرير المجاهد محمد ابن عبد الكريم الخطابي في قصة قصيرة بعنوان: "ليلة مسابقة كاتومبا" نشرها ضمن مجموعة قصصية.²⁹²

يجب أن نوضح مجموعة من الجوانب الدقيقة لفهم عمق عملية تحرير محمد ابن عبد الكريم الخطابي في فاتح يونيو 1947. المسألة الأولى هي إعلان فرنسا عن قرارها لإرسال المجاهد الريفي من لارينيون إلى ماريسيا بفرنسا بعد قضائه حوالي عشرين سنة في المنفى صحبة مجموعة كبيرة من أفراد عائلته.

إن مناقشة إعلان فرنسا عن هذا القرار واعتبار رد فعل إسبانيا مهم، لأن الموقف الإسباني الرسمي كان موقف الاحتجاج، ذلك أن وثائق الجنرال بريلا المقيم العام الإسباني في منطقة الحماية الإسبانية في شمال المغرب وصحرائه، تؤكد شكوك اسبانيا واستغرابها لكون فرنسا لم تخبر حليفتها القديمة في حرب الريف بما خططته قبل نشره في الصحافة الفرنسية، بل والصحافة العربية²⁹³. ارتكز تخوف اسبانيا على احتمال استعمال فرنسا ورقة ابن عبد الكريم الخطابي بعد استقراره المحتمل في فرنسا ضد السلطان محمد الخامس بل حتى ضد اسبانيا إذ اعتبرت إمكانية تشجيعه على تنظيم ثورة في الريف من جديد.

ولا علاقة لهذا النقاش بما سوف يحدث لاحقا عندما نظمت مجموعة من الوطنيين المغاربة عملية تحرير ابن عبد الكريم الخطابي، لأن استغلال الوطنيين مرور باخرة كاتومبا عبر قناة السويس لا علاقة له بالتخوفات الاسبانية، إذ لم يكن هناك أي

²⁹⁰ عبد المجيد بن جلون، "الثلاثة الذين استشهدوا في كراتشي بمناسبة ذكرى الأربعين، 21 يناير"، القاهرة، 1950، ص. 14-15.

²⁹¹ أنظر استجواب الدكتور امحمد بن عبود للأستاذ عبد المجيد بن جلون المنشور في كتاب امحمد أحمد بن عبود، مركز الأجانب في المغرب، منشورات مؤسسة الشهيد امحمد أحمد بن عبود، تطوان، 2015، ص. 14-17.

²⁹² قصة ليلة مسابقة كاتومبا في كتاب عبد المجيد بن جلون، لولا الإنسان، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، 1972، ص. 161-182.

²⁹³ Check Archivos Varela on february 1947.

اتصال بين الوطنيين المغاربة والإسبان لأن إسبانيا كانت بالنسبة للوطنيين دولة استعمارية يجب مقاومتها، شأنها في ذلك شأن فرنسا. ولذلك لم تكن إسبانيا على معرفة بتنظيم العملية لأنها لم تخترق صفوف الوطنيين المغاربة.

ثانياً، لقد نفذ الوطنيون انطلاقاً من مكتب المغرب العربي بالقاهرة بإشراف الشهيد امحمد بن عبود العملية منذ بدايتها إلى إنجازها وإنجاحها. لم ينفذ ابن عبود من العملية على انفراد، بل شارك فيها عدد من زعماء الأحزاب التونسية والمغربية وكذلك أعضاء مكتب المغرب العربي وعلى رأسهم عبد المجيد ابن جلون وهم الحبيب بورقيبة وعلال الفاسي وعبد الخالق الطريس الذين كتبوا جميعاً عن العملية. إنما باستثناء الشهيد امحمد بن عبود، ركز كل واحد من زعماء الأحزاب على دوره. وفسر ذلك بعض الدراسيين أمثال محمد أمزيان بالتضارب في الروايات. ولكنني أفسر هذه المواقف المختلفة بمحاولة كل زعيم إبراز دوره الشخصي أمام أعضاء حزبه. بالنسبة لرسالة الطريس الموجهة إلى السيد الطيب بنونة الكاتب العام لحزب الإصلاح الوطني فهذا طبيعي لأن هذا الأخير سوف يبلغ جميع المعلومات الواردة، في الرسالة لأعضاء المكتب التنفيذي للحزب بالنسبة لعلال الفاسي فإن الغرض من ذكر دوره إضافة إلى أسماء بعض الأعضاء الفاسيين فكان المهم بالنسبة إليه هو السكوت عن دور الزعماء الشماليين الذين صاحبه في السيارة إلى بور سعيد الشهيد امحمد بن عبود وعبد الخالق الطريس لأن موقفه من جميع الوطنيين الشماليين في القاهرة كان بارداً في بعض الحالات ومتعجرفاً في حالات أخرى إلى درجة أن بعضهم فسر موقفه تجاههم بالكراهية.²⁹⁴ فيما يخص الشهيد امحمد بن عبود فهو لم يكتب عن العملية ولكن جل الذين كتبوا عنها ذكر دوره البارز بما فيهم زملاؤه وأعداؤه لأنه كان واضحاً كالشمس. تطرق عبد المجيد ابن جلون لدوره البارز في كتابه الثلاثة الذين استشهدوا في كراتشي²⁹⁵ وفي قصته القصيرة "ليلة مسابقة كاتومبا"²⁹⁶ وفي استجواب نشرته معه حول تفاصيل عملية تحرير ابن عبد الكريم

²⁹⁴ د. امحمد بن عبود، المراسلات السياسية للشهيد امحمد أحمد بن عبود (1946-1949)، منشورات مؤسسة الشهيد امحمد أحمد بن عبود، تطوان، 2016.

²⁹⁵ عبد المجيد بن جلون، "الثلاثة الذين استشهدوا في كراتشي بمناسبة ذكرى الأربعين، 21 يناير"، القاهرة، 1950، ص. 14-15.

²⁹⁶ قصة ليلة مسابقة كاتومبا في كتاب عبد المجيد بن جلون، لولا الإنسان، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، 1972، ص. 161-182.

الخطابي.²⁹⁷ وذكره عبد الخالق الطريس في رسالته إلى الطيب بنونة من القاهرة يوم 4 يونيو أي أربعة أيام بعد الحدث.²⁹⁸

ثالثا، هناك اختلاف حول من اتصل بالديوان الملكي للحصول على موافقة الملك فاروق لمنح ابن عبد الكريم حق اللجوء السياسي إلى مصر. وهناك اختلاف حول موعد الاتصال أي قبل سفر ابن عبود إلى مدينة السويس يوم 30 ماي أو بعده. لقد اتصل ابن عبود برئيس الديوان الملك يوم 30 ماي 1947 من مكتب المغرب العربي قبل توجهه إلى السويس. كان ذلك اليوم يوم جمعة وهو يوم عطلة في مصر فلم يتكلم معه ولكنه ترك له توصية. وصادف يوم السبت 31 ماي 1947 عندما وصل الوطنيون الخمسة في السيارة في 11.15 ليلا ثم أقنعوا المجاهد الخطابي بضرورة النزول في مصر ثم نزل المجاهد وعائلته ثم توجه إلى محافظ بور سعيد وطلب منه السماح له بالسفر إلى القاهرة ولكن هذا الأخير اعتذر وطلب منه الانتظار إلى أن يصله الأمر بتنفيذ ذلك. أثمرت المحاولات في الأخير فجاءت الموافقة بالهاتف في صباح فاتح يونيو 1947 على الساعة 6 صباحا. إن المدة الزمنية ما بين وصول الباخرة في ليلة السبت 31 ماي في الساعة 11.15 وصباح الأحد فاتح يونيو 1947 في 6 صباحا كانت مدة حاسمة لتحديد إنجاز عملية تحرير ابن عبد الكريم الخطابي أو فشلها إذ اتضح أن شرط منح الملك فاروق ابن عبد الكريم الخطابي اللجوء السياسي لذلك لم يكن أحد يعرف هل ستجرح العملية قبل 6 صباحا من فاتح يونيو بما فيه ذلك الوطنيون المنظمون للعملية فبالأحرى الفرنسيون أو الإسبان.²⁹⁹ من الممكن أن الاتصال السابق يوم الجمعة 30 ماي 1947 عندما اتصل ابن عبود برئيس الديوان المصري لم يجده ولكنه ترك له الخبر. كانت هذه خطوة أولى ولكن بقي على رئيس الديوان المصري أن يتصل بالحكومة المصرية وبالمملك فاروق للحصول على موافقته ولكن الملك كان موجودا خارج القاهرة في تلك الليلة. لكل هذا استغرقت المسألة الوقت اللازم للاتصال بالملك. وفي صباح فاتح يونيو توجه المجاهد محمد بن عبد

²⁹⁷ في تقديم الطبعة الثانية لكتاب امحمد أحمد بن عبود، مركز الأجانب في المغرب، منشورات مؤسسة الشهيد امحمد أحمد بن عبود، تطوان، 2015، ص. 14-17.

²⁹⁸ ذكر هذه التفاصيل كل من عبد الخالق الطريس في رسالته إلى الأستاذ الطيب بنونة وعبد المجيد بن جلون وعبد الكريم الخطابي.

²⁹⁹ يصف ابن جلون شعورهم بالحيرة خلال هذه المدة من خلال كتاب قصة ليلة مسابقة كاتومبا في كتاب عبد المجيد بن جلون، لولا الإنسان، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، 1972، ص. 161-182.

الكريم وأخوه امحمد صحبة الشهيد امحمد بن عبود نحو قصر أنشاص حيث أمضى الدفتر الذهبي وتقدم إلى الملك فاروق بالشكر على استضافته في مصر. نلاحظ أن ابن عبود رافقه بصفته مندوب المغرب لدى الجامعة العربية وهي صفة رسمية لأنه كان يمثل خليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي. وبطبيعة الحال صاحب الخطابى بعد اتصاله برئيس الديوان المصري وكان ذلك الاتصال من أجل طلب اللجوء السياسي من الملك فاروق للخطابى، مما يؤكد انفراد ابن عبود بالإشراف على عملية ابن عبد الكريم الخطابى، أولا لأنه كان أول من اتصل بالخطابى ليعرض عليه فكرة نزوله ولجؤته في مصر بميناء السويس بشهادة ابن عبد الكريم الخطابى نفسه، ثم إن سفره في السيارة صحبة الخطابى وأخيه امحمد إلى قصر أنشاص يؤكد اتصاله برئيس الديوان الملكي المصري اعتبارا لمنصبه الرسمي لدى الجامعة العربية وكذلك بصفته مدير المكتب المغرب العربى بالقاهرة.

هناك نقطة هامة يجب أخذها بعين الاعتبار عند مناقشة مواقف الذين شاركوا في العملية خصوصا شهود العيان منهم الذين كتبوا عنها لاحقا. لقد حيرت هذه المواقف بعض الباحثين ومنهم من اعتبر أن ظهور الوثائق الخارجية الفرنسية والإسبانية أو الإنجليزية سوف توضح لهم هذه المواقف المتناقضة. إلا أن هذه المواقف لم تكن متناقضة بل كانت مختلفة. فمنهم من قدم جزءا من الرواية مع حذفه أو سكوته عن جوانب أخرى ومنهم من قدم الصورة مكتملة. ولم ينف أحدهم ما قاله الآخرون، وإنما قدم كل منهم روايته ولونه حسب شهوته. لتأخذ شهادة الذين اتصلوا بالمجاهد الخطابى في ليلة السبت 31 ماي 1947 بميناء بور سعيد ثم أقنعوه باللجوء إلى مصر، "أرض الحرية والعروبة" واتصلوا بالسلطات المصرية للحصول على اللجوء السياسي لخطابى. ذكر بورقيبة أنه حرر ابن عبد الكريم دون ذكر الذين سافروا معه، ولكنه لم ينف دورهم وذكر علال الفاسي أنه حرر ابن عبد الكريم الخطابى مع الحبيب بورقيبة ولم يذكر ابن جلون والطريس وابن عبود ولكنه لم ينف دورهم. أما الطريس وابن جلون فذكروا جميع أسماء الذين سافروا في السيارة إلى بور سعيد. لا يمكن لنا أن نعطي الأولوية للذين لم يحضروا في بور سعيد في تلك الليلة لأنهم كانوا شهود عيان. أما الباقي فمنهم من كان في القاهرة أمثال عبد الكريم غلاب ومنهم من كتب عن الحدث لاحقا مثل الأستاذ امحمد عزيما وجان وولف ولا ترقى شهادتهم إلى مرتبة ابن جلون مثلا، وهنا يأتي دور المؤرخ ليمحص كل رواية تاريخية على حدة وهو ما نقوم به في هذه الدراسة.

هناك مسألة طريفة مرتبطة بنوعية النصوص المرتبطة بعملية ابن عبد الكريم الخطابي خصوصا منها النصوص التاريخية والنصوص الأدبية، فإن كان التاريخ والأدب يصنفان ضمن مجالين معرفيين مختلفين، فهناك عدد من الحالات التي نجد فيها تداخلا بينهما.

نال عبد المجيد ابن جلون دبلوم الدراسات العليا في تخصص الصحافة كما حصل على الإجازة في الأدب العربي من جامعة فؤاد الأولي وهو الاسم السابق لجامعة القاهرة، وشاءت الأقدار والصدفة أنه كان من بين الوطنيين الخمسة الذين سافروا من القاهرة في السيارة إلى بور سعيد لإقناع المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي باللجوء إلى مصر. بل هو تابع تنظيم عملية تحرير محمد بن عبد الكريم عندما انطلقت من مكتب المغرب العربي وهو جالس رفقة صديقه الشهيد امحمد أحمد بن عبود يوم الجمعة 30 ماي 1947 إلى تنفيذها في بور سعيد ليلة 31 ماي وصباح فاتح يونيو 1947.

وتطرق لهذا الموضوع لأول مرة عندما نوه بدور الشهيد امحمد بن عبود في تحرير ابن عبد الكريم الخطابي في كتيب نشره بعنوان "الثلاثة الذين استشهدوا في كراتشي بمناسبة مرور أربعين يوما": لقد أشار إلى الموضوع بصفته موضوعا سياسيا وطنيا تاريخيا. ولكن الأستاذ عبد المجيد ابن جلون تطرق للموضوع نفسه في سياق أدبي إبداعي إذ نشر وصفه للحدث من بدايته إلى نهايته في شكل قصة بعنوان "ليلة مسابقة كاتومبا".³⁰⁰ تتميز هذه القصة القصيرة بكون مؤلفها سرد أحداث عملية تحرير ابن عبد الكريم الخطابي التاريخية دون المبالغة أو الإضافة أو الحذف المتعمد. تطرق ابن جلون في قصته إلى المراحل التالية لتنظيم عملية تحرير المجاهد بن عبد الكريم الخطابي: اعتبر الشهيد امحمد بن عبود صاحب فكرة مشروع تحرير المجاهد الخطابي إثر توصله وهو مجتمع معه بمقر مكتب المغرب العربي بالقاهرة ببرقية من الصحفي الفلسطيني علي طاهر وصلته من عدن حاملة خبر وجود سفينة كاتومبا بهذه المدينة في طريقها نحو قنال السويس:

أولا، وصف الأستاذ عبد المجيد ابن جلون كيف أخذ الشهيد امحمد بن عبود مبادرة الاتصال برئيس الديوان الملكي المصري ليطلب منه منح المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي حق اللجوء في مصر:

³⁰⁰ عبد المجيد ابن جلون، "ليلة مسابقة كاتومبا" ضمن سلسلة قصصية بعنوان "لولا الإنسان"، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، 1972، ص. 163 - 181.

"قال صديقي المرحوم السيد محمد بن عبود - الذي شاء القدر أن يلقي حتفه بعد ذلك بستين فقط في حادثة طائرة مشؤومة الحظ بالقرب من مدينة كراتشي - ولكن مع من تستطيع أن تتحدث جادا يوم الجمعة في القاهرة. ومع ذلك رفع سماعة التليفون وطلب السيد إبراهيم عبد الهادي مدير ديوان جلالة الملك فاروق رحمه الله فجاءه الرد: ولكن اليوم يوم عطلة الباشا، ولا يرد الباشا على المكالمات التليفونية في أيام العطل، بيد أن الصديق مضى يهول له في الأمر، ويحمله مغبة المسؤولية إذا تهاون في إبلاغ الرسالة إلى أن استطاع تدبير مقابلة الباشا في نفس المساء. ونشطت حركة التليفون في ليلة يوم العطلة بين رئاسة الديوان ورئاسة الحكومة، وشعر المكتب في أواخر الليل بأن هناك تشجيعا وقبولا ولكن دون أي وعد صريح قاطع، بالرغم من أن الملك فاروق في ذلك الحين بدأ يصبح في حاجة ماسة إلى خطوة من هذا القبيل يكون اسمه محورها.³⁰¹ 1 ص. 166 - 197.

ثانيا، وصف ابن جلون سفر الشهيد امحمد بن عبود إلى ميناء السويس حيث قضى الليلة مع المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي ليقترح عليه فكرة اللجوء إلى مصر لأول مرة ولكنه لم يقنعه فعاد إلى القاهرة في صباح اليوم الثاني أي 31 ماي: "ولكن الأمر لا يعني الحكومة المصرية وحدها وإنما يعني أيضا الأسير نفسه، فماذا يكون موقف المكتب إذا قبلت الحكومة المصرية ورفض الأمير، وتلافيا لكل ذلك سافر المرحوم ابن عبود إلى السويس وقضى الليلة كلها فوق ظهر الباخرة، وهو يجادل الأمير الخطابي ويقنعه إلى أن كاد".

ثالثا، سافر خمسة وطنيين من القاهرة إلى بور سعيد لاستقبال المجاهد ابن عبد الكريم الخطابي ليلة 31 ماي: ثم عادوا إلى القاهرة في صباح اليوم الثاني، على أن يسافر إلى بور سعيد وفد يضم زعماء المغرب الموجودين في القاهرة، وهم السادة علال الفاسي وعبد الخالق الطريس، والحبيب بورقيبة، وصاحبهم الأستاذ ابن عبود وعبد المجيد بن جلون.³⁰² سافرنّا في سيارة أجرة وأدركنا الليل في منتصف الطريق، وما لبث أن أصاب العطب ضوء السيارة، وأصبح من المستحيل أن تواصل السير في الوقت الذي كنا فيه نسابق الباخرة التي تمخر القنال، إذ لم يكن لنا بد من أن نسبّحها إلى بور سعيد قبل وصولها، وأوقفنا سيارة أخرى وطلبنا منها السماح لنا بأن نسير خلفها، ولاحت لنا عقبة من نوع آخر حينما صلنا إلى المنطقة التي يعسكر فيها

³⁰¹ نفس المصدر، ص. 166-197.

³⁰² نفس المصدر، ص. 167-168.

الجيش الإنجليزي، وكان من الممكن جداً أن نوقف عندها لمدة ساعة، ولكن بديهة المرحوم ابن عبود فتحت الطريق، فقد كان السيد الحبيب بورقيبة نائماً من الإجهاد، فلما أوقفت السيارة وفتح أحد الجنود المصريين الموكلين بالحراسة بابها ولقي نظرة على الوجوه، تساءل:

ومن هذا النائم؟

فأجاب ابن عبود على الفور :

معالي الوزير.

فانتفض الجندي وصك كعبه ورفع يمينه بالتحية العسكرية في خوف باد، فإن التساؤل عن وزير بعبارة " ومن هذا النائم" أمر غير مأمون العواقب بمصر في ذلك الحين دون جدال.

رابعاً، رسم لنا ابن جلون وصول الوفد إلى بور سعيد:

"وحيثما كانت السيارة تسير بنا محاذية للقنال كانت تسير، باخرة عن يميننا وكانت صغيرة وكثيبة، وقد استطعنا أن نقرأ على جانب مقدمتها اسم "كاتومبا" فتنفسنا الصعداء فإن هذا هو الاسم الذي كنا نظاره دون سواء. ورحب بنا محافظ المدينة في بشاشة، وأنبأنا أنه لم يتلق أوامر من الحكومة إلى ذلك الحين، ولذلك فإن علينا أن نصعد إلى الباخرة ونبقى مع الأمير، على أن يبلغنا الأوامر التي يتلقاها فور وصولها، وأن علينا أن نطمئن لأن رجال الشرطة يحتلون الباخرة في ثيابهم المدنية. وعندما كنا نصعد سلم الباخرة رأينا وجوها غريبة تطل علينا في فضول من فوق الحواجز وخلف الكوى، ولما كان المرحوم ابن عبود لا ينسى لفتاته في أدق المواقف، فقد اقترب مني ليهمس: سيرون من هناك بلادهم تتلقى أول لطمة من نوعها... وبعد برهة مضيت أقرأ في تلك الوجوه تاريخاً حياً حسب في يوم من الأيام أنه لن يقرأ إلا في بطون الكتب، ومضيت أحلم بذكريات الطفولة وأستعيد قراءاتي لاختلط ذلك كله بهذا الواقع الذي يتحرك ويسعى أمامي، وماذا يمكن أن يكون الشعور حينما يقابل المرء بطلاً استقر بينه وبين نفسه أنه انتهى منذ أكثر من عشرين عاماً... ولكن ذلك لم يمنني من أفق مبهوراً أمام ما في الوجوه من صرامة وحدة، بالرغم من أعوام النفي الطويلة ودقة الموقف الفاصل.³⁰³

خامساً، طرح ابن جلون مجموعة من التأملات الهامة حول مدى أهمية عملية تحرير ابن عبد الكريم الخطابي:

³⁰³ نفس المصدر، ص. 168-170.

ولم يكن من الغريب أن يكون موقف الأمير وأسرته هو نفس موقف الحكومة المصرية... تحييد مصحوب بتردد ، : "هذه الحكومة المصرية التي لا يزال الجنود الانجليز يحتلون من بلادها منطقة القنال، ماذا يمكن أن تقصده من هذا الإيواء؟ هل هو موعزبه؟ وممن؟ هل هي مكيدة أخرى تنصب من جديد عقب هذه الأعوام الطويلة؟ ليسير التاريخ الغادر سيرته الأولى؟ وهذه الوجوه الجديدة؟ لمن هي؟ هل أصحابها وطنيون أو أنهم أيضا مدسوسون، إن فيهم علال الفاسي وعبد الخالق الطريس والحبیب بورقيية، وقد سمع بوطنيتهم وكفاحهم وتضحياتهم دون ريب، ولكنهم هم أيضا زعماء جدد، فماذا عساهم أن يريدوا من زعيم قديم؟ لماذا يتجشمون هذا العناء لنيش الماضي..؟ وأصحاب السفينة أيضا؟ هل يقفون مكتوفي الأيدي وهو يغادر أسرهم إلى الحرية في قناة يحتلها حلفاؤهم؟ يضاف إلى ذلك أن الحالة في المغرب لا تزدد إلا تأزما وخطورة وغموضا، فهل يضاعفون من التأزم والخطورة والغموض في موقف انقطعت أسبابهم بأسبابه منذ أمد طويل، وهو في حاجة إلى الحرية والوقت للانخراط في الوضعية من جديد، والحساسية بجسامة الأخطاء الصغيرة مرهفة جدا، وقد شحذتها أيام النفي والإبعاد الطويلة، وما كان يجري في المغرب أوائل العشرينيات هو بالتأكيد غير ما يجري فيه أواخر الأربعينيات، فما هو؟ وما مداه؟ والمقاومة بدون سلاح غير مفهومة، إذا كانت المقاومة بالسلاح غير مضمونة في كثير من الأحيان".³⁰⁴

سادسا، قدم لنا ابن جلون وصفا عاطفيا شاعريا رائعا لوفاة أقرب أفراد عائلة المجاهد في الرباط وهم أخوه امحمد وعمه عبد السلام وأبناءؤهم: هكذا كنت استرجع شريط الحادث وما تلاه وأنا استمع إلى صوت المذيع اليوم وهو ينعي البطل البشوش محمد الخطابي، ثالث ثلاثة تبوأوا مركز الصدارة في حرب الريف، العم الصالح عبد السلام الخطابي الذي توفي في القاهرة منذ أعوام خلت، وأبناء أخيه محمد عبد الكريم الخطابي الذي قاد هذه الحرب وقد توفي بالقاهرة أيضا منذ بضعة أعوام، ومحمد الخطابي الذي توفي اليوم بالمغرب، والذي كان الساعد الأيمن لأخيه القائد في ميدان الحرب وفي ميدان السياسة والدبلوماسية على السواء وواصلت التفكير في تألم، وأنا أتذكر يوما قريبا قابلته فيه في غرفته بفندق حسان، وأدهشني أن لا يستطيع الألم والمرض والمصير الماثل سلب وجهه الوديع من ابتسامته وبشاشته وطيبوبته، يتخللها وثوق بالنفس، والأمل المتجدد مهما اكفهرت الأحداث، ولعل رضاه

³⁰⁴ نفس المصدر، ص. 170-172.

المطمئن في يوم من الأيام قد اضاء نور أمل ظل يتعلق بأهداب الظلام عبر سنوات خلت من اليأس والقنوط. وقد عشت مع الرجل في ظروفه المختلفة، ولم يكن من العسير عليّ أن اكتشف أنه يبدو نموذجاً، كان يستطيع أن يضحك من أعماقه وأن يكون إنساناً، وقد جلست إليه وحدي ومع أخواتي - وخصوصاً مع الأخ أحمد بن المليح أيام خزعبلات المارشال جوان - ولست أدري لماذا كنت أشعر بأن غضبه لم يكن يصدر عن ذلك الحق الموروث الذي لا يعرف التمهّل. ولعل الأمر يرجع إلى أن ابتسامته كانت تخونه أحياناً فتتم عن وداعة لا يزال ينبض بها قلب بين جنبيه.... ولعل تلك الابتسامة هي التي انعكست على سيرة أبنائه أطال الله أعمارهم، فما زالت ابتسامة الآباء في النهاية بمثابة النبراس المتألق يشيع اليقين والاطمئنان في نفوس الأبناء، واحرص على أن أضيف هنا أن البطل الراحل كان من القليلين الذي يستطيع أن تختلف معهم في الرأي، وتحتد معهم في القول، وتحاصرهم بالحجة أو يحاصروك، دون أن تتعرض لعلاقتهم بك لسوء ولو كان مفروضاً، ودون أن تستطيع خدشة أن تمس ما بينك وبينهم من احترام متبادل أو ود مقيم، وقد استقبلني منذ أسابيع في غرفته بفندق حسان بنفس الحرارة التي كان يستقبلني بها منذ أكثر من عشرة أعوام كما لو كنا قد افترقنا بالأمس، وأن ابنه البار السيد رشيد رحمه الله هو أيضاً فقد توفي بعد والده بقليل كان يحمل إليّ تحياته كلما قدم إلى الرباط ويحرص على ذلك وكان أكثر أسباب المجادلة الشديدة في تلك الأيام التي كانت حافلة بالغموض - دون أن تتكرر القلوب، أو تتحول عن المجادلة إلى مقارعة أو شقاق. سقت قبره شآبيب الرحمة في ثرى قرية أجدير مسقط رأسه، فما زالت به وداعته إلى أن قادته إلى بلاده قبل وفاته بشهور، وقد بارح أبطال حرب الريف جميعاً بلادهم ليلاً يراها أحد منهم بعد ذلك أبداً، ولتوافيهم المنون بعيدين عن هذه البلاد. ماعدا بطلنا الذي سمعت اليوم صوت المذيع ينهاله فائراً نعيه في مخيلتي شريطاً مديداً من ذكريات أحداث طويلة ليست هذه العجالة مجالاً لإفاضة القول فيها.

سابعاً، ختم ابن جلون روايته بتأمل حول مكانة هذا الحدث التاريخي في تاريخ المغرب: ترى ماذا كان مصير ذلك الشعور الغامض القديم الذي قلت إنني لم أعرف مصدره على وجه اليقين، وكان تساؤلاً محفوفاً بنا يشبه الغبش والضباب يوم تساءلت في توجس: هل يسير كل شيء على ما يرام؟ لقد مرت شهور وأعوام طويلة منذ ذلك الجبن، واليوم:

هل سار كل شيء على ما يرام ... ؟ لقد خلت خشبة المسرح من كثير من شيوخ الرواية وشبابنا معنا، فماذا يهم اليوم في المغرب المستقل، سار كل شيء على ما يرام أو لم يسر ... وقد أخذ ذلك الزمان يختفي ويزول. ³⁰⁵ ؟

في الختام، لن ينتهي النقاش حول عملية تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي بعد هذه المقالة لأن الموضوع ينال اهتمام كثير من الناس الذين يختلفون في رؤيتهم لتاريخ الحركة الوطنية المغربية. المهم هو أن البحث يتقدم، وهو يتقدم كلما ظهرت وثائق جديدة لأن ذلك يدفع بالتفسير إلى الأمام. كما أن تعدد الرؤى من شأنه أن يغني معرفتنا ومن شأنه أن يقربنا من الرواية الأصلية لعملية تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال بصماتها، وربما تعود أسباب الاختلاف في الآراء حول عملية تحرير محمد ابن عبد الكريم إلى اقتراب الذين يكتبون من الحدث من جهة وانعكاساته على الأحداث في الحقبة ما بعد الاستقلال سنة 1956.

هناك سؤال مطروح بحدّة وهو: هل كان لعبد الكريم ولحرب الريف تأثير في الحركة الوطنية منذ إرساله إلى المنفى ثم إثر تحريره في القاهرة إلى حدود نهاية 1948؟ لقد عالج هذا الموضوع الدكتور عبد الله العروي في مؤتمر نظم بباريس وطبعت أعماله بالفرنسية ثم ترجمت إلى العربية. عالج الدكتور عبد الله هذا الموضوع في مداخلة بعنوان « الخطابي والجمهورية (1948) » وأجاب عن السؤال الذي طرحته: 1- اعتبر العروي أن الحركة الوطنية لم تستفد من تجربة حرب الريف إذ قال: " ماذا نستخلص من هذه الملاحظة؟ من المحتمل أن تكون المجموعة التي قادت الحركة الوطنية المغربية، قد أغفلت في خلال المرحلة (1926-1947)، هذه التجربة الريفية، ولم تعطيها في الواقع أي اهتمام سياسي. كيف يمكننا أن نفسر إلا انطلاقا من هذه الملاحظة، تلك المغالطات الغربية التي تنسل في كتابات أشهرهم ؟ ربما ينطبق ذلك على بعض المناطق المغربية ولكنه لا ينطبق على شمال المغرب كما أنها لا تعكس في المادة التوثيقية التي اعتمدها.

³⁰⁵ نفس المصدر، ص. 177-181.

أما تأثير الخطابي في الحركة الوطنية فكان قويا لدى الوطنيين المغاربة في القاهرة ولكن المفتاح لفهم ذلك لم يكمل علال الفاسي بالضرورة.

يلخص العروي الموقف قائلا:

2 " لم تغن التجربة الريفية الحركة الوطنية، ولم تضيف إليها، بل إن هذه الحركة هي التي تستعيد لها لدفعها يسارا كي تتلاقى مع منطلقها الخاص". ويضيف:

" يمكننا أن نتصور بسهولة هذا اللقاء وجهها لوجه بين عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي 1947 في القاهرة، رجلا ن متشابهان و مختلفان في آن واحد ، إنهما يتحدثان ولكن هل يتفاهمان؟ وعلى كل حال انتهى اللقاء سريعا، انتهى شهر العسل القصير الذي رافق عملهما في مكتب المغرب العربي.

وربما وصل إلى هذا الاستنتاج لأنه ركز على علال الفاسي ثم عمم حكمه على الزعيم الاستقلالي على حزب الاستقلال أولا، ثم على الحركة الوطنية في المغرب كله ثانيا.

فيما يخص النقطة الأولى هي اعتبار العروي أن تأثير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي كان محدودا أو منعدما فربما ينطبق على الحركة الوطنية في بعض المناطق المغربية في الجنوب، ولكن تأثيره كان قويا في مدن الشمال كتطوان كما يتضح في الحجج التالية:

أولا، كان تلاميذ المدارس الوطنية الحرة في تطوان ينشدون نشيد الثورة الريفية في عهد الحماية ولقد أدرجت نصه في ملحق هذه المقالة.

ثانيا، كان تاريخ ثورة المجاهد محمد عبد الكريم الخطابي يدرس في المدارس الوطنية كجزء من تاريخ المغرب.

وفي هذا الإطار خصص سيدي التهامي الوزاني فصلا كاملا عن ثورة الريف في الجزء الثالث لكتابه " تاريخ المغرب"³⁰⁶. ويعتبر الوزاني أول مؤرخ مغربي عاصر حرب الريف وكتب عنها. ومهما كان حكمنا على مواقف سيدي التهامي الوزاني الوطنية، فإن تأليفه كتابا في تاريخ المغرب من عهد ما قبل الحماية إلى عهد الحماية

³⁰⁶ أنظر، المقاومة الريفية، التهامي الوزاني، تاريخ المغرب، الجزء الثالث، تطوان، مطبعة الريف، 1940،

ص. 156-194.

وإدراج حرب الريف ضمن هذا الكتاب يعتبر عملا وطنيا. ومن الملاحظ أن العمل الثقافي الوطني كان جزءا لا يتجزأ من الكفاح الوطني السياسي. ثالثا، لم يشارك بعض الوطنيين المغاربة في شمال المغرب وجنوبه في أنشطة سياسية وطنية في القاهرة بعد تحريره فقط، بل منهم من تكلم باسمه. لقد أشار محمد بن عبد الكريم في مذكراته على متن باخرة كاتومبا في ميناء السويس يوم 30 ماي إلى اقتراح ابن عبود قيادة الحركة الوطنية المغربية في المشرق لإقناعه باتخاذ قرار اللجوء إلى مصر.

ونجد أدلة أخرى في الأرشيف الإسباني. جاء في تقرير في وثائق باريلا حول الندوة الصحفية التي نظمها الشهيد امحمد بن عبود والأستاذ عبد الخالق الطريس في نزل المنزه بطنجة في فبراير 1948. أخذ الكلمة ابن عبود وبلغ سلام المير محمد بن عبد الكريم الخطابي للجمهور الحاضر وأضاف أن الخطابي يوصيهم بمتابعة نضالهم الوطني ضد الاستعمار الإسباني والفرنسي. ثم أخذ الأستاذ عبد الخالق الطريس الكلمة بعده وبدأها بنفس الكلام³⁰⁷. أي تأثير أكثر من هذا لابن عبد الكريم في الحركة الوطنية المغربية في شمال المغرب؟.

هكذا كانت الحركة الوطنية المغربية في المشرق العربي خلال الأربعينيات. أما في الخمسينيات وما بعد الاستقلال فتغيرت الوضعية كليا. وفيما يخص تطرق الدكتور العروي للعلاقة المتوترة بين ابن عبد الكريم وعلال الفاسي، فلقد عبر عنها في النص التالي:

" يمكننا أن نتصور بسهولة هذا اللقاء وجها لوجه بين عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي 1947 في القاهرة، رجلان متشابهان و مختلفان في آن واحد، إنهما يتحدثان ولكن هل يتفاهمان؟ وعلى كل حال انتهى اللقاء سريعا، انتهى شهر العسل القصير الذي رافق عملهما في مكتب المغرب العربي".

لقد كانت علاقتهما فعلا متوترة ولكن هناك وثائق جديدة تقدم لنا تفسيراً جديداً وقاطعا لهذا التوتر وهو الموقف الشخصي لعلال الفاسي من الأمير الخطابي وجميع الشماليين.

³⁰⁷ Check spanish article on Archivos Varela, Rueda de prensa, Hotel Minzal, 1948.

وأخيرا إن النضال الوطني المغاربي في القاهرة من 1946 إلى نهاية 1949 يجسده مكتب المغرب العربي في القاهرة³⁰⁸. ومؤسسات أخرى لجنة تحرير المغرب العربي وكذلك الندوات الوطنية التي نظمها وطنيو مكتب المغرب العربي أو ممثلوه فيها كالمؤتمر العربي الأول في بيروت المنعقد في خريف 1947 أو المؤتمر الاقتصادي الإسلامي الأول المنعقد بكراتشي في دجنبر 1949.

لقد دافع مناضلو مكتب المغرب العربي عن سيادة المغرب العربي وعن سيادة المغرب والجزائر وتونس وليبيا كما دافعوا عن مبدأ الحرية والاستقلال لجميع أقطار المغرب العربي وكانت مسألة الشرعية جوهرية . وبالنسبة للمغرب كان جميع الوطنيين الشماليين يحتفلون بعيد العرش باعتبار السلطان رمزا لوحدة المغرب كله ولسيادته. إن هذا الموقف واضح في مراسلة الأستاذ عبد الخالق الطريس وفي موقف الشهيد امحمد بن عبود رئيس الوفد المراكشي لدى الجامعة العربية ومدير مكتب المغرب العربي بالقاهرة.

ملحق: نشيد ثورة الريف

في ثنايا العجاج	والتحام السيوف
بينما الليل داج	والمنايا تطوف
يتهادى نسيم	فيه أزكى سلام
لابن عبد الكريم	الزعيم الهمام
ريفنا كالعرين	نحن فيه الأسود
ريفنا نحميه	
كلنا يُعجبُ	بفتى المغرب
كلنا يطربُ	لانتصار الأبي
أين جيشُ العدا	إن دعا للجهاد
أصبحوا أعبدًا	بالسيوف الحداد
ريفنا كالعرين	نحن فيه الأسود
ريفنا نحميه	

308 د. امحمد بن عبود، مكتب في المغرب العربي القاهرة، دراسات ووثائق، منشورات مؤسسة الشهيد امحمد

أحمد بن عبود، تطوان، 2015،

طالما استعبَدوا وأذلوا الرِّقابُ
أيها الأيُّدُ جاء يوم الحسابُ
فليذوقوا الزَّعافُ بالطَّبِّ والأسلُ
ولتُعلَّ الهُتافُ للأمير البطلُ
ريفتنا كالعرين نحن فيه الأسود
ريفتنا نحميه

من إصدارات المركز:

كتاب
"الاقتصاد السياسي والسياسات الاقتصادية في المغرب"
للباحث والمناضل السياسي نجيب أقصبي



مقاربة تركيبية شاملة وومركزة تجمع بين
صرامة التناول الأكاديمي العلمي
ووضوح وجراءة التحليل السياسي النقدي

البحث في تاريخ شمال المغرب

حصول سنة 2018



أسامة الزكاري

عرفت سنة 2018 زخما ملحوظا في مجال البحث التاريخي المتخصص في ماضي منطقة الشمال، بصدد أعمال متواترة، شكل البعض منها نقاطا مرجعية هامة، ساهمت في استكمال حلقات أعمال جيل التأسيس، سواء خلال مرحلة خضوع البلاد للاستعمار أم خلال المرحلة التي تلتها، ممن كان لهم دور مركزي في التأسيس لمعالم "مدرسة وطنية" في كتابة تاريخ الجهة أو المجال الجغرافي المعروف اصطلاحا باسم منطقة الشمال. هي أعمال تتراوح في قيمتها وفي خلفياتها وفي رؤاها وفي منطلقاتها وفي آليات اشتغالها، مما يسمح بمقاربة حصول المنجز الذي راكمته السنة التي ودعناها مؤخرا. وإذا كنا في هذا المقام لا ننوي تقديم قراءة تقييمية بمفهومها الأكاديمي الخالص، فإننا سنسعى لتقديم جرد تجميعي لحصول المنجز في جانبه الكمي الذي يشكل أرضية للباحثين المتخصصين من أجل إنجاز الدراسات التقييمية الضرورية، تشريحا للمواد الوثائقية والمصدرية، وتحليلا للرصيد الإسطوغرافي المجدد، وتفكيكا

لللخلاصات وللتراكمات المنجزة في مواقع مختلفة وبخلفيات متباينة. ويبدو أن أهم الأعمال المنجزة، بهذا الخصوص قد انطلقت من حوض مراكز بحثية وإطارات مدنية انخرطت في مغامرة التوثيق لإبدالات تاريخ منطقة الشمال، مثلما هو الحال مع مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة ومؤسسة الشهيد امحمدأحمد بن عبود بتطوان والمندوبية السامية لقدماء المقاومين أعضاء جيش التحرير وجمعية ابن خلدون للبحث التاريخي والاجتماعي بأصيلا وجمعية ذاكرة الريف بالحسيمة. وغني عن التذكير أننا لا نقدم إلا الأعمال التي أتاحت لنا إمكانية مواكبة صدورها من الإصدارات التصنيفية دون المقالات الموزعة عبر الصحف والدوريات، وأي تغافل عن ذكر بعض العناوين يظل مرتبطا بمحدودية هذه المواكبة وبطبيعتها الفردية المطوقة بإكراهات تلقي سوق الإصدارات ببلادنا. تتوزع أهم إصدارات سنة 2018 حسب هذا التحديد المنهجي، على الشكل التالي:

1 - أعمال قطاعية ومونوغرافية

- عرف هذا المجال غزارة واضحة في الإنتاج المتخصص، تفاوتت قيمه العلمية باختلاف مواقع أصحابه وسقف اهتماماتهم المعروفة. على رأس هذه العناوين، يمكن أن نذكر:
- أحمد السليمان، عثمان المنصوري وعبد الرحمن زكري، الهيئة الريفية- ملف وثائقي، منشورات مركز محمد بنسعيدآيت إيدير للأبحاث والدراسات.
 - علي بنيس، مونوغرافية قرية أدوز- تاريخ، أصول، اقتصاد وعادات، منشورات جمعية ماسينسا للثقافة والتراث الأمازيغيين بالحسيمة.
 - طارق الريسوني، المأساة الموريسكية من التنصير إلى التهجير.
 - محمد الشريف، قضايا في تاريخ المغرب والأندلس، ج. 2.
 - خديجة الخديري، التراث الأثري لساحل بلاد الريف.
 - محمد أمزيان، لعنة عبد الكريم.
 - محمد أمزيان، محنة الريف من الانتفاضة إلى الحراك.
 - محمد جحاح، الزاوية بين القبيلة والدولة- وثائق جديدة عن التاريخ الاجتماعي والسياسي للريف.

2 - دوريات متخصصة

عرف هذا المجال ترديا خطيرا وفراغا رهيبا لم تستطع نخب المرحلة الراهنة الحد من تداعياته السلبية. ويكفي أن نشير إلى مستوى الفراغ الرهيب الذي خلفه رحيل كل من عبد العزيز التسماني خلوq ومحمد الأمين البزاز ومحمد بن عزوز حكيم، وهم الأعلام الذي كان لهم الدور المركزي في تخصيب حقل تلقي المعرفة التاريخية، من خلال منابر ودوريات علمية أعطت للشمال إشعاعه العلمي والثقافي الرائد، مثلما هو الحال مع دورية "دار النيابة" ومجلة "الطنجيون" ومجلة "الوثائق الوطنية"...

- دورية "الزقاق" - مجلة تاريخ المغرب والأندلس، ع. 1، فبراير 2018.

3 - الترجمة

لم يعرف مجال الترجمة تراكما حقيقيا يمكن أن يلبي نهم الباحثين، كما غابت عنه أوجه العمل المؤسساتي الداعم، فارتبط بجهود الذوات المعزولة في مشاريعها وفي إمكاناتها. من أهم هذه الأعمال :

- خينس بريث دي هيتا، حروب غرناطة الأهلية، ج. 1، ترجمة ودراسة وتعليق: عبد العزيز السعود.

- غيرموغوئاليسبوسطو، المورسكيون في المغرب، ترجمة: محمد القاضي وإدريس الجبروني.

- شمال المغرب من خلال مصادر برتغالية (1415-1490)، ترجمة وتقديم: أحمد بوشرب.

4 - ندوات علمية

- أثارت بعض هذه الندوات اهتمام قطاعات واسعة من الباحثين على مستويات واسعة، تجاوز البعض منها الحدود الوطنية. على رأس هذه الندوات :
- ندوة: من رموز الحركة الوطنية بتطوان، تنظيم: جمعية دار النقسيس للثقافة والتراث بشراكة مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، تطوان 12 يناير.
 - ندوة: مدرسة تطوان التشكيلية، تنظيم: منتدى روافد للثقافة والفنون والمعهد الوطني للفنون الجميلة بتطوان، 15 أبريل 2018.
 - ندوة: سبته العالمية بصرة علوم اللسان، تنظيم: المجلس العلمي بعمالة المضيق-الفنيدق، المضيق 30 أبريل.
 - ندوة: كتابات نسائية في صحافة شمال المغرب، تنظيم: مقاطعة مدينة تطوان، 23 مارس.

5 - مذكرات وسير الأعلام

- لا زالت الإصدارات المرتبطة بهذا المجال محدودة إلى حد كبير، ومن أبرز ما صدر بهذا الخصوص سنة 2018، نذكر :
- أسامة الزكاري، الهاشمي الطود- خيار الكفاح المسلح، حوار سيرة ذاتية.
 - توفيق الغلبزوري، علامة الريف وتطوان الشيخ محمد حدو أمزيان: مسيرة حياة ومجموع مقالات.
 - محمد البشير المسري، الشيخ والمريد- رحلة ربع قرن.
 - جماعي، دراسات مهداة إلى فضيلة العالم الجليل د. حسن الوراكلي، تقديم: محمد محمد المعلمي، مطبوعات ندوة "زمزم" الجمعية.
 - عدنان الوهابي، حفريات التراث المغربي: سيدي عبد الله المرابط الترغي منارة علم ونبع أفضال.

6- التاريخ الثقافي المعاصر

لازال هذا المجال بعيدا عن الاستجابة لانتظارات الباحثين والمهتمين، بالنظر لضعف وتيرة العمل على مستوى البحث في تاريخ الذهنيات المحلية وتعبيراتها الرمزية المتعددة، وتوظيفاتها الإبداعية المتشعبة. وعلى رأس ما صدر بهذا الخصوص، نذكر:

- عبد الواحد الطريس، تطاون- مسارب ذاكرة..، تقديم: عبد اللطيف شهبون.
 - طارق حيون، الفكر السياسي للزعيم عبد الخالق الطريس.
 - عبد الناصر امحرف، شعر المقاومة بالمنطقة الريفية إبان الاستعمار- 1940/1900، تقديم وإعداد ومراجعة: فؤاد ازروال.
- وبعد، فلا شك أن الحصيلة تظل بعيدة عن الاستجابة لنهم المهتمين، ولا شك أن الأجيال الراهنة من الباحثين والمؤرخين ما زالت تعاني من مشاكل الإعاقة التي تحد من ضمان انسياب نهر العطاء والإنتاج. إنه مجال بكر، لا زال ينتظر المزيد من العمل من أجل إضفاء طابع مؤسساتي على جهود النهوض بهذا المجال، خدمة لذاكرة جماعية متيقظة، واستلهاما لحيوية ذاكرة تاريخية نراهن عليها في سعينا المشروع نحو إعادة التأصيل لمنطلقات الاشتغال العلمي على تلاوين الذاكرة المشتركة لمنطقة الشمال.



الريف بعيون صحفية



أحمد حبشي

أواخر القرن التاسع عشر شكلت منطقة الريف في شمال المغرب، منذ محط اهتمام الباحثين والمؤرخين وكذا الساسة والعسكريين. أولا لموقعها الجغرافي بحكم قربها من القارة الأوربية وموقعها الاستراتيجي في جنوب البحر المتوسط، وما كان لها من دور في ربط أوروبا بالعالم الشرق اوسطي، وثانيا لما عرف على ساكنتها من عزة ورفض لكل تواجد أجنبي ومقاومته لكل احتلال. وقد كتبت العديد من الدراسات الاستكشافية التي كانت تسعى إلى كشف مداخل بسط الهيمنة والسيطرة على الأرض والسكان، واعتمدت خلاصاتها في بلورة الخطط العسكرية والمناهج الاستيطانية للتمكن من الأرض والإنسان، وسهلت في كثير من المراحل استدراج الساكنة واستغلال الأرض وما تختزنه من ثروات. من بين الكتب التي تناولت تاريخ منطقة الريف وقدمت تفاصيل عن تشكيلته الاجتماعية وبنيتها القبلية، كتاب " عبد الكريم أمير الريف" الذي أعده الصحفي البريطاني "روبرت فورنو" الذي زار المنطقة ومكث بها مدة وسجل مقابلات صحفية ولقاءات مع أخ المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي وبعض أبناء المجاهد، الذين قدموا له كل المعطيات حول حياة المجاهد المرتبطة بأهم المراحل التي مرت منها الثورة الريفية وصراع الساكنة مع الاستعمار الاسباني، كما أطلعوه على بعض تفاصيل حياة المجاهد وارتباطاته العائلية الخاصة. فجاء الكتاب شاملا على مستوى

حراك الريف... ريف الحراك

التعريف بالمنطقة وتضاريسها والعنصر البشري الذي مر منها ومختلف الآثار التي خلفتها كل الغزوات وأصناف الوجود الأجنبي والأنظمة التي مرت أو قامت لسنوات في المنطقة وأثرت في الساكنة وخلفت بعضها من تقاليدها إن لم تستطع تغيير معالمها وتحول طبيعة ساكنتها.

يقع الكتاب في 237 صفحة من الحجم المتوسط تمت ترجمته في مصر من طرف الدكتور فؤاد أيوب، وقد اعتمد مؤلفه على مراجع متعددة وأبحاث ميدانية لتدقيق المعطيات ومقارنتها مع مختلف الشهادات التي استطاع الحصول عليها من أشخاص واكب كثير منهم الأحداث والوقائع التي عرفت المنطقة، لتقريب القارئ والباحث من بعض الحقائق التي يتم تداولها بأكثر من صيغة. وقد ارتأينا نشر فقرات من هذا الكتاب لأهمية تعريفها بالمنطقة والأجواء العامة التي أطرت حركية الساكنة وقوة عزميتها في مواجهة الأجنبي وخصوصا الاستعمار الإسباني.

الريف في التاريخ

"تعني كلمة "ريف" حافة أو جرفا، أو أرضا مزروعة خصبة، و تعني كذلك ظاهر شيء ما. وحين تطبق هذه الكلمة على أرض مراكش، فهي تعني الساحل البحري الشمالي، الدفاع الخارجي عن داخل البلاد. تلك كلمة عربية لا نفع على أثر لاستعمالها قبل القرن العاشر. كما أنها لا تظهر مرة أخرى حتى يعثر عليها في كتاب مكتوب في القرن الرابع عشر بريشة عبد الحق البادي، وهو من مواليد منطقة غمارة. وقد عرف هذا الكتاب، مع مؤلف آخر يدعى داوود القرطي، الريف في اعتباره يمتد من المنطقة المحيطة بسبتة غربا حتى الحدود الجزائرية شرقا. ويصف ليون الإفريقي، وهو إسباني مسلم اصطحبه والده ليعيش في مراكش، وقد كتب في القرن السادس عشر "الريف" على اعتباره إحدى مناطق فاس السبع:

تبدأ هذه المنطقة غربا من مضائق جبل طارق، وتمتد شرقا حتى نهر فخور، وهي مسافة تبلغ حوالي مائة وأربعين ميلا. وتحاذي شمالا البحر الأبيض المتوسط، وتمتد أربعين ميلا جنوبا حتى تلك الجبال التي تنتصب فوق أورغة (نهر ورغلا) وأراضي فاس. هذه المنطقة شديدة الوعورة، ملآنة بالجبال الشديدة البرودة والصحاري القفر التي تغطيها أشجار فائقة الجمال وباسقة الفروع. لا ينبت الحب هنا، لكنهم يملكون أعدادا كبيرة من الكروم، وأشجار التين والزيتون واللوز. وسكان هذه المنطقة

أناس شجعان، لكنهم يكثرون من الشراب بحيث نادرا ما يحتفظون بما يكسون به أنفسهم. وإن لديهم ماشية لكنها قلة، وعلى الرغم من أن في جبالهم الكثير من الماعز والحمير والقردة، ومدنهم قليلة، وقصورهم وقراهم مبنية بصورة بسيطة جدا، بدون أخشاب أو طوابق، وهي شبيهة كثيرا بإسطبلات أوروبا، ومغطاة بالقش أو لحاء الشجر. وجميع سكان هذه المنطقة يتميزون بحنجرة ناثئة، وهم قوم قساة جفاة.

ويحد الجغرافيون المحدثون امتداد الريف بالقسم الأوسط والشرقي من المنطقة الشمالية من مراکش. أي تلك المنطقة المشككة من جبال الريف والأرض المجاورة لها بصورة مباشرة. المتمادية 120 ميلا من الغرب إلى الشرق و53 ميلا من الشمال إلى الجنوب. ويتاخم الجبال من جهة الشرق السهل الذي يمتد حتى مليل، ومن جهة الغرب مناطق غمارة وصنهاجة الشمالية التي لا تشكل، على الرغم من كونها مناطق جبلية، قسما حقيقيا من سلسلة جبال الريف. كما لا يسكنها ريفيون حقيقيون. وتتكون سلسلة جبال الريف من ذرى متجهمة، يرتفع بعضها حتى علو 7000 قدم، ومن ممرات متوحشة ووديان صخرية.

تلك بلاد قاسية، جرداء، جافة، جدباء، لم يكن سلوكها ممكنا حتى عبد عبد الكريم الطرقات فيها، ولا تزال أجزاء كبيرة منها حتى الآن غير محددة على الخارطة. ويتفاوت طقسها بين البرد الشديد في الشتاء والحر اللاهب في الصيف، كما أن أمطار الشتاء والثلوج الذائبة تحول سواقيها الضحلة إلى سيول جارفة عاتية.

ويتألف أهل الريف، سكان البلاد، من ثماني عشرة قبيلة أكثر أو أقل تميزا، تنحدر غالبيتها العظمى من البربر وتنطق بلغة البربر. أما حواشي المنطقة فيقطنها قبائل عربية أصيلة أو مختلطة من الأعراب والبربر. وتتميز هذه القبائل عن الريف، بيد أنها تشكل قسما منه من وجهة النظر السياسية والجغرافية، ذلك أن عبارة "الريف" قد أصبحت تشمل، في زمن حروب عبد الكريم، منطقة أوسع من المنطقة المقصودة أصلا.

ويلتف أصل أهل الريف بحجب الغموض ويتجلبب بلباس الأسطورة. وأن الدراسات الاثنوغرافية التي نشرها البروفسور كارلتون كون وأحد تلامذته السابقين دافيد هارت، قد قضت على عدد كبير من الخرافات بشأن البربر، هذه الجماعة اللغوية التي تقطن ساحل إفريقيا الشمالية بأكمله... وتؤكد مشاهداتي الخاصة أن كثيرا من أهل الريف يظهرون خصائص عرقية مماثلة لتلك تتميز بها شعوب أوروبا الشمالية الغربية. ويقدر

ولتر هاريس، مراسل التايمز في مراكش عام 1926، أن 357 ألف نسمة من أهالي المنطقة الشمالية من مراكش هم من البربر، بينما آخرون هم من البربر المستعربين. وحين هاجر أسلاف البربر المحدثين من الشرق الأدنى إلى الساحل الإفريقي الشمالي قبل حوالي 6000 عام، وجدوا في شمالي مراكش عرقا بدنيا، قريبا من الكرومانيولين في أوروبا، وقد اختلطوا به حتى درجة ما. ولا نزال نشاهد آثارا متميزة من هذه العرق البدئي بين أهل الريف، وبخاصة بين القبائل المقيمة في الجهات الأتاي. وهكذا فإن ثمة سلالتين حكيمتين متميزتين بين أهل الريف، وذلك على الرغم من انعدام أية فوارق بيئية في العادات والتقاليد.

ويجد دافيد هارت أن أغلبية أهل الريف قوم أقوياء، تتراوح بنيتهم بين القصر والقامة المتوسطة، وأطرافهم السفلية طويلة بالمقارنة مع جذوعهم. وأنهم أصحاب رؤوس متطولة، ووجوه ضيقة، وأسنان صغيرة، وأنوف بارزة، وشعر أسود، وعيون بنية، وشعر بدني كثيف جدا. وإنهم ليبدون، مثلهم في ذلك مثل جميع سكان البحر الأبيض المتوسط، ميلا ثابتا، مع مزيد من القوة، إلى اللون الأشقر والشعر الكستنائي أو الضارب إلى الحمرة، وإلى العيون الزرق أو الخضراء، وهو ما يعزوه البروفسور كون إلى الانعزال في ملجأ جبلي غائم ورطب من جهة واحدة، وإلى الاختلاط بسلالة أقدم من جهة ثانية. ويقترح هارت أن تكون هذه السلالة العتيقة قد استمرت في البقاء من الأزمنة السابقة للزراعة، وهي تظهر شبها بالبقايا العظيمة التي عثر عليها في أماكن أخرى من إفريقيا الشمالية، كما تظهر شبها أقل بأناس الكرومانيو في أوروبا العصر الحجري الأعلى. ويستطرد هارت قائلا:

إن ممثلي هذه السلالة المحدثين يشبهون الأيرلنديين، أبدانهم متينة عريضة، ووجوههم عريضة (لكن رؤوسهم متطولة) وأنوفهم فطساء، وأسنانهم ضخمة، وشعرهم أصهب، وعيونهم خضراء أو بنية صافية، ويغطيهم النمش. وإنه ليتمكنني أن أجزم شخصا بأن وجود أناس من هذا النمط الحكمي في الريف الأوسط، لأكثر تواترا من أن يكون في الإمكان تجاهله، وأعتقد بثبات أن هؤلاء "الباقين من العصر الحجري" راسخو الجذور في مقامهم الجبلي بصورة أمتن من أن تفسر بأي غزو ضمن الأزمان التاريخية، سواء أكان هذا الغزو حقيقيا أو وهميا. أما أن البربر المراكشيين هم أحفاد الغوتيين أو الونداليين، فتلك خرافة لا يبرح اضمحلالها يتطلب مع الأسف بعض الوقت، والأسوأ من ذلك أنني صادفت ريفيين خلصوا هم أنفسهم إلى الاعتقاد بها.

وسواء أكان هؤلاء الريفيون البدئيون يمتون بأية قرابة عرقية إلى السلتيين في أوروبا الشمالية أم لا، كما تشاء بعض المزاعم، فإنهم يمكن أن يمثلوا، كما يعتقد البروفسور كون، سلالة شمالية التجأت إلى إفريقيا الشمالية في الأزمان قبل التاريخية. ويعتقد هارت أن هؤلاء "الشماليين" قد لا يكونون أكثر من متوسطيين "باهتين" فقدوا تصبغهم الأصلي من جراء السكنى المديدة في مناخ أكثر برودة. وأنه لمن المؤكد أنه يصدق القول، كما لاحظت، بأن هؤلاء الريفيين الحمر الشعور والزررق العيون، يمكن أن يعتبروا بصورة مرضية تماما جماعة من أهالي غربي أيرلندا أو المدن السكندنافية، وذلك إذا ما أحسن تدريبهم وارتدوا الملابس المتمدنة. وبالمقابل فإن البربر الحقيقيين هم من عرق متوسطي، وهم يملكون شيئا مرموقا بالأقوام الذين تصورهم نقوش آشوريا القديمة.

ولقد كان هؤلاء الريفيون المختلطون، المتوسطيون قسما و"الشماليون" قسما، يحيون في الجبال أيام أقام التجار الفينيقيون قاعدة لهم في رأس أجدير، اسم مليلا القديم، حوالي عام 1100 ق.م، وأيام ظهر الرومان على الساحل، هذا الساحل الذي أطلقوا على منطقته الداخلية اسم "موريتانيا"، ولم تتغلغل أية من هاتين الأمتين في المناطق الداخلية. ولقد قدم الونداليون في القرن الخامس بعد الميلاد، لكن إقامتهم التي لم تمتد سوى قرن واحد لم تترك أثرا في الخليط العرقي هناك. ووصل العرب إلى مراكش على موجتين، الموجة الأولى في القرن السابع والموجة الثانية في القرن الحادي عشر، حين استكمل الغزو العربي لمراكش واعتنق أهل الريف الدين الإسلامي واحتفظوا بلهجتهم البربرية المسماة تمازرت أو الشلوح. وعلى الرغم من عدم خضوعهم للسلطان سياسيا، لأن السلطان كان يمارس عليهم سيادة اسمية وسلطانا روحيا فحسب، فإن الكثيرين من أهل الريف قد انضموا إلى الغزو العربي لإسبانيا التي لم يخرج منها المسلمون بصورة نهائية إلا عام 1492.

إن أهل الريف مشروطون بوراثةهم وبيئتهم. ولقد كان الريف في العشرينات من القرن العشرين من أشد مناطق العالم وعورة. إذ هو مجرد سلسلة من الجبال المجهولة وغير المستكشفة، على الرغم من كونها واقعة تحت أبصار المراكب الكبرى التي تعبر البحر الأبيض المتوسط. وكان أهل الريف يحيون في مساكنهم النائية، منعزلين عن العالم الخارجي وغير عارفين به، حذرين من الغرباء ومقاومين بعنف للقوى الخارجية.

ولقد خلقت حياتهم الانعزالية، على حد تعبير ولتر هاريس، " كراهيتهم الفطرية والعميقة الجذور لكل سلطة خارجة عن تلك السلطة التي تمارسها منظماتهم المحلية الديمقراطية الخاصة". ولقد كانت روح المحافظة عند أهل الريف بارزة بشدة، كما لاحظ كون عام 1928، بحيث أن المسافرين العائدين كانوا يترددون في رواية الأقاصيص عن تلك الأراضي الغربية خشية أن يتهموا بالكذب. ويقول كون إن أهل الريف يرتابون في كل فعل أو ابتكار لم يقبل أجدادهم بهما ويرفضونهما. إن هذه التقارير، المقدمة من طرف مشاهدين يتحلون بالكفاءة، تؤكد على الثورة الجارية التي حققها عبد الكريم في الريف في فترة تقل عن خمس سنوات، وهي ثورة لا تبرح في تقدم منذ ذلك الحين.

إن البروفسور كون، الذي قضى عدة سنوات في الريف، درس عادات شغبه وتقاليد (راجع كتابه قبائل الريف). وهو يقدم هذه اللائحة بالقبائل الريفية الحقيقية: كبدانة، جاليدجا، بنو سعيد، بنو بويحي، متيلسا، بنو أوليسيك، تفريست، بنو توزن، كسمايا، بنو أورياغل، بنو عمارت، تارغيست، يوقويا، بنو أتاقت، بنو بوفراح، مستاسا، ومتيوا. ولم يتبن البربر قط بصورة كاملة عبارة "بني" بل كانوا يفضلون عليها عبارة "آيت". وكان بنو أورياغل، أو آيت ورياغر، كما يتهجأ دافيد هارت اسمهم، أكبر هذه القبائل، وكان عبد الكريم ينتسب إليهم. وينكب دافيد هارت في الوقت الحاضر على دراسة مخصوصة وموسعة "لبنى ورياغل"، كما يفضل تسميتهم للسهولة. (راجع كتابه دراسة اثنوغرافية لقبيلة أية أورياجيل الريفية. 1954).

كان بنو ورياغل يعدون حوالي 65000 نسمة عام 1945. ومن المرجح أن عددهم عام 1926 لم يكن يتجاوز 40000 نسمة، وكانت أرضهم القبلية تمتد من خليج الحسيمة في الشمال حتى مستجمع مياه نهر نخوت في الجنوب، كما كانت تمتد اعتبارا من نهر نخور شرقا حتى حدودهم مع القبائل المجاورة غربا، وهي منطقة تبلغ حوالي 1027 كيلو مترا مربعا. وكان بنو ورياغل وبعض القبائل الأخرى يشكلون كتلة لغوية ريفية مركزية. كما يقول هارت، لا يتكلم العربية فيها إلا أقلية هزيلة من المتعلمين، إذ حافظت القبيلة على ملامحها البربرية القديمة في وجه التعريب المتعاضم، ولما كان بنو ورياغل يشكلون القبيلة الأشد بأسا، فقد كانوا يوجهون سياسة الريف. ولم تكن التربة تنتج إلا مستوى معيشيا ضئيلا جدا من أجل السكان الكثيرين الذين كانوا يشغلون المكان بكثافة خمسة وستين شخصا في الكيلو متر المربع الواحد وفقا لإحصاء السكان الذي جرى عام 1945. وكانت زيادة السكان،

التي كانت الضغائن الدموية تحد منها فيما مضى، تخفف منها حتى عام 1955 هجرة سنوية إلى الجزائر الغربية، حيث كان رجال القبائل يشتغلون بالحصاد، ومنذ 1960 الهجرة إلى أوروبا، وبخاصة إلى ألمانيا، حيث كان أهل الريف يتكيفون سريعا مع البيئة الجديدة كعمال مهرة في مصانع السيارات.

إن الأراضي القبلية الخاصة ببني ورياغل، كما هي الحال بالنسبة إلى سائر القبائل الريفية، هي أراضي جذباء عقيمة، تثرئ في الجنوب في كتلة جبل حمام الوعة المتجهمة (وارتفاعها 1948 م)، هذه الكتلة التي تكتسي ذراها العليا بالثلوج في يناير وفبراير، وتنتهي في الشمال بذلك السهل الطمبي المفتوح الذي يحيط بخليج الحسيمة، والذي تنتصب في وسطه أجدير المدينة الرئيسية. هذا إذا كان في الإمكان إطلاق هذه التسمية على مجموعة مبعثرة من البيوت الواطة السقف المجمعة حول المنزل الكبير الذي ولد فيه عبد الكريم، ابن قاضي المدينة.

ويندر المطر في هذه المنطقة المتوسطة من الريف، فلا يزيد عن 315 ملم في السنة، مقابل 665 مم في تطوان و465 مم في ميلا، وهو يأتي بصورة مفاجئة، مؤديا إلى فيضانات عنيفة تحول النهرين العابرين في المنطقة، وادي نخور ووادي غيث، إلى سيلين جارفين.

ويفلح أهل الريف أرضهم ويزرعون مواسم من الخضروات والشعير في الخريف والشتاء ويدرسون حنطتهم في الصيف. وكانت دورة العمل لكل أسبوع في الأيام القديمة تنظم من قبل الفقيه، رئيس القرية، الذي يعلنها في الجامع كل جمعة، ممتنعا بكل حذر عن الإفصاح عن قدر كبير من المعلومات خشية إضعاف مركز الرهبة الذي يتمتع به بين قومه. ولقد عمد أهل الريف في سبيل زيادة مرتبهم الغذائي إلى زراعة الأشجار المثمرة والكروم وإلى تربية الدجاج والماعز. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد كانت أسر كثيرة تشارف المجاعة حوالي شهر يناير وفبراير. وكان الماء، المدخر بكل حرص، يخص صاحب الأرض التي يعبرها، لكن العرف، هذا القانون المتعارف عليه، كان يحفظ حقوق الماء على أية حال، وكان الغرض منه هو توزيع حصص عادلة من المياه على جميع الناس. وكان قسم كبير من العمل الزراعي ينجز بواسطة الجهد التعاوني. فقد كان بعض الملاكين يستخدمون الفقراء على أساس تقاسم المحصول، كما كان المزارعون الصغار يتشاركون في استثمار أراضيهم، فيتقاسمون الأدوات والحيوانات كما يتقاسمون المحاصيل بصورة متساوية. وكانت بعض الأعمال، حفر الآبار وتشديد الطواحين المائية مثلا، تسند إلى الحرفيين

المتجولين، كما كانت بعض الأشغال مقصورة بفعل العادة على المراتب الوراثة، وفي عدادها الحدادون، والمنادون الذين كانوا يعملون زمارين أيضا في الأعراس. وكان القبانون يعتبرون من المراتب الدنيا لأنهم كانوا، بما يعمدون إليه من تباه وإثارة الضوضاء بين الجماهير، يسيئون إلى التواضع، الأمر الذي كان يعتبر من قبيل الإسفاف. كان أفراد هذه الجماعة يوصمون "بالوقاحة"، وعلى الرغم من أن المجتمع الريفي كان ذا نزعة مرموقة إلى المساواة، فإن هذه الأقليات كانت موضع احتقار على حد تعبير هارت، من قبل الغالبية الذين كانوا يعتبرون أنفسهم "أكثر سواء" منهم. كان الإثم بحق التواضع جريمة عظمى في الحقيقة. ولقد وجدت أن أهل الريف ينفرون من الحديث عن منجزاتهم، وقد عاقني تحفظهم عن تحصيل عدد كبير من تلك التفاصيل التي يتحدث الغربيون بكل حرية عنها. ولقد اختبر آخرون المصاعب نفسها كما علمت. ومثال ذلك أن الصحفي الأمريكي بول سكوت موررو طرح على عبد الكريم علم 1925 سؤالا عن الشخص الذي "وضع خطة النصر في أنوال" لكن عبد الكريم لم يجب إلا بهذه الكلمات: "لقد كنت حاضرا هناك".

وتتألف الجماعة الريفية من مجموعات من المنازل المربعة والمستطيلة، المسطحة السقوف والشديدة التبعر، وكل منزل منها يتألف في الأغلب من غرفة واحدة، مبنية من الطين أو الحجر، وله باحة واسعة. وتحيط أجمة متراسة من الصبار بكل منزل على حدة، كما تحميه عصابة من الكلاب الجرباء التي تنبح أبدا بصورة مجنونة عند اقتراب الغرباء، وحين يدخل المرء من باب واطئ، فإنه يجد الداخل مبيضا وبالغ النظافة. ولقد كان كل منزل حتى عام 1922 يشكل حصنا قائما بذاته، تحميه "قلعة صغيرة انتقامية"، وهي برج مراقبة يشيد قريبا من الدار بحيث يستطيع صاحبها أن ينتظر فيه العدو ويطلق النار عليه حين يقترب من مسكنه. ولقد أزيلت هذه الأبراج بأمر من عبد الكريم.

ولقد أساء الغربيون فهم التنظيم الاجتماعي والسياسي في الريف حتى أوضحه دافيد هارت، الذي عاش في الريف سنوات عديدة وكان يتكلم لغة البربر بطلاقة. ولقد أخبرني هارت أن هذا التنظيم يقوم على أساس ما يسميه الأنثروبولوجيون الأنظمة "القطعية" للتنظيم الاجتماعي، هذا التنظيم الذي يشكل أهل الريف "أمثلة مثالية بصورة مطلقة" عنه. وكان فعل هذا التنظيم يسري وفقا للذرية المباشرة، أسرا وعشائر، ويحركه مبدأ "المعارضة" القطعية الذي كان يخلق توازنا في القوى، وهو ما يوضحه بول بوهانان في كتابه الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

ذلك إسقاط الفكرة القائلة أن أخي وأنا متضادان في حال انعدام أي شخص أبعد قرابة منا في حالة تضاد مع كلينا. وإنني أنضم إلى أخي ضد إخواني من أبي، كما أن إخواني من أبي ينضمون إلي وإلى إخواني الحقيقيين ضد جماعة من أعمامي. وأنهم لينضمون إلينا كذلك ضد أبناء إخوة جدي لأبي.

إن السلطة السياسية في مثل هذه البنى موجودة على جميع المستويات، ذلك أن كل رجل في الريف يشكل فردا مستقلا لم يكن يعترف بأية زعامة حتى عصر عبد الكريم. وكان الرجال الأشداء يسعون إلى "التوازن فيما بينهم"، وكان هناك سلسلة من الاغتيالات وإملاء الشواغر تساعدنا كما يلاحظ هارت، على فهم المصاعب التي لم يكن لعبد الكريم بد من مواجهتها.

ويبدأ تنظيم الريف الاجتماعي بالجماعة العائلية التي هي أوسع بما لا يقاس من قرينتها الغربية، لأن "الضلع" أو "الفرع" كما يسمى يتضمن الأب وزوجته أو زوجاته وذريته وإخوانه وزوجاتهم وذريتهم. إن العائلة جماعة من أبناء الأعمام. ويأتي فوق العائلة الذرية الأبوية بالإضافة إلى الناس الذين سمح لهم بالانضمام إلى الجماعة، لأنهم طردوا من قراهم الخاصة بدافع اليأس أو باعتبارهم مجرمين. وكان مثل هؤلاء الرجال الذين لا أرض لهم يقبلون في أحضان الجماعة ليسهموا في عملها ونشاطاتها، وكان يرخص لهم بالزواج فيها، لكنه ما كان يسمح لهم بالإسهام في إدارتها، أو في الصيرورة أعضاء في الأسر والعشائر، قبل أن تمر بضعة أجيال عليهم. وكان فريق من الذراري يشكل جماعة أخرى، وخمس جماعات من هذا الطراز عشيرة هي وحدة جغرافية بالأحرى منها وحدة تتألف من الأواصر الدموية. وكانت كل قبيلة تتألف من عدد من العشائر، وكانت الإدارة تتحقق بنظام من المجالس التمثيلية المترتبة في كل مرحلة من تراتب الحكم، من الذرية إلى العشيرة، أو "الخماسية" كما كانت تسمى، وصعودا حتى المجلس القبلي. وكان الرجال يصبحون أعضاء في المجالس بفعل عدد الذراري المسلحة التي يأمرونها، ويحتفظون بمنصبهم هذا حتى وفاتهم. هذه الوفاة التي كانت تقع في الأغلب بواسطة العنف. وكانت المجالس تتعقد عادة تحت شجرة وارفة في السوق، لكن المجلس يمكن أن ينعقد في أي مكان، إذ يلتئم أعضاؤه ويجلسون على الأرض في دائرة. ويصف البروفسور كون اجتماع أحد المجالس كما يلي:

يتوقف مكان الاجتماع على الموافقة المتبادلة، وتشغل كل خماسية قسما من الدائرة، ويتحدث وسيط إلى الأعضاء حتى يتم الاتفاق على موقف مشترك بخصوص موضوع الاجتماع. ولما يحصل الوسيط على التعليمات من جمهرة أنصاره، فإنه يقترب من مركز الدائرة، بينما يعتمد أعضاء المجلس الذين بقوا في الحلقة الخارجية إلى الإمساك ببنادهم، معبرين بذلك عن استعدادهم للدفاع عن المتحدث باسمهم إذا ما دخل في مشادة عنيفة. ويناقشون القضية المطروحة على بساط البحث وهم يتحدثون جميعا في وقت واحد أو كما يحلو لهم، ما دام ليس هناك وسيط رئيسي. وإذا ما طالب أحد الأعضاء عضوا آخر بالهدوء، فإن ذلك يشكل ذريعة وافية من أجل القتل. ويتفق وسطاء الخماسية عادة فيما بينهم، وسرعان ما تتطور المناقشة إلى البحث في عدد الخماسيات التي تؤيد هذا الرأي، وعدد الخماسيات التي تؤيد الرأي الآخر. ويستطيع وسيط إحدى الخماسيات أن يقود وسيط خماسية أخرى ويهمس في أذنه جانبا خارج الحلقة، ساعيا إلى رشوته بالانحياز إلى طريقته في التفكير. وإذا ما خضع الوسيط الآخر لهذا الأمر، فإنه يعود إلى مركز الحلقة ويجرب أن يبدل موقف الممثلين الآخرين لخماسيته. ويستمر التفاوض حتى يتم الوصول إلى قرار إجماعي أو حتى يبدأ أعضاء المجلس في القتال وينفض الاجتماع في معركة. ويشكل الخصوم في هذه الحال محالفات حربية، ويستمر القتال حتى ينهزم أحد الطرفين ويضطر إلى دفع تعويض إلى الطرف الآخر. وحتى إذا انفض المجلس بصورة سلمية، فإنه يتطلب أسبوعا على الأقل قبل أن ينتهي أعضاؤه إلى اتفاق.

كانت هذه المجالس تعالج قضايا القتل والسرقة والزنا. وكان القتلة يعاقبون بإحراق منازلهم وقطع أشجارهم، ويطالبون بأن يدفعوا فدية نقدية لأقرباء القتيل. لكن هارت وجد أن قبول الفدية من جانب العائلة المفجوعة يشكل ظاهرة نادرة لأنها كانت تفضل أن توسع القتل إلى ثار، كثيرا ما يتحول إلى حرب قبل أن تتمكن المجالس العليا من وضع حد له. ولقد كان الريف برمته مشربا، قبل عبد الكريم، بالضغائن الدموية لأن الاغتيالات الجديدة كانت توفر الفرصة من أجل الثأر للأحقاد القديمة. وكانت مؤسسة ريفية عامة الغرض منها التخفيف من الضغائن، تعمل في الأغلب على مضاعفتها. ذلك هو العار، أو كما يصفه كون فعل التضحية الاحتفالية بغرض إجبار شخص آخر على إتيان أمر ما بصورة مضادة لإرادته.

وفي الريف، كما يقول هارت، حتى مجيء عبد الكرم " كانت حالة الحرب قائمة بصورة متصلة بحيث يمكن القول بكل صدق، أنه إذا كان من عادة الأوربيين والأمريكيين أن يعلنوا الحرب، فإنه كان من عادة أهل الريف أيضا أن يعلنوا السلم". كانت الضغائن تتخذ نسبة عالية بحيث أن قرية واحدة، على سبيل المثال، لم تعرف السلام مطلقا حتى الاحتلال الاسباني، وكانت معظم الجماعات لا تعيش في سلام إلا في الصيف وحده، حين تكون مضطرة لجمع محاصيلها. ويورد هارت مثال إحدى الجماعات، وقد تحقق هو نفسه من قصتها بأحاديثه مع اثنين من المشتركين.

بدأ إطلاق النار بعد مقتل كلب كان يخص ضيف زعيم عبرسان، إذ رفض آيت القاسم أن يدفع الفدية النقدية (50 دورو) المطلوبة. وقتل اثنا عشر رجلا في المعركة في اليوم الأول، وانضم لكل طرف حلفاؤه وسرعان ما انتشرت الضغينة إلى سائر الجماعات المتلاحمة في ابن حارم وأيت عمار والحميد. وفي السنوات التالية قتل 40 رجلا من طرف واحد و 62 رجلا من الطرف الآخر، وذلك في المعارك المتلاحمة وحدها. ولا يشمل هذا الرقم الأعداد الأكبر لأولئك الذين لا قوا حتفهم في الكمائن أو تسمما بالزرنيخ الذي يبيعه التجار في الحسيمة. وقررت الجماعة المغلوبة أخيرا أن تغادر البلاد، ولم تخلف وراءها إلا الشيوخ والنساء والأطفال الذين التجأوا إلى جبل زرهون المقدس (حيث مدفن مولاي ادريس أول سلطان لمراكش)، بعدما باعوا كل ملكيتهم كيما يحاولون استئجار رجل ينتقم لموتاهم. ودرست خطة الثأر بكل عناية. ووضع العدل الشروط التالية: 10000 ريال (وهو التسمية الحديثة للدورو) إذا قتلت الرصاصة عدوا، 5000 ريال إذا جرحته، و 2500 ريال إذا أخطأت هدفها. وعلى أية حال، فقد كان الرجل المأجور يوجد عادة في الغداة مطروحا ورصاصة في رأسه، مصدرا على الأغلب براعة صبي صغير كان يختبئ خلف أجمة كثيفة.

وكي أقدم مزيدا من البيانات عن الحدود التي اعتادها قوم آيت ورياغل الذهب إليها كي يقضوا على أعدائهم، فقد أخبرني أحد الرواة أن أمراً أهان أباه ذات مرة، ولم يطق الأب الإهانة، وهو أمغار أو كبير ذائع الصيت في قريته الخاصة (آيت موسى والعمار من آيت علي). فوعد الأخماس⁽¹⁾ بجلاية جديدة ومبلغ كبير من المال إذا قضى على الشخص الذي أهانه. وخرج الأخماس لينجز المهمة الموكولة إليه من طرف سيده، لكن يبدو أنه غير فكره في موضع ما من سفره. إذ قرر أنه ليس ثمة

خصام بينه شخصيا وبين الطرف الآخر، بحيث لم يكن هناك سبب يدعو به إلى قتله. لكنه حين عاد إلى داره أعلن أنه قتل الرجل ورجع دون أن تكتشف هويته، طامعا في الحصول على مكافأة دسمة. وسرعان ما عرف الأمغار الحقيقة فسجن الأخماس مدة ثلاثة أيام دون طعام ولا شراب ثم أرسله إلى العمل بعدما قطع أذنيه.

ويقول هارت إن الضغائن كانت منتشرة بحيث أن القتال من بيت إلى بيت كان في جدول الأعمال دائما. وإذا ما استمرت عملية الأخذ بالثأر طويلا، فإن أعضاء الذراري والعشائر الأخرى كانوا يأخذون في نهاية الأمر بالتجمع حول هذا الطرف أو ذاك من المتقاتلين. وعادة مع ذلك الطرف الذي له صلة رحمية أقرب إليهم، أو الطرف الذي يرتبطون به بروابط حربية. ويستطرد هارت قائلا:

إذا ما وجد أعضاء أحد الألياف⁽²⁾ أو الأفخاذ أنفسهم بصورة تدريبية في الطرف الحاضر، فإن ممثليهم يقودون عادة ثورا إلى جامع قرية حيادية يرغبون في عونها، ويذبحه الفقيه على الأسكفة بحيث ينبجس دمه على العتبة. أما أن ثورا يضحي به كلما كان ذلك ممكنا فتلك واقعة ذات مغزى بحد ذاتها، لأن بني ورياغل كانوا فقراء جدا، ونباتيين حتى درجة بعيدة تحت ضغط الظروف، وكان الثور أغلى حيوان صالح للأكل يستطيعون شراءه. وكانت عملية التضحية تقوم بدور التهديد بالعار، ويضطر أعضاء الفريق الثاني للتحالف مع الفريق الأول، سواء أكانوا راغبين في هذا التحالف أم لا. وكان هذا النمط من التحالف يسمى ليفا، وبقدر ما كانت الضغينة تنمو كان الليف ينمو هو الآخر. وإذا بقيت الضغينة محصورة، فإن التحالف يتجدد عادة عند الانتهاء منها لكنها إذا انتشرت كفاية بحيث تشمل "خماسيات" كاملة، فإن الانحياز اللفي التقليدي للفخذين المتعارضين، أيت يوسف وأيت علي، يعود إلى ممارسة فعله من جديد. إن الاستخدام الحاذق لهذا النظام من التحالفات الذي طبقه عبد الكريم خلال القسم الأول من حربه كان أحد الأسباب الرئيسية في النجاح الذي حققه في توحيد الريف.

وكانت الضغائن محصورة حتى درجة واسعة ضمن كل قبيلة، هذه القبيلة التي تهجع وحدتها في الأوقات الطبيعية ولا تبرز إلا حين يلوح خطر القوى الخارجية، حين يمكن تنظيم القبيلة بأكملها إذن من أجل صد الغزاة. مثال ذلك أن محاربي بني ورياغل قد تكتلوا ليعملوا متضامين عام 1909، من أجل مقاومة روغي، بوحمارة، المطالب بالعرش المراكشي، الذي غزا الريف. ولقد هزموه في ساحة القتال وأوقفوا زحفه. لم تتقاتل قتالا واسعا فيما يبدو في الأزمان الحديثة. كانت كل قبيلة تعيش

في منطقتها الخاصة، منفصلة عن جيرانها ومنطوية على الريبة فيهم. وكان الحكم داخل كل قبيلة مائعا جدا، إذ كانت كل جماعة تعنى بشؤونها الخاصة، اللهم إلا حين تستدعي الضرورة تشكيل تحالفات محلية وقائية مقصورة عليها. كان ذلك نظاما من الديمقراطية البدائية، يجاور الفوضى، وقد قلبه عبد الكريم بصورة ثورية بقوة الإقناع وحدها.

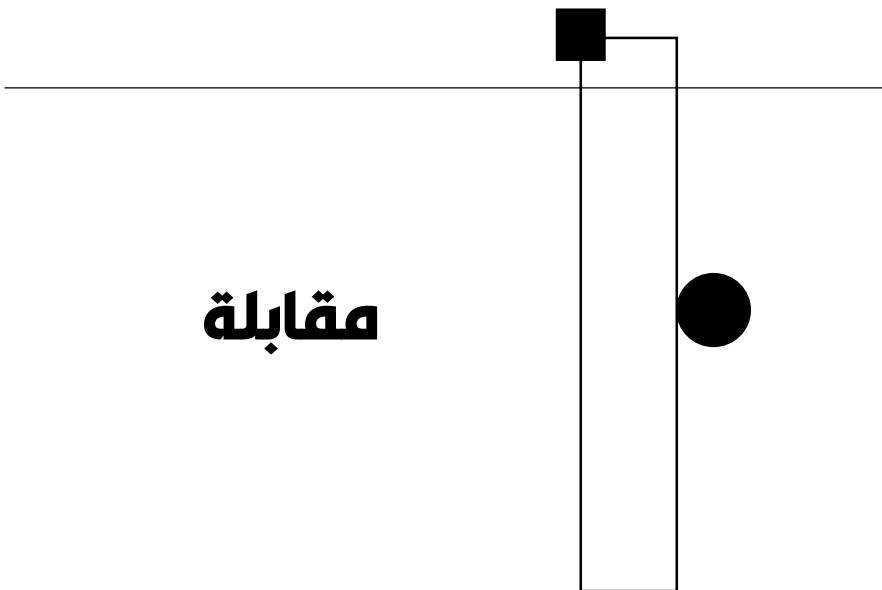
وكان مركز النساء في الريف أدنى كثيرا من الرجال، على الرغم من سفورهن. ويقول هارت، إن تباعد البيوت وسياج الصبار النامي حول كل بيت، قد كانا مقصودين في الأصل من أجل الحفاظ على نساء المنزل في عزلة وتحت سيطرة الرجال. كان العزل الجنسي شديد الحدة، بحيث لم تكن النساء يختلطن بالرجال في أية مناسبة على الإطلاق. وعلى الرغم من أن نقد العروس كان مطلوبا، فقد كان الشريكان ينتقيان وكان الزواج يتم حين يبلغ الصبي السادسة عشرة والفتاة الرابعة عشرة، ومهما يكن من شيء، فإن مقياسا وحيدا للأخلاق هو السائد؛ فالزوج، من دون الزوجة، إذا ضبط قرينته في حالة زنا فعلي، يملك الحق في قتل عشيقها، فيقطع أعضائه التناسلية ويحشوها فم الجثة. وإنه ليعفى من دفع الفدية. وكانت حالة الزوجة الضالة أفضل قليلا، فالزوج يملك الحق في قتلها أو تشويهها. ويورد كون حالة عمد الزوج الثائر فيها إلى دفع جمرات لاهبة في مهبل زوجته وأطلق سراحها. لكن الطلاق كان يعتبر في بعض الأحيان عقابا كافيا. وما كان يسمح للزوجة المطلقة بالزواج مجددا. ويورد هارت حالة وقعت أثناء الاحتلال الاسباني بين 1926 و 1956، حيث قتل أحد أفراد قبيلة بني ورياغل عشيق زوجته بفاس، ولقد اعتبر أن هذا العمل أمر طبعي من جانبه، ولم يحكم عليه إلا بالسجن لمدة ستة أشهر كعقوبة رمزية. ويقول هارت، إن جرائم القتل بسبب الزنا لا تبرح تحدث اليوم، لكن أقل من ذي قبل، وذلك بدافع الخوف من السلطات.

(1) الفلاح الذي يشتغل في أرضه لقاء خمس المحصول (المترجم)

(2) جمع ليف وهو نمط من التحالف في الريف



مقابلة





أحمد المرابط...

رجل من عبق التاريخ

هو الأستاذ أحمد أحمد المرابط

من مواليد سنة 1936 بزاوية سيدي يوسف قبيلة بني ورياغل في حضن جبال الريف،

تلقى تعليمه الأولي بالمسيد ودأب على حفظ القرآن،

قبل أن ينتقل إلى مدينة تطوان حيث تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بها،

وبعد حصوله على البكالوريا سنة 1957، اختار أن يستكمل دراسته العليا بمصر،

إسوة ببعض الطلبة الذين كانوا يرسلون في بعثات طلابية

لتعميق دراستهم في مجالات مختلفة.

اختار مصر لما كان لها من مكانة علمية في تلك الفترة في العالم العربي والإسلامي،

وأساسا ليقابل القائد التاريخي للمقاومة في الريف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي،

الذي حظي وما زال بتقدير ومحبة سكان الريف وعموم الشعب المغربي، الذي كان شديد

الإعجاب بشجاعته وشخصيته، ثم عاد إلى مدينة تطوان

ليدرس بكل ثانوياتها مادة الفلسفة.

في مصر عاش أجواء الجدل والنقاش السياسي والفكري حول طبيعة استقلال المغرب

وما عانته الحركة الوطنية من تصدعات وتطاحن حول الريادة وتدير الشأن العام.

ارتبط في مساره هذا بالأمير وأصبح واحدا من أبرز مرافقيه المقربين (إلى جانب

الهاشمي الطود، خالد مشبال، محمد شهبون...) مما أتاح له فرصا عديدة لمقابلة بعض

زعماء الحركة الوطنية المغربية والوقوف على حقيقة آرائهم، وتصوراتهم حول مستقبل

المغرب وطبيعة السلطة وصلاحيات مؤسسات الدولة وموقع الأحزاب بها.

في الحوار الذي أجرته معه مجلة "الربيع"، ببيت ابنته بالدار البيضاء حيث يقضي فترة

نقاها بعد العملية الجراحية التي خضع لها، يتناول الأستاذ أحمد المرابط الأوضاع في

منطقة الريف إبان الفترة الاستعمارية وفي مرحلة ما بعد الاستقلال ثم الوضع الحالي

وتداعيات الحراك الشعبي وما يعرفه من تطورات وأحداث وصولا إلى دور الفاعل

السياسي وما تتطلبه المرحلة.

أحمد حبشي

الأستاذ أحمد المرباط فترات من حقبة تاريخية عاشها **يستعيد** وعاش الفاعلين الأساسيين فيها، تفاعل مع مختلف الآراء وتبنى مواقف نقدية سعت إلى التحذير مما ستؤول إليه الأمور في شمال المغرب، نتيجة الإهمال الذي عانت منه منطقة الريف بكاملها، سواء في المرحلة الاستعمارية حيث الاستعمار الإسباني لم يعمل على وضع البنيات التحتية الأساسية والمؤسسات التنموية، على مستوى تشييد الطرق وخلق مؤسسات اقتصادية واجتماعية تؤهل المنطقة للاندماج في المسار العام للتحويلات التي يعرفها العالم على جميع المستويات، إسوة بما قام به الاستعمار الفرنسي في المناطق المغربية التي كان يحتلها. وضعية متدهورة لم يتم تدارك الاهتمام بها في فترة الاستقلال، بل على العكس من ذلك صار الحال من سيء إلى أسوء، وبقي الريف في خانة المغرب غير النافع، وقوبلت كل تطلعاته بالقمع الشديد والمعاملة القاسية، في الوقت الذي كانت المنطقة في أمس الحاجة إلى أهم البنيات التحتية من طرق ومستشفيات ومؤسسات تعليمية، حتى تسير الركب وتحظى بشيء من الإنصاف لما قدمه رجالها من تضحيات في الدفاع عن استقلال البلاد ووحدتها، وما تعرضت له من شراسة في الرد على فعلها النضالي القويم ووقوفها ضد كل مخططات الإبادة التي استهدفتها.

يقول الأستاذ أحمد عن واقع الحال في الفترة الاستعمارية: إن المرحلة اتسمت بالعنف والقسوة في معاملة الساكنة والمبالغة في إذلالها، ويستحضر ما تعرض له الصديق شعيب من تنكيل وإرغامه على قطع المسافة بين تطوان والحسيمة مشيا على الأقدام، كمثال على السلوك الهجين الذي اعتمده الاستعمار الإسباني في معاقبة كل المعارضين لوجوده في المنطقة والمقاومين لتسلطه. وما ميزها كذلك هو ضعف الأداء الحزبي في النهوض بوعي المواطنين، فالأحزاب التي كانت تنشط في المنطقة نوعان، الأحزاب المرتبطة بالاستعمار وأجهزته الاستخباراتية، والأحزاب الوطنية؛ حزب الإصلاح بزعامة عبد الخالق الطريس وحزب الوحدة يقوده المكي الناصري، وهذان الأخيران انشغلا أكثر بصراعاتهما الذاتية على الرغم من تطلعاتهما الوطنية، في إهمال واضح لما كان يجب القيام به على مستوى التأطير والرفع من

المستوى التعليمي للسكان لمواكبة التطورات المعرفية وتقوية القدرات الذاتية للمواطن وتصحيح سلوكه. وهي مسألة من أهم ما كان الأمير يخصصها بالاهتمام ويندد بتقاعس المستعمر في توفير البنيات التحتية المناسبة لتعميم التعليم ونشر المعرفة. يقول الأستاذ أحمد: إن الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في استقباله لسفير إسبانيا بمصر، عاتبه على التقصير الكبير الذي عرفته المنطقة على مستوى توفير البنيات المدرسية والتشجيع على التعليم، فما كان من السفير إلا أن وافق الأمير في ملاحظته، وطلب منه أن يتقدم بطلب في الموضوع للجنرال فرانكو لتدارك الأمر. فرد عليه الأمير باستهجان بأن ليس هو من يجب أن يقوم بذلك، بل عليه هو كمسؤول أن يتصل برئيسه لينبهه إلى فظاعة الأمر، ناثيا بنفسه أن يربط أي اتصال مع مجرم سعى إلى إبادة سكان الريف بقنابله الحارقة.

في تناوله للأوضاع بعد الاستقلال، أوضح الأستاذ أحمد أنه عانق لحظة الاستقلال ككل المواطنين بفرح عارم واستبشر خيرا في مستقبل البلاد، وقتها لم تكن لديه إمكانية تحليل ما كان يعتمل وما كان يلف الوضع من ملاسبات، واستفزه في لحظة من تطور الأحداث العنف الذي مارسه حزب الاستقلال على المناضلين الذين يخالفونه الرأي ونزوعه نحو بسط سيادة الرأي الواحد والحزب الوحيد، في نسخ ممسوخ لما كانت تعرفه البلدان العربية من استبداد وتفرد بالسلطة، كما ما هو الحال آنذاك في مصر وتونس، وفي سياق ذلك تمت تصفية العديد من المناضلين كعبد السلام الطود وإبراهيم الوزاني، والحاتمي وغيرهم سواء في شمال أو جنوب البلاد. هذا التوجه الظالم الموشوم بالاستبداد والتسلط، عزز موقع القصر وسهل مأموريته في إحكام سلطته وبسط نفوذه على جميع مؤسسات الدولة، ثم التخلص من معارضيه وتصفية رموز كان لها دورها البارز في استقلال البلاد والدفاع عن وحدتها، فالملك الحسن لم يكن يعتبر أيا كان في تدبيره للسلطة، فلا زعيم ولا فقيه غيره ولا كلمة تعلق فوق كلمته وهو وحده الجدير بالتقدير والاحترام.

يتذكر الأستاذ أحمد لقاءه بالمهدي بنبركة في ميدان التحرير بالقاهرة، والحوار الذي دار بينهما ساعتها، حول الأوضاع في البلاد وما آلت إليه الأمور، حيث تطابقت آراءهما حول الطابع الاستبدادي والإقصائي للسلطة الحاكمة، وإن كان في تقديره أن المهدي نفسه ارتكب أخطاء، كمناضل لا أحد يشك في وطنيته، والوطن يغفر أخطاء المناضلين الذين قدموا تضحيات في سبيل عزته وكرامته. لقد كان الرهان على الثورة الجزائرية في أن تلعب دورا إشعاعيا على مستوى المنطقة وعموم إفريقيا،

لكن مع الأسف استولى الجيش على خيرات البلاد وحرّم الشعب من حقه في التنمية وتطوير قدراته المعرفية والعملية.

في تحليل ملابسات هذا الوضع، يعرض الأستاذ أحمد لمرباط كثيرا من الوقائع والأحداث، التي استغلت بقصد الإساءة للمنطقة وساكنتها وبث التفرقة بين أبناء الوطن الواحد وزرع الفتنة فيما بينهم. فمنذ الهزائم المذلة التي تلقاها المستعمر الإسباني على يد أبطال الريف بإمكانياتهم البسيطة والتي تكاد تكون منعدمة، لم تتوقف الآلة الإعلامية والدعائية في التشكيك في وطنية الريفيين وقادتهم التاريخيين ونعتهم بالانفصالية والعداء للوطن. كل ذلك لأن المنطقة أفرزت مقاومين أشداء وزعيما وقائدا مغوارا استطاع بحنكته رص صفوف القبائل وتقوية وحدتها من أجل دحر المستعمر والحد من أطماعه. لقد تم في الماضي استغلال حركة "بوحمارة" الذي سخر من طرف الاستعمار الفرنسي للضغط على السلطان. وقد تعامل الفرنسيون معه كسلطة إذ وقعوا معه اتفاقية لاستغلال منجم «أفرا» للرصاص، بينما بدأت إسبانيا في استغلال منجم «ويكسان» للحديد. ودعموا حركته واستطاع السيطرة على مناطق عديدة وأخضع بعض القبائل لسلطته وكان هدفه الوصول إلى منطقة بني ورياغل لإحكام السيطرة على الريف. وقد اشتدت وتيرة الصدام بين الموالين للقصر والتابعين "البوحمارة" وكادت أن تقع الكارثة في لحظة من لحظات المواجهة، لولا الإعلان عن صلاة العصر، حيث قاموا جميعا لأداء الصلاة، وبعدها هدأوا من روعهم وعقدوا اجتماعا ترأسه الفقيه العزوزي والفقيه عبد الكريم الخطابي الذي اعتبر في كلمته الطرفين فاسدين، وأقنع الجميع بأن السلطان فاسد وبوحمارة أكثر فسادا، فالتفوا حوله وطاردوا أتباع "بوحمارة" وتمت هزيمتهم في معركة "بوسلامة" التي قتل فيه قائد جيش بوحمارة "إسمة" (الأسود) وهرب "بوحمارة" واعتقل وشهر به بوضعه في قفص والطواف به في مدينة فاس لإذلاله وأنصاره، وقد تدخلت بعض الهيئات الدبلوماسية المعتمدة إذاك لتخليصه من هذه الوضعية والاكتفاء بسجنه. هذه الوقائع ظلت مؤثرة في تعامل السلطات المتعاقبة مع منطقة الريف، على الرغم مما قام به القائد محمد أمزيان، الذي كان مرتبطا بالمخزن ورفض التفاوض مع المستعمر نيابة عن السلطان، وظل يقود المواجهات إلى أن توفي سنة 1912، وتركت جثته للتمثيل بها وقد تم عرضها على محمد بن عبد الكريم الخطابي لترهيبه، وتذكيره بالمصير الذي ينتظره إن هو فكر في المقاومة والتصدي لمخططاتهم الاستعمارية.

لقد كانت خلفية الخطابي في تعامله مع المستعمر، هو الإصلاح وتقوية إمكانيات البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وكان يندد بكل أساليبهم التي تكرس الغزو واستغلال خيرات البلاد. وقد تعرض بسبب ذلك إلى الاعتقال بتهمة التجسس لصالح ألمانيا،

وذلك بإيعاز من فرنسا التي كانت هي أيضا تترصد تحركاته، حيث اعتبرت دعمه للأتراك دعما للنازية وحلفائها.

في سنة 1920 تأكد الفقيه عبد الكريم الخطابي بأن الاستعمار الإسباني لا نية له في الإصلاح، فأعلن عليهم الحرب، فدبروا عملية قتله حيث تم تسميمه من طرف أحد عملائهم بتافريست. فخلفه ابنه محمد الذي واصل عمل والده واستطاع تأطير الساكنة وقيادة المقاومة، ورفض الانتقام من قاتل والده بعد أن اعتقل وقدم له ليعترف بجريمته. كانت أول معركة واجه فيها القوات الاستعمارية هي "ظهر آبران" بعدة لا تتعدى 25 بندقية، تمكن بها من إبادة جيش مدجج بالأسلحة معتمدا على إرادة المقاتلين الذين قاوموا بكل الوسائل المتاحة لديهم منها العصي والأسلحة البيضاء. هذه الهزيمة المذلة جعلت الفرنسيين يسخرون من الإسبان، وفي نفس الوقت يعبؤون السلطان ضد حركة الريف التي حاولوا إقناعه أنها انفصالية وضد سلطته، وأن الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، يطمع في بسط سلطته على كامل البلاد. حاول الأمير عن طريق بعض الشخصيات الاتصال بالسلطان ليؤكد له ولاءه للدولة شريطة عدم الإذعان لمخططات المستعمر. غير أن مبادرته لم تجد آدانا صاغية، وظل يعتبر انفصاليا وفي خانة الأعداء، وهو أمر لم يثني الأمير عن مواصلة الكفاح ومقاومة الوجود الاستعماري، فلو كان همه الانفصال لما رفع راية الكفاح ضد المستعمر الفرنسي، واكتفى فقط بترسيخ سلطته بأجدير وما ارتبط بها في منطقة الريف. كما أنه لم يقطع اتصالاته مع مساعدي السلطان، وتأسيس جمعية من العلماء لعلاج الجرحى الفرنسيين.

لما استسلم في تارجيسست طلبوا منه الانتقال إلى تازة لإبعاده عن المنطقة، ومنها أخذوه إلى فاس صحبة عائلته، ثم عزلوه في مكان بعيد عن أفراد أسرته. وهو في عزله سمع جنرالا من جنرالات الجزائر يسأل عنه، وعندما قابله اعترف له بقوته وصلابة عوده.

الأمير محمد بن عبد الكريم في حقيقة شخصيته، لم يكن يرغب في السلطة ولا جمع المال، بل كان همه الوحيد هو تحرير البلاد واستعادة استقلالها، وتطلعاته في التحرير لم تكن تنحصر في المغرب والمنطقة، بل سجل دعمه وتضامنه اللامشروط مع كل حركات التحرر في إفريقيا وآسيا والمناطق التي يحتلها الاستعمار، وهو بذلك أكد على توجهه التحرري الذي لا يحمل أي نزوع نحو الانفصال.

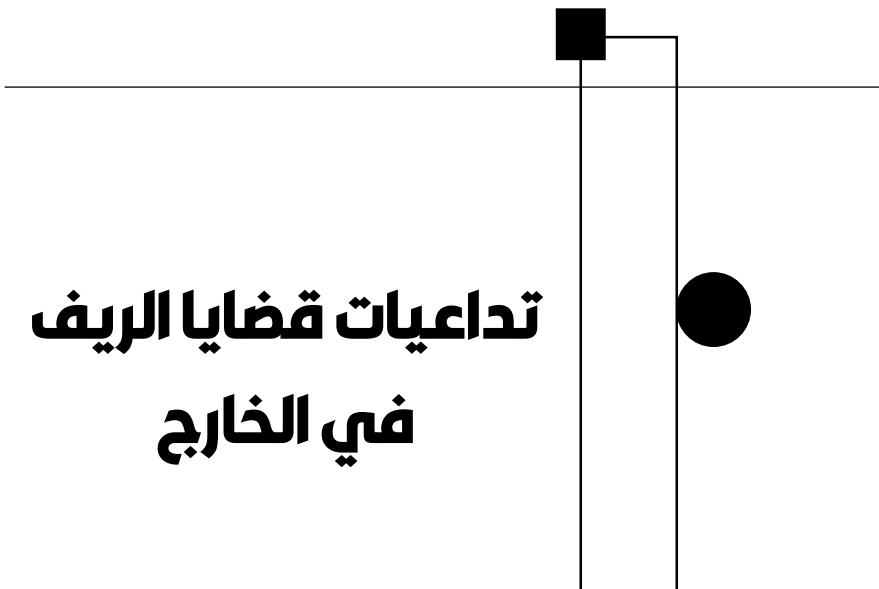
في تناوله للوضع الراهن وحالة الاحتقان التي تعرفها منطقة الريف، أكد الأستاذ أحمد المرابط، على أن الوضع العام في البلاد يدعو للقلق، وأن ردود فعل المواطنين مشروعة أمام انسداد الأفق، وأن الريف ليس معزولا على هذا المستوى، فما تعانيه كل المناطق من تهميش وتقصير في تقديم الخدمات وغياب المؤسسات الاجتماعية المؤهلة للاستجابة لحاجيات المواطنين، تجعل الجميع يعبر عن رفضه واحتجابه على استمرار الأوضاع وتفاقم واقع الحال. فأمام صمت السلطة وتعاصها في اتخاذ الإجراءات المناسبة لا يبقى أمام الساكنة إلا الرفع من وثيرة الاحتجاج. فكيف يموت الناس في العراء ويستمر الصمت؟ ربما أن الريف كان طليعا في سياق الاحتجاجات العامة، نظرا لقربه من أوروبا ووجود جالية شمالية كبيرة بها، جعل ساكنته السابقين إلى رفع راية التمرد وعدم الإذعان، لكن هذا لا يعني أي نزوع انفصالي أو رغبة في خلق كيان مستقل، وإن كانت هناك بعض التواءات السلبية التي تعكس مستوى رد الفعل الذي لا بد أن ينتج عنه بعض الحالات، كما لا أستبعد أن تكون مقصودة لإفساد حركة الاحتجاج وعزلها. فقد عاشرت الحركات، يقول الأستاذ أحمد، ووقفت على حقيقة مطالب السكان وهي في صلب المشاكل الذي يقر الجميع بتفاقمها وغياب الحلول العملية الكفيلة بخلق شروط العيش الكريم لكل المواطنين والمواطنات. فالمنطقة تعرضت لهجوم كيماوي أكثر من مرة، وسكانها يعانون من تبعات هذا القصف الهمجى الظالم.

في نهاية حديثه للمجلة أكد الأستاذ أحمد المرابط، على ضرورة وجود قوة سياسية شجاعة قادرة على توحيد الصفوف واقتراح مشاريع لصالح الشعب أولا، وتمنى أن يبرز صوت نبيل وشريف وصادق يشحن الهمم ويقوي العزائم، فالمغرب في حاجة إلى أكثر من ذلك، لأن البلاد مقبلة على كارثة في واقع الصمت وتجاهل معاناة المغاربة في مختلف المنطق. ويرى في نبيلة منيب الأمانة العامة للحزب الاشتراكي الموحد أحد الأصوات التي لها صدى طيب عند المواطنين والمواطنات، ويمكنها أن تساهم بفعالية في شحذ الهمم وتعزيز صفوف كل المناهضين للمقاربة القمعية، والتجاهل الذي لا يمكن إلا أن يزيد الوضع استفحالا.

أجرى الحوار وأعدّه للنشر:

■ أحمد حبشي

تداعيات قضايا الريف في الخارج





فرنسا وهاجس انطلاق حركة تحريرية بالمغرب

(1955)



محمد لخواجة

بين 11 يناير 44 و1951

حينما خرجت فرنسا من الحرب الثانية الكبرى، كانت تعاني من الهزال الشيء الكثير، ولا شك أن هذا الوضع كان يدفع بها إلى ألا تغرق في المسكنة وعندما قدمت لها وثيقة 11 يناير 1944، سعت بكل حزم لإسكات الوطنيين. الأمر الذي جعلهم يستدركون الموقف حتى لا يثيروا غضبها أكثر، فأصدروا " بيان 19 يناير " يعلنون فيه عدم اللجوء إلى العنف. فكان هذا التصريح ما ستبني عليه فرنسا علاقتها بالوطنيين، لأنها وجدتهم يوقعون لها شيكا على بياض، وفيما بعد سيوقعها هذا في أخطاء فادحة. فحين كانت تطلب من السلطان سنة 1951 توقيع الظهائر دون جدوى، رأت أن الوطنيين يشكلون عقبة في طريقها لعلاقتهم الوطيدة به، لا سيما منهم عناصر حزب الاستقلال الذين كانت لهم آنذ قوة عددية لا يستهان بها. فلجأت الى اعتقال ونفي

معظم أعضاء اللجنة التنفيذية، وفقدت بهذا المحاور الأساس بعدما أبان العديد من المنخرطين عن ميلهم إلى العمل المسلح في المدن الكبرى. وسيزداد أمر هذا التيار مع حوادث دجنبر 1952، حين اغتيال النقابي التونسي فرحات حشاد. ثم ارتفعت وتيرة بناء خلايا رجال الفداء بعد نفي محمد الخامس (20 غشت 1953).

عند هذا الحد، وجدت فرنسا نفسها أمام تنظيمات فدائية تخترق العديد من المدن الكبرى، فلبجأت إلى القمع والاعتقال، مما أرغم العديد من مقاومي البيضاء ومراكش والرباط... إلخ، على اللجوء إلى الشمال للإقامة بالقصر الكبير والعرائش وتطوان ثم الناظور، وسيدي إفني فيما بعد.

اللجوء إلى الشمال والخوف من التنظيم المسلح

ستدعي فرنسا بشيء من البلاهة سنة 1954 أن اللاجئين في هذه السنة اتفقوا على إشعال الثورة المسلحة بشمال إفريقيا إلى جانب الجزائريين، الأمر الذي لم يكن واردا قطعا. لأن مجيء بعض قادة الثورة الجزائرية إلى تطوان لم يتم إلا في يناير 1955. وكان من أجل إيجاد موقع لانزال السلاح بالريف الشرقي... ولا شك أن الادعاء السابق بني على ما كان يصرح به الخطابي بالقاهرة منذ نزوله بها سنة 1947، عند إنشاء لجنة تحرير شمال إفريقيا...

وبمجرد انطلاق ثورة الجزائر في 1 نونبر 1954، أصبح الهاجس لدى إدارة المستعمر هو انتقال العدوى إلى البلدين الجارين، رغم ثقتهما في هدوء البادية المغربية، وشبه يقينها أن الأحزاب المغربية لن تلجأ إلى السلاح. لكن ظهور بعض الأعمال الفدائية في المدن دفعها لليقظة خوفا من انتقال العدوى إلى البادية...

و لتجاوز هذا المعطى الجديد الذي يقض المضجع ، لجأت الإدارة الفرنسية سنة 1954 إلى تلطيف الأجواء، و فتح الحوار مع الأحزاب الوطنية ، و أطلقت سراح العديد من الزعماء كمحاولة للالتفاف حول أمرين:

- الدفع بالوطنيين إلى لجم ثوار المدن ومنع الاحتجاجات.
- البحث عن مخرج للاجئي الشمال بفتح قناة المفاوضات مع اسبانيا، ولو في شخص مقيمها العام "فالينو" بتطوان، الذي كان يكن العداء لفرنسا لعدم استشارتها لبلده عند نفي محمد الخامس.

إن إطلاق سراح الوطنيين كان مشروعا ذكيا. فكما قال "إدغار فور" إن أهم قادة حزب الاستقلال الذين كانوا كلهم تقريبا أوفياء لمحمد بن يوسف لا يمثلون تيار العنف، وكانوا يعاتبون على ليونتهم." (ص 141). وذكر في نفس الوقت بموقف أحد رجال الفداء (الإرهابي في نظره) حين كان يحاكم فقال "كان حزب الاستقلال يدعونا دائما الى الهدوء، وقد مللت ثرثرته فغادرته لأقوم بعمل آخر في الاطلس" (ص 141) ج ت³⁰⁹

(9 مارس 1955) أو البادية تتحرك

ستجد فرنسا نفسها مع نهاية 1954، وبداية 1955، في هذه الأجواء المحمومة، وقد انطلقت ثورة الجزائر، مع خلايا منتشرة ممتدة من مكناس الى الراشدية ومنها الى ورزازات، ومن خنيفرة في اتجاه بني ملال وجبال أزيلال، لكنها استطاعت شلها قبل انطلاقها المحدد في 9 مارس 1955. إذن ما كانت تتخوف منه أصبح أمرا واقعا: البادية تتحرك في اتجاه حمل السلاح.

فرنسا أمام نصرة القضية المغربية عالميا

إذا كانت فرنسا قد ارتاحت لمواقف الأحزاب، فقد أزعجها اختراق البادية لا سيما الجبال، وانتقال اللاجئين الى الشمال، وفي نفس الوقت الخوف من دعم الاسبان لمن يقوم بالعمل المسلح. أضف الى كل هذا مناصرة الأحزاب اليسارية الفرنسية للوطنيين مما سيؤجج الصراعات داخل البرلمان، ليزر الاختلاف وسط الحكومة والإقامة العامة حول بعض القضايا. هذا مع ازدياد نصرة القضية المغربية وسط الدول المشرقية التي استمالها الخطاب منذ نزوله بمصر. وأصبحت المواقف العالمية الداعمة للمغرب أمرا مقلقا، كما عبر عن ذلك الجنرال جورج سييلمان في قوله: "كانت الصحافة وإذاعات القاهرة ودمشق تصب يوميا أطنان الشتائم على فرنسا، كما كانت موسكو

³⁰⁹ هذا الكلام أطلق يوم وصول "بيوط" وزير الدفاع إلى بورد (8 أكتوبر) ونسمع دولانور يثبت الوجود يوم

تشجع القومية العربية التي وجدت أيضا السند في دول المعسكر الافرو-آسيوي، واتخذت أمريكا الجنوبية المعروفة بمناهضة الاستعمار موقفا مناوئا لفرنسا. وكان الامر كذلك بالنسبة للولايات المتحدة لنفس الأسباب". ويقول دولاتور: "كانت فرنسا تشتكي من وسائل الإعلام العربية والاسبانية بتطوان التي تعادي فرنسا، وتستعين بالصحافة اليسارية الفرنسية، الى جانب راديو تطوان ومعه راديو بودابست ...

وعن نفس الموضوع، يقول جورج سبيلمان: "... الاسبان كانوا يلعبون بشكل كبير ورقة الوطنية والعروبة، فكان الجنرال فالينو المندوب السامي بتطوان يكن لنا العداء منذ زمن بعيد، مما جعله يسمح لمرتكبي الجرائم والاغتيالات بالمنطقة الفرنسية بالدخول الى المناطق الاسبانية (...) ذهب البعض الى أن البلد المجاور يحتضن تكوينا متخصصا في الإرهاب والتخريب"

" الارهابيون " وانعكاس أثرهم على المستعمر

بالإضافة الى كل هذا كانت فرنسا ترى أن الإرهابيين طوروا وسائل عملهم و أثبتوا سيطرتهم على التجارة والصناعة التقليدية (الإضرابات واقفال المحلات التجارية) وهكذا بدأت العدوى تنتقل الى القرى، وحسب أحد العارفين بأمورها (الكولونيل كودينو) (...) فإن الجبال البربرية بدأت بدورها تعطي بعض المؤشرات التي لا تبشر بالخير " (ص 202).

كل هذه الأخبار والاحتمالات في الحقيقة لم تكن تشير من قريب أو من بعيد إلى الخلايا التي تأسست باكرا باكزناية منذ 1951 ومرشومة منذ 1952. عند اشتداد الخناق على فرنسا بادر إدغارفور رئيس الحكومة الى الإقرار بمعاونة فرنسا في المغرب (ص20)، وأكد أن: " تنحية محمد الخامس عن العرش (...) عمل إجرامي " (ص20) وأن وجود بنعرفة على العرش لن يكتب له الاستمرار (ص20).

الصراعات الفرنسية - الفرنسية صيف 1955:

اشتدت الصراعات طيلة النصف الثاني من يونيو 1955 بين رئيس الحكومة - الكلاوي - كرنفال - وسائر الأطراف المعنية بالقضية المغربية ... وأصبح الصراع يتجه حول موقع محمد الخامس ومستقبل بنعرفة، وإمكانية تكوين مجلس حفظة العرش ... الخ. وسيظهر عنصر جديد هو الإرهاب (الفرنسي) المضاد: يقول إدغار فور: " عرفت أيام العيد (الأضحى 30-31 يوليو) عنصرا إيجابيا ومشجعا، إذ بينما نتوقع حدوث إضرابات خطيرة خلالها، لم يقع شيء تقريبا، لأن الوطنيين كانوا متحكمين بزمam الجماهير ومشاركين في اللعبة، والذين كانوا وراء الفوضى التي حدثت بمراكش هم محركوا الإرهاب من الأوربيين." (ص101) في هذه الأثناء، كما يقول إدغار فور عن كرنفال "كان محقا لما ألح على وزير الدفاع الوطني"كونيغ" بأن يرسل فرقة عسكرية إضافية ... " (ص119). رفض هذا الأخير العرض، واقترح استقدام القوات المتواجدة بالمناطق الهادئة (ص120).

وفي هذا الباب، فرغم طمأنة الحزبيين لسير الأحداث بالمدن التي يسيطرون عليها كانوا يحذرون الفرنسيين مما يمكن أن يجري بالبوادي التي أبعد عنها مناضلوهم فهل كانوا بهذا يناورون أم يتعاونون³¹⁰؟ لأن الأحداث، فيما بعد ستظهر تخوف الفرنسيين من مواقف الحزبيين لا سيما عند اقتراب انطلاق العمل المسلح ... ورغم كل التخوفات، فإلى حدود غشت 1955 لم تكن مناطق الريف التي تحتلها فرنسا (اكزناية) و (مطالسة إلخ) تثير الشكوك كما كان الأمر نواحي أزرو، مريرت، خنيفرة، آيت إسحاق (ص147) بالإضافة الى تادلة، (طيلة شتاء وربيع 1955). وكان الفرنسيون يتخوفون، فيما بعد، من أن عدم ذهاب بنعرفة معناه اصطفاف الحزبيين الى جانب الداعين الى حمل السلاح

³¹⁰ علما أن صيف 1955 كان يشهد الاستعداد للكفاح المسلح والحزبيون كانوا على علم بذلك. فهل تسريهم للتحذير من المناطق الجبلية كان تكتيكا للعب دورين؟

1 - ج ت : جيش التحرير

محادثات إيكس - لبنان أو محاولة الالتفاف على المأزق الفرنسي

ونظرا لاحتدام التناقضات وخيبة أمل فرنسا بعد أن وجدت نفسها مكبلة من أكثر من جهة ، إلى جانب احتدام الثورة في الجزائر و انسداد أفقها في الأمم المتحدة، وانكسارات داخل المغرب، وانحياز العديد من الدول المشرقية الى جانب المطالب المغربية، وتناقضات داخلية، أضف الى هذا ميل رجال المال والشركات التي توقيف العجلة الاستعمارية منذ 1953 مادام أن الأهم قد فعل بإصدار القوانين لصالحها. أضف الى هذا بروز المؤشرات الدالة على قيام حركة مسلحة لا يعلم أحد حدودها، أمام هذا المشهد المرعب لفرنسا، وقد بدأت ذكرى 20 غشت تقترب، وخوفا مما سيصحبها من اضطرابات، كانت مبادرة اجتماع " إيكس - لبنان " (22 غشت - 28 منه).

ما الذي استخلصته رئاسة الحكومة الفرنسية من هذه المحادثات التي دعت إليها؟ موقف الملكية أغاضها. يقول إدغارفور: نحن من أقامها معتمدين في صمودنا على بنيات ثبت بلاها منذ أيام حرب الريف " (ص 160) الأصوات التي أبدت تعلقها بفرنسا في هذه المحادثات " لن تصمد في وجه راديو القاهرة (160) .

هذا الانكسار الفرنسي جعل الوطنيين المغاربة ومناصريهم من الفرنسيين يقولون "إن فرنسا في هذه المحادثات إنما تحاور نفسها. " (ص 160) أثلج صدر إدغارفور والفرنسيين معه في إيكس - لبنان الاستماع الى المداخلات البليغة بلغة راقية لعبد الرحيم بوعبيد. فعلق عليها " ألم يكن هذا أعظم ضمان لفرنسا من قبل أناس يعبرون جيدا عن عبقرية هذه اللغة "؟ (ص 161). وكانت المبادئ الأربعة المتفق عليها في إيكس لبنان (ص 163) هي:
- ذهاب بنعرفة؛

- تكوين مجلس حفظة العرش؛

- تكوين حكومة مغربية بعد عودة محمد الخامس؛

- قضية عودة محمد الخامس إلى فرنسا بقي تاريخ تحقيقها معلقا.

جاءت محادثات إيكس- لبيان في فترة حرجة ربما للتغطية على ما كان منتظرا من اضطرابات تعم البلاد. وقد شملت فقط منطقة خنيفرة وخريبكة دون انتقال العدوى إلى المدن الكبرى.

وضع بنعرفة للمساومة مع اقتراب انطلاق جيش التحرير

أصبح ذهاب بنعرفة مطلبا لإرضاء الوطنيين تارة، وأخرى هدية تقدم لإسبانيا لأنها لم تخبر بنفي محمد الخامس حتى لا تكون قاعدة خلفية³¹¹ لجيش التحرير مستقبلا... لكن "إميل روش"³¹² (كان له نفوذ على دولاتور) سيقول حوالي 23 شتنبر "إن ذهاب بنعرفة سيتأكد في نهاية الشهر (شتنبر) على أبعد تقرير وذلك لأنني لمحت في حديثي إلى ما يمكن أن يقع (هذه الأيام) من أخطار كبيرة يجب تجنبها." (ص175)

معنى هذا أن هجوم 2 أكتوبر 1955 واقع انطلاقا من مراسلة الكولونيل ليوم 23 شتنبر 1955 . وذهاب بنعرفة مرتبط أشد الارتباط بالالتفاف على الخطر القادم. ومراسلة "تويا" كانت تشير بدقة إلى انطلاق جيش التحرير يوم 2 أكتوبر عند منتصف الليل.

الأخطر من هذا هو الاستنتاج الذي وصل اليه إدغارفور حول اعتماد الفرنسيين على الأحزاب لاستبعاد خطر داهم، لأنه تكونت لديه قناعة كون الوطنيين لا يستبعد انحيازهم الى حملة السلاح إذا لم يغادر بنعرفة . كانت هناك وسيلة أخرى لمحاولة إفشال انطلاق جيش التحرير بمثلث الموت، تمثلت في زيارة مسؤول كبير من رئاسة الجمهورية، ومعه المقيم العام دولاتور، إلى بورد، اكنول، تيزي وسلي، يوم 26 شتنبر واعدة بالإصلاحات القادمة. وفي العمق كانت للإدارة الفرنسية شكوك حول تحرك المنطقة هذه ...

³¹¹ فرنسا لم تفهم ميكانيزم بناء جيش التحرير ، وهذا ما جعلها لا تستشعر جيدا انطلاقه بجند بنفس المناطق التي انطلق فيها.

³¹² إميل روش كانت له صلة بالوجود الفرنسي والأوساط المؤيدة لابن عرفة ولم يتأثر بمناوئي محمد V.

في هذا الإبان، يذكر أفضاض في مذكراته أنه كان صحبة عباس المساعدي ب " إيار إمجلا" ³¹³ يضعان اللمسات الأخيرة لانطلاق جيش التحرير، وقد شعرا بكثير من القلق جراء هذه الزيارة المفاجئة ظانين أن أمر انطلاق جيش التحرير قد انكشف، ولم يستعيدا هدوءهما إلا بعد معرفة ما جرى

عسكرة الحدود الشمالية الشرقية وانطلاق جيش التحرير

عندما كانت فرنسا تطلق إشاعة استقدام جماعات من المنطقة السلطانية إلى المنطقة الخلفية ، إشارة الى توافد اللاجئين هناك ، منذ 1954 مدعية و جود اتفاق مع الجزائريين لقيام عمل مسلح ، أصبحت الحدود الممتدة من وزان الى كرسيف ، وإلى بركان، تشهد مراكزها العسكرية الفرنسية تكديس القوات خوفا من أن تصبح هذه الجهات أو بعضها مسرحا لانطلاق حرب تحريرية ...و بعد تسريب الوشاة لأخبار غير مؤكدة عن إمكانية وجود مناطق معينة في اكزناية و الأطلس المتوسط لها ارتباط بالأخبار المسربة حول تحركات مشبوهة و مقلقة ، وضعت حراسة مشددة في الطرقات ، كلف بها الأهالي . ومما يؤكد استشعار ضباط الشؤون الأهلية للخطر استفادهم للمقدمين والشيخوخ والمخبرين المنبئين في الدواوير، إلى جانب الاتصالات التي كان يجريها رجال الكوم بالأهالي. وقد ثبت يوما قبل الهجوم أن "تادي" حاكم بورد كان يسأل عما يروج من كون بعض الأفراد لهم علاقة بالأمر بواسطة رسائل توصل بها³¹⁴، بالإضافة إلى استدعائه للشيخ محمد مسعود اعبابو، ولم يفارقه إلا عند اقتراب منتصف الليل، لتبادل الرأي حول ما يشاع ... وما أدل على كثرة الوشاة المنبئين في القبيلة هو حيازة الفقيه عبد العزيز، قائد هجوم بورد، لمذكرة القبطان بعد فراره من منزله، وجدها مليئة بصور المخبرين، وإلى جانبها تعليقات "تادي". وقد سلمها إلى عباس بطلب منه، دون كشف محتواها. وضاع بهذا سيل من الأسرار.

³¹³ مكان أعد لتدريب مقاتلي ج ت.

³¹⁴ رواية عبد الله نعلي نباهو (زعراط).

ويبدو أن العمل السري الرزين الذي اتبعته الخلايا فوت الفرصة على المخبرين جيدا في منطقة بورد، بخلاف تيزي وسلي التي تسرب فيها الخبر عشية 1 أكتوبر، مما دفع الحاكم الفرنسي إلى تجميع الأسلحة والعسكريين وأبنائهم في المغارات التي أعدت بـ "ثاوريث إعدويان".

وفي مرموشة أخبر المستعدون للهجوم ساعة قبل الانطلاقة (12 ليلا) أن مجندا اسمه "كريميت" أخبر الرائد "بو" بوجود كومانندو يستعد للهجوم المسلح، لكن هذا الأخير لم يحمل الخبر محمل الجد. أما قائد الكومانندو لياس ميمون أوعقا، فحث، حينئذ المقاتلين على تنفيذ الهجوم، لأن أي تراجع سيجعل القوات الفرنسية تلقي عليهم القبض قبل طلوع الفجر ...

تنفيذ الهجوم على الساعة الواحدة صباحا من يوم 2 أكتوبر وموقف الفرنسيين

تبين جيدا سوء تقدير وتدبير القوات الفرنسية من خلال تصريحات المقيم العام بوايي دولاتور حيث سيعتقد أن الكوماندوهات التي هاجمت بورد، تيزي وسلي، بركين، مرموشة، أقبلت من المنطقة الخليفة، مع الادعاء أن المنفذين في غالييتهم لا ينتمون إلى هذه المناطق. ولم يتحدث عن غنائم بورد من الأسلحة وذخيرتها، وكذا تيزي وسلي، وبوزينب، باستثناء ما لحق خزائهم من إخلاء من الأسلحة في مرموشة، حيث غنم المقاتلون 400 قطعة وذخيرة معتبرة، تبجح دولاتور بأن معظمها استرد في الأيام التالية. طبعاً لاستردادها تم اللجوء إلى كل أنواع التهيب والترغيب، فشككت قوة من بعض القبائل للإغارة على تلك التي شاركت في الهجوم، كما أقدمت على تخصيص مكافأة مالية (حوالي 25000 ف) لكل من يعيد قطعة سلاح. ولم ينج من كل السلاح المستولى عليه إلا حوالي 120 بندقية حملها المقاتلون معهم حينما انتقلوا إلى الريف.

ارتباك القوات الفرنسية؟

لم تستعد لرد الهجومات المحددة في منتصف الليل، لأنها لم تستحضر أن تكون بهذه الضخامة، وإلا لكانت سلحت أكبر عدد من جنودها وأقامت حراسة مشددة على المناطق الحساسة.

لم تكن تستحضر أن المقاتلين وضعوا نصب أعينهم الاستيلاء على السلاح المخزون لديها. ولا شك أنها استحضرت اضطرابات "وادي زم" التي لم تعتمد على السلاح، أو لم تكن تخطط لحرب. وكما يمكن أنها استحضرت هجومات فاتح نونبر في الجزائر التي اعتمدت هجوما محدودا على بعض المراكز بواسطة أسلحة الصيد أو أسلحة تقليدية لم يكن لها مفعول كبير في الأيام الأولى.

لا شك أن وصول خبر هجوم في نقط بعيدة بها عسكري أو اثنان بنواحي تيزي وسلي حوالي السادسة من مساء 1 أكتوبر، أي قبل موعد الهجوم الرسمي بحوالي 7 ساعات، جعل الفرنسيين يعتقدون أن الأمر انتهى عند هذا الحد.

لا ننسى اضطراب الرؤيا لدى الإقامة العامة بالرباط. فبواحي دولاتور كان طيلة ما تبقى من صيف 1955، وفي الخريف في صراع على أكثر من واجهة (حكومة باريس، المعمرون ومعهم بعض القواد التقليديين والعسكريين) وكانت الرغبة لديه أكيدة في مغادرة المغرب، وتسليم المفاتيح لمقيم عام جديد. وذلك ما كان يوم 11 نونبر...

الارتباك يزداد لدى الفرنسيين

بعد تنفيذ بعض الهجومات

بعد نجاح الهجوم على بورد، وتيزي وسلي، ومرموشة، وبركين، غابت الرؤيا لدى القوات الفرنسية، وسارعت إلى إرسال قوات إضافية لفك الحصار واسترداد الهيبة شمال تازة لمراقبة الحدود مع اسبانيا. وبدأت لها بارقة أمل في مرموشة بعد أن هدأت الأوضاع بها في اليوم الثاني، وعلمها باتجاه المقاتلين إلى الريف.

في اليوم الخامس من أكتوبر ذهب دولاتور إلى مرموشة، ومنها انتقل إلى "مثلث الموت" يوم 6 أكتوبر لمعاينة الأوضاع، والإعداد لزيارة وزير الدفاع الجنرال "بيوط"

الذي عين يوم 7 أكتوبر، ووصل إلى بورد يوم 8 منه... هذه الزيارة النوعية أثبتت ما يلي:

- الضربة التي تلقتها فرنسا في "مثلث الموت" لم تكن منتظرة بتاتا بهذا الحجم.
- الضرورة تستدعي مراقبة كل المسافة الحدودية لوقف تسرب الكوماندوهات كما اعتقدت خطأ

- إرسال قوة جديدة تتكون من 10 آلاف عسكري، وعتاد حربي كبير، بالإضافة إلى سرب من الطائرات المقاتلة لضرب الأهداف المشبوهة....

- محاولة تأليب الإسبان ضد اللاجئين ومقاتلي ج.ت. فذكرهم دولاتور بأن المغاربة سيطالبون بالأراضي الممتدة إلى حدود السنغال (علال الفاسي)، وفيما بعد سيطالبون بالأندلس. وتساءل: ألهذا الغرض سقط العديد من الجنود الإسبان على الأراضي المغربية؟ ... ليقر في الأخير أن ما يقوم به الجنرال "فالينو" المقيم العام الإسباني ما هو إلا جريمة ضد الحضارة الغربية. وللتغطية على الفشل الفرنسي بادر إلى الإسراع بتنصيب مجلس حفظة العرش يوم 17 أكتوبر 55 والذي حل يوم 3 نونبر. وفي نفس الوقت عاد محمد الخامس إلى فرنسا ...

بوادر الهزيمة الفرنسية

وللتخفيف من وطأة الفشل أصرد دولاتور على قبول استقالته ليقول في الأخير: "أنهيت تثبيت وجودنا العسكري، فقد تم احتلال بوزينب³¹⁵ من جديد لتأكيد إرادتنا على أننا باقون (!!)" (مفارقة: هم باقون لكنه يفر من المغرب!). إن الوضع العسكري متحكم منه... أما الوضع السياسي فليس على أحسن ما يرام، وأنا غير مسؤول على هذا الجانب" (ص 188)

وقد تناسى دولاتور أن قوات جيش التحرير كانت تلجأ إلى حرب العصابات ولا يهتمها قطعاً احتلال منطقة دون أخرى بقدر ما يهتمها إلحاق الضربات بالعدو أينما وجد ثم الانسحاب لمباغتته في مناطق أخرى. وهكذا أصبحت القوات الفرنسية

³¹⁵ هذا الكلام أطلق يوم وصول "بيوط" وزير الدفاع إلى بورد (8 أكتوبر) ونسمع دولاتور يثبت الوجود يوم

03 نونبر!...

تعيش جحيما في مثلث الموت، فنهارا تقطع مسافات على الطرقات المألوفة وتتلقى هنا وهناك الضربات المباغتة، وتعود في المساء إلى القواعد التي أقامتها.

الحرب السيكلوجية أو اللجوء إلى الإعلام الكاذب (قضية الصحافي الإنجليزي) في الأسبوع الثاني من بدء الهجوم ادعت الجهات الفرنسية أن صحافيا إنجليزيا زار مناطق الثوار واطلع على شؤونهم، فلاحظ أنهم قد تراجعوا، وفقدوا السلاح والذخيرة. وأشاع أنه بعد أيام قليلة ستستعيد القوات الفرنسية كل السيطرة على مثلث الموت. لقد كان لهذا التقرير المتحدث عنه أثر سيء، بحيث استغل حتى من لدن جماعة تطوان للنيل من قدرات ج ت بجمال الريف. لكن الأيام أثبتت العكس تماما. وهنا أشير بأن الأمر في نظري، لم يكن يتعدى بعض المراسلات سربها أحدهم، ربما عن حسن نية طلبا لمزيد من السلاح، ونظرا لوجود المخبرين بكثافة بالمنطقة الخلفية القريبة من الجبهة الحربية في كل من ميضار وغيره، فلا شك أنه قد تسرب إليهم شيء من هذه الرسائل، مما أثار حفيظة المساعد، فتدخل بحزم كبير سواء لدى صاحب المراسلات أو لدى جماعة تطوان التي هلت للأمر (بدون شك نكاية في ج ت ورئيسه عباس).

وبعد خمود ما روجه الإنجليزي اعتمادا على الرسائل السابقة، تبين للقوات الفرنسية ضرورة اللجوء إلى وسائل أخرى، فركزت على ما يلي:

- تسريب مخبرين من أبناء اكزناية لاختراق إخوانهم مقاتلي ج ت وعائلاتهم المهاجرة....

- إيصال رسائل وعود لمن سيتصلون بهم. (ضبط امرأة³¹⁶ تحمل رسالة تم إعدامها).

- برز مخبرون كثر، أصبح أحدهم ينقل إلى تازة لمقابلة الجنرال رئيس الناحية لخطورة المعلومات التي كان يتوفر عليها (كانت تخصص لنقله طائرة مروحية).

- تسريب أحد أعوان السلطة (شيخ) حيث يتموقع بعض أعضاء ج ت بأشت عمارث للإيقاع بهم. ويذكر مصطفى بن عثمان في استجواب له أنه لاحظ أن الشيخ هذا كان يحضر إلى جانبه ابنه الضابط في الجيش الفرنسي، ولمس لديهما ميلا لإثارة التفرقة بين رجال التحرير.

ونظرا لخطورة الموقف على الفرنسيين، أصبحوا يلاحقون أعوانهم من المدنيين، ويحصون أنفاسهم لا سيما عند التحاق بعضهم بالثوار أو ملاحظة الاتصال بهم.

³¹⁶ كانت تعمل لصالح القوات الاستعمارية. وهي من أحد المداشر القريبة من اجدير

وامتدت شكوكهم إلى القائد بوطاهر³¹⁷ الذي أبدى ذات مرة انتقاده لصولات التهامي لكلاوي. كما لمسوا فتوره منذ مقتل قائد مزكتام على يد عناصر ج ت. لا ننسى المذكرة التي توصل بها حكام المكاتب الأهلية التي شهدت انطلاق ج ت التي تحث على استدعاء كل الأفراد الذين انضموا إلى القوات الفرنسية من قبل أو مازالوا سواء منهم المتقاعدون أو المحالون على التقاعد لأسباب صحية أو الذين هم في إجازة مرضية أو سنوية. بدون شك أرادت من هذا الاستدعاء أن تستعين بهم في حربها، وفي نفس الوقت لتتجنب التحاقهم بصفوف ج ت، لما لاحظت أن بعضهم من يقود المعارك أو يشارك فيها.

ولا ننسى في هذا الباب أن الفرنسيين ظلوا يستعينون برجال الكوم في مجال الاستخبار عن دواويرهم وساكنتها كوسيلة ناجعة لمعرفة أدق التفاصيل حول الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

تعميم الحرب التحريرية في الريف الجنوبي

قبل انصرام ثلاثة أسابيع عن انطلاق ج ت كانت المعارك تشتعل على طول الخط الممتد من شرق مرنيسة إلى صاكا، ومنها إلى نواحي بركان. ووجدت القوات الاستعمارية نفسها أمام جبهة ممتدة على طول عشرات الكيلومترات يصعب احتواؤها. وبدأت تطلب النجدة، حيث أرغمت الميتروبول على سحب 64000 عسكري من ألمانيا وإرسالها إلى شمال إفريقيا مما أثار حفيظة الحلفاء.

ومما سيرفع من درجة تخوفات القوات الفرنسية هو الهروب المكثف للمجندين وسطها بأسلحتهم لدعم صفوف ج ت. ولاحتواء هذا النزيف لجأت إلى ما يلي:

نقل فرقة القناصة المغاربة التي كانت متمركزة ببورد (المعنية بهروب أفرادها) إلى مدينة ديجون الفرنسية عبر قصر السوق....

حاولت تسريب بعض الجنود وسط ج ت لزرع التفرقة، والتجسس، وفي نفس الوقت لخلق البلبلة والتناحر بينهم وبين القيادات الميدانية.

³¹⁷ مواقف القائد بوطاهر أردتها إلى ما يمكن أن تلقاه من نصح من ربيبه الملازم محمد المذبوح بالإضافة إلى اشتداد الخناق عليه بعد أن أصبح الشيخ محمد مسعود اعبابو بدعم من أطراف القبيلة يرغب في تولي القيادة، بالإضافة إلى السرجان عبد السلام الذهبي الذي كان بدوره يرغب في المنصب.

خلق نواة للمخابرات العسكرية على صعيد مثلث الموت، تحت إشراف القبطان بلعربي الذي كان يتواجد بمركز "ثيمشيتوين". ولا حاجة إلى ذكر من كان يساعده في الميدان من عسكري أبناء القبيلة...

المحاولات الفرنسية لإيقاف الشرخ وفشل هجومها الربيعي

لما اشتد الخناق على القوات الفرنسية في الميدان العسكري والسياسي لاسيما عند فشلها في استبعاد طرح القضية المغربية في الأمم المتحدة، لجأت إلى المناورات المختلفة وهي تستعد للحل العسكري كآخر خيار أو أنجعه، وهكذا: عملت على إجراء المفاوضات مع قيادة ج ت بواسطة الضابط الكزنائي محمد المذبوح. ورغم اللقاءات بين الطرفين كما يذكر الضابط "جانتالو" في مذكراته فلا شيء تسرب عنها، كما لم تعط أية نتيجة.

تكوين كوماندو لاغتيال عباس المساعدي والصنهاجي برئاسة المدعو إدريس بن البشير الكزنائي، وكان فقيها، وينتمي إلى أحد دواوير تيزي وسلي ولم يتسرب شيء عن هذه المحاولة إلى أن كانت أحداث 59/58 التي حوكم خلالها إدريس بن البشير، وكان من بين التهم الموجهة إليه إعدادة لكوماندو قصد اغتيال القائد عباس بإيعاز من القوات الفرنسية.

وقبل هذا كانت القوات الفرنسية قد أعدت مكافأة تساوي مليون فرنك لمن يغتال عباس والصنهاجي، سرب خبرها نواحي كرسيف...

لجأت فرنسا كذلك إلى إرسال ضابط صف إلى منطقة بوسكور لزراعة هذه الجهة ومحاولة تفجير ج ت بها³¹⁸. ولما لم يفلح هذا العسكري بادر إلى محاولة إيذاء عباس (أو اغتياله) لكن هذا الأخير تفتن إلى ألامعيبه، فصمم على إعداد كمين له ولأطراف أخرى لكن تسارع الأحداث لم يسمح لعباس بتنفيذ خطته. ونجا العسكري المسمى الشاف الطيبي من زمر، وأصبح فيما بعد ممن علا شأنهم حين الالتحاق بالرباط...

³¹⁸ بعد فشل خطتها في الشمال محاولة هجومها الكاسح في ربيع 1956

خطة هجوم الربيع مستوحاة من خطة ربيع 1926 في الريف

رغم كل هذه المحاولات، فقد انتقلت فرق ج ت لضرب الخونة والمستعمر بالأطلس المتوسط الذي لم تنجح فيه هجومات 2 أكتوبر. ووصل بعضهم إلى فاس حيث تسنى لهم تهديد أحمد مكواري الاستقلالي في عقر داره لما تكلأ في تقديم مساعدة لمصاب بجروح من ج ت.

وعند ارتفاع منسوب تحركات ج ت، وجدت فرنسا نفسها أمام خطة لا مناص منها، هي تلك التي قدت على غرار ما قامت به القوات الفرنسية في شتاء 1926/1925 للقضاء على ثورة الريف... وتجلت هذه الأخيرة فيما يلي:

استدراج اسبانيا إلى جانبها لطردهم اللاجئين من المنطقة الخلفية.
الاستعانة بقبائل مستقدمة من الريف وجنوبها (غياثة، البرانس، تسول... إلخ) لجمع المتطوعين (بارتيزا) قصد الإغارة على اكزناية ومعها مطالسة وآيت بويحيى.
إعداد ثلاث فيالق لقيادة هذا الهجوم "بتايناست" و"ظهر السوق" وآخر "بمسون" ولما تلقت ضربة قاسية في معركة بين الصفوف (28 يناير 1956) تخلت عن الهجوم الربيعي وتبخرت مخططاتها، كما اعتذرت اسبانيا لقيادة ج ت عما بدر منها. واضطرت فرنسا إلى التعجيل بتوقيع وثيقة الاستقلال يوم 2 مارس 1956.





من وهران إلى أمستردام

تاريخ الهجرة في الريف المعاصر



ميمون أزيذا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية- مكناس

تهدف هذه المقالة إلى إبراز أهمية الهجرة في تاريخ الريف المعاصر. فقد شكلت هذه الظاهرة عنصرا أساسيا أثر بشكل بارز في علاقة الإنسان الريفي بمجاليه، كما ساهمت في التخفيف من عبء الضغط السكاني و توفير الموارد الغذائية الكافية في منطقة جبلية عرفت بشح مواردها. وبفضل موارد الهجرة تمكنت ساكنة الريف من مواجهة المجاعات التي كانت تجتاح المنطقة بشكل دوري، فتأتي على الأخضر واليابس. كما تمكنت كذلك من الاحتكاك بالعالم الخارجي وبالاقتصاد الأوروبي. فممسلسل الهجرة إلى أوروبا، الذي انطلق في بداية الستينات، لم يكن وليد الصدفة وإنما كان امتدادا لتيارات هجرية سابقة إلى مناطق مغربية أخرى أكثر خصوبة، من أجل الاشتغال في القطاع الفلاحي. فعلى سبيل المثال في القرن الثامن عشر هاجر الريفيون إلى طنجة والعرائش، تحت قيادة القائد أحمد الريفي، للمشاركة إلى جانب السلطان مولاي إسماعيل في محاولة تحرير السواحل المغربية. كما استوطنت مجموعات أخرى منطقة مولاي إدريس زرهون، وفاس.

حراك الريف... ريف الحراك

وابتداء من منتصف القرن التاسع عشر انطلقت الهجرة الموسمية إلى الجارة الجزائر للاشتغال عند المعمرين الفرنسيين، وقد وصل عدد المهاجرين في أواخر القرن التاسع عشر ما يزيد عن 20.000 عامل. وسيرتفع هذا العدد تدريجيا، ليصل إلى حوالي 80.000 خلال سنوات الجفاف والمجاعات التي اجتاحت الريف في الأربعينات من القرن الماضي. هذا إضافة إلى مشاركة أزيد من 70.000 من الجنود الريفيين في الحرب الأهلية الإسبانية بجانب الجنرال فرانكو فيما بين 1936 و1939.

فإلى جانب البحث في جذور ظاهرة الهجرة في الريف واستعراض أهم مراحلها خلال القرنين الماضيين، سنحاول إبراز المساهمة البارزة لهذه الظاهرة في مسلسل التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي كان الريف مسرحا لها خلال الفترة المذكورة.

الهجرة إلى الجزائر وأهميتها

1- مصادر متنوعة

تعد الهجرة الموسمية إلى الجزائر أهم حركة هجرية شهدتها منطقة الريف ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر كما تبين ذلك مقالة للرحالة الفرنسي هنري دوفيري وهي أول وأقدم وثيقة تتحدث عن هذه الظاهرة انطلاقا من ميناء مليلية حيث يقول فيها :

« في 18 نوفمبر من سنة 1852، استولى الإسبان على مركب للسلع في ملكية القلعين، كان متوجها إلى وهران، حيث يذهب عمال هذه القبيلة لكراء سواعدهم لدى المعمرين خلال فترات الحصاد ».

كما أن موليراس قد اهتم بدوره بإقامة الريفين بوهران في نهاية القرن التاسع عشر، حيث استقى منهم معلومات مهمة ضمنها كتابه "المغرب المجهول". فيقول علي سبيل المثال: «يمكن أن نراهم (ويقصد سكان الريف) كل سنة بعمالتنا خلال موسم الحصاد أو جني الكروم... وكانت وهران تستقبل أكثر من 20.000 مهاجر قادمين للبحث عن العمل لدى المعمرين»¹.

ونظرا لأهمية هذه الهجرة فقد أولتها الكتابات الاستعمارية الفرنسية والإسبانية، عناية خاصة². وتعتبر جريدة "تلغراف الريف"، الصادرة بمدينة مليلية، انطلاقا من بداية

القرن العشرين، أفضل مصدر يسمح لنا بتتبع هذه الظاهرة. وتنعكس هذه مقالات هذه الجريدة الأهمية التي كانت توليها السلطات الاستعمارية الإسبانية لهذه التحركات السكانية نحو البلد المجاور. وهكذا فقد نشرت تلغراف الريف في ملحقها باللغة العربية ليوم الأحد 9 ماي 1909 مقالا تحت عنوان: الأرياف إلى وهرانⁱⁱⁱ:

"يوم الخميس الجاري تواردت علينا حمول من أهل الريف فامتألت المساحات الفسيحة وتراكت الزقاق ووقع الإزدحام على الركوب في الباخرة التي تنقلهم لوهران، حيث ينتشرون على الأصقاع الجزائرية ويتفرقون على الأماكن ليستأجروا على الحصاد ولا يولون راجعين إلا بعد أن يستحصل كل واحد منهم على خمسة عشر دورو فرنسية فأقل يدخل بها على أهله يشككي وهن عظامه وما لقيه من التعب والمشقة ومنهم من يرجع عليه العدة المذكورة دينها استسلفها أيام سفره بين كرا المراكب وماكوله ومشروبه وهو ولم يجد من يستأجره على تلك الخدمة بعد أن جال في الأقطار وطاف أطراف البلاد وقطع الفيافي والقفار.

هذا غاية أعمالهم التي ترشدتهم إليها عقولهم المتلاشية ولو قاموا مباشرة استغلال بقاعهم والاشتغال باستثمار الكنوز الموجودة في هذه الأرض لتكفهم عن هذه الأسفار الشاقة وتورهم ثروة عظيمة لأجابوا بكلمة واحدة ولسان واحد لا لا حتى يظن الظان أن لهم دينا أو شرعا ينهاتهم عن ذلك فتبا لها من عقول ونوايا فاسدة أحصي عدد من ركب أمس أمسه فوجد ألفان بعد أن رجع من المركب عدد لم يحملهم لضيقه".

ونقرأ في عدد يوم الخميس 13 ماي 1909 مقالا آخر بعنوان : المروك يقطع الشعوب الهائلة إلى وهران.

«كان فيما نعلمه أن أهل الريف الذين تذهب منهم كل عام ألوف لأجل الخدمة في وهران، لا يتجسرون أن يسافروا برا بل يقصدون أولا مليلية ومنها يركبون، وأما الآن فيذهبون أفواجا أفواجا يقطعون مجاوز كبدانة وبني يزناسن القبيلتين اللتين كانت فيما مضى لا يكاد أن يفوت في جوهما الطير. وذلك بفضل عساكر إسبانيا الموجودة في رأس الما إلى ملوية ثم عساكر فرنسا»^{iv}.

ولاستكمال نظرتنا عن هذه المادة المصدرة لابد من الإشارة إلى أهمية بعض الإحصائيات الإسبانية التي تخص فترة الأربعينات والخمسينات، وهي مرحلة حاسمة من تاريخ هذه الهجرة^v

كما تشكل الأشعار (إزران) مصدرا آخر لا يقل أهمية عن المصادر السالفة الذكر. وقد قام الباحثان الفرنسيان لويس جوستنار وبيارني بجمع وترجمة بعضها^{vi}.

أسباب الهجرة

تظافرت عوامل عديدة أدت بجزء كبير من ساكنة الريف إلى الهجرة خارج المنطقة بحثا عن العمل وعن موارد جديدة للعيش، ويمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلي:

- الظروف الطبيعية القاسية واختلال التوازن بين الموارد الطبيعية والنمو الديمغرافي.

تزداد الحاجة خلال هذه الفترات الصعبة من سنوات الجفاف والمجاعات والأوبئة إلى الهجرة والبحث عن مصادر أخرى للعيش، ولدينا أمثلة كثيرة على هذه المجاعات في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي دفعت بعدد كبير من شباب تلك المرحلة إلى الانخراط في الجيش الاسباني وإلى المشاركة في الحرب الأهلية الاسبانية . وأكبر هذه المجاعات كانت في سنوات الأربعينات، المعروفة محليا بسنوات الجوع، حيث هاجر السكان بشكل مكثف إلى الجزائر وإلى مناطق أخرى من المغرب مثل طنجة، تطوان، فاس و مكناس. و هذا ما يصفه، بشكل دقيق ومعبّر، الأديب محمد شكري في روايته "الخبز الحافي".

- ضعف الاستعمار الاسباني من الناحية الاقتصادية: نود التأكيد على أن الاستعمار الاسباني لم يحقق أية تنمية اقتصادية من شأنها توفير الشغل محليا، باستثناء مناجم الريف التي امتصت نسبة مهمة من اليد العاملة المحلية ، فإن الاستعمار الاسباني لم يؤثر بشكل كبير على البنيات الاقتصادية التي ظلت تقليدية.

- دور ميناء مليلية: لعبت مدينة مليلية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دورا أساسيا في تسهيل عملية تنقل المهاجرين الريفيين، حيث أن القباطل المجاورة كانت تسافر عبر الباخرة التي كانت تربط مباشرة ميناء مليلية بوهران.

ارتفاع الأجور في الجزائر بالمقارنة مع ما كانت عليه الأجور في الريف، إضافة إلى توفر فرص العمل في مجموعة من القطاعات الاقتصادية وخاصة في الفلاحة.

- الاستعمار: ساهم الاستعمار في خلق دينامية اقتصادية جديدة أدت إلى تحرك السكان وانطلاق عمليات الهجرة، وذلك عبر تأثيره على البنيات الاقتصادية والاجتماعية، ومن خلال خلقه لظروف جديدة تساعد على السفر والمتمثلة أساسا في تطوير وسائل النقل، وفتح طرق جديدة تربط بين المغرب والجزائر. وعملية التنقل كانت غالبا ما تتم بشكل جماعي تبعا لمسالك معروفة لدى المهاجرين تؤدي بهم مباشرة إلى الجزائر بعد عبور واد ملوية والمرور بمدينة وجدة.

حجم الهجرة وانعكاساتها

وفيما يتعلق بالأهمية العددية للمهاجرين، فإنه يصعب التأكد من صحة الأرقام التي تقدمها بعض المصادر وخاصة في المرحلة الأولى من تاريخ هذه الهجرة، حيث إن أغلب المصادر التي سبق ذكرها، تقدم أرقاما تقديرية. فمثلا مولييراس تحدث عن 20.000 مهاجر سنويا في نهاية القرن التاسع عشر في منطقة وهران وحدها، في حين أن الجمعية الجغرافية لمدرید قدرت عددهم بـ 50.000 عام 1904. وفي يقدم "لويس ميليو"^{vii} أرقاما قريبة من الحقيقة بالنسبة الثلاثينات من القرن العشرين للعاشرين إلى الجزائر عبر نقط الحدود البرية، ويقدرهم بنحو 36.000. لكن هذه الإحصائيات لا تشمل المهاجرين عن طريق البحر انطلاقا من ميناء مليلية، ولا عدد العمال الذين يسافرون مشيا على الأقدام ويدخلون إلى الجزائر عبر مسالك معروفة وغير مراقبة من طرف السلطات الفرنسية. وحسب إحصائيات السلطات الفرنسية بالجزائر لعام 1911 فقد بلغ عدد المغاربة بولاية وهران 19.442، ويتمركزون بالخصوص في المناطق التالية: دائرة وهران: 8.114 ؛ مدينة وهران: 3227 ؛ معسكر: 1581؛ دائرة مستغانم 828 ؛ مدينة مستغانم: 56 ؛ دائرة سدي بلعباس: 2392 ؛ مدينة سدي بلعباس: 639 ؛ دائرة تلمسان: 4455.^{viii}

عرفت هذه الهجرة، التي دامت أكثر من قرن من الزمن، تحولات مهمة على المستوى العددي حيث ارتفع عدد المهاجرين، بشكل ملموس، انطلاقا من سنوات الأربعينات من القرن العشرين. وأصبح المهاجرون يستقرون بشكل دائم في الجزائر. وبشكل تدريجي شملت الهجرة جميع القبائل، مع وجود اختلافات فيما بينها. بحيث

إن بعض القبائل كانت ترسل حوالي ربع سكانها، مثل قبيلة بني بوفروور التي هاجر 19 في المائة من سكانها في عام 1932 ، 16 في المائة منها من تمسمان وبني وليشك و كبدانة^{ix}. و الملاحظ أن الهجرة كانت قوية بين سكان قبائل المناطق الشمالية التي تتميز بكثافة التعمير والتي ترتبط بقدوم الاستقرار، والنظام الاقتصادي القائم على الزراعة. لذلك فإن أي نقص في التساقطات كان يحدث خلا بين المؤهلات الطبيعية وبين الفائض البشري الذي كان يشكل فعلا حملا ثقيلًا على الموارد المحلية المتواضعة. وينطبق هذا على أغلب قبائل الريف مثل بني ورياعل، كزناية، تمسمان، بني توزين، بني سعيد، وقلعية. وبالنسبة لهذه الأخيرة، فإن قربها من ميناء مليلية لعب دورا أساسيا في ارتفاع نسبة الهجرة بها. أما سكان الأجزاء الجنوبية السهبية، فعلى الرغم من فقرهم، فإنهم لم يشاركوا في البداية إلا بشكل ضعيف في هذه الهجرة، وذلك لتعاطيهم لتربية الماشية. لكن هذه الوضعية ستتغير ابتداء من الثلاثينات حيث بدأت قبائل مطالسة، بني بويحيي وأولاد ستوت تنخرط بدورها في مسلسل هذه الهجرة. ففي عام 1932 غادرها 2820 مهاجرا أي ما يمثل 11,33% من مجموع المهاجرين الذين دخلو إلى الجزائر عبر الحافلة^x.

ولإبراز أهمية هذه الهجرة يجب التذكير كذلك بأنه إبان استقلال الجزائر عام 1962 كان عدد المغاربة المقيمين بها يفوق 300.000 شخص. لكن مع استقلال هذا البلد واندلاع حرب الرمال في أكتوبر 1963، بدأ المغاربة يغادرون الجزائر تدريجيا، سواء من أجل العودة إلى موطنهم الأصلي أو الهجرة إلى أوروبا. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أنه في 1975 قامت السلطات الجزائرية تعسفا بطرد 45.000 ألف عائلة مغربية، كانت تقيم بشكل قانوني في الجزائر.

ساهمت هذه الحركة الهجرية في احتكاك سكان منطقة الريف بالمجتمع الجزائري و بالمعمرين الفرنسيين من جهة أخرى. وأتاح لهم فرصة تعلم تقنيات جديدة في ميادين عديدة، وخاصة فيما يتعلق بتقنيات العمل الزراعي. وعبر الحركة الهجرية وصلتنا تأثيرات عديدة من ذلك البلد، تخص الموسيقى والغناء والرقص واللباس والمطبخ واللغة. قد اكتسب هؤلاء العمال تجربة كبيرة في الهجرة والبحث عن العمل، مما ساعدهم على تغيير الوجهة مباشرة بعد استنفاد مسلسل الهجرة إلى الجزائر. وتوقفت هذه الهجرة بشكل نهائي مع استقلال الجزائر، وفي نفس الوقت بدأ البحث عن آفاق جديدة للهجرة. ففي دراسة ميدانية قام بها الباحث الفرنسي "ريمون بوسار" في نهاية السبعينات، توصل من خلالها إلى نتيجة مفادها أن القبائل التي كانت

معروفة بالهجرة إلى الجزائر هي نفسها التي قدمت نسبة كبيرة من المهاجرين إلى أوروبا^{xii}.

1- من وهران إلى أمستردام

بمجرد ما توقفت الهجرة إلى البلد المجاور، انطلقت حركة هجرية جديدة اتجاه أوروبا، مستفيدة من مجموعة من الاتفاقيات التي وقعها المغرب مع بعض دول أوروبا الغربية، من أجل استقبال العمال المغاربة^{xii}. فبعد استقلال الجزائر هاجرت نسبة كبيرة من الريفيين المقيمين في هذا البلد، إلى أوروبا وخاصة إلى جنوب فرنسا وإلى بلجيكا وهولندا. وتمركز عدد كبير منهم في مدينة بروكسيل، وما زالوا يعرفون إلى يومنا هذا باسم "مغاربة وهران".

وفي ظرف وجيز، برز الريف كقطب رئيسي للهجرة المغربية نحو أوروبا، وأصبحت الهجرة منذ ذلك الوقت تشكل معطى بنويا في المجتمع الريفي. هذا مع العلم أن الريف لم ينخرط في مسلسل الهجرة إلى أوروبا إلا في الستينات، في حين أن مناطق مثل سوس مثلا، بدأت فيها الهجرة إلى أوروبا خلال الفترة أخرى من المغرب الاستعمارية. وعلى عكس باقي مناطق المغرب التي هاجر أبناؤها إلى فرنسا، توجه الريفيون إلى ألمانيا وبلجيكا وهولندا. ومنذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا ما زالت هذه الدول تمارس جاذبية خاصة على الريفيين.

وفي السبعينات عرفت الهجرة الريفية تحولات عميقة تمثلت في انتقالها من هجرة ذكورية ومؤقتة إلى هجرة عائلية ودائمة. لكن هذه التحولات لم تؤثر كثيرا في العلاقات المتينة التي تربط المهاجرون بمواطنهم الأصلية. والدليل على ذلك ترددهم المستمر على مناطقهم الأصلية، وتحويلهم لمخدراتهم نحو المغرب.

2- التطور العددي للمهاجرين

عرفت مساهمة الريف في الهجرة المغربية إلى أوروبا، تطورا ملحوظا منذ انطلاق هذا المسلسل في بداية الستينات. ففي عام 1966 بلغ عدد المغاربة بأوروبا 85.000، وأكثر من 29.000 منهم ينتمون إلى إقليمي الناظور والحسيمة، وهو ما يمثل 35% في المائة من العدد الإجمالي للمهاجرين. وفي عام 1971 قدرت السلطات المحلية عدد المهاجرين من إقليم الناظور بحوالي 32.000 مهاجرا، ثم ارتفع عددهم ليصل 40.000 عام 1974، و158.800 سنة 1992، مقابل 63.712^{xiii}. وهو ما يمثل 20% و 14% على التوالي من مجموع سكان الإقليمين بالحسيمة

الديموغرافي في خضم هذه الظروف عرف الريف أكبر عملية لتحويل الفائض الترابية خارج الحدود الوطنية في تاريخ القرن الماضي، علما بأن مساهمة الوحدات الريفية في تغذية التيارات الهجروية تبقى جد متباينة. لكن اللافت للانتباه هو أنه إذا كان حجم الجالية المغربية بأوروبا سجل تزايدا مهما في أغلب دول الاتحاد الأوروبي، بدرجات متفاوتة طبعاً، فإن أكبر نسبة للتزايد تلاحظ في إسبانيا. فقد صار البلد الذي كان إلى عهد قريب مصدراً للمهاجرين، القبلة الرئيسية لغالبية هذا أقاليم الشمال عموماً، وللريفيين على وجه الخصوص، انطلاقاً من أواسط مهاجري سبيل المثال أصبحت إسبانيا تستقطب أكثر من 30% من الثمانينيات. فعلى الثانية بعد هولندا (36.9%)، بعدما مهاجري إقليم الحسيمة، محتلة بذلك المرتبة تحتضن أكبر عدد من مهاجري كانت فرنسا إلى غاية أواخر الثمانينيات هي التي الحسيمة^{xiv}.

انعكاسات الهجرة على الريف

من الطبيعي أن يكون للحضور الوازن للريفيين في المهجر تأثير على مناطقهم الأصلية نتيجة للعلاقات الوطيدة التي تظل تربطهم بها، على اعتبار أن الهجرة لا تحدث قطيعة معها، وتتجسد هذه العلاقة في الزيارة المتكررة لوطنهم والتحويلات المالية المهمة التي يقومون بها.

وفيما يلي باختصار بعض الانعكاسات الإيجابية للهجرة في إقليمي الناظور والحسيمة.

– أهمية عائدات الهجرة : تشكل عائدات الهجرة أهم مصدر من مصادر العيش، إذ أن مداخيلها تفوق ما توفره الفلاحة مثلاً. يأتي إقليم الناظور على رأس الأقاليم المغربية من حيث ودائع المهاجرين. هذه الودائع تشكل دعماً حقيقياً للاقتصاد المحلي، بحيث تساهم في الرفع من مداخيل الأسر، وفي تحسين الحركة التجارية والخدماتية. وبفضل هذه العائدات يعد إقليم الناظور المركز المالي الثالث على المستوى الوطني. وهذه المكانة ناتجة عن التحويلات المالية للمهاجرين الذين ينتمون لهذه المنطقة. لكن، مع الأسف، هذه الأموال لا يتم إعادة توزيعها على شكل قروض في عين المكان، بل تحول إلى مناطق أخرى من المغرب. فحسب معطيات بنك المغرب لسنة 2000-2001 يأتي إقليم الناظور على رأس الأقاليم المغربية على

الصعيد الوطني من حيث ودائع المهاجرين، اذ بلغت 4365039 مليون درهم ممثلة بذلك 65% (19%)، مقابل 749641 مليون درهم بالنسبة لإقليم الحسيمة، من مجموع الودائع البنكية، و78% من مجموع ودائع البنك الشعبي محليا. وتشكل هذه الموارد دعما حقيقيا للاقتصاد المحلي، إنها الركيزة الأساسية التي تحافظ على التوازنات السوسيواقتصادية، والعامل المحوري في التحولات الاجتماعية والمجالية التي يشهدها الريف. فقد كان لموارد الهجرة بالغ الأثر على المجال والمجتمع. إذ كانت وراء إحداث تغييرات هيكلية على مستواها المعيشي، وتحسين وتغيير نمط استهلاكها كميا ونوعيا^{xv}. وقد ترتب عن الميل القوي لاستثمارات المهاجرين في السكن إحداث تغييرات مهمة في وجه البوادي الريفية والرفع من وثيرة تمدينها. وقد صوحب هذا النمو بتوسع مفاجئ للعديد من المراكز الحضرية، التي كانت مصنفة إلى عهد قريب ضمن المجالات القروية، كإمزورن وبنو بوعياش بإقليم الحسيمة. بإقليم الناظور وأزغنغان وبنو أنصار و الدريوش وميضار، وبن طيب، وزايو.

2 تطور الوضع الاعتباري للمهاجر

عند بداية مسلسل الهجرة إلى أوروبا كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي في الريف مترديا للغاية. ويرجع ذلك لأسباب عديدة، نذكر منها:

- توقف حركة الهجرة إلى الجزائر، التي كانت تعتبر بمثابة مورد اقتصادي مهم، إذ أن الاستعمار الإسباني لم يخلف بنات تحتية مهمة يمكن الإرث الاستعماري اعتمادها للنهوض الاقتصادي.

- سياسة التهميش التي عانت منها المنطقة بعد الاستقلال، بحيث أن الدولة المغربية لم تقم بأي استثمار مهم من أجل النهوض الاقتصادي بالمنطقة.

وإزاء هذا الوضع، لم يكن أمام أبناء المنطقة من خيار إلا الهجرة. واتضح، منذ البداية، أن الهجرة إلى أوروبا بإمكانها أن تساهم في تحسين الوضع المادي للعائلات الفقيرة. وتدرجيا أصبحت للمهاجر وضعية اجتماعية متميزة داخل قبيلته، بفضل التحويلات المالية المهمة التي يقوم بها، و الهدايا التي يستقدمها معه أثناء عودته إلى البلاد. وهذا ما تعكسه مجموعة من الأغاني والأشعار التي تتحدث عن المهاجر "ألمان" وهو عائد إلى قريته يحمل حقائب مليئة بالهدايا^{xvi}.

واستحضر هنا، على سبيل المثال، المقولة الشعبية التالية: "ورغريغ وروحنغ ألمان" ومعناها « لم أواصل دراستي ولا تمكنت من الهجرة إلى ألمانيا ». فهذه العبارة كانت شائعة في الستينات، يعبر من خلالها الإنسان البسيط الذي لم يسعفه

الحظ في متابعة الدراسة، والالتحاق بالوظيفة العمومية. ولم يتمكن كذلك من الهجرة إلى أوروبا حتى يصبح "غنيا"^{xviii}، ولعل هذا مثال واضح على أهمية الهجرة والمكانة الاعتبارية المحترمة للمهاجر ولعائلته، وبالتالي فالهجرة وسيلة للخروج من دائرة الفقر، مثلها في ذلك مثل الدراسة وربما أفضل منها. وقد كان المهاجر يعتبر من الفئات الاجتماعية الميسورة أو المتوسطة، والدليل على ذلك أن التلاميذ - أبناء المهاجرين - لم يكن لهم الحق في الاستفادة من وجبات المطعم المدرسي. كانت هذه الوجبات تقدم مجاناً لأبناء الفئات المعوزة، في حين يتم إقصاء أبناء المهاجرين على اعتبار أنهم يتوفرون على دخل قار. ولم تسمح الهجرة إلى الخارج بتحسين مدا خيل الأسر فقط وإنما أيضاً في تغيير "الحدود" الاجتماعية التي كانت تفصل بين فئات المجتمع، بعبارة أخرى أحدثت الهجرة انقلاباً حقيقياً في التراتبية الاجتماعية في الريف، إذ أصبحت عائلات المهاجرين تحتل المراتب الأولى في ترتيب الهرم الاجتماعي على المستوى المحلي، بينما تحتل أسر غير المهاجرين المراتب الدنيا^{xviii}.



Henri Duveyrier (1887), « La dernière inconnue du littoral de la Méditerranée : le Rif », *Bulletin de la Géographie Historique et Descriptive*, Paris, pp. 127-150.

A. Moulières (1895), *Le Maroc inconnu : exploration du Rif*, Imprimerie Fouque. Oran, p. 36.

ونذكر على سبيل المثال المصادر التالية :

- Marquis de Segonzac, (1911), *Voyages au Maroc* (1899-1901), Paris.
- Fernando Pérez, *Tabajadores rifeños en Argelia*, Conferencia dada en la Academia de Interventores en Tetuán en el curso de 1948-1948.
- Commandant Reynaud, « une famille, un village, un marché dans le Rif. » in *Le Musée Social* n° 10 octobre 1910, Arthur Rousseau Editeur, Paris. pp 317-348.
- Jean du Taillis (1923), *Le nouveau Maroc, suivi d'un voyage au Rif*. Paris.

والمقصود هو هجرة الريفيين إلى وهران. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أننا أوردنا هذه النصوص في نسختها الأصلية رغم احتوائها على مجموعة من الأخطاء اللغوية.

Telegrama del Rif, Jueves 13 de Mayo de 1909, Sección árabe.

يتعلق الأمر بالحواليات الإحصائية لمنطقة الحماية الإسبانية
Zona del Protectorado español (1942-1955)

Louis Justinard , "Notes sur la littérature et la poésie chez les Rifains" *Bulletin de l'Enseignement Public au Maroc*, n° spécial, janvier 1926.

- M. Biarnay, « Notes sur les chants populaires rifains » in les *Archives Berbères*, publication du Comité d'Etudes Berbères de Rabat (1915-1916), pp.26-43, cite le cas d'une femme abandonnée sans ressources par son mari qui est parti pour l'Algérie se voit, au retour de celui-ci, séquestrée, maltraitée, accusée d'infidélité ; elle crie son indignation :

Lorsqu'il partit pour la perverse Algérie, à qui me confia-t-il ?

Il me mit une faucille dans la main et me dit : Moissonne le blé !

Lorsqu'il revint, me rapportant seulement un vêtement grossier,

Il me dit : Maintenant voile-toi !

L. Milliot, " L'exode saisonnier des Rifains vers l'Algérie", in *Bulletin Économique du Maroc 1933-1934*

Société de Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran, 1913, pp. 349-365.

حسب الأرقام التي وردت في مقالة لويس ميليو، م. س.
علال الزروالي، "الهجرة من الريف الشرقي نحو الجزائر"، حوليات الريف، العدد الثاني، 1999،
الحسيمة، ص 130.

R. Bossard, (1978), *Un espace de migration. Les travailleurs du Rif oriental (Province de Nador) et l'Europe*, Thèse de 3^{ème} cycle, Université de Montpellier.

فقامت دول أوروبا الغربية بتوقيع اتفاقيات اليد العاملة مع المغرب لضمان استقبالها لليد العاملة الرخيصة:
فرنسا (1963)، ألمانيا (1963)، بلجيكا (1964)، هولندا (1969).

لزعر امحمد، هجرة الريفيين الحديثة الى اسبانيا وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية
والمجالية: حالة إقليم الحسيمة، دكتوراه الدولة في الجغرافيا-كلية الآداب و العلوم الإنسانية،

2004 - فاس

م.ن

م.ن

في نظرنا هذا التراث الشعبي الزاخر يحتاج إلى عناية خاصة، ونتمنى أن يبادر الباحثون
المتخصصون في هذا الميدان إلى جمع ودراسة هذا التراث الشعري الذي يشكل جزءا من ذاكرة
الريف.

كان المهاجر يصنف ضمن الأغنياء في قبيلته ، ويترتب عن هذه المكانة الاجتماعية مجموعة من
الواجبات تجاه أفراد العائلة والقبيلة.

بوظيلب الحسين، "الهجرة الدولية في الريف الشرقي وانعكاساتها"، مجلة أسيناك، عدد مزدوج

2010، 5-4



كيف يمكن تسوية ملف حرب الريف الكيماوية 1926-1921



محمد الفيلزوري

بعد مرور أكثر من تسعة عقود عن الجرائم الدولية التي ارتكبتها إسبانيا وحلفائها في حق المحاربين والمدنيين في الريف؛ و مرور حوالي ثلاثة عقود عن بداية اعتراف غربي بتلك الجرائم الشنعاء، وهو اعتراف من لدن باحثين ومؤرخين، يعكس وجهة نظر المثقف الغربي الحقيقي غير الراضي عن السياسات الغربية الممارسة في البلدان التي استعمروها؛ برز في السنوات الأخيرة ملف حرب الريف الكيماوية من جديد، في ظرفية زمنية تتميز على المستوى العالمي بالعودة غير المسبوقة إلى قراءة جديدة للتاريخ المشترك بين الدول لإعادة التوازن للعلاقات الدولية وتصحيح مسارها. أما على المستوى الوطني فثمة وعيا غير مسبوق لدى المجتمع المدني، الذي سارع إلى تبني هذا الملف الذي يشكل نقطة سوداء في تاريخ المغرب.

وفي البداية، لا بد من التأكيد، أن إسبانيا وحلفائها استعملت الأسلحة الكيماوية بدون احترام قوانين وأعراف الحرب، حيث انتهكت اتفاقيات لاهاي 1899 و1907، ومعاهدة فرساي 1919 وبرتوكول جنيف 1925 الذي يحظر استعمال

الغازات السامة. وبالتالي، ارتكبت أفعالاً دولية غير مشروعة، تكيف على أنها جريمة العدوان مرفقة بجرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية. وهي الجرائم التي لا يشملها التقادم حسب المادة الأولى من اتفاقية 1968 في شأن عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية³¹⁹. مع الأخذ بعين الاعتبار حيرة فقهاء القانون الدولي حول مبدأ رجعة القوانين في القانون الدولي ومدى الجدلية الموجودة بين القانون الدولي العرفي والمكتوب، باعتبار أن القانون الدولي، قبل أن يصدر على شكل معاهدات واتفاقيات دولية كان موجوداً على شكل قانون عرفي. وهذا ما يمكن إثباته باتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لسنة 1948، القابلة للتطبيق حتى على الأفعال (الجرائم) المقترفة قبل التوقيع والمصادقة على هذه المعاهدة، باعتبار أنها تصرح بقانون دولي سابق لها. فقبل أن يصير مبدأ عدم تقادم جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية قاعدة مقننة في اتفاقية دولية كان يشكل قاعدة عرفية. ولهذا، يمكن تطبيق اتفاقية 1968 على الجرائم الدولية المرتكبة في الريف ما بين 1921 و1926.

كما يمكن القول كذلك، إن إسبانيا وحلفائها انتهكت قواعد قانونية آمرة أو التزامات الكافة والقواعد العرفية التي تتمتع بقيمة قانونية أرقى وأسمى، بحيث يعتبر انتهاكها أكبر من مجرد "جنح دولية" بل هي جرائم دولية تمس المصالح الجوهرية للمجتمع الدولي ككل، لأن محكمة نورمبرغ سبق لها أن ناقشت مدى إلزامية اتفاقيات لاهاي واللوائح الملحقة بها لغير الأطراف³²⁰، فاعتبرت أن هذه الوثائق ملزمة لألمانيا

³¹⁹ - اعتمدت وعرضت للتوقيع والتصديق والانضمام بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 2391 (د-23) المؤرخ في 26 نوفمبر 1968، وبدأ تنفيذها في 11 نوفمبر 1970.

³²⁰ - مع العلم أن كل من إسبانيا وفرنسا قد كانت صادقت على اتفاقيات لاهاي لسنة 1899 و1907، وبالتالي ملزمة بالالتزام ببندوها.

بالنسبة لإعلان لاهاي (4-2) لـ 19 يوليو 1899 المتعلقة بمنع استعمال القذائف التي تهدف إلى نشر الغازات الخائقة أو الضارة، صادقت عليها إسبانيا بتاريخ 1900/11/4. أما اتفاقية لاهاي (2) لـ 29 يوليو 1899 المتعلقة بقوانين وأعراف الحرب البرية وملحقاتها: الإعلان المتعلق بقوانين وأعراف الحرب البرية صادقت عليها بتاريخ 1907/10/04. واتفاقية لاهاي (IX) 1907/10/18 المتعلقة بالقصف من طرف القوات البحرية في زمن الحرب صادقت عليها إسبانيا بتاريخ 1913/02/14.

أما بالنسبة لفرنسا، فقد صادقت على اتفاقية لاهاي الرابعة لـ 1907 المتعلقة بقوانين وأعراف الحرب البرية بتاريخ 7 أكتوبر 1910، وصادقت على اتفاقية لاهاي (IX) 1907/10/18 المتعلقة بالقصف من طرف القوات البحرية في زمن الحرب بتاريخ 1910/10/07، ودخلت حيز التنفيذ بتاريخ 1910/1/28.

بصرف النظر عن شرط المشاركة العامة المنصوص عليها في المادة الثانية³²¹ من اتفاقيات لاهاي 1907.

وعلى هذا الأساس، تكون المحكمة قد أكدت الصفة الآمرة لاتفاقيات لاهاي بالنسبة لكل الدول³²²، باعتبارها عملاً مستقراً في العرف يجب احترامه. ولهذا، فإن قواعد قانون الحرب أو قانون النزاعات المسلحة تعتبر قواعد آمرة، لا يمكن للدولة أن تتصل من الالتزام بها بحجة غياب رابطة تعاقدية إزاءها، وبالتالي خرقتها يعني ارتكاب جرائم دولية³²³.

وعليه، يترتب على ارتكاب تلك الجرائم الدولية التزام كل الدول الفاعلة والمساهمة بتسويتها، وإزالة كل ما ترتب عليها من الآثار. حيث يحق للريفيين أن يطالبوا بالتعويض. وهذا، ما أكدته محكمة العدل الدولية في إحدى أحكامها على أنه: "لمن مبادئ القانون الدولي أن يتبع كل إخلال بتعهد ما، الالتزام بالتعويض الملائم، فالتعويض أمر ملازم لعدم قيام بالتعهد، والالتزام به قائم في نفسه دون الحاجة لإدراج ذلك في الاتفاقية التي وقع الإخلال بها"³²⁴. فالزامية التعويض، بالإضافة إلى الاعتراف والاعتذار هي أهم ما يترتب على تلك الجرائم المرتكبة والتي من شأنها أن تخفف من مخلقاتها.

ومن أجل ذلك، لا بد من للمتضرر من تلك الجرائم من سلك طريق أو الطرق المنصوص عليها في الأعراف والقوانين الدولية لتسوية النزاعات الناشئة عن تلك الجرائم بالطرق السلمية. ولكن، التساؤل المطروح في هذا الشأن، هل نحن في هذا الملف أمام حالة نزاع دولي؟.

³²¹- تنص المادة الثانية من الاتفاقية الخاصة باحترام قوانين وأعراف الحرب البرية على أنه: "إن الأحكام التي تتضمنها القواعد المشار إليها في المادة الأولى، والواردة في هذه الاتفاقية، لا تطبق إلا بين الأطراف المتعاقدة وما عدا إذا كان جميع المتحاربين أطرافاً في الاتفاقية".

³²²- في هذا الصدد، لا بد أن نشير إلى لجنة التحقيق الدولية للأمم المتحدة حول دارفور قد استندت على المادة الثالثة من اتفاقية لاهاي الرابعة 1907 من أجل التوصل في 2005 إلى خرق خطير للقانون الدولي الإنساني والقوانين الإنسانية لا يولد فقط المسؤولية الجنائية للفاعلين، بل أيضاً مسؤولية الدول عن فعله غير المشروع المرتكب.

³²³- نيسرين التوزاني، مسألة المشروعية الدولية في حالة المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الأجنبي، أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون العام، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية- أكادال، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية 2012-2013، ص ص. 40-41.

³²⁴- المرجع نفسه، ص. 171.

جوابا عن هذا السؤال؛ فقد عرفت المحكمة الدائمة للعدل الدولي النزاع الدولي بأنه: "عدم الاتفاق بشأن مسألة من مسائل الواقع أو القانون"³²⁵. وهو تعريف واسع لا يقف عند حدود النزاع الدولي بدقة، مما حدا بالفقه الدولي إلى أن يتكفل برسمه ووضع معالمه، فكان الإجماع بينه حاصل على أن النزاع الدولي هو أولا، ذلك الذي تكون أطرافه الدول أو أشخاص القانون الدولي العام من غير الدول، أما النزاعات التي تثور بين الدول والأفراد من الرعايا الأجانب، وكذلك التي تثور بين الأفراد الطبيعيين أو المعنويين، فهي نزاعات تخرج عن المفهوم الدولي وتخضع عموما لأحكام القانون الدولي الخاص لتحديد القانون الواجب التطبيق عليها أو تعيين الجهة المختصة قضائيا مع ملاحظة أن النزاع بين الدولة والفرد قد يتحول بدوره إلى نزاع دولي إذا ما تدخلت الدولة التي يتبعها الفرد المتضرر بجنسيته لحمايته دبلوماسيا في مواجهة الدولة الأولى التي ألحقت به الضرر"³²⁶.

ومهما كان المغرب لم يتبن بعد هذا الملف رسميا لاعتبارات سياسية داخلية ودولية، فإننا لسنا لحد الآن أمام نزاع دولي لكي يتم تسويته بالطرق المعروفة في القانون الدولي. وبالتالي، فالمدخل الأول لتسوية تلك الجرائم هي تبني المغرب لهذا الملف رسميا، وذلك، حتى يتم ارتقاؤه إلى مكان "المدعي"، وبالتالي سنكون أمام نزاع دولي بين المغرب من جهة واسبانيا وفرنسا من جهة ثانية. وهو النزاع الذي سيتم تسويته بالطرق السلمية المنصوص عليها في القانون الدولي، خاصة في المادة (33) من ميثاق الأمم المتحدة، وقد تكون تسوية سياسية بواسطة المفاوضات أو المساعي الحميدة أو التحقيق أو التوفيق والمصالحة، أو تكون تسوية قضائية والتي تكون إما باللجوء إلى هيئة تحكيمية مختارة أو إلى محكمة العدل الدولية.

وضمن هذه الطرق المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة؛ ما هي الطرق الممكنة لتسوية ملف حرب الريف الكيماوية؟ هل التسوية السياسية أو الدبلوماسية قابلة للتحقيق، أم أن الحل السياسي يبدو غير منظور حاليا في نظر الدول المعنية؟. وعليه، فهل الطريق القضائي كفيلا بأن يكون حلا مناسباً؟ وما هي الجهات القضائية المختصة؟.

³²⁵ - وهذا في حكمها الصادر في 30 غشت 1924 في قضية "مافروماتيس". أنظر: زازة لخضر، أحكام المسؤولية الدولية في ضوء قواعد القانون الدولي العام، دار الهدى، الجزائر، 2011، ص. 653.

³²⁶ - زازة لخضر، مرجع سابق، ص. 654.

وللإجابة عن هذه التساؤلات، يجب التأكيد بأن فقهاء القانون الدولي يميزون بين النزاعات السياسية، التي غالبا ما تتعلق بمصالح الدولة العليا والأمور التي تمس شرف الدولة واستقلالها وسيادتها ومصالحها الحيوية، والتي يتم تسويتها بالطرق السياسية. وبين النزاعات الدولية القانونية المنصوص عليها في المادة السادسة والثلاثين (36) من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية، وتعلق بتفسير المعاهدات والتحقيق في وقائع خرق التزام دولي وتحديد نوع التعويض المترتب على خرق التزام دولي.

وبناء على ذلك، فإن التبرني المفترض للدولة المغربية لقضية ضحايا حرب الريف الكيماوية، يعني أن النزاع المرتبط بهذا الملف هو نزاع دولي يتضمن جانبين: الجانب الأول، سياسي يتعلق باحتلال الريف وارتكاب جرائم دولية في حقه، مع تعنت إسبانيا وحلفائها لحدود الآن عن الاعتراف بها وتسويتها، مما يستوجب ضرورة الاعتراف وتقديم اعتذار رسمي. هذا الجانب، يمكن تسويته سياسيا ودبلوماسيا عبر وضع هذا الملف على طاولة المفاوضات السياسية بين المغرب والدول الفاعلة والمساهمة (أولا). أما الجانب الثاني، فهو قانوني، يتعلق بالتحقيق في الجرائم المرتكبة وتكييفها القانوني وتحديد نوع التعويضات الممكنة، حيث يمكن تسويته إما عبر اللجوء إلى القضاء الوطني والإقليمي أو تعيين هيئة تحكيمية متفق عليها من الطرفين تصدر قرارات ملزمة لهما، أو رفع دعوى قضائية أمام محكمة العدل الدولية التي تقتضي الولاية الجبرية، أي اتفاق الطرفين على عرض النزاع أمام المحكمة المذكورة (ثانيا).

الطرق السياسية والدبلوماسية

إن الجانب السياسي حاضر بقوة في تسوية ملف حرب الريف الكيماوية، بل مؤثر على كل مسارات التسوية الممكنة. ولهذا، تبقى الطرق السياسية والدبلوماسية هي الأقرب، والحل المحتمل الذي من شأنه أن يقود إسبانيا وفرنسا إلى الاعتراف بجرائمهما في الريف بشكل رسمي وبالتالي جبر الضرر الجماعي للمنطقة. وقبل ذلك، لا بد للمغرب بدوره أن يعترف بتلك الجرائم بصفة رسمية. وبالتالي، تسويتها على المستوى الوطني قبل الانتقال إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التسوية الدولية. ومنهجيا، يجب أن تستمد هذه التسوية الوطنية آلياتها من مبادئ العدالة

الانتقالية، وتستلهم روحها وفلسفتها منها، مما سيساعده على رسم خارطة الطريق في مجال البحث عن الحقيقة وإنصاف منطقة الريف وسكانها. إذن، سنقوم بطرح الطرق السياسية والدبلوماسية لتسوية الجرائم الدولية المرتكبة بالريف بواسطة الأسلحة الكيماوية على مستويين: الوطني والدولي.

1- على المستوى الوطني

إذا كانت تسوية الجرائم الدولية المرتكبة في حرب الريف الكيماوية يجب أن تستهل مراحلها السياسية والدبلوماسية الأولى على المستوى الوطني، فإن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بسياسة استراتيجية وشمولية تبلورها الدولة المغربية عبر آليات رسمية وآليات الدبلوماسية الموازية.

أ- آليات رسمية

الآليات الرسمية هي مختلف المؤسسات والأجهزة الرسمية للدولة المغربية، التي لها صلاحيات قانونية للنظر في الجرائم التي ارتكبتها المستعمر في الريف والتي لا يشملها مبدأ التقادم، وذلك باستحضارها لجميع المعطيات التاريخية والقانونية لحرب الريف 1921-1926³²⁷.

وفي هذا الإطار، تتحمل الدولة المغربية مسؤولية كاملة عن حماية مواطنيها، والدفاع عنهم وعن حقوقهم. لأن التعامل مع ملفات من هذا القبيل، يسمو فوق أي تعامل مناسباتي تحدده مصالح سياسية ضيقة لهذا الفاعل أو ذاك.

ولهذا، نعتقد أن تسوية هذا الملف غير مرهون بمدى استجابة السلطات الإسبانية لمطالب الجمعيات المدنية، بقدر ما هو متعلق بالاعتراف الرسمي المغربي. ولهذا، يتعين على سائر الجمعيات والمنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية والفعاليات الأكاديمية وغير ذلك، التي أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن ضحايا الحرب الكيماوية، أن تتكفل في هيئات مشتركة، ثم تتقدم بطلب جاد ومتكامل إلى الدولة المغربية، وتضغط عليها بإتباع مختلف الوسائل المشروعة من أجل أن تعترف أولاً بتلك الجرائم وأن تجعل من هذه القضية قضية وطنية؛ حيث يجب على الدولة المغربية - باعتبارها دولة تتحمل مسؤولية أخلاقية وسياسية عن تلك الجرائم - أن تقوم بتسوية هذه القضية وفق مبادئ العدالة الانتقالية على مستوى الداخلي، وذلك بإدماجها في مسلسل المصالحة الذي أطلقته سنة 2004.

³²⁷ - محمد أمزيان، الحرب الكيماوية على ضوء القانون الدولي، بحث لنيل دبلوم الماستر، جامعة سيدي بن عبد الله، ظهر المهرار، فاس، السنة الجامعية 2012-2013، ص. 65.

ولهذا، فأني تعامل مع هذا الملف بدون استحضار الكشف عن الحقيقة كاملة كمبدأ من مبادئ العدالة الانتقالية وهدف ملازم لها، سيعرقل مسارات التسوية، لكونها لا تقبل أقل من الحقيقة الكاملة، وبالتالي فإن هذا الملف لا يمكن للدولة المغربية أن تتعامل معه دون أن تتوفر على الجرأة والإرادة في مصالحة حقيقية مع ذاتها وتاريخها التي تستوجب منها الاعتراف بالحقيقة المرة المتمثلة في الإقرار بمسؤوليتها الأخلاقية والسياسية إلى جانب القوى الاستعمارية في الجرائم الدولية المرتكبة بالريف.

إذن، فلا يمكن الحديث عن نصف الحقيقة أو "نصف المصالحة"، فالدولة المغربية كانت مساهمة في تلك الحرب القذرة ولا يمكنها مطالبة القوى الاستعمارية بالإقرار والاعتذار دون أن تتوفر بدورها على الجرأة اللازمة للكشف ما لديها من وثائق تاريخية والاعتراف بحقيقة ما جرى، بما يقتضيه ذلك من اعتذار لأهالي الريف، وهذا ما سيشكل مدخلا أساسيا للمصالحة مع الماضي، وسبقوي بالمقابل الموقع التفاوضي للدولة المغربية حول هذا الملف، ويؤهلها إلى رفع القضية إلى مرتبة نزاع دولي بين المغرب من جهة، وإسبانيا وفرنسا من جهة أخرى، وذلك عن طريق قيامها بعمل دولي لفائدة الضحايا ضد إسبانيا وفرنسا من خلال آليات الحماية الدبلوماسية، التي تبقى مسطرة مشروطة برابطة الجنسية الفعلية واستنفاد جميع المساطر الداخلية³²⁸.

أ- آليات الدبلوماسية الموازية

إن العمل الذي يجب أن تقوم به الدولة كجهاز رسمي لا بد أن يوازيها مجهودات أخرى من طرف كل أطراف المجتمع المدني، والتي تكتسي طابع الدبلوماسية الموازية. وهذا، من أجل العمل والتواصل داخليا وخارجيا للتعريف بقضية حرب الريف الكيماوية من خلال عقد ندوات ولقاءات فكرية على المستوى الوطني والدولي، والتواصل مع مختلف مكونات القوى المدنية عبر الوطنية كشركاء فاعلين أمام الدول في صناعة القرار، ولا سيما الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني في الضفة الأوربية³²⁹.

³²⁸ - مصطفى بن الشريف، "الجرائم الدولية وحق الضحايا في جبر الضرر.. حالة حرب الريف (3/3)"، جريدة المساء، العدد 2571، 2015/01/03، ص.8.

³²⁹ - محمد أمزيان، مرجع سابق، ص.66.

وباعتبار المجتمع المدني أصبح له أدوار جد مهمة في إطار الدبلوماسية المدنية، فإن هذا الأخير الذي تحمل مسؤولية إخراج هذا الملف إلى النقاش العمومي، قادر على الترافع في شأنه أمام الجهات المسؤولة وإقناع نظيره الأوروبي والمنتظم الدولي بصفة عامة من أجل تبنيه. وعمليا، يمكن إحداث "هيئة مشتركة مستقلة للحقيقة والإنصاف وبناء المستقبل" مكونة من خبراء مغاربة وإسبان وفرنسيون (مؤرخون، قانونيون، حقوقيون، أطباء، كيميائيون، فيزيائيون...) يكون هدفها هو البحث عن الحقيقة وجبر الضرر لمنطقة الريف³³⁰، وذلك وفق المهام التالية :

- بلورة مذكرة مطلوبة موجهة إلى الحكومة الإسبانية والفرنسية لاعتراف البلدين بمسؤوليتهما عن الجرائم التي ارتكبت في الريف؛
- مطالبة إسبانيا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا بفتح الأرشيف العسكري للبحث التاريخي؛

- عقد ندوات ولقاءات فكرية دولية ووطنية تشرف عليها هذه الهيئة؛
- إنجاز تقارير حقوقية سنوية يتم الترافع عليها على المستوى الأوروبي والدولي؛
- إنجاز دراسة علمية حول العلاقة السببية بين استخدام الأسلحة الكيماوية والانتشار الواسع للأمراض السرطانية في الريف؛
- الرفع من عدد الإنتاجات الأكاديمية والعلمية حول الموضوع، وإنشاء مكتبة ورقية وإلكترونية في هذا الشأن؛
- بلورة المشاريع المتعلقة بجبر الضرر الجماعي لمنطقة الريف وتقديمها إلى حكومات الدول المعنية.

1- على المستوى الدولي

لقد أصبح ملف تسوية الجرائم الدولية المرتكبة بالريف من القضايا العالقة بين المغرب والقوى الاستعمارية، وهو من مخلفات المرحلة الاستعمارية التي يراهن على تجاوز ثقلها عن طريق بناء ذاكرة مشتركة ومستقبل واعد ينطلق من المؤشرات الإيجابية والقواسم المشتركة ويعالج بحكمة ثقل الماضي وسلبات المراحل السابقة ورغم المجهودات التي قامت وتقوم بها بعض الإطارات والفعاليات المدنية من أجل الترافع على هذا الملف، فإن الدول المسؤولة عن تلك الجرائم، خاصة إسبانيا وفرنسا وألمانيا، ما زالت تتهرب من إثارة القضية، ولم تقتنع بعد بجدوى طرح الملف

³³⁰ - عبد السلام يوطيب، "أي صيغة لمعالجة قصف الريف بالغازات السامة"، جريدة أخبار اليوم، عدد 2012/8/8.

وتسويته وفق ما يقتضيه منطق التسوية السياسية والقضائية، وبالشكل الذي يسمح ببناء أسس ذاكرة مشتركة قوية وبدون ثغرات ولا اختلالات ولا أحقاد تاريخية، لأنه من المفروض تصفية ثقل الماضي وتركته.

وقد تمكنت عدة شعوب من الحصول على اعتذار وتعويض كجبر للضرر الذي طالها جراء الجرائم التي ارتكبت من طرف الاستعمار. فإيطاليا اعتذرت للشعب الإثيوبي سنة 1996 بسبب استعمالها للأسلحة الكيماوية بأثيوبيا في سنتي 1935 و1936 أيام إيطاليا الفاشية. وقدم رؤساء أمريكا الاعتذار للأفارقة عما اقترفوه أجدادهم في السابق من إجرام في حق الأفارقة السود عندما كانوا يشحنون إلى أمريكا كعبيد. وكذلك، اعتذر الألمان للشعب اليهودي عما ارتكبه في السابق من إبادة جماعية في حق اليهود أيام محاكم التفتيش السيئة الذكر، والجدير بالذكر هنا أنه في أواخر سنة 2005 صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع على قرار لتحديد ذكرى محرقة اليهود التي ارتكبتها ألمانيا النازية آنذاك، وذلك كل يوم 27 يناير من السنة. وهذا القرار يدعو جميع دول العالم لبرامج تربية لترسيخ فكرة المحرقة لدى الأجيال الناشئة. وبهذا، سيكون يوم 27 يناير من كل سنة، يوما عالميا لتخليد ذكرى المحرقة اليهودية.

ولذلك، فبعد سنوات من الصمت واللامبالاة، فقد آن الأوان لكي تعترف إسبانيا وحلفائها بشكل علني باستخدامها للأسلحة الكيماوية خلال حرب الريف، ورد الاعتبار للحقيقة التاريخية³³¹. فلم تعد هناك أي مسوغات لتأجيل الانكباب على هذا الملف من مختلف زواياه التاريخية والقانونية والسياسية، أو لمزيد من شد الحبل أو الإثارة المناسبة المحكومة بظرفية معينة، خصوصا إذا عرفنا حجم المعاناة التي تكبدها الريفيون نتيجة تداعيات تلك الحرب القذرة.

إن إسبانيا اليوم ليست هي إسبانيا الأمس، فهي أصبحت من أكبر الديمقراطيات في العالم، وقانونها الداخلي أو الذي يؤطرها داخل الاتحاد الأوروبي يسمح لها بتسوية جرائمها التاريخية³³². والملك الإسباني فيليبي السادس بدوره، ونظرا للرمزية التي يحظى بها في النظام السياسي الإسباني، يجب عليه الامتثال للحكمة والأخلاق

331- مصطفى لمرن، التاريخ السري للحرب الكيماوية ضد منطقة الريف وجباله (1921-1927)، دار القلم، الرباط، 2016، ص.24.

332-Mimoun CHARQI, Armes chimiques de destruction massive sur le Rif, Imprimerie Beni Snassen, Oujda, Edition 2014., p.106.

المعهودتين فيه والتحلي بالجرأة، وأن يستقرئ ضميره وضمير ضحايا حرب الريف الأبرياء الذين لا يزالون يموتون تحت وجع الأمراض السرطانية الوراثية. وأن يعترف بمسؤولية إسبانيا حتى لا تأخذ هذه القضية أبعادا سياسية عند بعض الأحزاب السياسية الإسبانية³³³.

إن إسبانيا وفرنسا هما أولى الدول المتورطة التي يجب عليهما طرح هذا الملف على طاولة المفاوضات الدبلوماسية مع المغرب، وبالتالي الإقرار بتلك الجرائم، والاعتذار للريفيين، وجبر الضرر.

وعموما يمكن إجمال أهم الخطوات التي يجب أن تقوم بها إسبانيا وفرنسا في ما يلي :

- الاعتراف الرسمي بمسؤولية الدولتين الإسبانية والفرنسية عن الجرائم الدولية المرتكبة في الريف 1921- 1926؛

- اعتذار الدولتين لضحايا حرب الريف الكيماوية؛

- تسهيل أعمال البحث والتحقيق التي يقوم بها المؤرخون وكل من يريد معرفة الحقائق التاريخية من خلال فتح الطريق أمامهم للاطلاع على الأرشيفات العسكرية؛

- إرجاع أرشيف وكل ممتلكات "جمهورية الريف" الذي نصبت عليها فرنسا بعد استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي؛

- مراجعة وإعادة النظر في الشروح والمراجع والفصول المتعلقة بالحملة العسكرية التي شنتها الدولة الإسبانية والفرنسية على الريف والتي عمدت إلى الإخفاء والتعتيم على استخدام الأسلحة الكيماوية أو المراوغة والالتفاف على هذه الحقيقة التاريخية؛

- دعم الجمعيات الثقافية والعلمية والحقوقية الإسبانية والمغربية المهمة بالموضوع والبحث في مجال الآثار المترتبة على استخدام الأسلحة الكيماوية بالريف؛

- المساهمة في جبر الضرر الجماعي وأداء الدين التاريخي تجاه منطقة الريف؛

- تجهيز مستشفيات الريف وخاصة بالحسيمة والناظور وشفشاون بوحداث صحية مختصة في علاج الأورام السرطانية، والتي ستساهم في تقليص نسبة الأمراض المسببة للسرطان.

³³³ - أحمد الحمداوي، "اعتراف إسبانيا بجريمة استعمال الأسلحة الكيماوية ضد الريف حتمية تاريخية"، جريدة الإنسان الجديد، العدد 17، مارس 2007، ص. 12.

ومن جهة أخرى، على الشعب الإسباني أن يتعاطف مع الريفين، حتى يتمكن الشعبان من تدشين علاقات جيدة خدمة لمصالحهما المستقبلية وقصد تحقيق المصالحة التاريخية بينهما (خصوصا وأنهما تجمعهما الكثير من القواسم المشتركة). ومن الجانبين، أكيد أن هناك إرادات تجاوز مخلفات الماضي والذهاب إلى المستقبل بكل ثقة، فالماضي يؤثر بشكل كبير في العلاقات بين الشعوب كما يؤثر في بناء المستقبل ومن الصعب التوجه نحو المستقبل دون معالجة مخلفات الماضي³³⁴.

إن اعتراف إسبانيا وفرنسا بمسؤوليتهما عن الجرائم الدولية المرتكبة في الريف ليس سوى الخطوة الأولى التي من شأنها أن توفر الأرضية القانونية من أجل رفع القضية إلى القضاء الدولي.

الطرق القضائية

إذا كان البعض يذهب إلى اعتبار جرائم الحرب الكيماوية بالريف تكتسي طابعا سياسيا في تسويتها، فهذا لا يعني بأي حال من الأحوال تغييب الجانب القضائي، لأن إسبانيا وحلفاءها خرقت قواعد وأعراف الحرب، وبتالي، فمن حق ضحايا تلك الجرائم وورثتهم من رفع دعوة قضائية أمام بعض المحاكم الأوروبية من أجل الاحتجاج على مسؤولية إسبانيا وفرنسا والمطالبة بإصلاح الضرر الذي أصابهم. ومن حق الدولة المغربية كذلك من اللجوء إلى القضاء الدولي من أجل تسوية الجوانب القانونية التي يتضمنها النزاع الدولي الذي من المفترض أن يكون بين المغرب من جهة، وإسبانيا وفرنسا من جهة أخرى. ولهذا، من المفيد أن نشير أولا إلى القضاء الإقليمي، ثم القضاء الدولي ثانيا.

1- القضاء الإقليمي

رغم أن الفرد لا يتمتع بالشخصية القانونية الدولية، فإن التطورات العميقة التي طرأت على المجتمع الدولي المعاصر لم تستبعد الفرد نهائيا من دائرة العلاقات الدولية على

³³⁴ - عمر لمعلم، "الحرب الكيماوية ضد الريف"، أعمال الندوة الدولية حول: استعمال الغازات السامة، حرب الريف نموذجا، الناظور 24 فبراير 2004، سلسلة التاريخ والأنثروبولوجيا اديسيون أمازيغ، مطبعة بني يزنسن، سلا، الطبعة الأولى، 2005، ص. 11.

الأقل لصيانة وتكريس حقوق الإنسان وإحاطتها بضمانات دولية. وفي هذا الصدد، منحت بعض الاتفاقيات الدولية للأفراد حقوقاً ذات صفة دولية. من ذلك، ما نصت عليه الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان على حق الأفراد في التقدم بشكاوي مباشرة بل وأكثر من ذلك، نصت على حق الأفراد أيضاً في رفع ضد الدول الأعضاء الدعاوى أمام المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان التي تملك اختصاصاً إلزامياً في هذا الشأن بالنسبة للأعضاء في الاتفاقية التي تقبل بهذا الاختصاص³³⁵.

أما بالنسبة لضحايا³³⁶ الحرب الكيماوية بالريف، فيحق لهم مقاضاة إسبانيا وفرنسا أمام محاكمهما الوطنية عن مسؤوليتهما الدولية، ولا يمكن مواجهة الضحايا (ذوي الحقوق، الجمعيات) بالدفع القائل بالتقادم، لأن الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب لا يطالها التقادم، وهذا ما أكدته اتفاقية 1968 في شأن عدم تقادم جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية، وكذلك العمل القضائي الدولي والعمل القضائي الفرنسي.

أما بالنسبة لرجعية القوانين، فاتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لسنة 1948، قابلة للتطبيق على الجرائم المقترفة قبل التوقيع والمصادقة على هذه وهناك سوابق حول رجعية المعاهدة، باعتبار أنها تصرح بقانون دولي سابق لها المعاهدات: منها حالة اتفاق لندن لـ 8 غشت 1945 (ميثاق محكمة نورمبورغ) وحالة معاهدة 1968 حول عدم خضوع جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية للتقادم المذكورة أعلاه، وحالة معاهدة فيينا حول قانون المعاهدات لسنة 1969.

وفي هذا الصدد، أكدت الغرفة الجنائية لمحكمة النقض الفرنسية، في اجتهادها القضائي حول مقتضيات المعاهدة الأوروبية لحقوق الإنسان، أن كل جمعية أجنبية

³³⁵ - وقد نصت المادة (25) من الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان والحريات الأساسية على أن: "اللجنة الأوروبية لحقوق الإنسان يمكن أن يرفع إليها الطعن من جانب كل شخص طبيعي وكل منظمة حكومية أو مجموعة من الأفراد يدعي أنه ضحية لإخلال وقع من جانب أي طرف من أطراف الاتفاقية بالحقوق المعترف بها في هذه الاتفاقية".

³³⁶ - ويُعرف الضحايا بموجب القانون الدولي، بوصفهم: "الأشخاص الذين لحق بهم ضرر، أفراداً كانوا أو جماعات، بما في ذلك الضرر البدني أو العقل أو المعاناة النفسية أو الخسارة الاقتصادية أو الحرمان بدرجة كبيرة من التمتع بحقوقهم الأساسية، وذلك من خلال عمل أو امتناع عن عمل يشكل انتهاكاً جسيماً للقانون الدولي لحقوق الإنسان، أو انتهاكاً خطيراً للقانون الدولي الإنساني"، أنظر: فريديريش روزنفلد، "الجبر الجماعي لضحايا النزاعات المسلحة"، المجلة الدولية للصليب الأحمر، المجلد 92، العدد 879، سبتمبر 2010، ص. 11.

تدعي كونها ضحية لخرق، من حقها أن تتقدم كطرف مدني أمام القضاء الفرنسي شريطة أن تتوفر فيها الشكليات المطلوبة بمقتضى الفصل (5) من قانون فاتح يوليوز للجوء إلى العدالة، ويفرض الفصل (5) المذكور على كل جمعية، ولو كان 1901 وفور توفر شروط اللجوء. مقرها بالخارج، أن تتقدم بتصريح مسبق لدى إدارة الإقليم إلى القضاء في الأطراف المدنية (الجمعيات) المعترف بها من طرف الدول المشتبه في مسؤوليتها عن الأفعال المحرمة، فإن لهذه الجمعيات حق التقدم أمام المحاكم الوطنية بعد استكمالها للشروط الشكلية³³⁷.

وبعد استنفاد وسائل الطعن الداخلية أمام القضاء الإسباني والفرنسي، وفي حالة عدم إنصاف الضحايا، جاز للضحايا اللجوء إلى المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، وهذا هو الطريق القضائي الدولي أو الإقليمي الذي أجازه القانون الدولي للأفراد لمقاضاة الدول أمام غير قضائهم الوطني³³⁸.

إذن، تقبل المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان الدعاوى المرفوعة من طرف الأشخاص (أفراد وجمعيات) من أجل مقاضاة الدول الأوروبية وفقاً للمواد (25) و(44) و(48) من الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان. كما أن المحكمة الأمريكية لحقوق الإنسان نحت نفس الاتجاه الذي سلكه القضاء الأوروبي كما تقضي ذلك المادة (44/339) من الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان³⁴⁰. والأكثر من ذلك، ذهبت هذه الأخيرة بعيداً، وقضت بحق "الجماعات" في جبر الضرر الجماعي. وهو المطلوب في حالة الريف، لأنه كما سبقنا وأن رأينا، أن الضرر الناجم عن الجرائم الدولية التي ارتكبتها إسبانيا وفرنسا هو ضرر جماعي، وبالتالي يستوجب جبر الضرر الجماعي للمنطقة.

أما فيما يتعلق بالمسطرة القانونية المتعلقة بكيفية قيام ضحايا الأسلحة الكيماوية أو عائلاتهم، سواء أفراد أو جماعات، لتقديم دعوى قضائية ضد إسبانيا وفرنسا بهدف

³³⁷ - مصطفى بن شريف، "الجرائم الدولية وحق الضحايا في جبر الضرر.. حالة حرب الريف (3/3)"، مرجع سابق، ص.8.

³³⁸ - مصطفى بن شريف، "ملاحظات أولية بصدد استعمال الغازات السامة في حرب الريف التحريرية 1921-1926 وجهة نظر قانونية لمقاضاة إسبانيا"، مجلة الإنسان الجديد، عدد 17 مارس 2007، ص.17.

³³⁹ - تنص المادة (44) من الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان على أنه يجوز لأي مجموعات من الأشخاص أو أية هيئة غير حكومية أن ترفع إلى

اللجنة عرائض تتضمن شجراً أو شكوى ضد أي خرق لهذه الاتفاقية من قبل دولة طرف.

³⁴⁰ - مصطفى بن شريف، "ملاحظات أولية بصدد استعمال الغازات السامة في حرب الريف التحريرية 1921-1926"، مرجع سابق، ص.18.

جبر الضرر، فإن ذلك يجب أن يتم عبر مؤسسة قانونية تمثلهم، من قبيل جمعية تمثل ضحايا الحرب الكيميائية مثلاً³⁴¹.

إن طريق القضاء الإقليمي هو طريق محفوف بالمخاطر، لأنه يتوجب على الضحايا أن تراعي فيه بشكل كبير شكليات رفع الدعوى، وطرق إثبات الأفعال (استعمال الأسلحة الكيميائية) وهذا لا يتأتى إلا عبر فريق مختص لجمع الأدلة وهذا ما يكلف ميزانية لإنجاز دراسات، وكذا بيان العلاقة السببية بين استخدام الأسلحة الكيميائية وانتشار الأمراض السرطانية بالريف وتضرر البيئة، وما إذا كانت السبب الوحيد المسؤول عن تضرر الإنسان والبيئة أم هناك أسباب أخرى ذات طبيعة إشعاعية كالزلازل³⁴².

وفي حالة فشل التقاضي أمام القضاء الإقليمي، يتم اللجوء إلى القضاء الدولي خاصة محكمة العدل الدولية عن طريق تطبيق أحكام القانون الدولي العام.

1- القضاء الدولي

باستثناء الحالة المشار إليها أعلاه، والتي يمكن من خلالها للأفراد رفع دعوى قضائية أمام المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، فإن المستقر عليه فقها وقضاء هو عدم اعتبار الأفراد أشخاص القانون الدولي، ولا يجوز للفرد أيضاً، أن يقاضي الدول أمام المحاكم الدولية، فالمسؤولية الدولية لا يمكن تحريكها إلا من طرف أحد أشخاص القانون الدولي. ويستتبع ذلك، أنه إذا أصاب ضرر جراء تصرف غير مشروع منسوب إلى دولة من الدول، وعجز الفرد عن الحصول على التعويض المناسب بعد استنفاده كافة وسائل الإنصاف الداخلية المتاحة في الدولة التي أصابته بالضرر، جاز له - حينئذ - اللجوء إلى الدولة التي ينتمي إليها بجنسيته طالبا حمايتها، ولهذه الأخيرة الحق في أن تتولى دعواه دولياً عن طريق دعاوى المسؤولية الدولية والحماية الدبلوماسية³⁴³.

ومحكمة العدل الدولية تعني بالنزاعات التي تقع بين الدول، وليس التي تقع بين الأفراد والدول، وذلك بموجب المادة (34) من نظامها الأساسي التي تنص على

³⁴¹ - مصطفى المرن، مرجع سابق، ص.168.

³⁴² - مصطفى بن شريف، "ملاحظات أولية بصدد استعمال الغازات السامة في حرب الريف التحريرية 1921-

1926"، مرجع سابق، ص.17.

³⁴³ - زازة لخضر، مرجع سابق، ص.37.

أنه: "للدول وحدها حق المثل أمام المحكمة". ولهذا، فنشاط الفرد الخاص ليس له مكان في النظام الأساسي للمحكمة.

وفي حالة الحرب الكيماوية ضد الريف (1921-1926)، فالدولة المغربية هي من لها الحق في متابعة إسبانيا وفرنسا أمام محكمة العدل الدولية، وليس للضحايا أو عائلاتهم الحق في ذلك، لأنها بمقتضى القانون الدولي هي التي تعرضت للضرر الناتج عن الخرق الجسيم لاتفاقيات لاهاي 1907 وبروتوكول جنيف لسنة 1925³⁴⁴.

ولهذا، فالدولة هي الموضوع الأصلي للقانون الدولي العام التي لديها حق المطالبة بالتعويض، وفي هذا المعنى، فالحكومة المغربية مطالبة بتكسير جدار "الصمت" في مواجهة أفعال الأسلحة الكيماوية المستعملة من طرف إسبانيا وفرنسا في الريف ما بين 1921 و1926³⁴⁵.

إذن يمكن للضحايا، عبر الدولة المغربية، ووفق مسطرة الحماية الدبلوماسية، رفع دعوى قضائية أمام محكمة العدل الدولية، باعتبار شرط الجنسية المغربية قائم، ولم يبقى إلا استنفاد طرق الطعن أمام القضاء الوطني الإسباني والفرنسي، ولكن رغم ذلك يبقى هذا الخيار أمرا مستبعدا في الوقت الراهن لاعتبارين اثنين: الأول؛ مرتبط بالدولة المغربية التي تتحاشى الخوض في هذا الملف على المستوى الرسمي.

والثاني؛ مرتبط بالنظام الأساسي المنظم لمحكمة العدل الدولية الذي ينص في مادته (36) على ضرورة الولاية الجبرية، بمعنى اتفاق إجباري بين الدولتين المتنازعتين على رفع الدعوى³⁴⁶، وعلى أن المحكمة تفصل في القضايا

344 - Mustapha BEN CHERIF, Crimes internationaux et droit des victimes à réparation les cas de la guerre du RIF 1921-1926, ImprimerieNajah, Casablanca, 1ère édition, 2014., p.206.

345- Ibid., p.506.

- تنص المادة (36) من النظام الأساسي للمحكمة العدل الدولية على ما يلي:³⁴⁶
"1- تشمل ولاية المحكمة جميع القضايا التي يعرضها عليها المتقاضون، كما تشمل جميع المسائل المنصوص عليها بصفة خاصة في ميثاق الأمم المتحدة أو في المعاهدات والاتفاقات المعمول بها
2- للدول التي هي أطراف في هذا النظام الأساسي أن تصرح، في أي وقت، بأنها بذات تصريحها هذا وبدون حاجة إلى اتفاق خاص، تقر للمحكمة بولايتها الجبرية في نظر جميع المنازعات القانونية التي تقوم بينها وبين دولة تقبل الالتزام نفسه، متى كانت هذه المنازعات القانونية تتعلق بالمسائل الآتية:
تفسير معاهدة من المعاهدات؛ (أ)-

والمنازعات التي تنشأ حصرياً بين الدول (م 34)، وبالتالي لا يحق للريفيين، أفراداً وجماعات رفع دعوى أمام محكمة العدل الدولية، إلا بعد تبني المغرب لهذا الملف رسمياً، واعتراف إسبانيا وفرنسا بارتكابهما لتلك الجرائم الدولية بالريف. وعلى العموم، فمحكمة العدل الدولية تتمتع بنوعين من الاختصاصات: الاختصاصات القضائية والاختصاصات الإفتائية.

وفي حالة حرب الريف، فالأمر يتعلق باختصاص قضائي للمحكمة للفصل في نزاع دولي بين دولتين فاعلتين (إسبانيا وفرنسا) ودولة ضحية وهي المغرب. والقرار الذي تصدرها المحكمة يكون ملزماً للطرفين.

بالإضافة إلى إمكانية رفع دعوى قضائية أمام محكمة العدل الدولية للمطالبة بالتعويض، فإنه لا شيء يمنع كذلك طرفي النزاع من تعيين هيئة تحكيمية تتكون من محكمين دوليين متمرسين تقوم بالتحقيق في الجرائم الدولية التي اقترفت في 1926، من طرف إسبانيا 1921 الريف (المغرب) خلال الفترة المتراوحة ما بين وحلفائها، باعتبارها أفعالا تمثل خرقاً سافراً للقانون الدولي (الالتزامات العرفية والمعاهدات)، ثم تصدر بناء على ذلك قراراً ملزماً للطرفين.

إذن، على العموم، رغم وجود إمكانيات على المستوى القانوني لرفع دعوى قضائية أمام المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان أو محكمة العدل الدولية أو إلى هيئة تحكيمية، فإنه على المستوى الواقعي يظل هذا الطريق غير وارد في الوقت الحالي نظراً لمجموعة من الإشكاليات التي تحدثنا عنها سابقاً، وكذلك بكون أن مطالب الريفيين ليست مالية بالأساس، بل تهمة بالدرجة الأولى الإقرار بتلك الجرائم، وتقديم اعتذار رسمي، وإقامة بعض المشاريع في المنطقة التي من شأنها أن تخفف من

(ب)- أية مسألة من مسائل القانون الدولي؛

(ج)- تحقيق واقعة من الوقائع التي إذا ثبتت كانت خرقاً لالتزام دولي؛

(د)- نوع التعويض المترتب على خرق التزام دولة ومدى هذا التعويض؛

- يجوز أن تصدر التصريحات المشار إليها آنفاً دون قيد ولا شرط أو أن تعلق على شرط التبادل من جانب 3 عدة دول أو دول معينة بذاتها أو أن تقيد بمدة معينة؛

4- تودع هذه التصريحات لدى الأمين العام للأمم المتحدة وعليه أن يرسل صوراً منها إلى الدول التي هي أطراف في هذا النظام الأساسي وإلى مسجل المحكمة؛

5- التصريحات الصادرة بمقتضى حكم المادة (36) من النظام الأساسي للمحكمة الدائمة للعدل الدولي، المعمول بها حتى الآن، تعتبر، فيما بين الدول أطراف هذا النظام الأساسي، بمثابة قبول للولاية الجبرية لمحكمة العدل الدولية. وذلك في الفترة الباقية من مدة سريان هذه التصريحات ووفقاً للشروط الواردة فيها؛

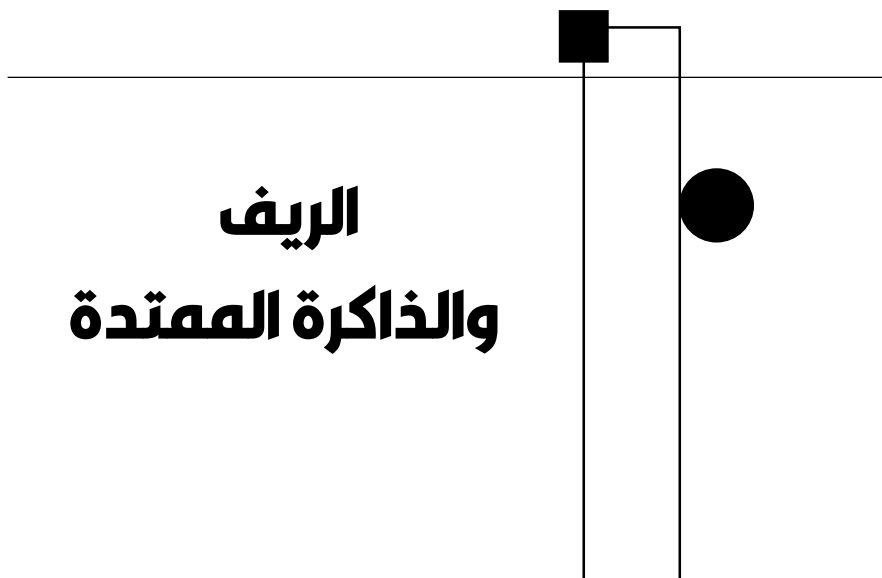
6- في حالة قيام نزاع في شأن ولاية المحكمة تفصل المحكمة في هذا النزاع بقرار منها

حراك الريف... ريف الحراك

الآثار المستمرة لاستعمال الأسلحة الكيماوية في الريف، وخاصة الانتشار الواسع للأمراض السرطانية. ولهذا، يبقى السبيل الوارد والواقعي هو طرح هذا الملف على طاولة المفاوضات الدبلوماسية بين الأطراف المعنية، والتفكير في أشكال التسويات الممكنة، والتي من شأنها أن تخفف من حجم الأضرار المترتبة على الجرائم الدولية المرتكبة في الريف ما بين 1921 و1926.







الريف
والذاكرة الممتدة



تدخل مصر والخطابي وجبهة التحرير الجزائرية في أحداث الريف 1958-1959 بين الحقيقة والدعاية

الزاكي عبد الصمد

طالب باحث، كلية الآداب والعلوم الانسانية، القنيطرة.

شهد المغرب بعد استقلاله عدة أحداث سياسية كبرى، شملت تمردات قبلية، وانتفاضات حضرية، وحركات احتجاجية إضافة إلى محاولات انقلابية عسكرية. وتعتبر أحداث الريف 1958 و1959 واحدة من أهمها، إن لم تكن الأهم والأكبر، ذلك أنها ما زالت تلقي بظلالها على علاقة الدولة بالمنطقة، بل وأصبحت توظف في بعض الأحيان سياسيا. ورغم الضرورة الملحة للبحث في هذا الموضوع، إلا أن الدراسات التي خصصت لها تبقى نادرة نظرا للحساسية التي تكتسبها، حيث إن الأقاليم المغربية التي خاضت فيها يمكن القول أنها معدودة على رؤوس الأصابع³⁴⁷. أما الدارسون الأجانب الذين اهتموا بالمغرب

³⁴⁷ يتعلق الأمر ب:

- العمراني سعيد، أحداث الريف كما رواها لي أبي، **طنجة**، مطبعة سليكي أخوين، 2014.
- أمزيان محمد، **محنة الريف: من الانتفاضة إلى الحراك**، تطوان. منشورات تيفراز ن أريف 17، الطبعة الأولى، 2018.
- أعراب مصطفى، **الريف بين القصر وجيش التحرير وحزب الاستقلال**، منشورات اختلاف، 2001.

حراك الريف... ريف الحراك

بعد الاستقلال، فأفضلهم حالا خصص لهذا الحدث فصلا من صفحات معدودات³⁴⁸.

لم يكن في الإمكان أن أتجراً على هذا الموضوع، لولا توفر مصادر جديدة سمحت بمحاولة تفسير ما وقع انطلاقاً من دور العامل الخارجي. فإذا كان المتداول فيما يتعلق بهذا الشأن هو دعم اسبانيا للمتمردين³⁴⁹ بالسلاح، فإن ما توفر لدينا يقدم معلومات حول حضور قوى خارجية أخرى، وهي مصر وجبهة التحرير الجزائرية، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي. وهذه المصادر هي وثائق وزارة الخارجية الفرنسية³⁵⁰، وتتضمن ملفاً حول أحداث الريف 1958-1959، إلى جانب ملفات أخرى. إضافة إلى وثائق خاصة بمحمد بن عبد الكريم الخطابي حول هذا الحدث ضمن مخطوط غير منشور أنجزه محمد سلام أمزيان قائد التمرد³⁵¹. ثم وثائق مصرية، ضمن ملحق أطروحة أنجزها باحث مصري حول العلاقات المغربية المصرية³⁵². فما هي المعطيات التي تقدمها هذه الوثائق حول تدخل كل من مصر والخطابي وجبهة التحرير الجزائرية في أحداث الريف؟ وهل ما تضمنته يشكل حججاً دامغة على تورط هذه الأطراف؟ وكيف أثر ذلك على موقف المسؤولين المغاربة مما كان يجري بالريف؟

³⁴⁸ انظر على سبيل المثال، دوغلاس آي أشفورد، **التطورات السياسية في المملكة المغربية**، ترجمة عائدة سليمان عارف، أحمد مصطفى أبو حكمة، الدار البيضاء دار الكتاب، 1963.

³⁴⁹ استعملت هذه العبارة للدلالة على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

³⁵⁰ يتعلق الأمر بالوثائق الموجودة في كل من:

– Centre des Archives Diplomatiques de Nantes

وسنرمز لها ب (C.A.D.N) وكذلك:

– Documents Diplomatiques Français

وسنرمز لها ب (D.D.F)

³⁵¹ شكراً للأستاذ زكي مبارك الذي مكنتنا من الاطلاع على هذا المخطوط

³⁵² البدوي حسن محمد حسن، **العلاقات المغربية المصرية منذ 1956 حتى 1981**، بحث لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الافريقية، 2011.

١. السياق العام لأحداث الريف

1) التطورات الإقليمية من استقلال المغرب إلى أحداث الريف

يقع المغرب جغرافيا في شمال إفريقيا، ويوازي تنوع المنطقة تضاريسا تعدد مشاكلها السياسية غداة توقيع المغرب على الاتفاقية القاضية باستقلاله. فقد اعتبرت مصر ذلك خذلانا للثورة الجزائرية، وعلى نفس المنوال ذهب محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي كان يطالب باستقلال بلدان المغرب الكبير الثلاثة مجتمعة. ودخلت العلاقات المغربية المصرية في عدة أزمات، من بينها أزمة دجنبر 1957 التي يرجع سببها إلى هجوم الصحافة المصرية على المغرب، وخصوصا شخص الأمير مولاي الحسن، إضافة إلى أزمة احتجاج الطلبة المغاربة بمصر أمام السفارة المغربية بالقاهرة. وهو ما كان موضوع اجتماع بين عبد المجيد بن جلون القيادي في حزب الاستقلال، ونظيره سفير مصر بالرباط، حيث احتج الأول على الثاني باعتبار أن احتجاج الطلبة المغاربة يرجع أساسا إلى تحريض المسؤولين المصريين بالقاهرة لهم، وليس بسبب تأخر منحهم كما ادعت السلطات المصرية. وخلال الاجتماع، هدد ابن جلون بسحب جميع الطلبة المغاربة بمصر. كما انتقد هجوم الصحافة المصرية على شخص الأمير مولاي الحسن، وأوضح أن نظيرتها المغربية في إمكانها نشر أخبار مماثلة عن شخصيات مصرية³⁵³. ولم يكن المغرب وحده الذي تعرض لهجوم من هذا النوع، بل تونس أيضا، حيث استضاف جمال عبد الناصر، صالح بن يوسف المنافس الرئيسي للحبيب بورقيبة، وقدم له الدعم لمحاربة هذا الأخير.

إلا أن الوضع لم يستمر على هذا الحال، فبعد انصهار مصر وسوريا في الجمهورية العربية المتحدة بتاريخ 22 فبراير 1958، تفاعل المغرب مع الحدث إيجابا، وتجلى ذلك في اعتماد محمد الخامس عبد الخالق الطريس سفيرا للمغرب بها سعيا منه لتمتين العلاقة والاعتراف بهذا الكيان الجديد. قابل الجانب الآخر هذه المبادرة بالمثل، إذ استقبل جمال عبد الناصر يوم 19 أبريل 1958 وزير المالية المغربي عبد الرحيم بوعبيد من أجل دراسة مساهمة بنك القاهرة في رأسمال بنك المغرب. وبعدها كانت تشير العديد من التقارير المصرية إلى أن علال الفاسي الذي شنت عليه كل

³⁵³ البدوي حسن محمد حسن، العلاقات المغربية المصرية منذ 1956 حتى 1981، م.س، ص 67.

من مصر والخطابي حملة بعد استقلال المغرب، أنه كان يسعى لإفساد العلاقة بين البلدين³⁵⁴، تأسف هذا الأخير للملحق العسكري المصري على نشر جريدة العلم لمقالة تسيء لمصر، وأوضح أنه لم يطلع عليها، كما أبدى امتعاضه من مهاجمة إذاعة صوت العرب لشخصه³⁵⁵.

واستمرت المجاملات والزيارات بين الطرفين، ومن ذلك، حضور سفير الجمهورية العربية المتحدة في الرباط للاحتفال بأعياد الشباب وعيد ميلاد ولي العهد يوم 7 يوليوز 1958، وخلالها أجرت إذاعة طنجة الدولية حوارا مع السفير المصري، أثنى من خلاله على المغرب، وأعرب عن تأييد الجمهورية العربية المتحدة له ولمواقفه وتوجهاته السياسية، ومنها المطالبة برحيل قوات الاستعمار. وقد كان لهذا الحوار الوقع الإيجابي على الطرف المغربي، فقد أثنى الأمير مولاي الحسن على موقف الجمهورية العربية من قضايا المغرب. كما أعرب علال الفاسي عن إعجابه بتصريح السفير المصري، وهنأه على موقف بلاده من قضية الجلاء³⁵⁶.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بقي الطرف المغربي على الحيطة والحذر من مصر، وخصوصا ما يتعلق بقضية الجزائر، حيث عمل بالتعاون مع تونس على إعادة إدماج الجزائر في الإطار المغاربي وقطع صلتها بعبد الناصر، وفي هذا الإطار، عقد مؤتمر طنجة ما بين 27 و 30 أبريل 1958 لدعم فكرة النضال المشترك بين البلدان الثلاثة. خرج المؤتمر بعدة توصيات أهمها مساندة ثورة الجزائر، وتشكيل حكومة مؤقتة. تلا ذلك مؤتمر تونس في يونيو من نفس السنة، إلا أن هذه الأخيرة دخلت في أزمة مع جبهة التحرير الجزائرية بسبب توقيعها على اتفاقية مع فرنسا، تسمح لهذه الأخيرة بنقل بترول إيجلي بالجزائر عبر التراب التونسي، مقابل إيرادات مالية تمنحها فرنسا لتونس³⁵⁷.

³⁵⁴ ملحق 59، تقرير سفير مصر في المغرب عن موقف علال الفاسي المعادي لمصر، 8 أبريل 1957، البدوي حسن محمد حسن، محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير شمال إفريقيا 1920م- 1963م (وثائق ومذكرات)، الإسكندرية، منشورات ماهي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2017،

³⁵⁵ البدوي حسن محمد حسن، العلاقات المغربية المصرية منذ 1956 حتى 1981، م.س، صص 72-73.

³⁵⁶ نفسه، ص 74

³⁵⁷ مقالاتي عبد الله، الثورة الجزائرية وأزمة الخلافات مع نظام بورقيبة عامي 1958-1959: دراسة في طبيعة الخلافات وسبل تجاوزها، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 154-155، سنة 2014، ص 228.

إن هذه الأوضاع جعلت محمد بن عبد الكريم الخطابي يدخل على الخط، ويخرج بعدة تصريحات ونداءات، فقد صرح يوم 6 يوليوز 1958 أن الهدف من مؤتمر تونس هو عزل الجزائر وقطع المدد عنها من تونس والمغرب. واعتبر أن الوحدة التي نادى بها المؤتمر، لا تحقق سوى مصالح فرنسا³⁵⁸. ويوم 17 يوليوز استغل مرور الحجاج المغاربة من قناة السويس، وأرسل ابنه عبد الكريم للترحيب بهم، ثم وزع عليهم بيانا ورد فيه أن تونس والمغرب يسيران في نفس الخط، حيث عقدا مؤتمرين لحساب الاستعمار، الأول بطنجة والثاني بتونس، وأكد أن الهدف منهما هو إدخال المغرب العربي في حلقة النفوذ الاستعماري باسم الوحدة المغربية. تلاه بيان آخر يوم 30 يوليوز 1958 وجهه إلى شعوب شمال إفريقيا، اتهم من خلاله المسؤولين بالمغرب وتونس بأنهم أخذوا شعار القومية العربية من أجل خداع شعوبهم³⁵⁹.

لا شك أن هذه التصريحات التي كان يقوم بها الخطابي كانت تقلق المسؤولين المغربية، وعليه استدعى ادريس بوسنة الكاتب العام لوزارة الخارجية المغربية سفير الجمهورية العربية المتحدة في الرباط يوم 20 غشت 1958، واحتج على مهاجمة الخطابي للمغرب من خلال صحف صادرة في الجمهورية العربية المتحدة. أرسل السفير خطابا لحكومته طالب من خلاله أن يكون نشاط اللجنة العربية للحرية المغربية التي يترأسها الخطابي في إطار لا يسيء للعلاقات بين البلدين، وهو ما استجابت له القاهرة³⁶⁰.

وقبل أن نختم هذا الجزء، لا بد من الإشارة إلى أن علاقة تونس بمصر، بقيت متوترة جدا. وبعبارة كان هذا هو الوضع في شمال إفريقيا، وسنرى لاحقا كيف أثرت هذه الأوضاع وتداخلت تطوراتها مع أحداث الريف.

³⁵⁸ الملحق رقم 65، بيان الأمير الخطابي بمجلة البوليس المصرية عدد يوم 6 يوليوز 1958، البدوي حسن محمد حسن، العلاقات المغربية المصرية منذ 1956 حتى 1981، م س

³⁵⁹ حسن محمد حسن البدوي، العلاقات المغربية المصرية منذ 1956 حتى 1981، م.س. ص 77.

³⁶⁰ الملحق رقم 72، تقرير السفارة المصرية بالمغرب بشأن منشورات الحجاج المغاربة، 20 غشت 1958م، البدوي حسن محمد حسن، محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير شمال إفريقيا 1920م-1963م (وثائق ومذكرات)، م.س.

2) المنطقة الشمالية من اندماجها في المنطقة الجنوبية إلى أحداث الريف.

لا يتسع المجال هنا للخوض في معظم المشاكل التي واجهتها المنطقة من استقلال المغرب إلى اندلاع أحداث الريف³⁶¹، وسأقتصر على البعض منها من خلال تقرير أعده القنصل الفرنسي بتطوان بتاريخ 30 يوليوز 1957، أي بعد مرور سنة كاملة على اندماج شمال المغرب في جنوبه. يستعرض التقرير ثلاثة مشاكل نتجت عن الوضع الجديد. أولاً المشاكل الإدارية التي أصبحت تتخبط فيها المنطقة الشمالية، فقد عانت الإدارة من ثلاثة مشاكل، يتعلق الأول بسلطات العامل المحدودة، حيث أن دوره أصبح يقتصر على استقبال الملفات وإرسالها إلى الرباط للنظر فيها. وهذا الذهاب والإياب بين الرباط وتطوان أبطأ من فعالية الإدارة، وهو ما جعل الساكنة توجه أصابع الاتهام للموظفين القادمين من الجنوب بالمساهمة في عرقلة سير المرفق العام. وقد خلص القنصل بخصوص هذا المشكل، إلى أن الشباب الذين يأتون من الجنوب لتقلد مناصب رفيعة في المنطقة الشمالية، عوض أن يساهموا في الوحدة، فإنهم يكرسون الانقسام³⁶².

أما المشكل الثاني ضمن المشاكل الإدارية، فيتمثل في أن الأطر المنحدرين من المنطقة الشمالية، وبعد ظهور مشاكلهم مع زملائهم القادمين من المنطقة الجنوبية، لم يفعلوا شيئاً من أجل تسهيل سير الإدارة. وبالعكس، فقد ساهموا في تعقيد المهام قصد إظهار مدى فشل القادمين من المنطقة الجنوبية. وكنتيجة لذلك، آلت الأمور بعد سنة فقط إلى صراع ومعارضة إجمالية بين مغاربة الجنوب الناطقين بالفرنسية الذين جاؤوا لاحتلال مناصب إدارية رفيعة، ومغاربة الشمال الناطقين بالاسبانية. وأشار القنصل أن لا أحد من الأطراف المتصارعة يحب فرنسا أو إسبانيا. وخلص بخصوص هذه النقطة، إلى أن الكراهية المشتركة للاستعمار لا تساهم في خلق

³⁶¹ حول هذا الموضوع يمكن الاطلاع على:

- أمزيان محمد، محنة الريف: من الانتفاضة إلى الحراك، تطوان، م.س.
- أعراب مصطفى، الريف بين القصر وجيش التحرير وحزب الاستقلال، م.س.
- دوغلاس آي أشفورد، التطورات السياسية في المملكة المغربية، م.س.

³⁶² (C.A.D.N) Rabat Ambassade, n° 97 (558 PO/1/97), Du Consul Général de France à Tétouan, au Ministre des Affaires Etrangères, «situation politique dans les provinces du nord», 30 Juilly 1957.

تقارب بينهم. وبالعكس فإن اللغتين الفرنسية والإسبانية تساهمان في تفريق أبناء البلد الواحد³⁶³. وفيما يتعلق بالمشكل الثالث، فهو مشكل الأنا والآخر، ذلك أن موظفي الشمال ينظرون إلى أنفسهم كنبلاء البلد، لأنهم ينتمون إلى عائلات عريقة ومعروفة، كما أنهم لم يتخلوا عن نمط عيشهم. وفي المقابل فإن نظرتهم إلى أبناء المنطقة الجنوبية لا تخلوا من احتقار، إذ يعتبرونهم مجرد دخلاء، وأناس همجيين³⁶⁴. هذا بخصوص المشاكل الإدارية كمشكل أول.

وبخصوص المشكل الثاني، فهو الثقافي، أو ما سماه القنصل "مشكل الخصوصية الريفية"، فقد لاحظ أن المنطقة أمضت مائة سنة وهي مغلقة على ذاتها، ولم يغير الاستقلال شيئا من خصوصيتها. وعندما عملت الحكومة على دمجها في المنطقة الجنوبية، فإنها ارتكبت خطأ باستعمال آليات مستلزمة من الوسائل التي وظفتها فرنسا عندما حاولت جعل الجزائر مقاطعة تابعة لها. وأضاف أن المعارضة الممثلة في حزب الشورى والاستقلال، تعارض فكرة العمل على إلغاء "الخصوصية الريفية"، حيث أنها تعمل على التحريض ضد سياسة الحكومة في هذا الباب³⁶⁵.

وفيما يتعلق بالمشكل الثالث وهو السياسي، فقد تعرض التقرير إلى نشاط ونفوذ كل من حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال في المنطقة الشمالية. ومن خلال جولة قصيرة في الشوارع والأحياء يمكن ملاحظة أن النساء اللواتي يرتدين حجابا أزرق، للذي يدل على حزب الشورى والاستقلال، أكثر من الحجاب الأحمر الذي يدل على حزب الاستقلال. وصنف التقرير قوة وحضور الحزبين في المنطقة إلى حزب الاستقلال ذو الحضور والشعبية المتواضعة، وحزب الشورى والاستقلال صاحب الشعبية الكبرى، مع العلم أن لا أحد منهما نشأ أو تأسس هناك. وأشار القنصل أن حزب الاستقلال كان يعاني كثيرا في المنطقة الشمالية، لأنه هو الذي يسير الحكومة، وكان من نتائج ذلك تراجع عدد مناصريه، وأصبح لا يجد الدعم إلا في القصر الكبير وتطوان، على الرغم من زيارات علال الفاسي المتكررة إلى المنطقة الشمالية، ومحاولات القيام بإظهار هيبة وحسن نوايا الحزب. أما عدد أعضائه في

³⁶³ Ibid.

³⁶⁴ Ibid.

³⁶⁵ Ibid.

مجموع المنطقة الشمالية بأجمعها فإنه لا يتجاوز 3000 عضوا، استنادا إلى دراسة رسمية قامت بها إدارة الأمن الوطني³⁶⁶.

أما حزب الشورى والاستقلال، فمن خلال نفس الدراسة فإن عدد أعضائه كان حوالي 24000 عضو، وهو فرق كبير بينه وبين غريمه. وأشار القنصل إلى أن الحزب في المنطقة الشمالية مختلف تماما عن المنطقة الجنوبية، إذ أنه أقوى بكثير، حيث جند المئات من العائلات في المنطقة، كما أنه قدم نفسه كمُدافع عن "الخصوصية الريفية". ويتركز نفوذه في الريف، ويستهدف كل الذين من الممكن أن يستفيدوا من الوقوف في صف المعارضة³⁶⁷.

هكذا إذن غدت الأوضاع في المنطقة الشمالية بعد مرور سنة على الاستقلال واندماج المنطقتين. وبالتزامن مع تاريخ هذا التقرير، ظهر حزب الحركة الشعبية على مسرح الأحداث ككيان سياسي جديد منذ يوليوز 1957، ومنذ تأسيسه في الأطلس المتوسط، نقل نشاطه ودعايته إلى الريف حتى صار يسمى "حزبا ريفيا"، بفعل إقبال عدد كبير من الريفيين على الانخراط فيه³⁶⁸، وتحول إلى أداة لترجمة الاستياء العام من حزب الاستقلال. ولما اشتدت شوكته، واستقطب عددا كبيرا من أعضاء جيش التحرير، أراد أن يعلن عن حضوره في الساحة السياسية. ومن أجل ذلك، بدأ زعماء الحزب يفكرون في إعادة دفن رفات شهداء جيش التحرير بأجدير، ومن بينها جثة عباس المسعدي، الذي كانت كل أصابع الاتهام حول اغتياله موجهة نحو حزب الاستقلال. وهكذا دخل حزب الحركة الشعبية وحزب الشورى والاستقلال في مفاوضات من أجل إعادة دفن رفات الشهداء، واجتمع الطرفان مرة أولى بفاس في بداية شتنبر 1958، وفي اجتماع ثاني يوم 20 من نفس الشهر تم الاتفاق خلاله بشكل نهائي على أن يكون ذلك يوم 2 أكتوبر، الذي يشكل ذكرى انطلاقة عمليات جيش التحرير في الشمال³⁶⁹.

³⁶⁶ Ibid.

³⁶⁷ Ibid.

³⁶⁸ (C.A.D.N), Rabat Ambassade n°37 (558PO/1/37), du Consul Général de France à Tétouan, à M. Parodi Ambassadeur de France à Rabat, Tétouan, le 1 octobre 1957.

³⁶⁹ (C.A.D.N), Rabat Ambassade n°37 (558PO/1/37), Renseignement de section d'études, à l'ambassadeur de France au Maroc, Etude marocaine sur l'activité du mouvement populaire, 30-10-1958.

١١. من أكتوبر إلى نونبر 1958:

اتهامات للخطابي واسبانيا بتوزيع الأسلحة

1) دعم الخطابي للمتمردين: تأكيد فرنسي وتكذيب مصري

يوم 2 أكتوبر، يوم الاحتفال بذكرى انطلاق عمليات جيش التحرير في الشمال، نفذ زعماء الحركة الشعبية قرارهم وشرعوا في إعادة دفن رفات شهداء معارك جيش التحرير. وهو ما كان إيذانا بانطلاق ما يعرف بأحداث الريف (2 أكتوبر 1958 - فبراير 1959)، وعلى إثر ذلك صدرت مذكرة بحث في حق زعماء الحركة الشعبية المسؤولين عن نقل الجثة وهم الدكتور الخطيب، والمحجوبي أحرضان، وعبد الله الصنهاجي. ألقى القبض على اثنين ومعهم بن عبد الله الوكوتي، بينما فر الثالث وهو عبد الله الصنهاجي إلى الدار البيضاء في البداية، ثم في ظروف غامضة إلى الناظور. وفور وصوله إليها، بدأ الريف الشرقي يعرف حركة ونشاطا تنذر بأن الاضطرابات ستتقل إليه لا محالة، حيث أبدت مصالح الأمن بالناظور قلقها من الوضع، وأكدت أن السبب في ذلك هو أن عبد الله الصنهاجي بدأ يوزع الأسلحة بشكل منظم في المنطقة³⁷⁰.

في هذه المرحلة أي منتصف أكتوبر، وبعد أن نفذ الجيش الملكي عمليتين عسكريتين في كل من الأطلس المتوسط وقبيلة بني وراين، ظهرت فرق مسلحة في عدة مناطق. لخص السفير الفرنسي بالرباط الوضع هناك في تقرير بعثه إلى وزير خارجية بلده، في أن الاضطرابات التي أعقبت نقل جثة عباس المسعدي إلى الريف، والمناطق المحاذية له، كانت تتحكم فيها الحركة الشعبية، إلا أنها بدأت تخرج عن سيطرتها، رغم سعي هذه الأخيرة قدر الإمكان إلى الحفاظ على الزعامة، وأكد أنه إذا كان بعض الزعماء المحليين يدعون أنهم ينتمون إلى الحركة الشعبية بهدف

³⁷⁰ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Note de renseignement, « Situation dans le Riff », 17-10-1958.

الحصول على السلاح، فإن البعض الآخر ربطوا الاتصال مع جهات أخرى³⁷¹. غير أن السفير لم يشر في تقريره إلى هذه الجهات بالإسم. فمن هي؟ وما مصلحتها؟ تتوفر بعض الوثائق والمصادر حول هذه المسألة، ولعل أهمها الوثائق الفرنسية والمصرية، غير إن ما يمكن ملاحظته حولها هو التناقض والتضارب. فكل طرف يتهم الآخر. ومن ذلك، تقدم وثيقة فرنسية معطيات حول الأطراف الخارجية التي قدمت السلاح للمتمردين، جاء فيها، أن الصنهاجي لما ذهب إلى الريف الشرقي، فإن السلاح الذي أخذ يوزعه لم يكن في ملك الحركة الشعبية، بل كان يتسلمه من طرف آخر هو أبناء محمد بن عبد الكريم الخطابي، فبعد وصوله إلى الناظور، ربط الاتصال بهم وزودوه بالسلاح، وأخذ يوزعه انطلاقاً من مركز مزكيتام على كل من قبائل مطالسة واكرناية، وهو ما جعل أنصاره يتزايدون³⁷².

إن هذه المعطيات التي تقدمها الرواية الفرنسية تثير كثيراً من التساؤلات، ومنها: ما علاقة الحركة الشعبية بالخطابي؟ وهل كانت هناك خطة مدبرة بينهم من قبل، من أجل إرسال السلاح إلى المغرب؟ أم إن الأمر لا يعدو أن يكون مبادرة فردية من الصنهاجي؟ والأهم من ذلك، ما مدى صدق المعلومات التي تقدمها هذه الوثيقة؟ ورد في نفس الوثيقة الفرنسية، أن الصنهاجي لما وزع السلاح على أنصاره بكل من مطالسة واكرناية، فقد أعلنوا عداؤهم للحركة الشعبية³⁷³، فهل معنى هذا أن تسلم السلاح كان مقابل العداء للحركة الشعبية؟

وهل فعلاً دعم أبناء الخطابي الصنهاجي في هذه المرحلة بالسلاح كما تدعيه الوثيقة الفرنسية؟ تتوفر وثيقة مصرية حول هذه المسألة، تبطل الرواية الفرنسية، وهي عبارة عن تقرير رفعه السفير المصري بالمغرب إلى وزير خارجيته جاء فيه، إن هذا الأخير ناقش رشيد الخطابي نجعل محمد بن عبد الكريم الخطابي حول الوضع بالريف، وأخبره هذا الأخير أن الحركة تفتقر للتوجيه، ولا تركز على أهداف غير القضاء على حزب الاستقلال، كما أبدى قلقه من أن يستغل الفرنسيون والإسبان ما يحدث ويحولونه إلى صراع بين العرب والأمازيغ. ومما أكد عليه رشيد الخطابي أيضاً، وهو

³⁷¹ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), De l'ambassadeur de France au Maroc, au Ministre des Affaires Étrangères, Rabat, le 24 novembre 1958. P.1

³⁷² (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Note de renseignements, 22-10-1958.

³⁷³ Ibid.

أن أسرته لا توافق على ما يجري بالريف، وأنها اتصلت بالملك محمد الخامس يوم 20 أكتوبر، وكان في حيرة من أمره، ما جعله يطلب منهم أن يقوم محمد بن عبد الكريم الخطابي شخصيا بزيارة إلى المغرب، لأنه الوحيد القادر على تهدئة الوضع³⁷⁴.

وإذا كانت الوثائق الفرنسية تتهم أسرة الخطابي بتقديم السلاح للمتمردين، فإن نظيرتها المصرية تشير إلى نقيض ذلك، فرغم أنها أكدت توزيع الأسلحة في هذه المرحلة من طرف جهات خارجية، إلا أنها تنسبها إلى أطراف أخرى، ويتعلق الأمر بكل من فرنسا وإسبانيا. فقد أوضح السفير المصري في تقريره أنهما تحاولان استغلال الاضطرابات التي تقودها المعارضة بالريف عن طريق تشجيع الطرفين على بعض، حيث حاول الإسبان الظهور كمتعاطفين مع المتمردين من خلال مدهم بالسلاح. أما فرنسا فإنها قدمت لهم الدعم من أجل تشجيع الوضع على أن يصبح أسوأ، فقد أكد السفير أن أحمد الزغاري الذي شغل منصب سفير المغرب بفرنسا ووزير الدفاع، أخبره أنه في حال عجزت الحكومة عن إعادة الأمور إلى نصابها، فإنها ستكون مضطرة إلى طلب تدخل الجيش الفرنسي من أجل تهدئة الوضع، وهو ما تبحث عنه فرنسا، لأن من شأن ذلك أن يلمع صورة الجيش الفرنسي المرابط بالمغرب، ويظهر أهميته الكبيرة في المحافظة على استقرار المغرب والحاجة الدائمة إليه.

وفي ختام تقريره لخص حال المتمردين الذين كانوا يطلبون الأسلحة من فرنسا وإسبانيا كالتالي: "ومما يؤسف له هو أن المتمردين يؤاخذون على الحكومة تلكؤها في معالجة جلاء القوات الأجنبية من المغرب، وهم لا يطبقون رؤية الجنود الأجانب يتجولون في بلادهم متمنطقين بالسلاح، الأمر الذي لا يشعرهم بتبدل الأوضاع من أيام الاحتلال، فما زالت المناظر واحدة. فمن المؤسف أن يسمع الإنسان مثل هذه الأقوال، ويرى مثل هذه الجماعات تستقبل السلاح ممن يزعمها النظر إليه وهي لا تدري بأنها أصبحت مستغلة من الاستعمار"³⁷⁵.

³⁷⁴ ملحق 76، تقرير عن تدهور الوضع في المغرب، 21 أكتوبر 1958، البدوي حسن محمد حسن، العلاقات المغربية المصرية منذ 1956 حتى 1981، م س.

³⁷⁵ نفسه

(2) ورطة اسبانيا.

وبالموازاة مع ما كانت تشير إليه التقارير الفرنسية والمصرية، فإن الشك في وجود دعم خارجي لما يقع بالريف كان حاضرا عند المغاربة أيضا، وهو ما برز من خلال محاضرة ألقاها عبد الرحيم بوعبيد، وزير الاقتصاد الوطني في حكومة بلافريج يوم 22 أكتوبر بعنوان "ستان ونصف من الاستقلال"، ذلك أنه شبه ما يقع بالريف بتمرد عدي ويهي عامل إقليم تافيلالت في يناير 1957، وألح على أن وجه الشبه بينهما هو التدخل الخارجي، فإذا كان عدي ويهي تلقى السلاح من جهات خارجية، حسب بوعبيد، فإن ما يقع بالريف مشابه له. كما أرجع سبب تأخر المغرب بعد سنتين من الاستقلال في شتى المجالات إلى التدخل الخارجي. بيد أنه لم يذكر هذه القوة الخارجية³⁷⁶.

لم يكن ما ادعاه بوعبيد من فراغ، فلا شك أنه كان يتوفر على معلومات بخصوص الموضوع، كيف لا وهو عضو في الحكومة. وفعلا كانت هناك معلومات مصدرها الجيش الملكي، فبعدما كان هذا الأخير يقوم بعمليات ملاحقة كل من بن الميلودي في الأطلس المتوسط، ومحمد او بن حدو في بني وراين، ومسعود أقجوج في اكزناية، وأثناء حملات الاعتقالات والتمشيط، اكتشف أن العديد من الأسلحة مصدرها اسبانيا. وفور ذلك أصدرت الحكومة المغربية بيانا رسميا تؤكد من خلاله أن ما يحدث بالريف، سببه التدخل الخارجي بالأساس دون أن تتهم اسبانيا بصفة مباشرة. وعقب ذلك، سعت اسبانيا لاحتواء الأزمة، حيث سارعت إلى تقديم مساعدات عسكرية للجيش الملكي بهدف المساهمة في إخماد الاضطرابات، ومنها تزويد الجيش الملكي بكمية كبيرة من قذائف 105 ملم، إضافة إلى عشرين ضابط صف تعددت اختصاصاتهم بين مدفعيين وتخصصات أخرى. لم يرتد الجنود الإسبان بذلا عسكرية اسبانية، بل لبسوا بذلا خاصة بالجيش الملكي. ولتجنب أية شبهة في المستقبل، قامت اسبانيا بإخلاء مستودع للأسلحة كان في ثكنة عسكرية

³⁷⁶ Alistiqlal, 1 novembre 1958.

قرب مليلية، وأصدرت بيانا رسميا نفت من خلاله تدخلها في الشؤون الداخلية للمغرب³⁷⁷.

كان من الطبيعي أن تتفاعل الجرائد المغربية مع هذا المستجد، فبعد أن كانت تربط أسباب الاضطرابات بالفيوداليين، وعناصر الفوضى والفتنة تغير خطابها منذ بداية نونبر. فقد كتبت جريدة الاستقلال لسان حال حزب الاستقلال بالفرنسية، افتتاحيتها حول ما يقع بالريف وأسبابه، واعتبرت أن المغرب ليس استثناء مقارنة مع الدول الحديثة العهد بالاستقلال، حيث أن العديد من الدول تعرف اضطرابات داخلية بسبب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وهو أمر طبيعي. غير أن الاستثناء هو ما يحدث بالمغرب، الذي تعود أسباب جميع اضطراباته الداخلية إلى التدخل الخارجي، ومن ذلك ما يقع بالريف، وأوضح أن أكبر مثال على ذلك هو حادثة عدي وببيهي التي كشفت عن مدعّميه الخارجيين الذين قدموا له الأسلحة. وفي الختام شبت قادة الاضطرابات بكل من أكنول وولماس وتاهلة بأتباع بوحمارة مؤسس مدرستهم، وأن سادتهم الخارجيين ما يزالون بالمغرب³⁷⁸.

ومن جانبها، عقت جريدة الطليعة على زيارة سفير اسبانيا بالرباط إلى مقر وزارة الخارجية المغربية، قصد تأكيد براءة بلده من التدخل في الشؤون الداخلية للمغرب. وعلقت على الأمر بأنها كانت تتوقع ذلك من فرنسا وأمريكا أيضا: "غير أن هناك أمرا واضحا، هو أن التوتر الذي يسود المغرب يحمل طابع الأجنبي، ذلكم الأجنبي الذي يطمح في السيطرة علينا، والذي يعرف كيف يخلق لنا المصاعب ويستغل الاضطرابات لإقامة جبهة داخلية تمهد له السبيل للوصول إلى أهدافه"³⁷⁹. ورغم نفي اسبانيا رسميا علاقتها بالمرتدين، إلا أن الأجهزة الفرنسية لم تخف قلقها وزعمت أن الاسبان أصبحوا يلعبون سياسة شد العصي من الوسط، إذ يقدمون مساعدات للجيش الملكي في العلن، مقابل مساعدة المتمردين في الخفاء³⁸⁰.

³⁷⁷ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), De l'ambassadeur de France à Rabat à Diplomatie Paris, n 5577/ 76, Rabat le 1-11 -1958

³⁷⁸ Alistiqlal, 1 novembre 1958,

³⁷⁹ الطليعة، 1 أكتوبر 1958.

³⁸⁰ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), De l'ambassadeur de France à Rabat à Diplomatie Paris, n 5577, Rabat le 1-11 -1958.

III. من نونبر إلى دجنبر 1958:

من الشك إلى اليقين في التدخل المصري

(1) اتهام بورقيبي ونفي مصري.

لم يكتشف الجيش الملكي أثناء حملته التمشيطية أسلحة مصدرها إسبانيا فقط، بل مصرية أيضا³⁸¹. وأمام هذه الأخبار حاولت السفارة الفرنسية بالرباط التحري عن الموضوع، خاصة وأن بلافريج رئيس الوزراء أخبر السفير الفرنسي في وقت سابق أن حكومته قلقة جدا من كمية الأسلحة الأمريكية التي تم ضبطها. وعلى هذا الأساس حاول هذا الأخير جمع معلومات أكثر حول الموضوع، خاصة وأن الحديث صار يدور حول الأسلحة المصرية أيضا، وعليه زار إدريس بوستة الكاتب العام لوزارة الخارجية في فاتح نونبر قصد معرفة الجهات التي تمنح للمتمردين الأسلحة أو تسعى لذلك، وخلال اللقاء تداول الطرفان حول عدة قضايا كان أبرزها ما يقع بالريف، وهل هناك تدخل خارجي. إلا أن بوستة فاجأ بالتهرب من الإجابة عن السؤال عن طريق إثارة موضوع آخر³⁸².

إن ما لاحظته السفير الفرنسي من صمت السلطات المغربية وعدم تقديمها أية معطيات، كان موضوع مآخذة أيضا من الصحافة الوطنية عليها. فقد لاحظت جريدة الطليعة أنه منذ اندلاع الاضطرابات في الريف، دأبت الحكومة على ظاهرة وهي عدم تقديم معلومات حول الوضع، ونبهت إلى أن عدم تنوير الرأي العام من شأنه أن يفتح المجال للبعض للترويج لأخبار زائفة "وهكذا بدأت تروج في الأوساط المغربية أخبار مزيفة، الغرض منها إقلاق الأفكار للزج بالمغرب في الهاوية، وكل هذه الأنباء المصطنعة صادرة عن الصحافة والإذاعات الاستعمارية أو عن برائين الأجنيبي في الداخل. في حين المعالم الاخبارية المغربية لا تحرك ساكنا متمسكة بصمتها، لا هي تفند أقاويل الاستعمار وأذنا به، ولا هي تزود الرأي العام بالتفاصيل الشافية عن

³⁸¹ Ibid.

³⁸² (D.D.F), Document n°309. De M. Parodi Ambassadeur de France à Rabat, à M. Couve de Murville, Ministre des Affaires Etrangères, Rabat, 1 novembre 1958.

الحالة الراهنة في شمال البلاد³⁸³. كما انتقدت اسبوعية الاستقلال وزارة الداخلية أيضا واستنكرت صمتها وعدم تقديمها أية معلومات حول مستجدات الوضع في المنطقة³⁸⁴. فما سبب هذا التكتم؟ هل لأن الحكومة كانت غير متأكدة من وجود تدخل خارجي؟ أم أنها كانت فعلا على اطلاع بوجوده إلا أنها كانت ترغب في معالجة الموضوع بطريقة أخرى؟ كلا الاحتمالين واردان، غير أن عدم توفر الحجج والبراهين لتأييد الفرضية الأولى أو الثانية يجعلنا نكتفي بطرح التساؤلات.

وبالموازاة مع ذلك، وقع مستجد في شمال إفريقيا وهو أزمة مصرية تونسية، بسبب اتهام الحبيب بورقيبة لجمال عبد الناصر بمحاولة اغتياله، ذلك أنه أقام الدليل على ذلك باعتقال ضابطين مصريين ادعى أنهما تسللا إلى تونس من أجل تنفيذ المهمة، ولا شك أنه كان لهذه الواقعة تأثير على المغرب. ففي هذه المرحلة كان علال الفاسي يقوم بزيارة إلى تونس ما بين 27 أكتوبر و2 نونبر 1958. وفور عودته، وفي خضم الحديث عن التدخل المصري، لم يكن هذا الأخير متفاجئا من الأمر بل أتى ومعه أكثر من ذلك، فقد سلمه الحبيب بورقيبة ملفا وثائقيا يتضمن معطيات حول مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة في اضطرابات الريف³⁸⁵. لم يتوقف بورقيبة عند تقديم معطيات في سرية للحكومة المغربية والقصر، بل تجاوز ذلك إلى اتهام الجمهورية العربية بصفة علنية، حيث خرج بتصريح لجريدة لوموند قال فيه "يبدو لي أن الحكومة المغربية تتقاسمنا أفكارنا. وسبق لها أن اشتكت الملحق الثقافي المصري، غير أن لها مشاكل داخلية لا تريد أن تزيد تفاحلا. وإنني متيقن أن جلالة الملك والرئيس بلافيج لم يعطيا أمرهما لعبد الخالق الطريس سفيرهما بالقاهرة، ليتخذ الموقف الذي دافع عنه في اجتماع الجامعة العربية"³⁸⁶

وبعد هذا التصريح، وما أصبح يروج له في الأوساط السياسية المغربية عن نشاط مصري مفترض في الريف، أخبر السفير الفرنسي بالرباط وزير خارجيته أن أحد المخبرين قدم له معلومات، وصفها بالمهمة، وهي أن هناك حديثا وسط المتمردين

³⁸³ جريدة الطليعة، 31 أكتوبر 1958

³⁸⁴ Alistiqlal, 1 Novembre 1958.

³⁸⁵ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°75 (558PO/1/75), synthèses mensuelles, novembre 1958, p. 17.

³⁸⁶ نقلا عن الطليعة، 7 نونبر 1958.

بالريف عن إمكانية استقبال مساعدة في المجال العسكري من طرف الجمهورية العربية المتحدة، تتمثل في إرسال ضابطين وهما قبطان سوري وكومندار مصري، ومن المتوقع وصولهما إلى المغرب من أجل السياحة لقضاء عطلة رسمية، ومن تم الانتقال إلى الريف³⁸⁷.

ومن جانب آخر، لم تكن الدبلوماسية المصرية غافلة عما يقع بالكواليس، بل تحركت في الرباط لإقناع المسؤولين المغاربة بأن الأخبار المنتشرة مجرد دعاية تونسية وفرنسية لا أساس لها من الصحة. وفي هذا الصدد، رفع السفير المصري تقريرا إلى وزير خارجية بلده حول الموضوع، جاء فيه أن فرنسا وتونس تسعيان جاهدتين لإقناع المغرب بأن مصر تتدخل في شؤونه الداخلية، وقدم برهنا على ذلك بأن بورقيبة لم يكتف بتسليم ملف لعلال الفاسي، بل أرسل مبعوثا وهو عبد الله فرحات إلى الملك محمد الخامس، حيث سلمه ملفا يتضمن وثائق تدين التدخل المصري في الريف، وأوضح أنه قام بعدة مجهودات لدى السلطات المغربية من أجل إقناعهم بأن ما يروج له بورقيبة مجرد إشاعات هدفها الاساءة للعلاقات بين البلدين، وأضاف أنه ليس تونس وحدها التي تقود الحملة، بل أمريكا وفرنسا أيضا.

ومن خلال نفس التقرير، طمأن السفير وزير خارجية بلده بأن المسؤولين بالرباط لا يعيرون هذه الاشاعات اهتماما، نظرا لمعرفتهم أن مصر تقاوم ما يحدث في الريف ولا تؤيده. وضمن التقرير كتب أن بلافريج صرح له قائلا: " ليكيف الاستعمار عن هذه الدعاية الرخيصة، فالجمهورية العربية قد وقفت من هذه الأزمة موقفا شريفا، ويرجع الفضل في تفادي الأزمة الوزارية إلى سفيرها في الرباط الذي كشف لنا عن التدخل الأجنبي في هذه الأحداث، ومدته المتمردين بالسلاح والمال". كما لم يخف أن السفارة التونسية بالرباط لا تزال تحاول إقناع القصر بأن وجود الخطابي واحمد بن الصديق الدرقاوي في القاهرة، ومدهم بالمال إنما هدفه قلب النظام في المغرب³⁸⁸.

³⁸⁷ (C.A.D.N), Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), De l'ambassadeur de France à Rabat à Diplomatie Paris, n 5717/5718, Rabat, le 12-11-1958

³⁸⁸ الملحق رقم 78، تقرير عن محاولة الاساءة إلى العلاقات المصرية المغربية، 10 نونبر 1958، ضمن البدوي حسن محمد حسن، العلاقات المغربية المصرية منذ 1956 حتى 1981، م س.

يظهر من خلال هذه المصادر، أن فرنسا وتونس تؤكدان التدخل المصري، بينما الجانب المصري ينفي ذلك. ويجب توضيح أن ما تضمنته الوثائق الفرنسية من معلومات عبارة عن إشارات غير دقيقة وتبقى مجرد احتمالات. أما الملف الذي سلمه بورقيبة لعلال الفاسي، والذي يحتوي على معلومات تؤكد تورط مصر في دعم المتمردين، فهو غير متوفر للإطلاع عليه ومعرفة محتوياته. كما يلزمنا أن نستحضر نقطة أخرى أكثر أهمية، وهي أنه في هذه المرحلة كان الحبيب بورقيبة قد دخل مع عبد الناصر في أزمة خطيرة، حيث وجه الأول للثاني تهمة محاولة الإطاحة به عن طريق إرسال ضابطين مصريين إلى تونس لتنفيذ مهمة اغتياله، فهل يمكن أن يكون بورقيبة قد سعى إلى الانتقام من عبد الناصر عن طريق محاولة التشويش على العلاقات المغربية المصرية؟ لا نملك الحجج الكافية لتؤكد أو ننفي ذلك.

أما بخصوص تقرير السفير المصري لوزير خارجية بلده، فهنا يطرح سؤال حول مدى اطلاع السفير على عمل أجهزة المخابرات المصرية في شمال إفريقيا والمغرب. خاصة وأن هذه الأخيرة كانت مرتبطة مباشرة بجمال عبد الناصر، هذا الأخير كان قد عين ضابطا مصريا منذ سنة 1953 ليشرف على الملف العربي وهو فتحي الذيب المشرف المباشر على الملف الجزائري، الذي كتب بدوره كتابا/ شهادة وسمها بعنوان "عبد الناصر وثورة الجزائر"، وخصص فصلا من أربع صفحات لأحداث الريف سماه "ثورة الريف بالأطلس ومراكش" قدم فيه معلومات عن محاولة التنسيق بين الخطابي ومصر وإسبانيا من أجل دعم المتمردين بالسلاح، دون أن يتم ذلك بسبب انسحاب الطرف الإسباني لتخوفه من مسار الأحداث، وتأثير ذلك على العلاقات المغربية الإسبانية. ولكن ليس في هذه المرحلة بل في شهر يناير 1959 عندما تطورت أحداث الريف إلى مستوى آخر³⁸⁹.

(2) تطورات داخلية وخارجية جديدة.

سواء تعلق الأمر بوجود تدخل مصري من عدمه يطرح سؤال، فما موقف المغرب من هذه الأخبار؟ وهل ظل ثابتا أم تغير؟ خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن فرنسا وتونس كانتا تقدمان للمسؤولين المغاربة معلومات ضد مصر. ختم السفير المصري تقريره

³⁸⁹ فتحي الذيب، عبد الناصر وثورة الجزائر، دار المستقبل العربي، القاهرة، الطبعة الثانية 1990، صص

السالف الذكر أن الملك "لا يعير من حيث الظاهر فقط هذه الأقوال كبير أهمية"³⁹⁰، وماذا عن الباطن؟ هل معنى هذا أن الملك كانت له شكوك في مصر؟ لمحاولة معرفة الثابت والمتغير في الموقف المغربي، لابد من إبراز نقطتين أساسيتين وهما: أولاً تطور الاضطرابات في الريف خلال هذه المرحلة، وثانياً تأثير بعض الوقائع والتحولات التي شهدتها منطقة شمال إفريقيا خلال شهر نونبر.

بخصوص النقطة الأولى، من المهم أن نوضح أن الحديث عن التدخل المصري في الريف بدأ بجدية ما بين أوائل نونبر ومنتصفه، أي بعد مرور شهر ونصف على بداية أحداث الريف، وبالتزامن مع هذه المرحلة، كانت الأوضاع في الريف قد تطورت بشكل كبير، ويمكن القول إنها انتقلت من حركات مسلحة هنا وهناك، إلى حركة منظمة تحكمت فيها قبيلة بني ورياغل أكبر قبيلة في الريف الأوسط، وهي التي ينتمي إليها محمد بن عبد الكريم الخطابي. وأمام هذه التحولات، كان لزاماً على القصر أن يقوم ببعض المبادرات، حيث استقبل يوم 11 نونبر وفداً يضم ستين فرداً يمثلون كل القبائل الريفية، ألقى فيهم خطاباً وأخبرهم أن المطالبة بالحقوق لا يمكن أن تكون بالخروج عن طاعة ولي الأمر، كما أكد لهم أنه سيعين لجنة ملكية ستوجه إلى أقاليم تازة والناظور والحسيمة، وقال لهم "والآن عودوا إلى قبائلكم مطمئنين وبلغوا إخوانكم في القبائل رضانا الأبوي، وبلغوهم كذلك أوامرنا بأن يرجع كل واحد منهم إلى قبيلته وإلى قريته وإلى داره في أمن وسلام". كما ذكرهم بأن الأيام القادمة سيحل فيها عيد الاستقلال المجيد يوم 18 نونبر، وعليهم أن يفرحوا ويطمئنوا"³⁹¹. لقد اختار الملك مدينة تطوان للاحتفال بهذا العيد الوطني المجيد، وألقى فيها خطاباً أعلن من خلاله صدور ظهير الحريات العامة.

كتب الدكتور الخطيب في مذكراته، أنه بعد خطاب العرش عاد الهدوء إلى جميع المناطق ما عدا الريف، وخاصة قبيلة بني ورياغل، التي تطورت فيها الأمور إلى مواجهات دامية مع القوات المسلحة الملكية، التي لم يكن للحركة الشعبية فيها أي دور³⁹². لا يسهل المجال هنا لمناقشة هذه الشهادة، لكنها تشير إلى قضية جوهرية،

³⁹⁰ الملحق رقم 78، م س.

³⁹¹ جريدة العهد الجديد، 12 نونبر 1958.

³⁹² عبد الكريم الخطيب، مسار حياة، إعداد حميد خباش ونجيب كمال، الطبعة الأولى، 1997، ص 78.

وهي اعتبار أن خطاب العرش كان منعطفًا في تطور الأحداث، حيث هدأت الأوضاع في جل المناطق إلا الريف وخاصة قبيلة بني ورياغل. وبمقارنة ذلك مع ما يوجد في الوثائق الفرنسية يظهر توافق كبير، ذلك أن هذه الأخيرة لا تخفي أنه ابتداء من هذه المرحلة، تزعمت قبيلة بني ورياغل حركة التمرد تحت قيادة محمد سلام أمزيان، وتمكنت من الحصول على بعض الأسلحة والقنابل اليدوية³⁹³، دون الإشارة إلى مصدرها. كما أن القبائل المجاورة لها ومنها قبائل بني يطف، بني بو فراح، بني جميل، بني بشير، دخلت في حركة تمرد وانضمت إليها أيضا. وبعد ذلك، اتجهت الحركة نحو المراكز الحضرية، وهي أجدير والحسيمة من أجل الاستيلاء عليهما. وفعلا، ضربوا حصارا على الحسيمة، وقطعوا كل وسائل الاتصال من خطوط الهاتف والطرق، ثم اكتسحوا معظم المرافق الإدارية باعتبارها ملكا لقبيلتهم³⁹⁴. وبعد احتلال أجزاء منها³⁹⁵، انصب تفكير زعماء التمرد، حسب ما ذكرت الوثائق الفرنسية، على احتلال ميناء المدينة لتسهيل استقبال الأسلحة³⁹⁶.

وبالموازاة مع ذلك، بدأت قبيلة بني ورياغل في هذه المرحلة تتصرف وكأنها قائدة التمرد، حيث أصبحت تمارس ضغطا على القبائل من أجل الاعتصام بالجبال³⁹⁷. ثم ضغطت على قبيلتي بني توزين وتمسمان من أجل مقاطعة الأسواق الأسبوعية والالتحاق بها، وهو ما جعل عامل الناظور يصف في تقرير بعثه إلى وزير الدفاع الوضع في القبيلتين بأنه لا أحد أضحى يحضر إلى سوق الأحد الأسبوعي، وأن العديد من سكان قبيلة تمسمان صعدوا إلى الجبل تحت تهديد قبيلة بني ورياغل. أما ببني توزين، فقد أكد العامل أن الوضع بها صار جد مزر، حيث أقفلت المدارس، ولم يعد أحد يرتاد الأسواق، كما أن المرافق الإدارية لم يعد يزورها أحد، والسبب

³⁹³ (C.A.D.N) Rabat Ambassade (558PO/1/59), renseignements, «Situation dans le Riff».20-11 - 1958.

³⁹⁴ C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Renseignements, «Situation dans le Riff».20-11 - 1958.

³⁹⁵ انظر الطليعة، 2 دجنبر 1958. التي علق على مهاجمة مدينة الحسيمة، بأن التساهل "مع المجرمين" هو العامل الأساسي في تطور الأمور، وأنه لولا التساهل معهم لما قطعوا الطريق الموصل إلى الحسيمة، ولما حاصروا مطارها ولما هاجموا مكتب العمالة مطالبين بتسليم أحد القواد الذي فر إلى باخرة إسبانية.

³⁹⁶ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Renseignements, «Situation dans la province de Nador Riff».24-11 - 1958.

³⁹⁷ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Renseignements, «Situation dans le Riff».19-11 - 1958.

في ذلك، هو التحاق سكان القبيلة ببني ورياغل³⁹⁸. وحتى عندما بدأت اللجنة الملكية جولتها في إقليم الحسيمة، وعندما زارت تارجيست يوم 3 دجنبر، فإنها لم تجد ولو واحدا من سكان المنطقة لتقوم باستقصاء أوضاعهم، وذلك بسبب أوامر محمد سلام أمزيان، الذي أمرهم بالامتناع عن لقاء البعثة الملكية والابتعاد عنها³⁹⁹. أما ما يتعلق بالنقطة الثانية، فمن المهم الإشارة إلى أنه بالتزامن مع تزعم قبيلة بني ورياغل ما يقع بالريف خلال شهر نونبر، شهدت المنطقة المغاربية بعض المشاكل بين جبهة التحرير الجزائرية وكل من المغرب وتونس. فقد عرفت علاقات المغرب بالجبهة فتورا بالتزامن مع الاضطرابات التي كان يشهدها الريف، حيث طالبت الحكومة الجزائرية المؤقتة بجلاء القوات الفرنسية عن التراب المغربي، حتى تتمكن من التحرك بحرية على الحدود المغربية. وامتد الأمر إلى حد اتهامها المغرب بممارسة العنف ضد اللاجئين الجزائريين، ومنعهم من تهريب الأسلحة إلى الجزائر، إضافة إلى اعتبارها شرق المغرب قاعدة فرنسية موجهة ضدها. غير أن الحدث الأهم هو تنفيذ الجبهة عملية اغتيال أحد الفرنسيين يسمى توفيني، وهو قاضي يعمل لمصلحة وزارة العدل المغربية في نونبر. وهذا الإجراء جعل المغرب يعتبره تدخلا في شؤونه، ومحاولة لنقل الصراع الفرنسي الجزائري فوق ترابه، ما جعل السلطات تراقب ممر فكيك الحدودي. كان من نتائج ذلك انقطاع الاتصالات بين الحدود المغربية الجزائرية والولايات الخمس الجزائرية، كما استمر المغرب في اتخاذ إجراءاته الصارمة، ومنها حجز عدة سفن بميناء الدار البيضاء كانت محملة بالذخيرة⁴⁰⁰.

وبالموازاة مع ذلك، كانت تونس مسرحا لنشاط خطير لجبهة التحرير الجزائرية فوق ترابها، وهو ما يعرف بـ"مؤامرة العموري"، وهي محاولة انقلابية قام بها العقيد العموري ومصطفى الكحل أحد القادة ضد الحكومة المؤقتة المقربة من المغرب وتونس، وكانت المحاولة تهدف إلى إنشاء حكومة أخرى يرأسها الدكتور لمين

³⁹⁸ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Renseignements, «Situation à Tamsaman», 24-11-1958.

³⁹⁹ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Renseignements, «Activité de la commission royale dans le rîff», 3-12-1958

⁴⁰⁰ أمطاط محمد، **الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2008، صص 347-348.

الدباغين المقرب من طروحات جمال عبد الناصر. وأثناء التحقيق مع قائدي المحاولة الانقلابية اعترفا بتورط المخابرات المصرية في القضية، وأكدوا أنها استقبلا من طرف جمال عبد الناصر، كما أقرأ بعلم محمد بن عبد الكريم الخطابي بالأمر وتأييده لهما⁴⁰¹ وأمام هذه التطورات، خرج محمد بن عبد الكريم الخطابي بتصريح يوم 20 نونبر نشرته الجرائد المصرية ومنها الجمهورية والمساء والقاهرة والشعب، أعلن من خلاله أن ما يشهده المغرب العربي من أزمات ينذر بالخطر، وهو ما يفرض على المسؤولين اتخاذ الوسائل الفعالة لحل المشاكل التي يتخبط فيها الشعب العربي بشمال إفريقيا. وقال إن الشعوب في شمال إفريقيا أعلنت ثورتها ضد الاحتلال. ولن ترضى إلا برحيل القوات الأجنبية⁴⁰².

3) اقتناع بدعاية بورقية.

مما لا ريب فيه، أن هذه التطورات كانت لها نتائج، خاصة وأن تمرد الريف أصبح حركة منظمة تتحكم فيها قبيلة بني ورياغل، وهو ما كان يوحى للمسؤولين المغاربة بأن خطبا ما يقع، دون غض الطرف عن دخول جبهة التحرير الجزائرية في مشاكل مع المغرب وتونس، والتي كشف ما وقع في هذه الأخيرة أن أيادي مصرية هي من كان يحركه، وبمباركة من الخطابي. تلخص رسالة بعث بها السفير الفرنسي بالرباط إلى وزير خارجية بلده نتائج ذلك، وهي ظهور دعاية تقول إن هناك مؤامرة تقودها القاهرة والخطابي ضد كل من المغرب وتونس. وبخصوص المغرب، فإن محمد بن عبد الكريم الخطابي، وبدعم مصري أصبح يسعى إلى ربط الثورة الجزائرية بالتمرد في الريف، عن طريق محاولة توحيدهما وجعلهما حركة واحدة لها أهداف واحدة وعمل مشترك. أما صاحب هذه الدعاية حسب الرسالة، فهو الحبيب بورقية الذي قدم لعلال الفاسي مرة أخرى معلومات حول تواطؤ بعض أعضاء جبهة التحرير الجزائرية مع كل من الحركة الشعبية وحزب الشورى والاستقلال في الريف، ودعم الخطابي لهم. وأشارت الوثيقة إلى أن لعلال الفاسي أصبح مقتنعا تماما بفكرة

⁴⁰¹ للاطلاع أكثر حول هذا الموضوع يرجى العودة إلى: حربي محمد، مؤامرة العموري، مجلة نقد، مجلة الدراسات والنقد الاجتماعي، ع 14-15، الجزائر، 2001، صص 15-22.

⁴⁰² تصريح الخطابي بتاريخ 20 نونبر 1958.

تدخل مصر في الريف، حيث أنه أثناء مقامه في مدريد، استنكر أمام محاوريه الإسبان تدخل مصر في الشؤون الداخلية للمغرب⁴⁰³.

وبخصوص موقف القصر من هذه المعلومات، لم يستبعد السفير الفرنسي أن يكون الملك قد تفاعل مع هذه الأخبار، حيث إنه من الممكن أن يكون قد استفاد من زيارة فرحات عباس إلى المغرب ما بين 22 و27 نونبر، إن لم يكن، حسب السفير الفرنسي دائما، هو الذي ساعد على هذه الزيارة، من أجل انتزاع ضمانات منه تفيد بعدم تدخل جبهة التحرير الجزائرية بالريف. أما الأمير مولاي الحسن، فقد أصبح يتمنى خلال الزيارة التي كان ينوي القيام بها إلى القاهرة لقاء الخطابي، وتحذيره من عواقب ما يقع بالريف عليه وعلى عائلته. وخلص صاحب الرسالة أن فكرة دعم مصر والخطابي لحركة التمرد في الريف عن طريق توظيف جبهة التحرير الجزائرية في طريقها إلى أن تصبح فكرة مسلما بها من طرف ليس المغاربة فقط، بل من طرف الزعماء المغاربة، على اعتبار أن هناك مؤامرة تقودها القاهرة ضد كل من المغرب وتونس، وهو ما قد يساهم في بلورة فكرة التضامن المغاربي⁴⁰⁴.

يظهر أن ما خلص له السفير الفرنسي فيما يخص اقتناع المغاربة بدعم القاهرة لتمرد الريف، كان صحيحا. ويمكن لمس ذلك من خلال الجرائد المغربية وخصوصا جريدتي "العلم" و"الطليلة"، فقد ظهرت فيهما عبارة جديدة وهي "الانفصال" بدءا من هذه المرحلة. حيث أكدت جريدة العلم، في مقال لها، أن حركة التمرد في الريف تحمل طابعا انفصاليا، وتابعت أنه عندما بدأت السلطات تبحث في أسباب التمرد وقع المتمردون قائمة المطالب "وما ذلك إلا لتغطية الدوافع الحقيقية لحركة التمرد". وأشارت إلى أن أكبر دليل على الطابع الانفصالي للحركة هو إطلاق اسم "الجبهة الريفية"⁴⁰⁵ عليها⁴⁰⁶.

⁴⁰³ (D.D.F), Document n° 385, De M. Le Roy, Chargé d'Affaires de France à Rabat, à M. Couve de Murville, Ministre des Affaires Etrangères, Rabat, 1 décembre 1958.

⁴⁰⁴ Ibid.

⁴⁰⁵ بخصوص "الجبهة الريفية"، فقد ذكر محمد أمزيان اسم "جبهة النهضة المغربية"، انظر محمد أمزيان، م

س، ص 32.

⁴⁰⁶ جريدة العلم، 7 دجنبر 1958.

١٧. اختبار دعاية بورقية

بدأ ينظر للأمر على أنه حركة انفصالية، ولنا أن نتساءل عن مدى صحة ما قدمه السفير الفرنسي في هذه الرسالة من معلومات. يجب التأكيد أن الوثيقة تشير إلى أن صاحب الدعاية هو الحبيب بورقية، ودائما يطرح السؤال حول مصداقية ما كان يقدمه هذا الرجل من معلومات، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار علاقته المتوترة جدا مع جمال عبد الناصر وزعماء جبهة التحرير الجزائرية ومحمد بن عبد الكريم الخطابي. فهل كان بورقية يسعى من وراء هذه الدعاية إلى خلق نزاع وفتور في العلاقة بين المغرب والجمهورية العربية المتحدة من أجل الدفع نحو فكرة التضامن المغاربي كما أشار إلى ذلك السفير الفرنسي؟ لا نملك المصادر للتأكد من ذلك. أما الذي كان يسلمه بورقية هذه المعلومات فهو علال الفاسي الذي كان يروج لفكرة الدعم المصري للريف في إسبانيا، وبخصوصه يجب أن نستحضر أيضا علاقته المتوترة مع جمال عبد الناصر منذ استقلال المغرب. وعموما تتضمن الدعاية التي روج لها بورقية أربعة عناصر وهي: أولا العلاقة بين مصر والخطابي في أحداث الريف، ثانيا فكرة تواطؤ جبهة التحرير الجزائرية مع الحركة الشعبية وحزب الشورى والاستقلال، ثالثا دعم الخطابي للمتمردين في الريف. رابعا الخطابي وجبهة التحرير الجزائرية. سنعمل على تفكيك هذه العناصر عن طريق تتبع كل عنصر على حدة كرونولوجيا خلال شهر دجنبر وبداية يناير قصد التأكد من صحة أو بطلان ما روج له الحبيب بورقية من أخبار.

1) العلاقة بين مصر والخطابي.

إن أول عنصر يجب توضيحه هو هل دعم جمال عبد الناصر الخطابي خلال هذه المرحلة أي دجنبر 1958؟ تعوزنا الوثائق المصرية لنثبت أو نؤكد ذلك، غير أنه تتوفر بعض المصادر التي تقدم الإجابة على هذا السؤال، ومنها مذكرة رفعها الخطابي إلى جمال عبد الناصر بتاريخ 22 يناير 1959⁴⁰⁷، وصف في بدايتها الوضع في المغرب

⁴⁰⁷ مذكرة من محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى جمال عبد الناصر، بتاريخ 22 يناير 1959، أمزيان محمد سلام، م س.

العربي بالصعب جدا، وعبر عن ذلك بـ"ومن هذه الحالة في المغرب العربي نخرج بنتيجة واحدة، وهي أن القوى السياسية الحاكمة في الأقطار الثلاثة متفقة ومتضامنة كلها مع الاستعمار لتحقيق غايات مشتركة بينهم جميعا. هي: أولا منع تحرير شعب المغرب العربي تحريرا حقيقيا كاملا. ثانيا إبعاد هذا الشعب كله عن القومية العربية بمختلف الوسائل". وأوضح أنه في المغرب اندلعت "ثورة شعبية" تحت قيادة محمد سلام أمزيان، وإذا نالت التأييد فإنها ستحقق أهدافها.

وختم مذكرته بالقول: "ومما لا جدال فيه أن الجمهورية العربية المتحدة إذا وقفت موقفا سلبيا تجاه الوضع القائم الآن على الصعيدين الرسمي والشعبي فسيعمل على انتكاس الحركة التحريرية وسيوسع الهوة التي يريدها الاستعمار وعملاؤه. ولا شك عندي في أن لدى سيادتكم حولا ومقترحات لمعالجة هذا الوضع كما لا شك عندي أيضا في أن الآمال معلقة على سيادتكم شخصا بقيادة الشعب العربي إلى شاطئ الأمان- الحرية الحقيقية والوحدة الكاملة". يظهر واضحا من خلال هذه المذكرة أنه لم يكن هناك أي دعم مصري للخطابي خلال نونبر أو دجنبر 1958، بل إن ما يمكن ملاحظته إلى حدود نهاية يناير 1959، هو أن مصر كانت ما تزال بتعبير الخطابي "تقف موقفا سلبيا" من ما يقع بالريف. ويؤيد مصدر آخر هذا الطرح، وهو فتحي الذيب رجل المخابرات المصري، الذي نفى وجود أي تنسيق أو اتصال بين الخطابي والأجهزة المصرية، وأوضح في مذكراته أن أول اتصال بينه وبين الخطابي بخصوص هذا الموضوع كان يوم 8 فبراير 1959⁴⁰⁸. بينما تبقى المصادر التي تمكن من الخوض في هل قدمت الدعم للمتمردين بالريف أم لا غير متاحة.

2) تواطؤ جبهة التحرير الجزائرية والحركة الشعبية وحزب الشورى والاستقلال.

تغيب المصادر التي تشير إلى دور ونشاط حزب الشورى والاستقلال في أحداث الريف وعلاقته بمصر، ويبقى ذلك غامضا وفي حاجة إلى البحث. أما ما يتعلق بعلاقة جبهة التحرير الجزائرية بالحركة الشعبية وحزب الشورى فلا نجد ما يشير إلى ذلك من خلال ما هو متوفر. وفي ما له علاقة بارتباط الحركة الشعبية بمصر، تتوفر

⁴⁰⁸ فتحي الذيب، عبد الناصر وثورة الجزائر، م س، صص 419-421.

بعض المصادر التي تشير إلى كيف ارتبط هذا الحزب بالتعامل مع المخابرات المصرية. وللخوض في هذه النقطة، يجب الأخذ بعين الاعتبار أن الحركة الشعبية هو حزب خرج من رحم القصر، وظل ينسق مع حزب الشورى والاستقلال، وهو من أشعل أحداث الريف من أجل الضغط على حزب الاستقلال قصد إجباره على الخروج من الحكومة وفسح المجال للمعارضة لتولي أمور البلاد، وفعلا انتهى الأمر إلى تقديم حكومة بلا فريج استقالتها يوم 4 جنبر. وهكذا عقد حزب الحركة الشعبية ومعه المعارضة المشكلة من حزب الشورى والاستقلال آمالهما على القصر بأن يأخذ المبادرة بنفسه، ويعمل على تشكيل حكومة تكنوقراطية تضم جل فرق المعارضة. بيد أن القصر لم يكن مستعدا للمجازفة بإعطائها الفرصة في ظرفية حساسة⁴⁰⁹، إضافة إلى أنه لم يكن يعول عليها، حيث كان يرى أنها مجتمعة لا تشكل قوة سياسية حقيقية، على اعتبار أنها لا تتوفر لا على أطر ولا على برنامج اقتصادي واجتماعي⁴¹⁰.

وأمام هذا الوضع، قامت بعثة مشكلة من كل فرق المعارضة تحت رئاسة مبارك البكاي بزيارة للقصر لتحذيره من خطر توسع وانتشار الاضطرابات في المغرب الشرقي والأطلس المتوسط، وذلك في حالة ما إذا تألفت حكومة استقلالية يشارك فيها عبد الرحيم بوعبيد، وعبد الله ابراهيم، والمهدي بن بركة، وادريس المحمدي⁴¹¹. غير أن القصر لم يكن ليعير هذه التحذيرات أية أهمية، ومضى في طريق تشكيل حكومة تضم يسار حزب الاستقلال. وهو ما أُنذر بفتور في العلاقة بين القصر وحزب الحركة الشعبية، وبدا ذلك واضحا بعد خروج أحرسان والخطيب من سجن عين قادوس بفاس عندما رفضا لقاء الملك، بينما استقبلا الأمير مولاي الحسن مبعوثه الخاص، وغادرا يوم 15 دجنبر إلى اسبانيا قصد الإقامة بها مدة طويلة من أجل متابعة تطورات الأزمة الحكومية، وخصوصا تجربة حكومة عبد الله إبراهيم.

⁴⁰⁹ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°75 (558PO/1/75), Synthèses mensuelles, décembre 1958, p. 2

⁴¹⁰ ملحق 76، تقرير عن تدهور الوضع في المغرب.... م.س.

⁴¹¹ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), De l'ambassadeur de France à Rabat à Diplomatie Paris, n 5196/ 201, Rabat le 8-12 -1958.

ومن هنا بدأت تتناسل الإشاعات التي تربطهما بمصر، ومن ذلك ما تكشفه الوثائق الفرنسية التي أشارت إلى أن زعيمى الحركة الشعبية كانا عازمين على قيادة الانتفاضة في الريف في حال ما أثبتت الأحداث "بأن الملك سجين حزب الاستقلال". كما أشارت إلى احتمال إقامتهما بسويسرا، ومنها التوجه إلى القاهرة، خاصة وأن مبعوثين مصريين ظلا على صلة بهما⁴¹². وأثناء إقامتهما بإسبانيا التقيا بحدو الريفي المعروف بعلاقاته مع الزعماء المغاربة المنفيين في إسبانيا ومحمد ابن عبد الكريم الخطابي⁴¹³. كما راجت أخبار داخل أعضاء الحزب بالمغرب تقول أن الزعيمين أثناء مقامهما في إسبانيا ربطا اتصالا مع القاهرة، ومن الممكن أن يكونا قاما بزيارة لها⁴¹⁴.

يبقى من المهم الإشارة إلى أن هذه المعلومات الواردة في الوثائق الفرنسية ليست دقيقة ومضبوطة، بل عبارة عن معطيات كان يقدمها مقربون من أحرضان والخطيب، وبذلك تحتمل الصواب والخطأ. ومن هذا المنطلق يطرح السؤال التالي، وهو لماذا ارتبط حزب الحركة الشعبية خلال هذه المرحلة بالتنسيق مع مصر؟ يبدو أن ذلك كان مجرد إشاعات أطلقها مقربون من أحرضان والخطيب هدفها الضغط على القصر من أجل ثنيه عن تشكيل حكومة من يسار حزب الاستقلال، ولو كانت هناك نية لزعمي الحركة الشعبية للتواصل مع مصر لما رجعا إلى المغرب أواخر دجنبر، ولما قام الدكتور الخطيب بحملة في قبيلة كزناية من أجل إقناع المتمردين هناك بالعودة إلى منازلهم بعد النداء الملكي بتاريخ 5 يناير 1959⁴¹⁵.

3) علاقة الخطابي بالمرتدين في الريف.

سبقت الإشارة إلى تقرير للسفير المصري في بداية الأحداث، أكد من خلاله أن الخطابي غير موافق على ما يقع بالريف، ووصف نجله رشيد الأمر بالحركة غير الواضحة الأهداف، وأن أسرته لا توافق عليها تماما. غير أن هذا الموقف تغير مع تطور الأحداث، ويظهر ذلك من خلال تصريح مهم أدلى به الخطابي يوم 3 دجنبر

⁴¹² (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59, Renseignement, 17-12-1958.

⁴¹³ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Recueil d'informations, 30-12 -1958.

⁴¹⁴ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59, Recueil d'informations, 31-12 -1958.

⁴¹⁵ (D.D.F), document n°29, De M. Parodi Ambassadeur de France à Rabat, à M. Couve de Murville, Ministre des Affaires Etrangères, Rabat, 16 janvier 1959.

1958 خصصه للوضع بالمغرب فقط، حيث أكد "أن المغرب اليوم مسرح لعدم الاستقرار بالاضطرابات، وإذا لم تحل الأزمة فالأمور قد تتطور إلى ثورة عارمة تستوعب كل البلاد" وعدد أسباب الأزمة التي كان يعيشها المغرب إلى ستة أسباب داخلية وأربعة خارجية، ولعل أبرزها حسب تصريحه، تهاون الحكومة المغربية في القضية الجزائرية، حيث إنها حسب رأيه، تسير على نفس خط الحبيب بورقيبة. كما اتهم المسؤولين المغاربة بالتجسس على ثورة الجزائر.

وأضاف "إن هذه الأوضاع الشاذة جعلت الشعب في حالة غليان كالبركان وكان الريف كما هو الحال دوما سابقا إلى إعلان تدمره، فانطلق الشعب هناك يعلن سخطه الكامل على الأوضاع القائمة، وتحول السخط إلى ثورة شعبية في بلاد الريف، وهذا ليس في صالح المتلاعبين بمصير الشعب"⁴¹⁶ وهو ما أثبت أن الرجل أصبح مؤيدا للتمرد. أما كيف ردت الحكومة المغربية على هذا التصريح، فإنها لم تصدر أي بيان، بينما كانت الإجابة بطريقة يمكن اعتبارها غير مباشرة، فقد كتبت جريدة العلم في "تحقيق شامل عن حوادث الريف" أن من بين المطالب المرفوعة عودة محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى أرض الوطن، وتساءلت منذ متى منع هذا الأخير من العودة إلى المغرب، علما أن الملك كان قد أرجع له أملاكه التي صودرت منه بعد انتهاء حرب الريف، تقول الجريدة⁴¹⁷.

وبعد هذه الإشارة بثلاثة أيام، كشفت لجنة البحث الملكية في حوادث الشمال، خلال مؤتمرها الصحفي بعد جولتها في كل من الناظور والحسيمة وتازة عما يلي: "وقد لاحظ السيد أنجاي أن شخصين فقط طالبا في الحسيمة بعودة البطل السيد عبد الكريم الخطابي إلى المغرب فيبينت لهما اللجنة أن السيد عبد الكريم الخطابي حر في اختيار العودة إلى الوطن ككل المغاربة الموجودين خارج بلادهم"⁴¹⁸. ويبدو من خلال هذا التصريح أن الحكومة أرادت أن تقول للخطابي إنه لم يعد الزعيم الروحي للريفيين، بيد أن الجواب الذي تلقته من المتمردين أثبت عكس ذلك، فقد قام

⁴¹⁶ تصريح الخطابي بتاريخ 3 دجنبر 1958. البدوي حسن محمد حسن، محمد بن عبد الكريم الخطابي، م س. وأيضا، أمزيان محمد سلام، ثورة الجلاء في شمال المغرب، غير منشور.

⁴¹⁷ جريدة العلم، 7 دجنبر 1958.

⁴¹⁸ جريدة العلم، 10 دجنبر 1958.

الفلاحون في كل من قبائل تمسمان وبني توزين وبني ورياغل وبقية، بحرث أراضيهم تطوعا، وشارك في العملية ثلاثة آلاف أداة حرث، كان الهدف منها إثبات مدى تعلقهم به⁴¹⁹.

وفي خضم هذه التطورات حدث مستجد هام على الساحة الوطنية وهو تعيين عبد الله إبراهيم لتشكيل الحكومة. وفور ذلك، خرجت جريدة الطليعة المؤيدة له لتحثي بالحدث وكتبت ما يلي "فجعل حد للفوضى والضرب على الانفصاليين وأعوان الأجنبي والدفاع عن وحدة البلاد وصيانة سيادتها، وإبراز الشعور الوطني في الأمة بالقضاء على النزعات القبلية، وتزويد البلاد بنظم أساسها مصالح اقتصادية ومشتركة بقطع النظر عن الدعم الذي يسري في العروق..⁴²⁰ لقد أحدثت هذه التصريحات استياء عاما في الريف، بسبب الخوف من حملة الانتقامات والمتابعات القضائية⁴²¹. وهو الأمر الذي جعل محمد بن عبد الكريم الخطابي يصدر بيانا يوم فاتح يناير، هاجم من خلاله حكومة عبد الله إبراهيم معتبرا إياها امتدادا للحكومة السابقة، حيث أوضح أنها لن تقوم بأي إصلاحات، ولن تعمل على إجلاء القوات الفرنسية بالمغرب، بل اتهمها بالسعي للارتقاء في أحضان الشيوعية وإخضاع المغرب لها. واعتبر زيارة بن بركة إلى الصين إنما الهدف منها الاتفاق مع الشيوعيين على إخضاع المغرب لهم.

وخلال نفس البيان وجه تعليمات للمتمردين تمثلت في "ومن أجل استمرار الحرب حتى النصر فإن علينا أن تظل صفوفنا منظمة وأن نزيد من تنظيمنا، وتدريبنا، وأن نؤمن بأن نقص السلاح ليس مبررا للهزيمة أو إنهاء الثورة. وإنما علينا أن نأخذ السلاح من أعدائنا، ونحاربهم به دون الانتظار لأن يأتينا سلاح أو مساعدات من الخارج. فالمؤمن الذي يقاتل دفاعا عن كرامته وحرية لا يستنجد بالخارج. ولقد بذلت ولا أزال أبذل كل قواي لتأييدكم حتى تنتصروا بجهاذكُم، لتنتصر بلادنا حرة عزيزة مرفوعة الرأس لا تميل إلى يسار، ولا إلى يمين، وكذلك جعلناكم أمة وسطا"

⁴¹⁹ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), « Situation dans la province d'Alhucemas », 12-12 - 1958.

⁴²⁰ الطليعة، 19 دجنبر 1958.

⁴²¹ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Renseignements, Situation dans la province de Alhucemas, 27-12 - 1958.

كما أمرهم بـ"أمري لكم هو أن تتولى قيادتكم الداخلية جمع التبرعات والاكتتابات، والزكوات من المواطنين بصورة منظمة وأمانة ودقيقة لشتروا بها الأسلحة، وتسدون بها ما تعانون من نقص فيها، أو تعوضكم عما لا تستطيعون الحصول عليه من العدو"⁴²².

يتضح من خلال هذا البيان أن الخطاب لا يظهر كمتعاطف مع المتمردين بالريف، بل كقائد وموجه لهم، ومن ذلك أنه كان يعلم بشكل دقيق مدى القوة التي كانوا يتوفرون عليها، ومعنى هذا أنه كان على اتصال بهم وعلى اطلاع بكل صغيرة وكبيرة، ومن ذلك معرفته بقلّة السلاح. وكحل لذلك أمرهم بمهاجمة وانتزاع السلاح من قوات الجيش الملكي التي أصبح يعتبرها العدو. ومن خلال هذا النداء ذكر نقطة مهمة وهي دعوته للمتمردين بعدم انتظار الدعم الخارجي، فعن أي دعم خارجي كان يتحدث هل هو الدعم المصري أم الإسباني؟ ولماذا طلب منهم عدم الاستنجاد بجهات خارجية من أجل مدهم بالسلاح؟. كل ما هو متوفر بخصوص هذه النقطة، أن المتمردين كانوا خلال هذه الفترة يوزعون المنشائر التي تحث على متابعة التمرد، وتؤكد أن الأسلحة قادمة من القاهرة⁴²³⁻⁴²⁴، ومعنى هذا أنهم كانوا ينتظرون الدعم المصري.

وبعد يوم واحد من النداء، بعث عبد السلام الورياشي من مليلية رسالة إلى الخطابى يخبره من خلالها أنه تلقى رسالته، وقام بتوزيع ما ورد فيها من تعليمات⁴²⁵. لا نعلم هل يقصد الورياشي بالرسالة التي تلقاها من الخطابى النداء الذي ذكرنا أم رسالة أخرى. لكن الأمر المؤكد هو أن ما ورد في النداء من دعوته إلى مواجهة نقص الأسلحة بمهاجمة قوات الجيش الملكي وانتزاعها منها، شرع المتمرّدون في تنفيذه على الفور، فمنذ اليوم الأول من يناير، وهو تاريخ إصدار البيان قاموا باختطاف

⁴²² بيان الخطابى بتاريخ 1 يناير 1959. ورد هذا لبيان عند كل من البدوي محمد بتاريخ 3 يناير 1959، بينما عند محمد أمزيان بتاريخ 1 يناير 1959.

⁴²³ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Consulat général de France à Meknès à Ambafrance Rabat, 24-12 -1958.

⁴²⁴ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Renseignements, Situation dans la région de Nador, 26-12 -1958.

⁴²⁵ رسالة من عبد السلام الورياشي إلى محمد بن عبد الكريم الخطابى بتاريخ 2 يناير 1959، البدوي حسن محمد حسن، محمد بن عبد الكريم الخطابى، م.س. وأيضاً، أمزيان محمد سلام، ثورة الجلاء في شمال المغرب، م.س.

خمسة جنود كانوا على متن عربة، وهاجموا القوات المسلحة التي كانت تراقب شواطئ الحسيمة⁴²⁶، ونهبوا شاحنتين كان على متنها جنود من الجيش الملكي، ويوم ثاني يناير هاجموا الجنود الذين يراقبون البحر، وقتلوا واحدا وأصابوا آخر⁴²⁷. أما يوم ثالث يناير، فقد حاصروا مركزا للجيش الملكي ببني حديفة، مما جعل القيادة العامة تبعث بتعزيزات لفك الحصار، إلا أنها ووجهت بمقاومة شديدة نتج عنها مقتل جندي، وإصابة أحد عشر آخرين، بينما قتل اثنان من المتمردين. ومن جهة أخرى، فقد اعترضت فرقة مسلحة كتيبة من السرية الخامسة كانت متجهة إلى مطار الحسيمة، ووقع تبادل إطلاق نار كثيف دام حوالي ساعتين. أما مركز إسنادة الواقع ببني يطف، فقد تعرض لحصار، وأمام ضعف التعزيزات والإمكانات به استسلمت لهم قوات الجيش الملكي دون مقاومة تذكر. وكان الحل الوحيد هو إخلاء المراكز الضعيفة من الجنود والأسلحة وإلحاقها بالمراكز القوية، قصد ترتيب الأمور لتدخل عسكري⁴²⁸.

4) الخطابية ووجهة التحرير الجزائرية.

يظهر أن الخطابية بعد أن أصبح يقود حركة التمرد، شرع في خطة تقضي بفتح جبهة جديدة للقتال في المغرب وهي الريف بهدف تخفيف الضغط عن الجزائر، حيث عبر عن ذلك في مذكرته إلى جمال عبد الناصر، إذ أكد له أن من بين أهداف "الثورة" في الميدان الخارجي "إعادة تطبيق الاستراتيجية التحريرية بفتح جبهة القتال ضد قوات الاحتلال في المغرب إلى جوار الجزائر في سبيل تحرير تونس والجزائر"⁴²⁹. وليس من المستبعد أن يكون قد طلب من الجبهة إمداد المتمردين في الريف بالسلح، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت تتوفر على كميات كبيرة من الأسلحة في عدة مراكز بالمغرب، ولعل أهمها مركز الناظور.

⁴²⁶ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59, Renseignements, a.s. de la Situation dans la province de Alhucemas, 2-1 -1959.

⁴²⁷ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59, Recueil d'informations, Situation intérieure, 3-1 -1959.

⁴²⁸ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Recueil d'informations, 6-1 -1959.

مذكرة من محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى جمال عبد الناصر، بتاريخ 22 يناير 1959، أمزيان محمد سلام، م س⁴²⁹.

وصف القنصل الفرنسي بتطوان في رسالة بعثها إلى سفير بلاده بالرباط، ما كان رائجا في تلك المرحلة، فقد أشار إلى وجود عدة إشارات تدل على تدخل خارجي، لعل أهمها أخبار عن اتصالات سرية، وأسلحة مصدرها الجزائر، واحتمال نشاط المصالح المصرية⁴³⁰. ثم كتب السفير الفرنسي لوزير خارجية بلاده قاطعا الشك باليقين، وجود تدخل مصري ونشاط جبهة التحرير الجزائرية في الريف، حيث أوضح أن أكثر من مصدر يشير إلى ذلك. ومنها إرسال مصر ضباطا لتأطير المتمردين، ومن الأدلة التي قدمها على تورط جبهة التحرير الجزائرية في الريف، أنهم يقدمون السلاح انطلاقا من مركز الناضور، وهو حسب رأيه ما جعلهم يرفعون ضمن لائحة مطالبهم مساندة الثورة الجزائرية⁴³¹.

في ظل هذه المعلومات، انتشرت دعايتان في الإعلام بخصوص علاقة أحداث الريف وجبهة التحرير الجزائرية، الأولى هي ما نشرته جريدة "أخبار اليوم" المصرية بتاريخ 10 يناير 1959 تحت عنوان "فرنسا تشعل الثورة في مراكش لتطفئ الثورة في الجزائر"، جاء فيه أن ما يقع بالريف هو بإيعاز من فرنسا ولحسابها، حتى تستطيع هذه الأخيرة إطفاء الثورة القائمة ضدها في الجزائر. أكد محمد سلام أمزيان في مذكراته، أن السفارة المغربية هي من أوحى للجريدة بكتابة هذه المقالة⁴³². وهو ما جعل الخطابى يصدر بيانا فند من خلاله هذه الادعاءات بصفة رسمية⁴³³. وجاء فيه "إن أبسط القواعد السياسية تقضي بأن توسيع جبهة القتال ضد فرنسا في إفريقيا الشمالية، إنما هو الحل الوحيد لتحرير الجزائر وتونس والمغرب، لأنه هو الحل الوحيد الذي يقوم ضد فرنسا وسياستها واستراتيجيتها على طول الخط".

الثانية هو ما أذاعته وسائل الإعلام الدولية، التي نشرت خبرا مفاده أن الخطابى أمر أتباعه في الريف بالالتحاق بالجزائر للقتال إلى جانبها. ما جعله مرة أخرى يرد على ذلك بما يلي: "أذاعت وكالات الأنباء برقية من واشنطن مفادها، أن الدبلوماسيين الأجانب قد أعلنوا أنهم يتوقعون زحف المواطنين الريفيين إلى حدود الجزائر للقتال

⁴³⁰ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), De l'ambassadeur de France à Rabat à Diplomatie Paris, n 244/ 245, Rabat le10-1 -1959.

⁴³¹ (D.D.F), Document n 29. Op.cit.

⁴³² أمزيان محمد سلام، ثورة الجلاء في الشمال، م س، ص 214.

⁴³³ الملحق رقم 76، بيان الخطابى عن حقيقة الثورة المراكشية، بتاريخ 13 يناير 1959، البدوي حسن محمد حسن، محمد بن عبد الكريم الخطابى، م س.

إلى جانب أشقائهم فيها ضد الفرنسيين. وقد أكدت هذه البرقية أن زحف ألوف من المقاتلين الريفيين إلى الجزائر، تم بناء على أوامر صدرت مني في القاهرة. وأناؤكد للأحرار المغاربة بصفة خاصة، أن تعليمات كهذه لم تصدر مني على الإطلاق، وأن ما أذيع مما ذكرته ليس إلا مؤامرة أجنبية يقف وراءها الاستعمار الفرنسي وأعوانه في المغرب، يقصدون بها تشتيت القوات المحاربة في الريف المغربي، والتي تهدد بقاء الفرنسيين في المغرب⁴³⁴.

ومن جانب آخر، كانت الأجهزة المغربية تراقب ما يحدث في الريف، وخاصة بقبيلة بني ورياغل، ويبدو من خلال التجاوب الحاصل بين المتمردين والخطابي، أن القصر والحكومة أصبحوا على يقين بفكرة أن هناك مؤامرة تقودها القاهرة والخطابي ضد كل من المغرب وتونس. وبهذا أصبحوا مقتنعين أن حركة التمرد في الريف مدعومة من القاهرة والخطابي، وأنها أصبحت على اتصال بجهة التحرير الجزائرية، وهو ما أكدته قائد تمرد الريف الأوسط، محمد سلام أمزيان في مذكراته، عندما أشار إلى أن الملك محمد الخامس في هذه المرحلة، اتهم الخطابي بأنه أمر أتباعه بالانضمام إلى جبهة التحرير الجزائرية⁴³⁵. خاصة وأن أجهزة الأمن المغربية كانت ترصد المناشير التي كانت توزع من طرف المتمردين، وفيها أن الأسلحة قادمة من القاهرة، إضافة إلى هجومهم على الجنود المغاربة، ومحاصرة ثكنات الجيش الملكي، بل إن بعضها سقطت كما ذكرنا.

وبهذا لم يبق أمام القصر إلا الاستعداد للقضاء على التمرد، وعليه بدأ الجيش الملكي يعد العدة لذلك، وكانذار قام الملك يوم 5 يناير بنداء أخير للمتمردين من أجل وضع الأسلحة. إلا أنه لم يجد صدًى يذكر في قبيلة بني ورياغل، التي لم تظهر النية للخضوع، ومن الأدلة التي تثبت ذلك، أن مركز الجيش الملكي الموجود في بني حديفة، والذي ظل مطوقاً من طرف المتمردين منذ يوم 3 يناير رغم محاولات فك الحصار عنه، ظل على حاله. بل استمر الهجوم عليه يومي سادس وسابع يناير، حتى إنه أمطر بوابل من الرصاص. وأعادت مجموعتان جديدتان الهجوم على نفس

⁴³⁴ أمزيان محمد سلام، ثورة الجلاء في الشمال، م س، ص 225.

⁴³⁵ البدوي حسن محمد حسن، محمد بن عبد الكريم الخطابي، م س، ص 233.

الموقع، على الرغم من رد قوات الجيش الملكي بالأسلحة الأوتوماتيكية، وكان من نتائج هذا الهجوم، إصابة ثلاثة أفراد من الجيش الملكي. ولم يكن الشمال الشرقي لإقليم الحسيمة أقل أهمية، حيث واجهت قوات الجيش الملكي صعوبات كبيرة في الوصول إلى مطار إمزورن المحاصر من طرف المتمردين، بين يومي سادس وسابع يناير، إذ حاصر مجموعة منهم الكتيبة الرابعة عشرة التابعة للجيش الملكي قرب المطار. كما قاموا بإعاقة تقدم القوات التي كان يقودها النقيب محمد أوفقيير، المتجهة نحو الحسيمة عند وصولها لوادي النكور بطلقات رصاص من طرف المتمردين المتمركزين في المرتفعات من جهة، ومن جهة أخرى من طرف المتمركزين في الوادي بين تلامشيش والحسيمة. ولم تقف قوات الجيش الملكي مكتوفة الأيدي أمام هذا الوضع، فقد قامت القوات الجوية يوم خامس يناير بهجوم بواسطة الرشاشات على الذين يحاصرون المطار العسكري بإمزورن، وفي نفس اليوم، أسر الملازم اليعقوبي، وطارد الجيش الملكي الذين أسروه، حيث فر رئيسهم إلى معسكر القوات الإسبانية، التي ما لبثت أن سلمته للقوات المغربية بعد تدخل العامل⁴³⁶. وبهذا تدخل الجيش الملكي بقوة وعنف كبيرين من أجل قمع التمرد، حتى إن الكثير من المصادر وصفت ذلك بالوحشي.

خاتمة

يظهر من خلال ما ذكرنا، أن هذه الوثائق أضاءت جانبا مهما في أحداث الريف 1958-1959، فقد استعرضت معطيات حول تأثير السياق الإقليمي على الحدث، وتجلى ذلك من خلال الصراع التونسي المصري، حيث اتهم الحبيب بورقيبة جمال عبد الناصر بالتدخل في الشؤون الداخلية للمغرب أثناء أحداث الريف، ثم شمل الأمر الخطابى وجبهة التحرير الجزائرية كذلك. وهو ما جعل الشكوك أول الأمر تحوم في الأوساط المسؤولة المغربية من حكومة وقصر حول إمكانية وجود نشاط لقوى خارجية. ثم في مرحلة لاحقة، وبعد تحولات داخلية وخارجية صار المغرب على يقين بوجود مؤامرة تقودها مصر والخطابي ضده، وهو ما أدى إلى قمع التمرد.

⁴³⁶ (C.A.D.N) Rabat Ambassade n°59 (558PO/1/59), Recueil d'informations, 9-1-1959.

وتجدر الإشارة إلى أن ما تم إعماده من وثائق في هذه الدراسة، يبقى في جزء كبير منه ملفات فرنسية، ورأينا كيف أن المعلومات التي قدمتها لم تكن حاسمة. فما زال ينقصنا الكثير من المصادر لتقديم نظرة شمولية، وإضاءة بعض القضايا، ولعل أهمها الأرشييف الخاص بالبلد الذي وقع فوق ترابه الحدث وهو المغرب، إضافة إلى وجهة نظر تونس انطلاقاً من أرشييفها الخاص، وكذلك جبهة التحرير الجزائرية.



تأسيس لزمـن الرصاص في المغرب



محمد أقضاض

كيف عاش الطفل الأحداث الأولى: طال عمري لأعيش ثلاث أقبـح مآسي القمع الدموي على الريف، فقد عايشت الحملة المأساوية، (1958-1959)، وأنا طفل، وعايشت مأساة (1984)، وأنا في بداية كهولتي، ثم هذه الأخيرة، التي لم تنته بعد، منذ مقتل محسن فكري (2016)، وكلها بنفس الأسباب نسيها. أتذكر هنا المأساة الأولى:

في تلك السنة الثانية لي في مدرسة لخميس (بقبيلة آت بويفرور نازلا إليها، مع أبي، من قرية تيميزار بقبيلة آت سيدال الجبلية)، لم نلتحق بالدراسة لأيام، لأن المنطقة عاشت نوعا من العصيان المدني. فقد اندلعت انتفاضة الريف منذ شهر أكتوبر من سنة 1958 وامتدت إلى مارس من السنة الموالية. كنا، في الأيام الأولى للأحداث، نصعد مع الكبار إلى الجبل القريب منا، جبل يطل على بلدة اتلات الجبل. كل الرجال يذهبون إلى الجبل، وخلال الليل يتم إشعال النيران على القمم المجاورة، طلبا للدعم والتحاق الرجال أفواجا..

وفي أحد الأصباح بدأ العساكر بالهجوم، وكانوا قد حلوا قبل ذلك بكل مدن وبلدات الريف الشرقي والأوسط والغربي، لكن الحظ الأوفر منه انفردت به الحسيمة ونواحيها. انطلقوا في الصباح من بلدة اثلاث، وهي بلدة ضمن جغرافية الناظور. كنا مع الرجال في قمة الجبل.. قبل منتصف النهار بدأ العسكر يتحرك صاعدا نحونا، في صفين.. وقفنا في الطريق الضيق على حافة إحدى درجات عنق الجبل نطل على الصفيين.. بعد لحظات سمعنا طلقة مسدس في بلدة اثلاث، تفرق الجنود، فانهمر علينا الرصاص صاعدا من فوق سفح الجبل، على مسافة قصيرة.. هربنا بين الصخور وأزيز الرصاص يطاردنا، يمكن أن يصطادنا في أية لحظة. أسير منحنيا، وكم رصاصة مرت فوق رأسي أو اصطدمت بالصخر الذي يواريني. سمعت صياحا حادا أمامي رجل اخترقت رصاصة صدره وقفت لحظة كان يحتضر بعينين جاحظتين، بينما عدد الأشخاص خلفي ضاغط لم يروا المحتضر أو تجاهلوا رؤيته، فانطلقت؛ بعد هنيهة رأيت أمامي ميتا آخر وقد تشنت مخه.. أصبحت أجري وكأنني في عالم آخر، رجلاي تجرانني نحو الوراء.. ثم انفلتنا بصعوبة إلى الناحية الأخرى من الجبل، حيث أرض منحدره ثم منبسطة فصاعدة..

وصلت، ضمن مجموعة من الرجال والأطفال إلى المسجد الكبير في قريتنا تميزار. نصحن الكبار أن نصعد إلى سطح المسجد ونتمدد هناك. كان المسجد منتصبا في أعلى ربوة بالجهة المقابلة للجبل الذي هربنا منه، فيسهل علينا أن نرى كل ما ومن يتحرك أمامنا وهو لا يرانا، وكانت عيوننا مركزة على مراقبة تحركات الجنود. تفرق الرجال الذين هربوا معنا جماعات، بعضهم نحو الغرب في اتجاه مليلية والبعض الآخر نحو الجنوب، جهة الحسيمة، لنجدة إخوانهم أبناء الريف الأوسط، إذ من هناك بدأت تصلنا أصوات انفجارات القنابل.. وبعد حوالي نصف ساعة ظهرت طلائع الجنود يتجهون جنوبا. بعد أن انقشعت أطياف الجنود شاهدت أختي فاطمة تسوق الحمار وكانت قد نزلت في الصباح إلى اثلاث الجبل لطحن القمح، تبعد هذه البلدة عن قريتنا بخمسة كلم.. قفزت من سطح المسجد، دون وعي مني، تسللت بين الأشجار والأدغال وأكوام الحجارة إلى أن التحقت بها، بدت لي شبحا يتحرك تجر قدميها جرا وجهها شديد الاصفرار، لم تستطع الكلام، شرحت لي بصعوبة أنها، في طريقها بالجبل، رأت عددا كبيرا من جثث الرجال مسجاة تنتظر من يواريها التراب. ثم عدت إلى مخبئي، نحو سطح المسجد إلى أن حل الليل، نزلنا من سطح المسجد في صمت.. وصلنا إلى بيوتنا وجدناها فارغة. اجتمعت النساء في منزل

واحد.. التحقنا بهن، لا وجود للرجال لقد هربوا.. كنا جائعين جدا ولا إحداهن انتبهت إلى جوعنا..

تداولت النساء، خلال الليل، أخبار الجنود المنتشرين في القرى المجاورة ويرددن أنهم يبحثون عن الرجال والأطفال، وكل من صادفوه قتلوه، ويعتدون على النساء.. لذلك اجتمعت عائلات متعددة في منزل واحد، وقد وارتنا النساء في بعض الصناديق وأكياس الحبوب.. إلى أن أشرقت الشمس وبدأنا نتحرك في حذر شديد نستطلع إمكانية وجود الجنود في القرى، لم نجد أحدا، لقد انسحبوا ليلا.. اتجهوا نحو الريف الأوسط.. ثم بدأنا نسمع أن العسكر قد قضى على الريفيين هناك، قتلوا الرجال والأطفال واغتصبوا النساء ومثلوا بأجسادهن، بل بقروا بطون الحوامل، كانوا يضعون القنابل في قب جلايب الرجال ويفجرونها، أو يجرونهم إلى أقدام ولي العهد ويدبحونهم، أو يحملونهم في الحوامات ويرمونهم في البحر، سميت هذه العملية بـ"عملية المسح"، مسح السكان من الأرض.. كان الجميع ينتظر أن يمسح العسكر الريفيين هناك في الحسيمة ونواحيها، ثم يعودون إلى قبائل قلعية، في مدينة الناظور ونواحيها لينتقموا منا. وكان ذلك متداولاً بين الرجال العائدين بل قرر بعضهم، ممن كان له أقارب في الحسيمة، أن يبقوا لمساعدة إخوانهم هناك أو أن يموتوا معهم، لم يعد هؤلاء إلى ذويهم هنا فقد قتلوا أو "اختفوا"، إلا قلة قليلة أخبرت الناس بما حدث هناك..

حين عاد الهدوء إلى قرانا بدأنا نسأل الكبار عن سبب ما حدث، فكانت أجوبتهم تدور كلها حول كون "إغاريين" احتلوا أرضنا وأصبحوا يتحكمون في كل شيء، ويتصرفون معنا كأننا عبيد غرباء في أرضنا، وحرموننا من وسائل العيش، لا عمل ولا نقود ولا خبز، وقد تم إقصاء أبناء المنطقة من كل الوظائف.. وأن الموظفين الجدد أغرقوا الريف في الضرائب وفي الرشاوي، ومن يحتاج يمكن أن يسجنوه ويعذبوه.. آنذاك لم أكن أفهم الأمر جيدا.. غير أنني حين أصبحت يافعا واصطدمت بالإدارة.. عرفت معاناة السكان مع المسؤولين بكافة مستوياتهم.. وكلما تقدمت في العمر تعمقت معرفتي بعمق اللاوعي الجماعي لمثل ذلك الكلام..

أدركت، فيما بعد أن ما رددته البسطاء حول التنكيل بأبناء الريف الأوسط كان صحيحا.. وعرفت أيضا أن قبل الاستقلال لم تكن المنطقة مرتبطة، كما مناطق أخرى في البلاد، بالدولة المغربية إلا على المستوى الروحي مع السلطان والمشاركة في حروبه، إذ لم تكن في المغرب دولة مركزة لها سلطتها على جميع المغرب، فبقي

هذا الاستقلال القبلي راسخا في لاشعور أبنائها، وخلال فترة الاستعمار كان جل المغرب خاضعا لفرنسا بينما خضع كل الريف للاستعمار الإسباني، وهذا عمق عند الريفيين إحساسهم بالاستقلال.. وأن الاحتلال كان يستعمل الموظفين الصغار من أبناء الريف لتدبير شؤونهم الإدارية..

ظروف المعاناة: لقد تكاثفت السياسة والطبيعة والتمييز على خلق جو الفقر والجوع في المنطقة:

1- إذ في هذه الفترة كانت آثار جوع بداية الأربعينيات ممتدة، كما أن المواد السامة التي أطلقتها طائرات إسبانيا وفرنسا على المنطقة، في بداية العشرينيات من القرن الماضي، ما زال مفعولها قاتلا للأرض..

2- وصادف في تلك السنوات قبيل الستينيات أن الجفاف قحّل الأراضي الزراعية..
3- قبل الاستقلال، كانت كثير من العائلات تعيش بالكفاف الفلاحي وبما يتلقاه أبنائها بالاشتغال مع الإسبان في الإدارات كما في أعمال أخرى قليلة جدا، ثم فقدوا عملهم مع انسحاب الإسبان، منذ سنة 1957.. بل لم يهتم الاستعمار الإسباني بخلق شروط التنمية في المنطقة، خاصة في الريف الشرقي والأوسط..

4- وكان العدد الأكبر من أبناء العائلات يستفيدون من العمل في ضيعات المعمرين الفرنسيين بالجزائر، غير أن الإدارة الفرنسية أغلقت الحدود أمام الريفيين، بذريعة تهريبهم الأسلحة نحو جبهة التحرير الجزائرية وانخراطهم في صفوفها..

5- فوجد الريفيون أنفسهم في بطالة شاملة. وهو ما جعلهم ينتظرون الاستقلال ويحلمون بخيرات يأتي بها الاستقلال بعد التخلص من الاستعمار الإسباني، الذي أذاقهم الولايات وترك أراضيهم شبه قاحلة إلا بعض الجيوب التي كان يتحكم فيها معمره، وأيضا بعض المناجم التي اشتغل فيها الأهالي وتُنقل معادنها إلى إسبانيا.. لذلك ساهموا في حركة التحرير الوطنية، السلمية والعسكرية، بل سارعوا إلى تنظيم أنفسهم في جيش التحرير للضغط على فرنسا قصد إرجاع ملك البلاد وتحقيق الاستقلال، وفي نفس الوقت آمن البسطاء منهم بخرافة ظهور محمد الخامس في القمر، وحين عاد ثم استقلت البلاد فرحوا كمثل كل المغاربة، واحتفلوا في كل قرية وبلدة ومدينة.. غير أن سكان الريف، لما اندمجوا في المغرب المستقل، بعد انسحاب الإسبان من الشمال، وجدوا أنفسهم في عمق معاناة جديدة مثلها ما عرف بـ"الموظفين الجدد"، الذين انتمى جلهم إلى حزب الاستقلال أو تعاطفوا معه. ورغم اندماج الريفيين فقد تركوا خارج برامج التنمية التي هيأتها حكومات هذا الحزب،

وفي نفس الوقت يخضعون للضرائب المتزايدة، ويسير إداراتهم وشؤونهم موظفون، وقياد، غرباء عن المنطقة يمارسون على السكان كل أنواع البيروقراطية البدائية، من الارتشاء والابتزاز والاعتقال والتمييز، وفي نفس الوقت لا أحد من الريف في الحكومة يمكن أن يمثلهم في السلطات المركزية..

6- ثم زادت الحكومات الاستقلالية معاناة أخرى بإهمالها المطلق للمنطقة، فلم تشملها الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي قامت بها في مناطق أخرى.. ولم تقدم أي دعم للفلاحين هنا قصد التخفيف من أثر الجفاف الذي عم الريف، بل في ذروة الأزمة نزلت عليهم بموجة ضرائب جديدة، فبات الوضع كارثيا، خاصة وأن كل منافذ العمل قد فُقدت، كما أشرنا..

انتهاز المعاناة: وجد القصر هذه المعاناة الحادة فرصة سانحة لتعميقها، في صراعه، الكامن والظاهر، مع حزب الاستقلال، يشجع الحكومة على إهمال بعض المناطق، خاصة القروية، وفي نفس الوقت يعمل على تشجيع التمرد في كثير منها، مستغلا ضعف تواجد تنظيمات حزبية استقلالية ومستثمرا أخطاء موظفيه فيها.. بل شكل لهذه العملية حزبا قرويا، هو "الحركة الشعبية"، على رأسه "خدام القصر": الدكتور الخطيب والمحجوبي أحرضان، ليصبح الحزب "حزب سيدنا".." وقد استطاع أحرضان بسهولة تحريك الأعيان القرويين، بينما أثر الخطيب على عدد من أعضاء مختلف جماعات المقاومة. فتحركت عدة مناطق: الأطلس المتوسط، بنو يسناسن، زمور والريف. (...) ثم تم إخراج جثث مقاومين قتلوا في المعارك أو تم اغتيالهم، على رأس هؤلاء عباس لمسعودي، منسق جيش التحرير الوطني في ناحية الناظور.. وقد نقلت جثته من فاس فنظمت له جنازة حاشدة في أجدير بالريف.. وتحولت إلى مظاهرة احتشد فيها ما بين 8000 و10.000 شخص، وهذا عمق تأجيج الأحقاد على حزب الاستقلال، خاصة وأنه المتهم في اغتيال لمسعودي...⁴³⁷.

وكما رأينا، فإن فرنسا منعت دخول الريفيين إلى الجزائر للاشتغال في حقول وضيعات المعمرين.. وفي نفس الوقت تحرض القصر والحكومة على التدخل السريع في الريف قبل أن "تحل الكارثة" وهي مستعدة أن تشارك في ذلك التدخل..

⁴³⁷ - Nabil Mouline, Que sera l'Etat ? Le soulèvement du Rif reconsidéré (1958-1959), sens num. de page. <https://cjb.hypotheses.org/186>
le 7/7/2018 à 10h.

ومن أجل خروج الريف من المعاناة، أرسل لجنة حوار مع السلطتين الجديديتين، الحكومة والقصر، في البلاد، ناقشت معهما مطالب السكان، وهي مطالب اجتماعية: من مثل توسيع عملية الحرث لتشمل الريف، تخفيض الضرائب في كل المغرب وخاصة في الريف، خلق برنامج طموح ضد البطالة، إحداث منح دراسية للطلبة الريفيين، بناء مزيد من المدارس في القرى، فتح ثانوية في الحسيمة... ومطالب سياسية، منها: جلاء جميع القوات الأجنبية عن المغرب، تكوين حكومة وطنية، إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، تقديم المجرمين إلى العدالة، ضمان عدم الانتقام من المعارضين، اختيار قضاة أكفاء وإعادة هيكلة وزارة العدل، عودة محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى المغرب، اختيار موظفين مدنيين من السكان المحليين، اسناد وظيفة مهمة لريفي في الحكومة... بمعنى وضع الأسس الحقيقية لدولة ديمقراطية.. ورغم أن القصر نفسه أرسل لجنة لتقف على الأوضاع في الريف، وعادت لتطالب المسؤولين بضرورة التدخل العاجل لإنقاذ الريف من الفقر والمجاعة ومعاناته مع الموظفين الجدد.. إلا أن الحكومة كما القصر كان لهما برنامج آخر في الريف..

بل أكثر من ذلك تم تحويل هذه المطالب إلى رغبة الريفيين في الانفصال، واتهامهم بحمل الأسلحة واستنادهم إلى قوى خارجية تدعمهم على الثورة، بينما كان من المستحيل امتلاك السلاح خاصة في المغرب الأوسط، لأن ميناء الحسيمة كان في يد الإسبان، ونقل السلاح من شرق الريف أمر مستحيل أيضا، ونحن نعرف كيف أحكم الإسبان قبضتهم على المنطقة بعد ثورة العشرينيات، بل كانت هذه التهم ذريعة للتدخل المأساوي.. كان الجواب عن مطالب الريفيين، وعن لجنة تقصي الحقائق، هو إرسال المركز لبعض أكياس من دقيق المساعدات الأمريكية، رأى السكان أن هذه "الصدقات" هي نوع من السخرية والتحقير..

بل إن أخطاء واضحة اقترفها بعض قادة التمرد، باستنادهم إلى حزب الشورى والاستقلال الذي كان يشجع هو أيضا على التمرد، وتأويل خطابات محمد بن عبد الكريم الخطابي وأحيانا خطابات جمال عبد الناصر المشجعة للتمرد على بعض الأنظمة الملكية، التابعة، في العالم العربي...

ونتيجة لكل ذلك تأجج التمرد، فلا القصر حافظ على هيئته، بعد وعوده العروبية، إذ "إن الملك محمد الخامس، لم يهتم أبدا بمنطقة الريف، رغم أنها كانت من أهم

المناطق التي حاربت الفرنسيين من أجل عودته إلى العرش⁴³⁸، ولا الحكومة خفت من كراهية السكان لها.. لذلك استغل ولي العهد الفرصة لعسكرة البوادي، قصد فرض الأمن والسلم بالقوة، وتعويض موظفي حزب الاستقلال بضباط أوفياء للعرش⁴³⁹، وفي نفس الوقت بداية تأسيس ملكية متحكمة مقدسة ومستبدة، قائمة على أطروحة المخزن يفرض على الجميع الخضوع والخدمة، فشكل من منطقة الريف باب جهنم الذي انفتح على كل مناطق البلاد.. وكان ذلك بمساعدة أصدقاء القصر من الفرنسيين، فالفرنسيون لم ينسوا المشاكل الحادة التي خلقتها لهم ثورة عبد الكريم الخطابي حول منطقة فاس، كما أن القصر لم ينس خروج الريف، أثناء ثورته، عن طاعة مولاي يوسف⁴⁴⁰.. بل اختفى أعضاء الحزب، الحركة الشعبية، الذي أسسه القصر أخيرا، وتعمق إهمال حزب الاستقلال، بما فيه جناح اليسار الذي شكل به عبد الله إبراهيم الحكومة خلال ديسمبر 1958..

مسح المنطقة من سكانها: وقد استغلت فرنسا الأوضاع في الريف، فانطلقت "تؤكد للحكومة أن الوضع في الريف خطير، وأن الريفيين يهيئون للهجوم على الأجانب، خاصة الإسبان في المدينتين المحتلتين، وأن إسبانيا ستحمل المسؤولية للسلطات الرسمية، إذ كانت فرنسا تعمل على تسريع التدخل العسكري في المنطقة لمنع الريفيين من تهريب الأسلحة لجبهة التحرير والانضمام إلى المقاومة الجزائرية.. فقامت الحكومة تروج لخيانة الريفيين، قصد تأليب السكان عليهم"⁴⁴¹، وأنهم انفصاليون ومدعمون من الخارج، متهمة إسبانيا ومصر.. وهذا عمق الأزمة وأفشل، بخلفية سوء نية، كل محاولات حلها، فتم ترشيح المنطقة للقتل والتكيل والتدمير وبكل الأسلحة، بعدما تمت عسكريتها..

وفي 5 يناير 1959 ألقى الملك محمد الخامس خطابا يعطي مهلة 48 ساعة للمتمردين ليخضعوا ويهدؤوا، وإلا سيكون الرد قاسيا، بينما الهجوم العسكري كان قد بدأ قبل هذا الخطاب بأيام⁴⁴²..

438 - Concepción Yabarra La rebelión del Rif (1958-1959), Revista Espacio, Tiempo y Forma. Serie V, 10. P. 337.

439 - Nabil Mouline.

le 7/7/2018 à 10h.

440 - Yabarra, p.335.

441 - C. Yabarra, P.339.

442 - Nabil Moulin.

إذ "شارك الأمير الحسن في قمع تمرد 1959 بقسوة شديدة، بقبلة السكان المدنيين مستعملا الأسلحة الكيماوية"⁴⁴³.. بل يوضح محمد الطوزي ذلك بنوع من التفصيل، قائلا: "قاد الأمير، ولي العهد الحسن الثاني (ابن الملك محمد الخامس)، الجيش المغربي بأكثر من عشرين ألف رجل، (...) فأنزله في الحسيمة وطنجة، وفي 1959 ألقت الطائرات العسكرية، بدون تمييز بين السكان، على الأراضي الريفية القنابل الانشطارية والنابالم والفسفور، ليقتل أكثر من ثمانية آلاف شخص بريء. وفي وقت قصير، سحق الحسن الثاني التمرد الريفي لتبدأ مرحلة طويلة من القمع ضد الريفيين: سنوات الرصاص"⁴⁴⁴.. بل تؤكد الباحثة الأمريكية ناتاشا إيسكندر Natasha Iskander أن عدد الجنود المشاركين في هذا التدخل المأساوي هو 30.000 جندي⁴⁴⁵.. لقد تكون الجيش المغربي آنذاك من فرق عسكرية كانت مرتبطة بالجيش الفرنسي والإسباني أيضا" تم تطعيمه ببعض أعضاء جيش التحرير.. وفي نفس الوقت الذي عمل القصر على التمكن من العمود الفقري (الجيش) للدولة، تهاافت الأحزاب على الإدارات في المدن تعين فيها موظفيها، مهمة البوادي التي ألحقها القصر بالجيش.. لذلك قساوة ولي العهد بدعم من ضباط وطيارين ومظليين فرنسيين.. وقد صب على المنطقة، هو ويده اليمنى آنذاك في الجيش، أفقر، ومدعموه من الفرنسيين، غضبه الجهنمي.. وفي تحركه أحرق الجيش، بجنوده وطائراته ومدركاته، المحاصيل الزراعية القليلة، وألقى القنابل على التجمعات السكنية وعلى المنازل المنفردة⁴⁴⁶ ونكل بالسكان، فتم اقتراف مجزرة تركت حوالي 8000 قتيل، رجالا ونساء وأطفالا، واعتقل أكثر من ذلك، وحوالي ضعف هذا العدد من الجرحى... إلى درجة أن قرى بكاملها سويت بيوتها بالأرض وأبيد قاطنوها، كما

⁴⁴³ - Josep Lluís Matio Dieste, Revueltas sorpresa ? Precedentes y formas de resistencia en el Magreb: apuntes sobre Marruecos, en revista Quaderns-e, numero 17(2) any 2012, p. 26.

⁴⁴⁴ - TOZY.M.(1999). Monarquía e Islam político en Marruecos. En Teresa Vidal Amat "El estado del desarrollo en el Rif (Marruecos): una trayectoria de colonización y conflictos étnicos. Master Oficial en Desarrollo y Cooperación Internacional Universidad de Lleida Diciembre de 2012 Ed. CERAI centro de estudios Rurales y de agricultura internacional, p. 22-23.

⁴⁴⁵ - Creative State – Forty Years of Migration and Development Policy in Morocco and Mexico, New York Cornell University Press, 2010, P. 44.

⁴⁴⁶ - خاصة وأن منازل الريفيين متباعدة لأنهم يبنون في الأماكن الحجرية التي لا تصلح للزراعة، قصد الاستفادة من القطع الأرضية التي يمكن استغلالها..

حدث لبلدة بني احذيفة "فقد تم تدميرها عن آخرها وأعدم جميع سكانها الأربعمائة"⁴⁴⁷.. لقد استفاد ولي العهد في هذا الهجوم الماسح مما فعله الإسبان والفرنسيين، خلال العشرينيات، فاستعمل هو أيضا الأسلحة المحضورة: القنابل الانشطارية، النابالم والفسفور الأبيض، وقام بتدمير المحاصيل وقنبلة البيوت والقرى والأسواق.. فاستحقت العملية صفة "المسح" الكلي..

النتائج: كانت نتائج هذا "المسح" مدمرة جدا ماديا وسياسيا واجتماعيا ونفسيا، وهي: أولا، إبادة وعطب أكثر من نصف سكان المنطقة..

ثانيا، تأسيس تقليد مخزني: كلما احتج أهل الريف ووجهوا بالقتل والتنكيل، وتم تعميم هذا التنكيل على كل الوطن.. وعسكرة المنطقة وعزلها، لتبقى دائما منطقة عسكرية محاصرة..

ثالثا، إطلاق يد الموظفين المحليين وغير المحليين في خيراتهم ونهب مشاريعهم واحتقار سكانها وتحریم أي كلام عن المنطقة أو عن ثقافتها، إلى حدود بداية التسعينيات، واستفاد الحاكمون في المركز من ذلك..

رابعا، غرس الحقد على المخزن تتوارثه الأجيال، تخريب الحس الوطني عند السكان، إذ منذ تلك الفترة بات الريفي لا يحس بعلاقة اندماجية بكل البلاد، فلا يحلم إلا بالانتقال إلى ما وراء البحر..

خامسا، ومباشرة بعد ذلك القتل الجماعي، تم فتح أبواب تجارة رابحة للدولة ولموظفيها في المنطقة، وهي التهجير، إلى ألمانيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا ثم إسبانيا، فقد كانت الشركات الغربية تتعاقد مع المسؤولين في الرباط ثم تبعث إلى المناطق الفقيرة، على رأسها الريف، لاقتناء العبيد الجدد، إلى درجة أنه إلى حدود نهاية السبعينيات كانت القرى والبلدات والمدن، خاصة في الناظور والحسيمة ونواحيهما خالية من الرجال، فقد وصل "عدد المهاجرين من الريف سنة 1966 إلى 26800 مهاجر. وفي نهاية 1970 وبداية 1971 قدرت السلطات المحلية عدد المهاجرين من إقليم الناظور فقط بحوالي 32000 مهاجر، ينتمي معظمهم إلى الوسط القروي، و"قد ارتفع هذا العدد ما بين سنتي 1971 و1973 ليصل إلى 40.000 مهاجر"⁴⁴⁸، بل إلى حدود 1974 كان العدد يتراوح بين 43000

⁴⁴⁷- Nabil Moulin.

⁴⁴⁸ - بوظيلب الحسين، الهجرة الدولية بالريف الشرقي وانعكاساتها، مجلة أسيناك، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، عدد مزدوج 4 - 5، 2010، ص. 65.

و⁴⁴⁹45000. غير أن هذه الإحصائيات جد مقلصة، خاصة وأنها اعتمدت على إحصاء المهاجرين بالتعاقد المباشر الذي تشرف عليه الإدارة المغربية، بينما شكل المهاجرون ضعف هذا الرقم، لأن كل من تمكن بالجواز من عمالة الناظور كان يهاجر إلى أوروبا للعمل، وليس للسياحة، خاصة وأن السفر بدون تأشيرة، ولأن ثمن إنجاز جواز السفر من إدارتي الناظور والحسيمة كان يكلف غالبا، فالجميع يطلب "قهوته" من مقدم الدوار إلى المسؤولين في العمالة عبر شيخ القبيلة والقائد.. فكان الناس ينجزونه من تازة ومن وجدة، وأحيان من الجزائر، بعد استقلالها، أو يمكن لأبناء العائلة الواحدة أن يهاجروا بجواز سفر واحد، حين يصل أحدهم إلى بلد في أوروبا يرسل هذا الجواز من جديد يستعمله غيره، ثم يتصلون بالقنصليات هناك لينجزوا جوازاتهم، بالمقابل السخي، ومن لم يستطع ينتقل سرا في بواخر مليلية ليخترق بعد ذلك حدود إسبانيا نحو فرنسا. إذا أخذت قريتي الصغيرة كنموذج كانت تسكنها أربع عائلات، هاجر منها سبعة أشخاص، ثلاثتهم فقط ذهبوا بالتعاقد..

يقضي المهاجر في غربته سنة ثم يعود ليزور أسرته، حينذاك يصطدم برجال الحدود يبتزونه، ثم يصل إلى بيته فيجد المقدم والشيخ في انتظاره "ينفحهم جزيتهم" وإلا سحبوا منه جواز سفره.. ولأن هذا المهاجر كان يعرف أيضا أن أسرته تعاني هنا مع أولئك المسؤولين.. كما يعاني هو حدة الغربة والضغط المادي والاجتماعي والنفسي حين عودته السنوية، اضطر أن يهاجر بالتجمع العائلي، فيتحول أبناؤه هناك مهاجري الجيل الثاني والجيل الثالث، ويطول تقليد عودته إلى أرضه..

سادسا، وكلما أنجز مشروع ما في المنطقة يكون أبناؤها آخر من يستفيد من الاشتغال فيه، لأن كل مسؤول يأتي بذويه من مسقط رأسه.. وقد تم توسيع البطالة والضغط النفسي والجسدي والمادي على السكان، بتخريب المعامل الصغيرة، خاصة معامل تصبير السمك، التي تركها الإسبان في المدينتين وبعض الأوراش الصناعية، ثم توقيف مناجم الحديد وتخريبها في الناظور، مقابل تسليم الجوازات للعمال كي يهاجروا..

⁴⁴⁹ - Raymond Bossard. Mouvements migratoires dans le Rif oriental : le travail en Europe. Aspect contemporain majeur des migrations dans la province de Nador. Thèse pour le doctorat de 3 cycle, préparée sous la direction de Madame A. M. FAIDUTTI et Monsieur J. LE COZ, UNIVERSITE PAUL VALERY, Arts et Lettres, Langue et Sciences Humaines, Montpellier 1978, p. 15.

سابعاً، اشتغل مدقعو الفقر، الذين لم يملكو ما يشترون به جواز السفر، ولم يستطيعوا المغامرة السرية، في التهريب من مليلية وسبتة، وقد اغتنى بهم كثير من رجال الجمارك وغيرهم، إلى درجة أن مناصب التعيين في بعض الأماكن في المنطقة كانت تباع وتشتري.. بل لم يكن رجال الجمارك يتوانون في إطلاق الرصاص على المهربين الصغار..

ثامناً، تحول التهريب والهجرة إلى مؤسسات، تغني الموظفين قبل المشتغلين فيها، كما أن أموال مشاريع التنمية والبنيات التحتية كانت تطير قبل أن تستقر في الأقاليم، لتتحول إلى مداد في الأوراق وإلى أرصد للمسؤولين في البنوك، بلا محاسب ولا مراقب، بل المحاسب نفسه، في المركز وفي الجهة يصله جزء من ريعها..

تاسعاً، حين استُتبت وأنضجت شروط انتفاضة 1958-1959 خلال الثمانينيات ثم في العقد الأخير: من انتشار الفقر وفرض الدول الأوربية، المستوعبة للهجرة، التأشيرة بعد أن أتخمت بالمهاجرين، واتساع البطالة وتقليص التهريب وارتفاع الأسعار واستحواذ المافيات على خيرات البحر والبر وانتشار الفساد والنهب، مع محاصرة قوارب الموت، واتساع رقعة الوعي بين الشباب.. حينذاك تكررت نفس مأساة نهاية الخمسينيات، في 1984، تقريباً بنفس المطالب، وب نفس القمع حيث تم طحن المواطنين بالرصاص وبالطائرات ودفن القتلى والجرحى في مقابر جماعية، واختطاف الشباب ومحاكمتهم سوريا لدفنهم في المعتقلات..

وقريباً من هذا حدث أخيراً في مدينة الحسيمة ونواحيها.. فقد ضغطت على السكان كل شروط القهر فخرجوا يحتجون بكثافة، وامتد احتجاجهم أكثر من تسعة أشهر. وقد سارعت الحكومة بأحزابها إلى اتهام المحتجين بالانفصال وتلقي الدعم المادي على ذلك من الخارج، إلا أن الملك نفسه أكد مطالب المحتجين وحمل الحكومة مسؤولية تشويه وتباطؤ المشاريع المسطرة، كما مشاريع الحسيمة "منارة المتوسط".. وبسبب ذلك، أو برغم ذلك، كانت النتيجة أن صب المخزن كل أدوات قمعه على المتظاهرين، اعتقالات وقتلا وتهما مختلقة، فكرر جل سيناريو 1958-1959، وتهمة:

تشابه البطش خلال الزمين، من مثل إحراق خمسة شبان في وكالة بنكية دون "معرفة الفاعل"، قتل بائع السمك، محسن فكري، أبشع قتل بطحنه في شاحنة الأربال، فقط لأنه يبيع سمكا اشتراه من الميناء بعد صيده في وقت الراحة البيولوجية للسمك، وعوض محاسبة مافيا الصيد التجأت السلطة إلى الحلقة الأضعف وهو بائع السمك..

دون متابعة القاتل ومن تسبب في القتل، ثم موت الشاب عماد العتابي.. فاعتقال الشباب والأطفال والنساء واقتحام البيوت. والأخطر من ذلك توزيع المعتقلين على سجون الدولة انتقاما من ذويهم بالأسفار أثناء زيارة أبنائهم. وتكثيف عسكرة المنطقة..

تشابه التهم، الانفصال: والحقيقة أن الدولة أهملت المنطقة كليا رغم تسطير مشاريع تنميتها لكن تم نهب ميزانياتها دون أي انجاز ودون متابعة المهملين والناهبين، فهي التي انفصلت عن الريف..

تلقي الدعم الخارجي: والحقيقة تعرفها جيدا كل مؤسسات المخزن، فالدعم يأتي من أبناء العائلات الريفية المهاجرين في أوروبا، وشكل أهم مصدر للعيش في المنطقة منذ أحداث نهاية الخمسينيات..

زعزعة أمن الدولة: اتهم الشباب المحتج أنهم يزعمون أمن الدولة، رغم أن الدستور الأخير يجيز التظاهر من أجل المطالبة بالحقوق، فتكون الدولة هي التي زعزعت أمنها بالمساهمة في انتشار البطالة بحدة، بقتل أبرياء واعتقال جل المحتجين وتعذيبهم دون متابعة المسؤولين على ذلك.

هكذا عشت إلى الآن كي أكون شاهدا، أولا، على أن تصريحات الحكومة، بوزرائها وبرلمانيها وأحزابها، تناقضت وخطابات رئيس الدولة الذي اتهم، في ذات الحكومة، من أشرفوا على تنفيذ مشروع "منارة المتوسط" في الحسيمة، وقام بانتقاء بعضهم وتجريدتهم من مسؤولياتهم، وبقي أخطر المسؤولين المفسدين في البحر والبر ينهبون كل شيء، وكان من الضروري متابعتهم باعتبارهم أفقر وأقتلوا وأنتجوا شروط الاحتقان، وهو ما يعني أنهم هيأوا الأجواء لزعزعة أمن البلاد، ليس في الريف فقط بل في كل منطقة، حيث تناسلت الاحتجاجات... ثانيا، أنه، رغم تلك الحقيقة وهذا التناقض، عومل وحوكم معتقلو حراك الريف على أساس تلك التهم المختلفة بأقصى العقوبات.. بل فتح المخزن أبواب جهنم أيضا على مناطق أخرى في المغرب عانت مما يشبه ظروف الريف، كما الأمر في اجردة.. ثالثا، على كون الجميع يدرك أن من أسس المخزن التي ما زالت، كل مرة، تطفو على السطح، هي إلقاء بمعارضيه في غياهب السجون، وإغراق خدامه في الريع بل وتشجيع الفساد.. وكان من الممكن أن يضغط الغرب من أجل إتمام إصلاح وتنمية البلاد، إلا أن هذا الغرب نفسه بات انتهازيا يستفيد، هو نفسه، من مثل هذا الوضع في كثير من بلدان إفريقيا والعرب.



إطلالة تاريخية على مدينة الحسيمة حول أصل التسمية ودلالاتها



محمد أونيا

في أصل التسمية

«AL Hucemas» باللغة الإسبانية، و «AL Hoceima» بالفرنسية هي في الأصل تسمية أطلقها الإسبان على مدينة الحسيمة الحالية. وهي لفظة قديمة ظهرت قبل تأسيس هذه المدينة نفسها بحوالي قرنين ونصف من الزمن. ذلك أن الإسبان استخدموا هذه المفردة في البداية كتسمية لحجرة النكور المغربية التي احتلوها في صيف 1673م، كما أطلقوها على الساحل المقابل لها، حيث أسموه «مرسى الحسيمة»، قبل أن (مورو نويفو) Morro Nuevo يعمموا تلك التسمية على كل الخليج الممتد من «طرف "تغلل"،⁴⁵⁰ Cabo Quilates المسمى محليا بـ«برأس الطرف» غربا، إلى «رأس سيدي شعيب» شرقا، فيما عُرف عندهم بـ«باهية الحسيمة».

⁴⁵⁰ - كلمة الطرف في المصادر العربية القديمة يراد بها «الرأس»، أي الجرف أو بالأحرى «الطرف» الذي يدخل في البحر، وهي الترجمة العربية المناسبة لمصطلح «مورو» بالإسبانية. وهكذا نجد مصطلح طرف تيغلل بتمسمان، ورأس الطرف المطل على ميناء الحسيمة الحالي (قنت الزيت سابقا)، ويقابله الجدار الصخري الذي يطل على شاطئ كيمادو، والمسمى محليا «دهار ن زمورث» (وبين هذين الجرفين أو الرأسين (سيدي عابد

وعندما تم الانزال العسكري الإسباني بموضع مدينة الحسيمة الحالي سنة 1925، كان لا يزال عبارة عن أرض خلاء يسميها أهل البلد بتغزويث،⁴⁵¹ وهو مصطلح جغرافي أمازيغي يطلق على الجنبات الخصبة المحيطة بالأودية، وبالأخص منحنيات الأنهار الفيضية، أو كذلك على الأماكن المنخفضة ذات التربة الحمراء الصالحة للزراعة⁴⁵²، ولعل هذا المعنى الأخير هو الذي ينطبق على الموضع الذي ستشيد فوقه مدينة الحسيمة.

ويُروى أيضا أن الموضع أو بالأحرى حيزا منه كان يسمى باسم «ثيجذيت»،⁴⁵³ وتدل في الأمازيغية الريفية على الرمل الناعم أي تأنيث لمصطلح «إجذي» أي الرمل. وذلك نسبة إلى الشريط الرمل الذي كان يحيط بهذا المكان على شكل قوس يمتد من ساحل «إشداين» (صباديا) غربا، إلى الشاطئ الجميل (كلا بونيتا) شرقا، والذي كان يعرف باسم بمرسى «ثيجذيت ثامزيانت» تميزا لها عن «ثيجذيت ثامقرانت» أو «المرسى الكبيرة» التي عُرفت محليا باسم «زمارصث ن تغزويث»، وعند الإسبان⁴⁵⁴ بشاطئ «كيمادو».

بالإسبانية)، El Cancel ومورو فييخو) تنحصر الأماكن المسماة سابقا من طرف أهل المنطقة بقنت الزيت ثم مرسى ثيجذيت ثامقرانت (Los Islotes واشبارات أو اشبارث).

- أمين الريحاني، الرحلات، المجلد الثاني، المغرب الأقصى، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1980. 451 ص. 435. المفتوح أحمد بوقرب، منطقة الحسيمة عبر التاريخ، مساهمتها في بناء الحضارة المغربية. الجزء الثاني، الثورة الريفية ونشأة مدينة الحسيمة. الطبعة الأولى. (2013). ص. 116.

- لعل كلمة تغزويث تصغير لمصطلح تغزة، وجمعها تراغين. وكلها أسماء طوبونيمية تنتشر بكثرة في الريف⁴⁵² وغيره من المناطق الأمازيغية في المغرب، وتعني المنعطفات النهرية الخصبة.

- أحمد البوعياشي، حرب الريف التحريرية ومراحل النضال. ج. 1، طبعة طنجة، 1974. ص. 111. 453

المفتوح أحمد بوقرب، منطقة الحسيمة عبر التاريخ، ج. 2. م. س. ص. 120. و ص. 256.

« أو «كيمادو» على مرسى تغزويث Quemado. ليس هناك تفسير واضح ومقنع لسبب إطلاق كلمة «⁴⁵⁴ (ثيجذيت ثامقرانت). ويمكن تقسيم الروايات التي أمكننا رصدها بهذا الصدد إلى نوعين:

الصف الأول عبارة عن رواية حديثة ومحلية أوردها الأستاذ المفتوح بوقرب ومفادها أن الإسبان قاموا، أثناء إنزالهم العسكري بذلك الشاطئ، بإحراق الأعشاب والشجيرات التي كانت تغطي السفح المطل مباشرة عليه، كما أشار إلى رواية أخرى ومفادها أن المجاهدين الريفيين أوقدوا النيران في براميل البنزين التي أنزلها الجنود الإسبان فوق الشاطئ أثناء غزوهم للمنطقة (المفتوح بوقرب. ج. 2. ص. 120). بيد أن تسمية « كما تبدو مرسومة على بعض الصور الجوية التي التقطت للمنطقة قبل الإنزال العسكري Quemado » الإسباني، أقدم تاريخيا، من وقائع الرواية التي أوردها الأستاذ المفتوح.

والصف الثاني من الروايات المتصلة بسبب إطلاق نعت «المحترق» على الشاطئ المذكور هي روايات إسبانية منها التي ترى أن تلك التسمية مستمدة من حادثة إحراق أحد البحارة البرتغاليين حيا من طرف الريفيين في ذلك المكان فصار يعرف بالشاطئ المحروق وهي رواية يستبعدا السكان المحليون. وهناك اعتقاد آخر

وحسب بعض المصادر الإسبانية فإن أول تسمية حملتها حاضرة الحسيمة هي «بلدة كيمادو»⁴⁵⁵، بمعنى أن ميلاد النواة الأولى لهذه المدينة بدأ بالضبط من مرفأ كيمادو.⁴⁵⁶

وفي سنة 1926 أطلق الحاكم العسكري العام لميلية «ألبرتو كاسترو خيرونا» على تلك البلدة «الكولونيالية» اسم⁴⁵⁷ جبل ملموسي⁴⁵⁸ الذي حرف من طرف السكان المحليين فصار يعرف بمروشة، أما تسميته الأصلية فهي «ذهار واشاون» على اعتبار أن ذلك المرتفع ينتهي بقميتين توأمتين تشبهان القرنين، تماما كما هو الحال بالنسبة لمدينة شفشاون التي استمدت تسميتها من لفظة «أشاون» الريفية. وفي سنة 1927 اقترح أحد الضباط وهو الإسبان وهو أرسينيو دي فوينتيس على السلطات الإسبانية العليا فكرة إطلاق تسمية جديدة على هذه المدينة ألا وهي

بمعنى المحروق، إلى المنظر الطبيعي القاحل والمائل إلى السواد للجرفين Quemado يرجع تلك الصفة، أي («الرأسين» أو الطرفين) المطلين على ذلك الشاطئ. انظر: morros

Miguel Quecedo Ortega, Recuerdos de Marruecos. Villa Sanjurjo y el Rif Central en 1931. La Biblioteca de Melilla, 2008.p.64.

ويبدو أن ربط صفة «المحترق» باللون الداكن المائل إلى السواد لتلك الأجراف المحيطة بالشاطئ المذكور أي المحترق على ذلك Quemado أقرب إلى المنطق، فحسب باحث إسباني، قد يعود سبب إطلاق لفظ الشاطئ «لسواد صخوره التي تبدو كأنها قد احترقت بالنيران». راجع مقال:

Enrique Guerra, «Al Hucemas : El nacimiento de una ciudad».

تعريب د. مصطفى الغديري، «ميلاد مدينة الحسيمة». ضمن كتاب الريف موضوعات وقضايا. سلسلة كتب الريف رقم 1. مطبعة الجسور، الطبعة الأولى، 2009. ص. 90. الهامش رقم 6.

⁴⁵⁵ - op. cit. p. 64.

Miguel Quecedo Ortega, Recuerdos de Marruecos. Villa Sanjurjo y el Rif Central en 1931. Antonio Linage Conde, Caminos de una Ciudad Nueva : «Villa» al otro lado del Estrecho. P. 5.

- انريكي غيرا، «ميلاد مدينة الحسيمة»، ترجمة مصطفى الغديري، م. س. ص. 92. ⁴⁵⁶

Juan Román, Fragmentos de una conversación continua sobre Al

Hucemas. Ed. Ayuntamiento de Melilla, 1994, p.19.

لمدينة الحسيمة يوم 7 أكتوبر 1927، نشرت إحدى XIII الزيارة التي قام بها ملك إسبانيا الفونسو بمناسبة villa مقالا لخصت فيه تاريخ هذه المدينة (Diario Español de Alhucemas) الجرائد المحلية المسماة (). وقد أعيد نشر ذلك المقال من طرف «خوان رومان» الكاتب الإسباني الذي ولد وعاش وتوفي Sanjurjo بالحسيمة، انظر:

Juan Román, Fragmentos de una conversación continua sobre Al Hucemas op.cit.p. p.17-22.

- يستمد جبل ملموسي هذه التسمية من اسم الكاتب والمستشار القانوني للمفوضية الإيطالية بطنجة⁴⁵⁸ الذي زار الريف في ربيع سنة 1925 في إطار المساعي التي **Naldo Malmussi** المسمى «نالدو ملموسي» قامت بها إيطاليا لدى محمد بن عبد الكريم الخطابي. والغالب على الظن أن تلك التسمية حرفت من طرف أهالي المنطقة فصارت تنطق «مروشة»، ومن هنا تسمية حي مروشة المجاور لحي أفزار الحاليين.

فيلا سانخورخو⁴⁵⁹ أو باختصار سانخورخو نسبة⁴⁶⁰، إلى الجنرال الإسباني المذكور الذي سيقوم يوم 14 غشت 1927، بزيارة هذه المدينة التي صارت تحمل اسمه. فيما قام الملك ألفونسو الثالث عشر بأول زيارة لها في 7 أكتوبر من نفس السنة.⁴⁶¹

وإبان الحكم الجمهوري الإسباني صارت المدينة تعرف باسم "فيلا الحسيمة" نسبة إلى الحجرة المحتلة الواقعة في الخليج الممتد داخل حوض النكور،⁴⁶² و من هذه التسمية الأخيرة ترجمت- في عهد الاستقلال- إلى الحسيمة بالعربية فسميت المدينة بها «في أول زيارة قام بها رئيس الحكومة المستقلة مبارك البكاي»⁴⁶³، أما بالريفية فكانت تشتهر بـ«بيا الحسيما» أو «بيا» اختصارا لتستقر التسمية في النهاية على «الحسيمة» كما هو الحال إلى يومنا هذا.

وباختصار شديد، يبدو من خلال هذه الإطلالة التاريخية السريعة، أن مصطلح الحسيمة الحالي كان في الأصل، وحسب التداول الإسباني، إسما يطلق على خليج النكور ثم على جزيرة النكور الواقعة قبالة شواطئ أجدير بني ورياغل، وأن الإسبان بدل أن يسموا الموقع باسمه الأصلي المحلي كما فعلوا بالنسبة لملييلة وبادس مثلا، فإنهم استخدموا كلمة دخيلة وغريبة نوعا ما. وهكذا، فعوض حجرة نكور وخليج نكور، وسهل النكور، اختاروا على التوالي، اسم بينيون دي ألحسيماس، ثم حصن لوسيماس⁴⁶⁴ وأخيرا فهذه الأسماء أي الخليج، والسهل، والجزير ثم المدينة، كلها تنسب إلى "الحسيمة" فمن أين اشتقت هذه التسمية وماذا تعني؟

⁴⁵⁹ Miguel Quecedo Ortega, *Recuerdos de Marruecos*. Op. cit. p. 64.

⁴⁶⁰ Juan Román, *Fragmentos de una conversación continua sobre Al Hucemas* op.cit. p.18. Placido Rubio Alfaro y Miguel Lacalle Alfaro, *Al Hucemas, Desembarco, Asentamiento, Evolución*. Ed. Malaga, 1999, p. 41.

⁴⁶¹ Antonio Linage Conde, *Caminos de una Ciudad Nueva* : «Villa» al otro lado del Estrecho. P. 5. Juan Román, *Fragmentos*. op. cit. p. 17.

⁴⁶² Placido Alfaro y Miguel Lacalle Alfaro, *Al Hucemas*, op.cit. p. 41

- أحمد البوعياشي، حرب الريف التحريرية، ج. 1. م. س. ص. 112. ⁴⁶³

- عند احتلال حجرة النكور في غشت من سنة 1673، أطلق عليها الإسبان اسم القديسين الكاثوليكين: ⁴⁶⁴ Peñon de Al Hucemas. قبل أن تشتهر لديهم باسم «حصن الوسيماس» San Agustin y San Carlos.

دلالة التسمية

مما لا شك فيه، أن هذا التداخل والتعدد في الأسماء والمسميات شوش وما يزال، على بعض المؤرخين وخصوصا منهم دارسي المقاومة الريفية الذين غالبا ما يخلطون بين الحسيمة-الجزيرة، والحسيمة-المدينة، ولا سيما من لا يعرف منهم، عن كثب، هذه البقعة من بلادنا.

بيد أن ما يثير الإشكال الحقيقي عندما نقارب إيتيمولوجيا مفردة «الحسيمة» هو غموضها أصلا ومعنى. فالروايات التاريخية تتضارب وتتناقض بشأن المصدر اللغوي الذي منه اشتقت تسمية الحسيمة وعموما، يمكن أن نجمل ما كتب حول دلالة هذه التسمية في أطروحتين:

الأطروحة الأولى، وترى أن تسمية مدينة الحسيمة هي في الأصل "ألوسيماس" تصحيح وتحريف للاسم العربي لنبات «الخزامى».. وهذه الأطروحة هي الأكثر شيوعا وشعبية، وتطال حتى بعض الدروس التي تلقن لتلامذتنا بالتعليم الابتدائي التي تخصص للتعريف بمدينتهم في إطار مادة " التربية على المواطنة". ناهيك على أن تلك التسمية صارت تطلق حتى على بعض المرافق الخصوصية و المؤسسات التعليمية. ويبدو أن هذه الفكرة - أي ربط أصل الحسيمة بنبات «الخزامى» - فكرة قديمة نسبيا، انتشرت قبل ظهور مدينة الحسيمة الحالية نفسها، ففي أواخر القرن التاسع عشر نجد الكاتب الفرنسي «أوجست موليراس» يقول في كتابه «المغرب المجهول» إن حجرة النكور لقبت « من طرف الإسبان بالحسيمة (الخزامى)، وهي كلمة مستعارة من العربية مع تحويل بسيط، إذ أصبحت الخزامى هي الحسيمة»⁴⁶⁵. ومعلوم أن موليراس اعتمد في كتابه على مخبر وهو القبائلي محمد بن الطيب الملقب بالدرويش الذي تجول في ربوع الريف لعدة سنوات قبل أن يعود إلى الجزائر ليروي له كل ما شاهده وعاشه في القبائل الريفية، كما اغتنم الكاتب فرصة تردد العمال الريفيين على منطقة وهران لاستكمال روايات الدرويش القبائلي⁴⁶⁶.

- أوجست موليراس، المغرب المجهول، الجزء الأول. اكتشاف الريف. ترجمة وتقديم د. عز الدين⁴⁶⁵ الخطابي. منشورات ثيفراز ن اريف، رقم 2. مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 2007. ص. 101. وكذلك النسخة الأصلية:

Auguste Moulières, *Le Maroc inconnu*, T.1.Exploration du Rif. Oran, 1895. P. 94.

- نفسه، ص. 10.⁴⁶⁶

ولربما كان للأستاذ أحمد البوعياشي الذي تبنى نفس الرواية القديمة التي ترجع أصل تسمية الحسيمة «إلى نبات «الخزامى»، نصيب من التأثير على انتشار تلك الإشاعة لاسيما بين ظهراي الجيل الأول من متعلمي ومثقفي منطقة الريف بعد الاستقلال، بفضل كتابه الشهير «حرب الريف التحريرية ومراحل النضال».

ففي الجزء الأول من هذا الكتاب يذكر الأستاذ البوعياشي أن أصل تسمية مدينة الحسيمة مشتق من اللفظ الإسباني "ألوسيماس" الذي هو بدوره محرف عن الكلمة العربية «الخزامى»، وهو اسم لنبات طبيعي ينتشر في هذه السواحل، فلما وصل العرب في الفتح الأول إلى هذه المنطقة «ووجدوه بكثرة سموها المدينة به»⁴⁶⁷، وبالتالي فهو يرى أن «المزمة» هو اسم «عربي مصحف عن الخزامى»⁴⁶⁸.

وهكذا، وحسب الأستاذ أحمد البوعياشي دائما، فقد «كان الإسبان يطلقون هذا الاسم على جزيرة النكور، حيث تكثر هذه الأعشاب في سواحلها على الشاطئ المقابل لها».⁴⁶⁹

وللدفاع عن وجهة نظره، استدل صاحب كتاب حرب الريف التحريرية بكون لفظة "ألوسيماس" بصيغة المفرد، وكما هي مفسرة في القواميس الإسبانية، تفيد نفس المعنى الذي تفيد لفظة «الخزامى» في نظيرتها العربية.⁴⁷⁰

الأطروحة الثانية، وهي ذات طابع أكاديمي نجدها مبثوثة لدى مجموعة من الكتاب والباحثين الأجانب وحتى بعض المغاربة، ومنهم الأستاذ محمد الفاسي، ودافيد هارت، وجان لوي ميج، وخوان رومان وغيرهم. ويرى هؤلاء أن مصدر التسمية الإسبانية ليس هو اسم نبات الخزامى كما هو شائع، بل هو المزمة، الحاضرة التي كانت في العصور الوسطى مرفأ بحريا لمدينة النكور، ثم صارت مدينة عامرة في العهد الموحيدي قبل أن تصبح أطلالا شاهدة خلال الحكم السعدي.⁴⁷¹

ويستدل أصحاب هذا الطرح بكون كلمة المزمة تعرضت، جراء تواترها لدى الرحالة والمستكشفين، للتحريف حتى تتلاءم مع النطق الأجنبي. وهكذا، نجدها في

- أحمد البوعياشي، حرب الريف التحريرية ومراحل النضال. ج. 1، م. س. ص. 171. 467

- نفسه. 468

- نفسه. ص. 112. 469

- نفسه، انظر أيضا على سبيل المثال: 470

Andrés Ceballos, *Plantas de nuestros campos y bosques*, p. 395.

إدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، المجلد الأول، بيروت، لبنان، 1965. ص. 355 وما بعدها.

- محمد أونيا، «نبذة عن المزمة: حاضرة الريف المنسية». جريدة نيفراز ن اريف، العدد 35. أكتوبر 471

2008. ص. 9.

الخرائط البحرية والمصنفات التاريخية الأجنبية ترد مرسومة بصيغ مختلفة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

472. *Motzema, Mouçema, Alzema, Busema, Albouzème*.

فأي الأطروحتين أقرب إلى الحقيقة والصواب؟

بالنسبة للأطروحة الأولى التي يرى أصحابها أن تسمية «ألوسيماس» ما هي إلا ترجمة إسبانية للمصطلح العربي «الخزامي» تبدو رواية هشة وضعيفة وغير مقنعة بالرغم مما تفيد اللفظة من نفس المعنى لنبات الخزامي بالعربية، فالترادف اللفظي والتطابق القاموسي الموجود بين المصطلح العربي «الخزامي» و الإسباني الذي يستدل به أصحاب هذا الطرح، قد يكون صحيحا، لكنه يبدو قديما إن لم نقل إنه نتاج خالص للامتزاج الحضاري والتأثير اللغوي المتبادل ما بين الحضارة العربية والإسبانية في بلاد الأندلس، كما هو الشأن بالنسبة للعديد من مفردات لغة الضاد التي تسربت إلى اللغة القشتالية بفعل التثاقف.

وحتى لو افترضنا جدلا، كما يدعي البوعياشي، أن اسم مدينة الحسيمة الحالية «مأخوذ من كلمة لوسيماس وهي اسم في الأصل للنبات المعروف "بالخزامي"»⁴⁷³، فإن الوقائع التاريخية لا تؤيد هذه الفكرة. لأسباب كثيرة منها:

أن نبات «الخزامي» الذي يكثر فعلا في منطقة الحسيمة، وخصوصا في السفوح الصخرية والمناطق المكسوة بالحجارة،⁴⁷⁴ يعرف لدى ساكنة الريف بـ«أزير» كما في لغتهم الأمازيغية.

من الصعب كذلك، قبول فكرة الأستاذ البوعياشي التي تقول بأن العرب هم من أطلقوا تسمية الخزامي على هذه المنطقة (الخزامي) إبان الفتح الأول، أولا لكون الذين دخلوا منطقة الريف في الفتح الأول هم أمازيغ نفزاويون وليسوا حميريين من بلاد اليمن كما كان يُعتقد سابقا.⁴⁷⁵ وثانيا، أن المزمة سواء كمرفاً أو كمدينة لم تكن

472. **Jean -Louis Miège**, *Les activités maritimes et commerciales de Tétouan (XVIIIe-XIXe siècles)*, Conférence prononcée à la Faculté des lettres de Tétouan, le 17 avril 1992, p. 9. **Juan Román**, «MEZEMA», in. BAHIA, Revista del Instituto « Melchor de Jovellanos » de Alhucemas, Segunda Epoca, nº 1, junio de 1993, p. 5.

- البوعياشي، م. س. ص. 112. 473.

474. - **Hakim Messaoudi et autres (Equipe de coordination de MPDL)**, *Guide du Parc National d'Al Hoceime*, Maroc. 2006. p. 49.

- انظر أحمد الطاهري، فصول منسية من تاريخ المغرب: إمارة بني صالح في بلاد نكور، مطبعة النجاح⁴⁷⁵ الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998. ص. 29.

موجودة، فهي لم تظهر إلا ابتداء من القرن 3 هـ. / 9 م. ناهيك على أن التسمية الشائعة والمعروفة في أقدم كتب الحوليات التاريخية ومؤلفات المسالك والممالك هي تسمية «المزمة» وليس «الخزامى»، وهذا ما أكده الأستاذ البوعياشي نفسه في معرض حديثه عن جزيرة النكور ومدينة المزمة، حيث قال: «بهذا الاسم كانت تعرف عند جغرافيين المغرب كالبكري وغيره... وكانت مرفأ لمدينة المزمة التي كانت على الشاطئ المقابل لها».⁴⁷⁶

فالثابت تاريخيا، أن التسمية التي تداولها المؤرخون والجغرافيون القدامى هي «المزمة»، وعلى العكس من ذلك، لم نقف عن اسم «الخزامى» في أي مصدر أو وثيقة تاريخية. أضف إلى ذلك أن الاسبان عندما احتلوا حجرة النكور أسموها في البداية «سان أوغستان إي سان كارلوس»⁴⁷⁷ بينما أطلقوا على مرسى المجاهدين (محليا يقال رمجهاذين) حيث الموضوع السابق لمرفأ المزمة اسم «مرسى الحسيمة» (مرسى ألوسيماس)، كما نقرأ في الرسالة التي كتبها قائد الأسطول الاسباني الذي احتل حجرة النكور سنة 1673.⁴⁷⁸ وبعبارة أخرى أن اسم «ألوسيماس» أطلقه الاسبان على الساحل الذي كانت تقع فيه المزمة (ومن هنا خليج الحسيمة)، قبل أن يطلقوه لاحقا، على تلك الجزيرة التي نسبوها إلى ذلك الساحل (بينون ذي ألوسيماس)، باعتبار أن مرسى النكور اشتهر في المراحل التاريخية المتأخرة بخليج المزمة، ولربما طغى اسم المزمة حتى على الصخرة المقابلة في البحر، فشاعت باسم حجرة المزمة بدل حجرة النكور.⁴⁷⁹

ولعل السبب الذي جعل الأستاذ البوعياشي يسقط في تأويله الخاطئ لمصدر تسمية مدينة الحسيمة، رغم أن باحثا مغربيا وهو الأستاذ محمد الفاسي كان قد سبق له أن رجح أن تكون تلك التسمية محرفة عن اسم المزمة المدينة التاريخية المعروفة، وإن كان هذا الأخير قد خلط بين المزمة الساحلية وحاضرة النكور الواقعة جنوبا ببضع

- البوعياشي، م. س. ص. 376. 476

477 - *Vademecum, Territorio del Rif, Villa Sanjurjo*. 1946. p.119.

- توجد هذه الوثيقة محفوظة بأرشيف سيمانكاس ضمن مجموعة رقم 491، وهي عبارة عن رسالة بعثت 478 التي Mariana وقائد الأسطول الإسباني إلى ملكة النمسا ، Andres Davila أمير Montesacro بها كانت وصية على عرش إسبانيا، بتاريخ 5 شتنبر 1673. وقد زودنا بها مشكورا، الأستاذ حسين بوزناب أثناء مداخلته خلال الدورة الصيفية لجامعة الشريف الإدريسي بالحسيمة (دورة يوليو 1988)، تحت عنوان: «الحسيمة من خلال أرشيف سيمانكاس».

- انظر د. أحمد الطاهري، إمارة بني صالح في بلاد نكور، م. س. ص. 137-138. 479

كيلومترات، كما التبس عليه موضع المزمة التاريخي البعيد نسبيا عن محل الحسيمة الحالي.⁴⁸⁰ لعل التسرع الذي جعل البوعياشي يزيغ عن التفسير الصحيح كما قلنا، راجع إلى عدم اهتدائه إلى الحلقة المفقودة التي هي بمثابة البوصلة التي يمكن أن ترشد المتتبع في خضم هذا التداخل اللغوي والتدافع بين المفردات، إلى فهم صحيح لكيفية الانتقال من تسمية المزمة إلى تسمية الوسيماس الاسبانية. والحال، أننا يمكن أن نعثر على تلك الحلقة المفقودة ليس فقط في ذاكرتنا المحلية، بل حتى في كتابات الأجانب أنفسهم كالفرنسيين والإسبان. ونعتقد أن تلك "الكلمة -المفتاح" هي بالضبط لفظة «رُزْمَة» بالريفية، وهي تحريف واضح لكلمة «المزمة» باللغة العربية. فإلى حدود يومنا هذا، ما يزال أهل المنطقة (أجدير)، ينعنون إحدى السواقي القريبة من موضع مدينة المزمة المندرسية، باسم «ثارغا ن رزمة»، أي «ساقية المزمة».

وغني عن البيان أن تلك اللفظة المخففة، أي «رُمزْمَة» أو «رُزْمَة» حسب اللسان الأمازيغي المحلي، قد انتقلت عن طريق السماع و بواسطة المخالطة والمصارفة مع التجار الأجانب إلى اللغات الأوروبية كالفرنسية والاسبانية، حيث صارت تكتب في الوثائق والخرائط القديمة بصيغ تختلف باختلاف تلك اللغات، فحسب المؤرخ المختص في التاريخ البحري، فإن (J.L Miège) الفرنسي «جان لوي ميج» «تعني Alhucemas، و « Albouzème »، و « El Mezamma تسميات » شيئا واحدا.⁴⁸¹

ويكفي أن نعود إلى مجلدات كتاب «المصادر الدفينة لتاريخ المغرب» لصاحبه الفرنسي «هنري دي كاستري» لنجدها تعج بمصطلح «البوزيم» تارة كتسمية تطلق على موضع مدينة المزمة سابقا، وتارة أخرى على الجزيرة المقابلة لها. بل أكثر من ذلك، نجد مؤرخا فرنسيا قد خصص كتابا كاملا للحديث عن شركة فرنسية أسسها في القرن السابع عشر تحمل إسم: (Les frères Fréjus) الإخوان «فريجوس» «شركة المزمة»،⁴⁸² فالوثائق التي اعتمد عليها مؤلف هذا الكتاب، تتحدث عن «بلاد البوزيم» و«خليج البوزيم». واضح هنا، أن لفظة "البوزيم" الواردة في كتابات القرن السابع

- البوعياشي، م. س. ص. 114. 480

481 - Jean -Louis Miège, *Les activités maritimes et commerciales de Tétouan (XVIIIe-XIXe siècles)*, . Op.cit. p. 9.

482 - E. Rouard De CARD, *Une compagnie Française dans l'empire du Maroc au XVIIe Siècle*. Paris. 1908. p. 11.

عشر وكما هي مرسومة في الخرائط البحرية لتلك الفترة، هي نقل يكاد يكون حرفيا للتسمية المحلية «رَبْزُمة» التي هي بدورها تحريف للمزمة باللغة العربية الفصحى. وتجدر الإشارة إلى أن أحد الكتاب الإسبان قد فطن إلى تلك الكلمة_المفتاح فاستطاع بذلك فك شفرة الانتقال من تسمية المزمة إلى الحسيمة، وذلك حين انتبه إلى وجود كلمة التي أسموها وسطى هي «رَبْزُمة» أو «البوزمة» التي أطلقها الإسبان على الصخرة النكور في بداية الأمر «جزيرة القديس كارلوس والقديس أغوستين» قبل أن تشتهر لديهم لاحقا باسم "بينون دي ألوسيماس".⁴⁸³ يقول هذا الكاتب :

«La isla de San Carlos y San Agustin se llamó desde el principio corrientemente Albusema, por corrupción del nombre árabe de la ciudad que existió en la costa frente a la isla, el Mesemma (la Renombrada). De Albusema pronto se hizo Alhucemas que es como ahora la conocen españoles y rifeños». ⁴⁸⁴

أما الترجمة العربية لهذا النص فهي كما يلي:

«لقد أطلق الإسبان على جزيرة القديس كارلوس والقديس أغوستين في بداية الأمر إسم البوزمة، وهو تحريف للاسم العربي لمدينة المزمة التي كانت تقع على الساحل المقابل لتلك الجزيرة. ومن البوزمة اشتقت تسمية الحسيمة () كما هو متعارف عليها حاليا من طرف الإسبان والريفيين».

نستنتج مما سبق، أن المصدر الذي اشتقت منه تسمية مدينة الحسيمة الحالية هي المزمة، المدينة التاريخية التي كانت منارة للسالكين في الحوض الغربي للمتوسط.⁴⁸⁵ أما الأطروحة التي دافع عنها الأستاذ البوعياشي ومن نحا نحوه، والتي ادعت أن تسمية الحسيمة مشتقة من اسم نبات الخزامى، فهي أطروحة زائفة وآن الأوان لتصحيحها، ليس فقط لأن المصادر والوقائع التاريخية لا تؤيدها، بل إن الرواية الشفوية لا تؤيدها على الإطلاق.

⁴⁸³_

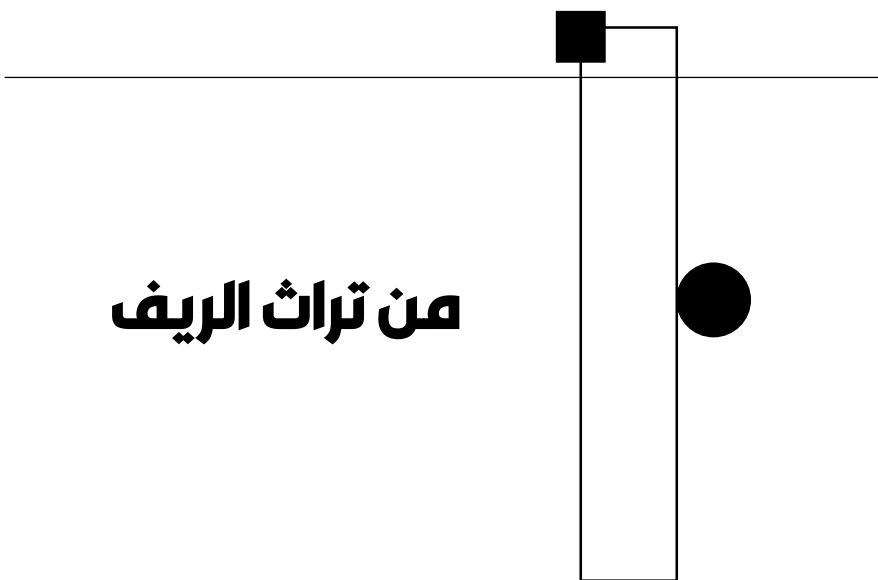
Vademecum, Territorio del Rif, op. cit. p.119.

نفسه، ص. 120. ⁴⁸⁴

د. أحمد الطاهري، «حاضرة المزمة ومرساها المكين». جريدة ثيفراز ن اريف، العدد 35. أكتوبر - ⁴⁸⁵

2008. ص. 8.

من تراث الريف



من إصدارات المركز

صدر عن مركز محمد بن سعيد آيت إيدر
للأبحاث والدراسات



كتاب

"هكذا تكلم محمد بن سعيد"

للأستاذ محمد بن سعيد آيت إيدر

أطلبوه من الأكشاك ومن مقر المركز

ديا "الملكة المنسية

عناصر السيرة ومعالم الأسطورة

The last queen of Tamazgha



جمال لخولفي

الكلية المتعددة التخصصات بالناظور

التاريخية ترجمة؛ والترجمة خيانة، كما يقول المثل الإيطالي الشهير. من أجل ذلك، لا بد أن تدرك كل محاولة للقبض على الوقائع التاريخية حدودها، ويتعين عليها أن تحدد، منذ البداية، الرؤية التي تنهل منها، والمنهج الذي تستخدمه. وهكذا، يفتح التاريخ أمام مخيلة الباحث؛ فيصير ممكنا الدفاع عن كتابة يغدو معها القبض على الأحداث مسعا لإعادة إحيائها، أو بلغة المسرح والسينما إعادة تمثيلها. وفي هذا يتداخل الخيالي والواقعي، الذاتي والموضوعي، التفسير والفهم ثم التأويل. وهو بذلك تصور للمعرفة

الكتابة

يمر عبر المفارقات، غير أن الكلمات الحقيقية دائما ما تكون منطوية على هذه المفارقات، ولا يمكن لأي شكل من أشكال التعليم أن يحل محلها، كما يقول الحكيم الصيني لاوتسه⁴⁸⁶.

وقد قررنا وضع مقدمات لإعادة كتابة أسطورة "ديا" الملقبة في كتب المؤرخين "بالكاهنة"، وفق رؤية تعي أسسها؛ فاختارت المرور عبر المسالك الوعرة بين الواقع والأسطورة، باعتبار أنه لا وجود لكتابة تاريخية منفصلة عن هذين البعدين، مهما حاولت أن تخفي العناصر الأسطورية الثاوية فيها. وبهذا، ينقسم البحث إلى عنصرين؛ نتبع في الأول العناصر الأساسية المشكلة لحياة وسيرة "ديا" كما احتفظت بها المصادر والمراجع التاريخية. وفي الجزء الثاني، نحاول تحديد المعالم التي ساهمت في صناعة أسطورتها.

الملكة ديا: عناصر السيرة

تنسب ديا إلى قبيلة جروة زناتة⁴⁸⁷ ZenataJrāwa. وقد اتفقت المصادر على لقبها الذي هو "الكاهنة"، لكنّها اختلفت في اسمها؛ فكانت توسم بالكاهنة، إلى غاية ابن خلدون الذي عرفها على أنها "دهيا" وقدّم سلسلة نسبها⁴⁸⁸. ويذهب بعض المؤرخين

1 - لاوتسه تشانغ تس، نقلا عن إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته: بحث في سيكولوجية الأخلاق، ترجمة

محمود منقذ الهاشمي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ط. 1، 2007، ص. 27.

⁴⁸⁷ - Phillip C.Naylor, North Africa: A History from Antiquity to the Present, University of Texas Press, 2009, p. 65.

⁴⁸⁸ - « Elle aurait été » fille de Tabeta ou Mâtiya, fils de Tifan ou Nîcan, fils de Baoura, fils de Mes-Kesri, fils d'Afred, fils d'Ousîla, fils de Guerao » trad. De Slane, t. III, p. 193. Cette famille aurait dirigé les Djeraoua, tribu alors à la tête des Botr, deux ethnonymes jusqu'à jamais mis en relation avec la résistance berbère. » Y. Modérann « Kahena », *Encyclopédie berbère*, Référence électronique: Y. Modéran, « Kahena », in 27 | Kairouan

إلى أن اسمها "ديا Diya"⁴⁸⁹، والبعض الآخر إلى "داميا Damya"⁴⁹⁰، في حين يؤكد "شارل إمانويل دوفورك Charle-Emmanuel Dufurcq" أن أصل الاسم لاتيني "داميانا Damiana"⁴⁹¹. ويمتدّ هذا التباين حول الاسم إلى معناه ومصدر اشتقاقه؛ فقليل اسمها "دهيا تدموت DyhiaTadmut"، ومعناه الغزال الجميل. وقليل داميا Damya ويحيل إلى معرفة المستقبل وقراءة الأفكار. أما في اليونانية، فيشتق من Karina وتعني الكائن الصافي أو النقي، ويقترب في العبرية من Cohen بمعنى الراهب. ومعنى اسمها مرتبط كما يقول "جون دوجو Jean Dejeux" بالتنبؤ والاطلاع على المستقبل، والسحر⁴⁹². وتنقل بعض القصص والأساطير حكايات عن قدراتها التنبؤية في كشف الجواسيس⁴⁹³. وحتى اللقب، الذي قلنا أنه موضع اتفاق، اختلف في معناه، انطلاقاً من الاشتقاق والأصل الذي أخذ منه عربي أو عبري "كهين".

– Kifan Bel-Ghomari, Aix-en-Provence, Edisud «Volumes», no27, 2005 [Enligne], mis en ligne le 01 juin 2011, consulté le 02 février 2017. URL : <http://encyclopedieberbere.revues.org/1306>

⁴⁸⁹ - وقد فضلنا استخدام هذا الاسم بالنظر لسهولة، كما يمكن أن يكون اختصاراً لأي اسم من الأسماء التي أوردها المؤرخون.

⁴⁹⁰ NahlaZéraoui, *Les différents statuts de La Kahéna dans la littérature d'expression française*, Thèse en vue de l'obtention du doctorat en langue et littérature française et comparée, Présentée et soutenue publiquement le 13/12/2007, Sous la direction de Monsieur le professeur Bruno Curatolo, Université de Franche-Comté, Ecole Doctorale « Langage, Espaces, Temps, Sociétés », p. 10.

⁴⁹¹ - Cité par Jean Dejeux, *Femmes d'Algérie: Légendes, Traditions, Histoire, Littérature*, Paris : La boîte à documents, 1987, p. 79.

⁴⁹² - Jean Dejeux, *Femmes d'Algérie*, op. cit., p.78.

⁴⁹³ - Mouloud Gaid, *Les berbères dans l'histoire de la préhistoire à la Kahina*, Tome1, Alger : Editions Mimouni, 1990, p. 204.

كما تحيط ظلال من عدم اليقين بالكثير من جوانب شخصية ديا، من جهة أصولها وديانتها⁴⁹⁴؛ فالعديد من القبائل الأمازيغية كانت قبل الإسلام تعتنق اليهودية، حسب ابن خلدون. وقد أدى هذا الرأي إلى توجيه الكثير من الكتابات حول معتقداتها. غير أن هناك رأياً يقول بمسيحيتها، لتيّمنها، حسب بعض الروايات، بنصب يجسد المسيح أو العذراء. وهناك من قال أنها إحيائية animiste، بينما ذهب آخرون إلى الدفاع عن وثنيّتها⁴⁹⁵. والحقيقة أنه يصعب الحسم في المسألة بالنظر إلى قلة المعطيات. لكننا نعتقد أن النقاش يمكن أن يتطور، إذا أخذنا بعين الاعتبار التفاعلات التي يمكن أن تكون قد حدثت بين هذه المعتقدات، وذلك بالاعتماد على الشواهد الأنثروبولوجية من المنطقة، والتي نجد فيها الكثير من عناصر الديانات المختلفة، بما يمنح للتدين طابعاً خاصاً ومميزاً⁴⁹⁶.

وقد دخلت ديا التاريخ بعد مقتل كسيلة⁴⁹⁷؛ فقد طلب حسان بن قيس المنتصر معرفة أكبر تهديد ينتظره فأخبروه عنها⁴⁹⁸، حيث كانت السيطرة على شمال إفريقية متوقفة على إنهاء مقاومتها⁴⁹⁹؛ إذ استطاعت قيادة تحالف قبليّ واسع، وعلى خلاف كسيلة

494- Cité par Jean Dejeux, *Ibid.*, p. 244.

495- Y. Modérann«Kahena», *Encyclopédie berbère*, op. cit.

496 - يمكن الرجوع إلى كتابنا: **الإسلام المغربي: محاولة في التركيب**، مكتبة القبس، 2017. حيث نتوقف مع التغيرات التي لحقت بالإسلام والمعتقدات الدينية المحلية حين تفاعلا مع بعضهما.

497- « Koceila mort, ce fut une femme qui releva le drapeau de l'indépendance africaine. Dihiaou Damia, qui gouvernait la tribu zénatienne des Djeraoua, fut mise à la tête de la confédération berbère. » Ernest Fallot, *Par-delà la Méditerranée*, Paris : Librairie Plon, 1887, p. 130.

498 Victor Piquet, *Les civilisations de l'Afrique du Nord*, Paris : Librairie Armand Colin, 1917, pp. 65-66.

499- "لما دخل حسان القيروان، أراح بها أياماً. ثم سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية، ليسير إليه، فيبيده أو يسلم؛ فدلوه على امرأة، بجبل أوراس، يقال لها الكاهنة؛ وجميع من يافريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون، 'فإن قتلتها، دان لك المغرب كله. ولم يبق لك مضاد ولا معاند." 499 ابن عذاري

الذي استند إلى الرومان، واستفاد من غفلة عقبة بن نافع، استندت ديا إلى عناصر القوة المحلية، وكانت مواجهتها مباشرة مع جيش المسلمين، وأدارت المعركة التي انتهت بانتصارها⁵⁰⁰، وبتعقبها لقائد المسلمين إلى غاية المنطقة المعروفة إلى اليوم "بقصور حسان"⁵⁰¹. فحققت السيادة على المنطقة الممتدة من جبال الأوراس شرق الأطلس إلى غاديس الواحة الموجودة في ليبيا، في الفترة الممتدة بين 695 و700م على خلاف بين الباحثين.

لكن ديا أدركت أنها مسألة وقت قبل استئناف الحملات العسكرية. وقد رأت أنّ السبيل الوحيد لعرقلتها هو حرمانها من تحقيق أهدافها بجعلها دون غنائم متوقعة؛ فلجأت إلى "سياسة الأرض المحروقة"⁵⁰². ورغم أننا نعتقد أن المبالغات قد أحاطت بالأخبار التي رافقت هذه الاجراءات⁵⁰³، إلا أنها مع ذلك قد تسببت بضرر بالغ في

المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة، ط. 3، 1983، ص. 35.

⁵⁰⁰ - "ولما قتل زهير بن قيس ببرقة، استعمل عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغساني على إفريقية، فخرج إليها في المحرم سنة ثمانية وستين، فلقى عساكر الكاهنة بأرض قابس، وعلى مقدمتها القائد الذي كان مع كسيلة بن لمزم، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتل صاحب خيل حسان بن النعمان، وانهزم حسان وأصحابه إلى المنهل المعروف بقصور حسان بطريق مصر، وقتل مع أصحابه عدد كثير، وأسر منهم نحو ثمانين رجلا، فأحسن الكاهنة إليهم، وأطلقتهم غير واحد، هو يزيد بن خالد القيسي، فوصلوا إلى حسان، وأخبروه بخبر يزيد، فسر بذلك حسان وكتب إلى عبد الملك يعلمه بما نزل به من الكاهنة، ويسأله أن يمدّه بالجيوش، فكتب إليه عبد الملك أن يقيم مكانه...." أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، صص. 7-8.

⁵⁰¹ - Emile-Félix Gautier, *Le passé de l'Afrique du Nord : Les siècles obscures*, Paris : Payot, 1964, pp. 256-257.

⁵⁰² - "وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين. فلما رأت إبطاء العرب عنها، قالت للبربر: 'إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة؛ ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي! فلا نرى لكم فيها إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى يبأس منها العرب؛ فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر!'" ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، م. س.، ص. 36.

⁵⁰³ - "فوجهت قومها إلى كل ناحية، يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون؛ فذكروا أن إفريقية كانت ظلا واحدا من طرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل

العلاقات والتحالفات القبلية التي شكلت عمق قوّة ديا العسكرية في مواجهتها الأولى مع المسلمين، وهو ما تسبب في انفراط عقد تحالفها، بل وتذكر المصادر أن العديد من قبائل هذا التحالف قد بدأت بالتواصل مع المسلمين قبل انطلاق حملتهم⁵⁰⁴.

وهكذا، أحست ديا بقرب النهاية، وأعتقد أنها لم تكن بحاجة إلى القدرات الخارقة، التي تُنسب لها، كي تدرك القدر المحتوم؛ فبمجرد انفراط التحالف القبلي، لا شك أنها أدركت أن الأمر مسألة وقت. فأرسلت أبناءها الثلاثة إلى قائد جيش المسلمين، وخاضت معركتها النهائية بشجاعة، رافضة دعوات الهرب والاختباء بين التضاريس الوعرة. وبعدما هزمها حسان، قطع رأسها وأرسله إلى المشرق، وأسرف في القتل كي يخمد كل محاولات المقاومة المستقبلية. كما قام بضم اثني عشر ألف محارب من القبائل المهزومة إلى جيشه⁵⁰⁵، وجعل أبناء الكاهنة على رأس هذه الجيوش⁵⁰⁶.

بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله. فخربت الكاهنة ذلك كله". المرجع نفسه، ص. 36.

⁵⁰⁴ - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق أبو صهيب الكرمي، عمان: بيت الأفكار الدولية، ص. 1607.

⁵⁰⁵ Ernest Fallot, Op. Cit., p. 133.

⁵⁰⁶ - مع تحفظنا على مثل هذه الأخبار، باعتبار أنها قد تكون ناتجة عن فترات لاحقة في إطار الصراعات القبلية ومحاولة إثبات التفوق والمكانة داخل الإسلام، خاصة بوجود روايات تاريخية تؤكد مقتل أبناء الكاهنة معها، وهو ما يدعّم اختفاء أخبارهم بعدها.

معالم صناعة الأسطورة

يكاد المرء يندهش من حجم حضور الأسطورة في التاريخ الإنساني، وهو ما قد يشرع إمكانية تعريف الإنسان بكونه كائناً أسطورياً. غير أن المعنى الذي نمحه للأسطورة هنا هو ذاك المرتبط بالجذر اللاتيني *legende* لا المعاني التي يحيل إليها لفظ *mythe*. وهكذا، نحاول في هذا العنصر البحث في الأسس التي ساهمت في صناعة أسطورة "دهيا". مع التأكيد أن هذه العناصر يجب أن يُنظر إليها في ترابطاتها، وفي علاقاتها المتشابهة؛ فالترتيب الذي نقرحه منهجي فقط.

وأول عنصر نقف معه هو قلة المعلومات التاريخية التي نقلتها المصادر؛ فلا تكاد تشغل الصفحة أو الصفحتين؛ فاتجه كثير من الدارسين إلى بناء الفرضيات التي يقيمون الاستنتاجات، وهذه الفرضيات غالباً ما تواجه بأخرى تؤدي إلى استنتاجات مقابلة. كما تشكو الأخبار التي وصلتنا، في الكثير من الأحيان، من عدم دقتها؛ فحتى الاسم، وهو أول عنصر في التعريف، يعاني من إشكالات؛ فهي ديا، وداميا، ودهيا، وداميانا. والأمر نفسه لاحظناه مع دينها؛ فهي يهودية، ولادينية، ووثنية، ومسيحية، ولها معتقدات محلية. بل وحتى المنطقة التي تنتسب إليها، وأماكن المعارك التي خاضتها، والفترة الزمنية التي حكمت فيها، كل ذلك لم يسلم من تعدد الروايات⁵⁰⁷. وقد عمّق من حدة الإشكالات السابقة تشكيك بعض المؤرخين المعاصرين في المكانة الاعتبارية لروايات ابن خلدون مقارنة مع غيرها، خاصة بعدما

⁵⁰⁷-Y. Modérann«Kahena», *Encyclopédie berbère*, op. cit.

أقلقتهم بعض التفاصيل الأسطورية والملحمية⁵⁰⁸. إن هذا النقص في المعطيات يجب أن ينظر إليه في ضوء السعي المتواتر لدى الإنسان في ملء الفراغات مما فتح المجال أمام الخيال كي يؤدي دورا في هذه العمليات. وقد تم ذلك من خلال ما يمكن أن نطلق عليه، ثقافة الأذن؛ فإذا كان عبد السلام بن عبد العالي يرى في الأذن وحاسة السمع دافعة إلى السمع والطاعة، والتقليد والاتباع، فإننا نرى فيها أيضا، مجالا للإبداع والخيال؛ فالصورة كبح للواقع وضبط له، بينما الصوت فتح وتوسيع له⁵⁰⁹.

والعنصر الثاني المساهم في صناعة الأسطورة هو الحضور القوي للمبالغات، والتي نجدها في الكثير من الأخبار التي تروى عن "الكاهنة" وعن معاركها؛ لنقف مع هذا النص كمثال: "فدخل بجيوشه إليها. فبلغ الكاهنة خبره؛ فرحلت من الجبل، في عدد لا يحصى، ولا يباغ بالاستقصاء. فتقاتلوا قتالا لم يسمع بمثله؛ وصبر الفريقان صبرا لم ينته أحد إليه، إلى أن انهزم حسان بن النعمان، ومن معه من المسلمين. وقتلت الكاهنة العرب قتلا ذريعا، فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك، وأن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم؛ وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم".⁵¹⁰ فكما أسلفنا، كانت النصوص تعوزها التفاصيل، ويظهر في هذا المقطع مجموعة من الفراغات؛ فمثلا لا

508-Ibid.

509- عبد السلام بن عبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2008، صص. 7-8.

510 - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، م. س. ص. 35. وضع سطر تحت بعض الكلمات والجمل من عندنا، كي نشير إلى بعض الإيحاءات التي نتناولها بالشرح لاحقا.

نعرف كيف بلغ ديا خبر النعمان وتحركاته، وهي مسألة مضطردة في العديد من المواضيع. لكن السياق يوحي وكأنّ "الكاهنة" عرفت هذه الأمور من خلال قواها الخارقة، لا عبر "المعلومات الاستخباراتية" التي ربّما حصلت عليها. وتبدو عبارات المبالغة في نقل الأحداث في كثير من المواطن من قبيل: "في عدد لا يحصى، ولا يباغ بالاستقصاء"، وأيضاً: "فتقاتلوا قتالا لم يسمع بمثله؛ وصبر الفريقان صبرا لم ينته أحد إليه"؛ ونعتقد أنّ الغرض من ذلك هو محاولة تفسير هزيمة المسلمين، الذين اعتادوا أن يكون النصر بجانبهم، خاصة وأنهم كانوا كثيرا ما يربطون ذلك بأمور عقدية. ونجد صدى ذلك في رسالة حسان إلى السلطان: "وأنّ أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم؛ وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم". وهكذا، يغدو مفهوما التركيز على القدرات الماورائية لـديا بدل البحث في الاستراتيجيات العسكرية التي اعتمدتها⁵¹¹.

ونجد المبالغات، أيضاً، في تقدير إمكانيات "دهيا" التنبئية والخارقة. ونحن لا نريد استبعاد هذا الجزء من تاريخها، إلا أننا نرى أن الكثير من هذه الأخبار ربما يعود إلى أسباب مرتبطة بالمؤرخين⁵¹²؛ فانتسابهم إلى ثقافة "شرقية"، ربما صعب تفهم أنّى لامرأة أن تواجه وتهزم جيوش المسلمين التي أسقطت أعتى الإمبراطوريات. لهذا، ربما كان قريبا من ثقافتهم تفسير هذه الأمور بمسائل غيبية وقدرات عجيبة و

511 - الحقيقة أن هذا مضطرد مع المسلمين، حيث لم تحض انتصارات المسلمين بدراسات عسكرية معمقة لكيفية الانتصار في المعارك، باعتبار أن القول بالمدد الإلهي غطى على التحاليل العسكرية الممكنة إلا في القليل من المعارك والأخبار.

512Y. Modérann«Kahena», *Encyclopédie berbère*, op. cit.

ماورائية؛ ونجد ما يدعم هذا الموقف في أنّ ابن خلدون لا ينكر القدرات العجيبة للسحرة والكهنة.

أما عن الجانب القصصي بوصفه عنصرا أساسيا في صناعة الأسطورة؛ فقد تضمنت الروايات الكثير من الحكايات والبناءات الدرامية والتراجيدية، والتي يمكن رصدها في الكثير من الأخبار من قبيل: "فلم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيرا حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها، تضرب صدرها"⁵¹³، وهو وصف يتكرر، أيضا، قبيل معركتها النهائية. كما يظهر البعد الدرامي في الكيفية التي بعث بها خالد، ابنها بالتبني، الرسالة إلى قائد جيش المسلمين بدسها في الخبز. وهنا يمكن ملاحظة الخلل الذي يعتري الرواية؛ فالأخبار التي نقلها المؤرخون، تتحدث عن أن ديا أدركت المسألة بقواها الخارقة، وخرجت تخبر قومها أن ملكهم قد ذهب "فيما يأكله الناس". لكن، لماذا لم يتعرّض الخائن مرسل الرسالة إلى العقاب؟! بل وحتى الرسالة، يتبين لاحقا أنها لم تؤثر في سير الأحداث، باعتبار أنها قد تعرّضت للتلف؛ فلماذا جعلت الكاهنة نهاية ملك الأمازيغ مرتبطا بالخبز الذي احتوى على الرسالة؟! نعتقد أنّ هذه الوقائع تأخذ أهمية أكبر عندما تجعل البطلة ديا تتعرّض للخيانة من مقرب كانت قد أحسنت إليه؛ فالتعرّض للخيانة، قد يكون من مقومات صناعة الأسطورة، وهو الجانب التراجيدي الذي يتعرّز بقطع رأسها وإرساله الى المشرق.

513 - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، م. س.، ص. 35.

والعنصر الرابع المؤسس لأسطورتها هو الجانب البطولي، حيث آلت إليها قيادة جيش كوّنته من خلال نجاحها في بناء تحالف يوحد القبائل⁵¹⁴، وهو الأمر النادر في تاريخ المنطقة، خاصة وأنها امرأة؛ لكنّ ما نجعله هو كيف تمكّنت من ذلك؟! كما تكمن الصعوبات، أيضا، في عدم التوفر على معطيات دقيقة حول طبيعة الخطاب الموجّه نحو هذه القبائل، حتى نكوّن تصوّرا عما إذا كانت "الكاهنة" تجسّد، فعلا، عناصر الحركة القومية، والتي لا يمكن تأكيدها دون الوصول إلى معطيات عن الخلفيات الإيديولوجية لديها، والخطاب المستخدم في استنهاض همّة القبائل.

ومن جوانب البطولة، أيضا، بعض المبادئ الأخلاقية، مثل إحسانها إلى الأسرى والعفو عنهم⁵¹⁵، واتّخاذها من أحدهم ابنا لها⁵¹⁶. كما تخبرنا الروايات عن شجاعتها في المعارك، وحسن بلائها في القتال الشديد، رغم أن الحروب كانت، في أغلبها عبر التاريخ، مرتبطة بالرجال. والجانب الأهم من بطولتها هو موقفها في مواجهة الموت، ورفضها الهروب بعدما علمت النهاية التي تنتظرها. وقد تم التأسيس لهذه المبادئ ولأسطورتها عبر قصص البدايات وأساطير النشأة؛ إذ تروي أنّها كانت حسناء بين بنات قومها، فأعلنت زواجا شكليا من شاب كي تقضي على حاكم ظالم يرغم الفتيات المتزوجات على ما كان يعرف في العصر الوسيط "بحق السيد"، فقتلته قبل أن يتمكّن منها؛ فكان لها تحرير قبيلتها من عدوان سيّد ظالم. وبذلك، تم تنصيبها

⁵¹⁴ - Y. Modérann «Kahena», *Encyclopédie berbère*, op. cit.

⁵¹⁵ - مع التأكيد على وجود روايات تقول أنها أبادت الجميع.

⁵¹⁶ - إن أبناء الكاهنة الذين تذكر المصادر أن أحدهم كان أمازيغي والثاني روماني، ثم اتخاذا لثالث عربي، في ملامح التفاعل وقبول الآخر في شخصية الكاهنة الأسطورة، وهذا مبحث يستحق تحليله باستخدام أدوات تحليل الاساطير.

ملكة، عرفانا لجمالها، وتقديرا لشجاعته⁵¹⁷؛ فانتقلت من التحرير الأصغر إلى محاولات التحرير الأكبر.

والعنصر الأخير في صناعة أسطورة ديا، هو ما كُتِبَ عنها وساهم في إغناء المخيال المتشكّل حولها؛ ففي مقابل الإساءة من المؤرخين المسلمين، قام آخرون بتقديرها؛ فقد كتب "إرنست فايوت Ernest Fallot": "حان الوقت كي تحظى هذه البطلة بمكانتها في التاريخ، بجانب النساء اللواتي عرفن بشجاعتهم وإخلاصهن لوطنهن"⁵¹⁸. وعلّق على نهايتها: "بموت هذه المرأة الشجاعة، سقطت استقلالية البربر"⁵¹⁹. ووصف بعضهم فترة حكمها بجمل مؤثرة: "أعقت هذا الانتصار فترة زمنية امتدت لحوالي خمس سنوات، تجسدت فيها مقولة "يوغرطة juratha": "إفريقيا للأفارقة"⁵²⁰. وتشير "نهلة الزيراوي" إلى أنّها قد غيّرت النظرة إلى الأميرة التي يكاد ينحصر دورها في أن تكون الزوجة والناقلة للقب الملك، فكانت آخر ملكة أمازيغية نجحت في توحيد شعب قلما يتفق على أمر جامع⁵²¹. بل هناك من قدّم وصفا شاعريا، كما هو الحال مع الجنرال دونوب الذي كتب يقول: "سلام عليك أيتها الكاهنة، سلام عليك أيتها المرأة الشجاعة من جبال الأوراس الجميلة، أنت آخر حصن أمازيغي يسقط دفاعا عن أسمى المبادئ النبيلة"⁵²².

517- Ernest Fallot, *Par-delà la Méditerranée*, op. cit., pp. 130-131.

518 - Ernest Fallot, *Par-delà la Méditerranée*, op. cit., p. 130.

519- Ibid., 133.

520- HouariaKadra, *Jugurtha : un berbère contre Rome*, Paris : Arléa, 2005, p. 225.

521- NahlaZéraoui, *Les différents statuts de La Kahéna*, op. cit, p. 6.

522 - General Donop, *Lettres sur l'Algérie 1907-1908*, Paris: Plon, 1908, pp. 243-245.

خاتمة

تمكّننا المعطيات السابقة من تقديم العديد من التصورات و"السيناريوهات" الممكنة حول حياة الكاهنة والأحداث التي عاشتها. والحقيقة أن كل "سيناريو" إنما يقوم على مجموعة من الفرضيات؛ إذ يمكن تقديمها بوصفها امرأة عادية، قام المؤرخون بتضخيم صورتها وبالغوا في مدى مساهمتها في توجيه الأحداث التي كانت طرفا فيها، متأثرين بالفارق الزمني بين تاريخ هذه الأحداث وعصر الكتابة، وأيضا بالخلفيات الثقافية التي تشبّعوا بها، وبكثير من عناصر المخيال الشعبي الذي رافق نقل هذه الوقائع عبر الأجيال. كما يمكن أن تكون الصراعات السياسية القبلية قد وجهت في صناعة تاريخ يحاول إثبات المكانة والمزية التي كانت لأسلاف كل قبيلة على حدة.

وعليه، تغدو الكتابات التاريخية، في الكثير من الأحيان، مجالا للبناءات الدرامية والأسطورية، والتي يتم تغليفها بجوانب من الحرفية، حتى تغدو تجسيدا للموضوعية وللحقائق التاريخية؛ الكتابة التاريخية مجال لعمل المخيلة التاريخية على غرار المخيلة السوسيولوجية التي دعا إليها رايت ميلز⁵²³. ونحن إذ نحاول بناء شخصية 'ديا'، فإنه يحلو لنا أن نطلق العنان لخيالنا، وكأننا نصنع فيلما عن شخصية تاريخية؛ فنود أن نجعلها امرأة أمازيغية فارعة الطول، واسعة الحيلة، حدسها ثاقب، يكاد سناء وجهها يضيء الظلمة من الحسن، يتوسط جبهتها وشم يحيل إلى الأرض

⁵²³ - رايت ميلز، نقلا عن أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط. 4، 2005، ص. 48.

والتاريخ، قوية لكنها طيبة. ورغم جمالها، إلا أنها شديدة في ساحة الوغى، عودها صلب كقسوة التغيرات التي عرفتھا تامزغا عبر تاريخھا. عيناها بنيتان، بشكل عجيب يجعلك تراهما سوداوتين بلون شعرھا الحريري الذي يتطاير فوق جوادھا. هاتان العينان الساحرتان، فيهما رقّة امرأة أمازيغية، ويتطاير منهما شرر إصرار وتحّد امرأة حرّة.



المراجع باللغة العربية

- بن عبد العالي عبد السلام، ثقافة الأذن وثقافة العين، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2008.
- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق أبو صهيب الكرمي، عمان: بيت الأفكار الدولية.
- البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- المراكشي ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفيروفنسكال، بيروت: دار الثقافة، ط. 3، 1983.
- غيدنز أنتوني، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط. 4، 2005.
- فروم إريك، الإنسان من أجل ذاته: بحث في سيكولوجية الأخلاق، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ط. 1، 2007.
- لخلوفي جمال، الإسلام المغربي: محاولة في التركيب، مكتبة القبس، 2017.

المراجع بغير العربية

- Dejeux Jean, *Femmes d'Algérie: Légendes, Traditions, Histoire, Littérature*, Paris : La boîte à documents, 1987.
- Donop General, *Lettres sur l'Algérie 1907-1908*, Paris: Plon, 1908.
- Fallot Ernest, *Par-delà la Méditerranée*, Paris : Librairie Plon, 1887.

- Gaid Mouloud, *Les berbères dans l'histoire de la préhistoire à la Kahina*, Tome1, Alger : Editions Mimouni, 1990.
- Kadra Houaria, *Jugurtha : un berbère contre Rome*, Paris : Arléa, 2005.
- Modéran Y., «Kahena », in 27 | Kairouan – Kifan Bel-Ghomari, Aix-en-Provence, Edisud «Volumes », no27, 2005 [Enligne], mis en ligne le 01 juin 2011, consulté le 02 février 2017. URL: <http://encyclopedieberbere.revues.org/1306>.
- Naylor Phillip C., *North Africa: A History from Antiquity to the Present*, University of Texas Press, 2009.
- Piquet Victor, *Les civilisations de l'Afrique du Nord*, Paris : Librairie Armand Colin, 1917.
- Zéraoui Nahla, *Les différents statuts de La Kahéna dans la littérature d'expression française*, Thèse en vue de l'obtention du doctorat en langue et littérature française et comparée, Présentée et soutenue publiquement le 13/12/2007, Sous la direction de Monsieur le professeur Bruno Curatolo, Université de Franche-Comté, Ecole Doctorale « Langage, Espaces, Temps, Sociétés ».

صدر عن مركز محمد بن سعيد

كتاب

الهيئة الريفية / ملف وثائقي



صورة المرأة في الشعر الأمازيغي

من خلال بعض دواوين شعراء الريف



زاهية أفلاي

شعر الإزري وجنس القائل الأول

لم يكن الشعر من تخصص الرجل في الريف، لأن المستقر في الأذهان أن صفات الشعراء تتنافى مع مقاييس الرجولة هناك؛ فالريفي خشن وصلب في الموقف والقول، وفي صياغة المبادئ العامة التي تقوم عليها الحياة هناك، وهو لا يسامح ولا يجامل الشابة منها بخاصة، بأن تسير في عدم الالتزام بها. وقد سمح المجتمع الريفي للمرأة في هذا الاتجاه فكانت رائدة في المجال، لكن المجتمع الأمازيغي بمنطقة الريف لم يؤسس لترويج الإبداع بصفة عامة، ولم يسمح بنماء تجارته، بل احتفظ بشعر الازري وسيلة تحقق المبتغى من طقوس الاحتفال، وتسمح للمرأة بأن تنفس به عن نفسها في حدود ضيقة.

ولهذه الأسباب، لن نعثر على شعر الإزري لرجل ريفي، وإن عثرنا على بعض منه، فلن يكون إلا حالات استثنائية⁵²⁴. ولن نعثر على رجل يبدع "الإزري"، إلا بعد أن تشكلت الفرق الموسيقية في المنطقة، فكان يطلق على هذه الفرق "شيوخ" أو "إمديازن"، وذلك بهدف استكمال طقوس الاحتفال التي فرضتها الحياة الجديدة خاصة بعد الانفتاح على العالم الغربي.

وبما أن المجتمع الريفي له موقف رافض من الغناء، فهو لم يستسغ غناء المرأة. الغناء في مجتمع الريف مدخل الضعف في الشخصية؟! فكيف يستساغ غناء الرجل والعجز والوهن، وهي صفات لا يرضى بها الريفي المعروف بشهامته، وقوته، وقدرته على تحمل المشاق، والصبر عند الشدائد.

هكذا نفر الرجال في الريف من الشعر، فارتباطه بالغناء وارتباط هذا باللهو والمزاح، واقترانهما في الذاكرة بالفراغ والابتعاد عن المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية، جعل إبداع الإزري لا يستهوي رجال الريف، وإن تفتقت الموهبة عند أحدهم سرعان ما سكت عنها وكأنها مذمة. ولم تكن مصطلحات من مثل (ذامهوض) الدالة على صفات الكسل والخمول، أو "بو وادجون" (الطبال) الدالة على صفة حب اللهو، إلا لتزيد الريفي نفورا منها، ولو كانت مجرد هواية. والمثال على ما أقول هي محاولة البعض منع الفنان الريفي الشيخ موحد من أن يدفن بالمقبرة العمومية⁵²⁵.

كما أن الشعر في الذاكرة الجماعية بالريف منهني عنه دينيا، تبعا لقوله تعالى: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}⁵²⁶، فحسب ما هو ثابت في الذاكرة الجماعية للمجتمع الأمازيغي بمنطقة الريف إنه يسبب الكسل والتواكل. وهو أيضا مقترن في الذاكرة الريفية بالفراغ والخمول، وبحب اللهو، والانصراف عن التفكير

524 - أكاد أجزم أن شاعر الإزري بالريف تتلمذ على ذاكرة النساء من هذا الشعر، فما كان له إلا أن

ينظم على غرار محفوظه.

525 - ينظر مقال: سلام... المطرب الريفي المغبون، لسعيد الغزواني، جريدة تيفراز، ع7، نونبر

2003م، ص18.

526 - سورة الشعراء: 224-227

في أمور الحياة الضرورية، والتعلق بالمتعة الآنية. ولهذا فهم يعتبرون قول الله سبحانه وتعالى تزكية لتصورهم.

وهناك أسباب أخرى ساهمت في ابتعاد الرجال عن قول الشعر، يمكن إيجازها فيما يلي :

- الحرص على تمثيل صورة الرجل الأمازيغي الريفي، من حيث المبادئ والدين والأخلاق قولاً وفعلًا،

- سلطة الأب في الأسرة وتأثيره على أبنائهم في مواقفهم وآرائهم،

- موسمية الغناء (ارتباطه بالمناسبات) وقلة الأسر التي تستدعي "إمديازن" لموقف المجتمع من الرجل المغني،

- تأخر تقبل الأشرطة والاستماع إليها،

- قلة التشجيع أو انعدامه من المؤسسات المعنية،

- انعدام بنية مؤسساتية تحرص على تشمين الإبداع بصفة عامة، والإبداع الشعري منه بخاصة،

والحقيقة إن بلاد الريف لم تعرف كثيرا من هؤلاء الرجال الذين انصرفوا لقول شعر "الإزري" انصرافا تاما إلا في السنوات الأخيرة، بعدما انفتحت أبواب أوروبا أمامهم، واحتضنت هذه البلاد عددا من المجموعات الغنائية⁵²⁷. وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة دواوين لشعراء ريفيين باللغة الأم، سمحت لنا بتناول هذا الموضوع من خلال تصفح مجموعة من الدواوين الصادرة حديثا⁵²⁸. ومن خلال تناول ما اجتمع لدينا من شعر: "الإزري" عند الشاعر الريفي.

ورغم ذلك، فقد سمح لنا هذا الشعر بإدراك الجانب الشعوري للإنسان الأمازيغي بمنطقة الريف، وانغماسه في الواقع المعيش، فهو شعر لا يعبر عن حياة الريف وحسب، بل إنه يعبر عن العواطف الإنسانية لدى الرجل الريفي، والتي تشير إلى

527- هناك من فضل البقاء في بلده، لكنه عانى كثيرا من الظروف المحيطة به ومن التهكم والسخرية في عيون المجتمع إلى موته. ينظر ما قاساه الفنان سلام الريفي، جريدة تيفراز، ع7، نونبر 2003م، ص18.

528 - من هذه الدواوين نذكر: ديوان سلام السمغيني: "ما ثوشيد إيك رحريق إينو" أي هل أحسست بالمي (1992) - "آذارغ ك أوزرو" للشاعر أحمد الزباني (1993) - ديوان إسفوفيد أوعقا" لسعيد مساوي (1994) - ديوان: "أذبورغ غاربذو خ- بريد أوسكنو" لمحمد والشيخ (1995) - ديوان "ماغيراس قانت"و للحسن الموساوي (2002) - ديوان: "أذ- سرزجي واول" لمحمد أسويق (2004)...

إدراكه أصل الوجود الإنساني. فقد صور هذا الشعر كثيرا من القيم النبيلة؛ فالروح- أي روح- تشكو عذابها، وتعبر عن آلامها وآمالها في غد أفضل. إنه شأن كل روح أينما وجدت على هذه البسيطة.

ومن بين المواضيع الأكثر تداولاً في شعر الرجل الريفي، موضوع المرأة؛ فنلغز بها معبرا عن انجذابه إلى جمالها، وافتتانه بها، كما يتناولها أما تحنو عليه، وزوجة تقاسمه متاعب الحياة، وواشية تنغص عليه لحظات سعادته...

كما واكب الشاعر الريفي في دواوينه التغييرات الحاصلة في مجتمعه، نتيجة الانفتاح على الآخر، وتابع في كثير من التفصيل الهجرة إلى الشمال، وانعكاس ذلك على ثقافة المهاجرين الريفيين في علاقته بالمرأة سواء كانت حبيبة أو ابنة أو أختا فتجلت مفارقات عجيبة في حياة أهل الريف الذين استقروا بديار المهجر.

المرأة على لسان شاعر الإزري بالريف

لابد من الإشارة في البداية أن شعر الشاعر الريفي عرف طفرة واضحة في السنوات الأخيرة، بحيث أصبح يتجاوز المعاني المعهودة والصور المتداولة، ليتناول المعاني الأكثر تركيباً والصور الأكثر إحياءاً. كما تطرق لمواضيع شتى بنظرة تعبر عن مستواه الفكري، وتشي بوعي عميق بما يحدث حول العالم. وهكذا نجده يفتح على مشاكل المجتمع المغربي عامة، وعلى هموم الوطن والإنسانية جمعاء. كما انفتح على الإبداع الشعري في مختلف اللغات فاستقى منه أدوات وتقنيات، فحلت القصيدة محل البيت الشعري المفرد (الإزري). وارتقت أدواته إلى مستوى البحث عن الجمال الفني في الإبداع الشعري.

وقد تأثر تناوله للمرأة بهذا الوعي، مما جعلنا نميز في شعره بين نظرته إلى المرأة في الفترات الأولى مما تبقى من شعر الشاعر الريفي "الإزري"، وبين ما يصدر عنه في هذه الأيام من قصائد محفوظة في دواوين راقية.

ففي مرحلة الإزري تطرق الشاعر الريفي لموضوع المرأة، سواء بذكر أو صافها أم بالتعبير عن علاقته بها؛ باعتبارها حبيبة أو أما أو أختاً أو واشية. كما سما بها باتخاذها رمزا للحب، والجمال، والعطاء.

إن تعبیر الشاعر الريفي عن حبه للمرأة، وإفصاحه عن إعجابه بجمالها، كان في الأول مرفقا بحذر شديد؛ خوفاً من الأهل ونظرة المجتمع متى انكشف أمر المتغزل بها.

وقد كان الحديث عن الحب تصريحاً، معناه إهانة للمحجوبة وهتك لعرضها. فالحب الحقيقي في الريف قوة إيجابية تدفع إلى الكمال، كما تدفع إلى الحفاظ على سمعة المحجوبة، لأنها جزء من كرامة الرجل، ومتى لاكتها الألسن أصبح الارتباط بها صعباً، لكون الأسرة تعترض على ذلك، لأن سيرتها أصبحت على كل لسان.

ولهذا كان تناول المرأة في شعر الشاعر الريفي أكثره مجرد تلميحات واصفة، وهي بعيدة عن التفصيل والاسترسال، فيما وصل إلى يدي من شعر لسنوات ما قبل السبعين، فلم يتجاوز الشاعر استعمال بعض الألفاظ العامة (أزين)⁵²⁹ - (أنمرح)⁵³⁰ (أشكورث)⁵³¹. فنجد الشاعر يقول مثلاً:

Tbark llah d zzin ueecci, i(d) dayney yeggin marra mezri
Wellah wi cem ya izarèn, muhar ead yeqqim d aezri.⁵³²

ومن ذلك أيضاً:

Egg-ay array a tasekkurt inu, mara texsed ra cemm.⁵³³

وفي هذا القول تشبيه موجز بالحمامة وعدم إطالة في الوصف. ولم يتناول من الملامح الجسدية إلا جمال العين. يقول مثلاً:

A tittawin nnem, eřfant am tziri
A cm awiy u(r) zemmary, a cm ejjeř tenyid-ayi.⁵³⁴

وهو لا يجمع أوصافها في تسلسل خشية افتضاح أمرها. ولعل سجية الشاعر وطبيعته جعلته لا يستعمل من الرموز إلا الأقرب إليه.

وأمام كل القيود في تناول المحاسن الخلقية، مال الشاعر إلى تناول المحاسن الخلقية بالتركيز على الجمال الروحي. فهو يقول مثلاً:

Ṭejb-ay ḍi rahya, ḍ reeqer i(d) dayes
Ṭejb-ay ḍi rahya, ḍ l adab i(d) dayes
ya nettaṭ iy ufiy, taḥnint i wurawen

529 - يا جميلة

530 - يا مليحة

531 - يا حمامة

532 - ترجمته: أنت وردة الأصيل، الجميع مفتون بك، أقسم أن من رآك سيرغب في الزواج.

533 - ترجمته: اتبعي رأيي حمامتي، إذا أحببت أنت أيضاً.

534 - ترجمته: عيناك صافيتان كالقمر، زواجي بك مستحيل، ونسيانك موت.

Mizi ma t̄exs a(d) teggey, d̄ immas iħenjaren.⁵³⁵

وهكذا، نلاحظ أن الشاعر الريفي لا يلجأ إلى التفصيل في وصف ملامح الجمال الجسدي، وهو يقتصر على جمال الوجه، وما به من ملامح، لكنه لا يجزو التدقيق، بل إنه يقف عند محاسن معلومة (لون العين- لون البشرة- شكل الوجه...)، يمكن لأي أن يعبر عنها، باعتبارها بادية للجميع. وهو لا يختار من الكلمات إلا ما يؤدي المعنى المراد دون مبالغة أو إفراط، لأنه يسعى دوما إلى الاختفاء وراء التلميح. وإذا بحثنا عن الصورة المثلى للفتاة الريفية في عين الشاعر الريفي، لاستوقفنا هذا الجمع بين حب الجمال الجسدي - جمال الوجه خاصة- وجمال الروح. وهكذا وجدناه يصف اللوعة والعشق:

Lħubb n̄m aṛeemar, çar d̄ ay iæeddeb⁵³⁶

.....

Temserqiy kiḏm ijj nhar, trajiy amerqi n tiwecca
Ettuy kiḏm ixfinu, tebriy s zzin inem.⁵³⁷

ويعبر عن صدق مشاعره قائلا:

Ur zayem bu wmuni, a cemm i rehrar
ēla sibbat inem, aḏ eggey rmuhar⁵³⁸

كما يعبر عن الإصرار في بلوغ مراده قائلا:

Waxxa t̄r̄uħeḏ t̄ezwiḏ, rebħar a(d) cm ttebea
T̄eḏwiḏ yar ujenna, ra nic a(d) kiḏm eḏwa.⁵³⁹

وإذا حاولنا أن نراعي كرونولوجية شعر الرجل الريفي، نجد أن الشاعر عند وصف الحبيبة كان في الأول يتغزل بشابة من جماعته (دشار). ومن ذلك مثلا قوله:

Yedjis n dcar inu, muħar wi icm ya yettun
Ma aḏ tuy lħubb inem, d̄ wussan ikiḏm iæḏun.⁵⁴⁰

535- ترجمته: إعجابي بحيائها وعقلها، عقلها وتأديها، هي وحدها صاحبة القلب الحنون، لها كل ما تريد لتصيح أم أولادي.

536- ترجمته: حبك يا عمري، كم عذبني.

537- ترجمته: ألقاك اليوم فانتظر لقاء الغد، نسيت معك نفسي، ابتليت بجمالك.

538- ترجمته: ما خلقت للهوى، بل أنت للحلال، ومن أجلك سأفعل المحال.

539- ترجمته: إن قطعت البحر سأتبعك، وإن طرت نحو السماء، أطيّر معك.

540- ترجمته: يا ابنة حيينا، محال نسيانك، هل أنسى حبك وسنين قضيتها معك.

لكنه كلما امتد بنا الزمن نحو الثمانينات وإلى التسعينات، ألفيناه يتحدث عن بنت الجيران أو الحي، فقد تمددت القرى وكبرت المدن، وتنقل الشاعر في هذا الفضاء، فتوسعت دائرة من يَراها من النساء، لكن قلبه مازال كلفا بالمرأة الريفية الأصلية، فهو يشير إلى نسبها وأصل أجدادها. من ذلك قوله:

Samḥ-ay aḍ am iniṽ, a yedjis umaziṽ
Yexs icem wur inu, qa am ityir ḍ amelliṽ
Yemma inu essewjeḍ, ixecced unebḍu
Ay ṭeggeḍ tameyṛa, ag idjis n arif inu
Yemma inu xedḅ-ayi, aḍ jarḅey sse3d inu
Ag yedjis n arif inu, ṭen yexḍar wur inu.⁵⁴¹

وقد يكون الشاعر أكثر تحديدا، فيذكر المدينة التي تنتمي إليها الحبيبة:

Maelik uca yari
Yedjis n lḥusima a(ḍ) nemsefham.⁵⁴²

ورغم تغزل شعراء من الناظور بشابات من الحسيمة، فإن حدود الحديث عنهن لا يتجاوز التعبير الصادق عن المثل العليا التي تحكم المجتمع الريفي، والتي لم يستطع الشعراء منهم الانسلاخ عنها أو تركها جانبا. فمنهم من كان عفيفا ومحتشما، ومنهم من اصطنع ذلك. وقد يكون هؤلاء الشعراء أقرب إلى شعراء الغزل العذري في التزام البراءة والعفة والاحترام لنوع الحياة الاجتماعية ونوع التربية المقدمة.

أما باقي المواضيع التي تناولها الشاعر الريفي، فهي ذات علاقة وطيدة بالمرأة باعتبارها محبوبة، فقد وصف ألم هجرها في قوله:

Mara ṭruḥeḍ tezwid, ṛeemar seqsa xafi
Sseqsa x wur inu, n ṭejjid ḍ aweḥḍani.⁵⁴³

وعبر عن رغبته في الإخلاص لها قائلا:

Ewc-ayi ur inem, am ewcey ur inu

⁵⁴¹ - ترجمته: اسمحي لي كي أقول لك يا ابنة "أمازيغ"، أحبك قلبي، لا تظني أنني ألهو. أمي.. استعدي، جاء الصيف، لتقييمي لي حفل زفافي من ابنة ريفي، أمي اخطبي لي لأجرب حظي، مع ابنة ريفي التي اختارها قلبي.

⁵⁴² - ترجمته: كل مناي أن أتفاهم مع ابنة الحسيمة.

⁵⁴³ - ترجمته: إذا رحلت إلى ما وراء البحر يا عمري، فأسألي عني، أسألي عن قلبي الذي تركته وحيدا.

Necc kim ya eicey, marṛa ussan inu.⁵⁴⁴

ودعاها إلى التخلي عن التكبر، مستنكرا هذه الصفة في قوله:

Mayar a taḥenjarṭ, tæffarḍ mayemmi

Memmis n dcar inem, yexs icem zi mermi.⁵⁴⁵

وعاتب صفة الغدر فيها قائلا:

Ruḥ wami tɛyḍarḍ nniyyet d rxadar

Mara ekṭaben wussan, qa ead a(d) nemsagar.⁵⁴⁶

وهذه كلها أوصاف تعبر عن صفاء عواطف الشاعر، فشعره يحتفظ بصفاء المفردة والعبارة أيضا، وقام على أساس عدم تناول تفاصيل معجم الغزل، مما يجعله أقرب إلى أصالة الشعر الأمازيغي منه إلى شعر شعراء الغزل المعاصرين.

ولا تغيب المرأة باعتبارها أما أو أختا في شعر الشاعر، فترق المشاعر عند تذكر معاناة الأم في التربية، وسهرها وإيثارها، مما يجعلها رمزا إنسانيا للعتاء اللامحدود. وهي من العناصر التي يقارب بها الشاعر الواقع من خلال استحضار مشاعره تجاه "الأم" تلك التي ربه وصبرت كثيرا إلى أن صار شابا قويا وفتيا، وغالبا ما يربط بينها وبين الأم "الأرض" باعتبارهما معا حضنا دافئا.

أما تناول الأخت، فتظهر باعتبارها سندا خاصة في أيام المناسبات، وتكاد تغيب هذه العلاقة الأخوية عن الشعر الأمازيغي بالريف، لأنها من العلاقات الراسخة التي لم يفكر الشعراء الريفيون في الاقتراب منها، ربما لاعتبارهم إياها من العلاقات المقدسة التي تعطي صلة الدم معنى، والتي لا تحتمل تلوينات الشعراء بالمزايدة والمبالغة في القول أو التنقيص منها بتناول شوائبها، كي لا يتعكر الصفاء الذي يحمي الصلات على مستوى المجتمع بأسره.

ونستغرب مرة أخرى غياب الوالد عن الواجهة، بل إنا بحثنا عنه في ثنايا "الإزري"، فلم نكد نعثر له على أثر في شعر الجنسين، لارتباط الأب في المنطق الجمعي الريفي بالعقل وارتباط الشعر بالقلب. ولا شك أن مكانة الأب والاحترام الذي يحظى به في الأسرة الريفية، يجعل القول الشعري الريفي لا يتجرأ على مقاربتة، مثله مثل الأخوة،

544 - ترجمته: أعطني قلبك أعطيك قلبي، معك سوف أعيش كل عمري.

545 - ترجمته: لماذا يا فتاة تتكبرين، ابن حيك منذ زمن يجبك.

546 - ترجمته: ارحلي، لقد غدرت روحي، إذا شئت السنون سوف نلتقي.

بل بالأحرى بدرجة أعلى ولا شك في ذلك. لكننا رصدناه في قصيدة: "ارقيا" لأحمد الزباني، وقد انزاحت عنه تلك الهالة، ليصبح رأساليا يتاجر في "الحجر والبشر" كما يقال.

المرأة في دواوين شعراء الريف

لقد تغيرت نظرة الشعراء إلى المرأة، بعد الانفتاح على العالم الغربي، وبعد غزو القنوات الأجنبية بيوتات الريف وعقول ذويها. فتغيرت المبادئ التي بنيت على أساسها العلاقات. وهكذا أصبح الشاعر الريفي أكثر جرأة في التعبير، وفي تقديم التفاصيل الماتحة من معجم المدح، ومعجم الغزل، ومعجم الفخر، ومعجم الوصف... وغدت تقاليد المجتمع قيوداً لا تطاق، مما سمح بظهور ملامح جديدة في التعامل مع موضوع المرأة، سواء من حيث الصور والتشبيهات أم من حيث المواضيع المرتبطة بها. من ذلك قول الشاعر:

Uyur kidi a(d) nraḥ, a(d) nessara gi ddaxiliya
Ssin ya-d nessiwḍ sram, i marṛa familiya.⁵⁴⁷

يتضمن هذا الشعر جرأة، تعبر عن دعوة الشاعر لتجاوز تقاليد المجتمع في كيفية اللقاء بالمرأة وظروف الخروج معها.

كما أصبح قوله أقل احتشاماً، فقد كثرت أوصافه الحسية، ولجأ إلى التفصيل، وأسرف في الوصف، ووضح الصور، وأجلّ مثل نجده في قصيدتين من قصائد الشاعر أحمد الزباني وهما قصيدة "ذا ذديها"⁵⁴⁸ وقصيدة "جايي أذايم خزاغ"⁵⁴⁹.

أما كيفية الاتصال بها فلم تعد صعبة، فلا يلجأ الشاعر إلى التعميم بذكر الطريق "أبريد"، أو استعمال الإشارة للتواصل "شياغس" أو استعمال الألفاظ التي تعبر عن وجود مسافة فاصلة بينه وبينها (ثنايد)⁵⁵⁰ و(أراح إناس) بمعنى وجود وسيط أو وجود مسافة تمنع التخاطب عن قرب؛ إذ إن تنقل الفتاة ووجود الهاتف ألغى الحواجز، ورفع الحجب المستورة.

547 - ترجمته: تعالي معي نسافر للاستجمام في الداخل، من هناك نبعث سلاماً لجميع العائلة.

548 - ديوان "ثريوريوث ي مولي" لأحمد الزباني، ص 10.

549 - نفسه، ص 11.

550 - قالت من مكانها البعيد ويقال في الريفية (تتكلم معه من بعيد). ثنائي: قالت وهي قريبة مني (موجودة معه)

وقد عبر الشاعر أيضا عن صدق مشاعره حينما نقل لنا خوفه من فقدان الحبيبة:

Necc kidm iremdey, mamec ya eicey
Mara texdid-ayi, war zemmary ad εeccqey
Fehm-as i wur inu, x nneyyt i kidm eggiy
Mani ma ya țiriđ, exsey a(d) kidm iriy.⁵⁵¹

وعبر أيضا عن انعدام الثقة:

Eshiss ad am iniy, u(r) d ay qar mayemmi
Ezriy cemm idennať, ag ijjen nneđni.⁵⁵²

ونقل إلينا ملل الرجل من العلاقات العابرة:

A țen xafi yetrun, s ur nnes iεemmar
Mechar ya nekk netmun, necc d ccem ya řεεmar
Amuni n yiđa, ayyaw mechar yuεar
Lebda aqa cm di reεđab, am djirt am nhar.⁵⁵³

إننا نستشف من هذين البيتين قلق الشاعر من علاقات مزيفة، إذ عبر عن كل ما يعاينه في سبيل استمرارها، لأن الرجل بات يخاف من الغدر، ولم تسلم الفتاة من هذا الاحساس الذي شيء العواطف وجعلها لعبة رخيصة. وهكذا فإنهما معا معذبان دائما. ولا تستقر الأنفس رغم وجود علاقة. فالشاعر يحس بضرورة طمأنة صاحبه، فيقول:

Cemm iyarı waha, wa(r) din hedd nneđni
Mara sxarriqey xam, d3a-ay ar siđa řebbi.⁵⁵⁴

وفي هذا البيت إشارة واضحة إلى مشكلة اجتماعية أصبحت مخيمة على العلاقات، وهي تعدد النساء في حياة الرجل. أما المشكلة الأخرى التي أفضت إليها العلاقة بين الرجل والمرأة، وأحسن الشعراء في التعبير عنها؛ فهي مشكلة الارتباط بشابات

551 - ترجمته: معك تعلمت كيف أعيش، إذا غبت عني لن أعشق، افهمي قلبي والثقة التي منحك إياها، أينما كنت أريد أن أكون معك.

552 - ترجمته: اسمعي ما أقول لك ولا تسألي لماذا، رأيك البارحة مع واحد غيري.

553 - ترجمته: يا من تبكي علي بقلبك الممتلئ، كم سنهري بعضنا أنا وأنت يا عمري، هوى هذه الأيام كم هو صعب، كل يوم أنت في عذاب ليلا ونهارا.

554 - ترجمته: أنت الوحيدة في حياتي، ليس هناك أحد سواك، إذا ما كذبت عليك، اطلبي من الله أن يؤذيني.

مهاجرات لتسهيل العبور إلى أوروبا. وقد تناول الشاعر أحمد الزياني هذا المشكل بطريقة رائعة في قصيدته "ييسي وظارينو"، أقتطف منها قوله:

Rami dayi yesmeh, wi ikd eggiy arida
Yewyi ten iteffyen, trah yar uruppa
Ad as tegg recwayed, ad irah ra netta
Baba necc war itrih, eqqimey danita.⁵⁵⁵

فالزواج أضحي وسيلة ولم يعد غاية. وقد مثل الشاعر أحمد الزياني هذه الحالة في قصيدته "ارقيا" أيضا، إذ عبر عن شروط الارتباط بها وظروفه ومعاملتها له، ثم عبر أيضا عن سأمه منها وبحته عن "ثارومشث" (أوروبية) تتزوجه وتنقذ موقفه⁵⁵⁶.
والأدهى من ذلك أن الرجل لم يعد يعتبر الزواج ذلك الرباط المقدس. فيقول:

Yedjis n tmuṛt inu, wi id ay eqqar mayar
Remrac war yedji ca, di zmana aneggar.⁵⁵⁷

كما أنه لم يعد يرى في شابة الريف ملامح الجمال التي تستميله. فيقول في ذلك:

Rid d azri war dayem, d tiyidit n wezvar
Am ubarrad iqam, maca war icehhar
Azri nnem yefsi, d ryasur deg yeyzar.⁵⁵⁸

ولعل انفتاح الشاعر الريفي على العالم الخارجي وخروجه من إطار القبيلة جعله يغير نظره إلى الحياة، فتغيرت مقاييس كثيرة كانت القبيلة ترعاها وتسعى إلى تطبيقها. بل إن ظروف الحياة في ديار المهجر غيرت نظرة المرأة إلى رفيق العمر ومعنى الزواج متأثرة بمتطلبات العالم المادي الذي يعرض العواطف في المزاد العلني، ولعل قلة الوعي واختلاف المستوى الثقافي قد ساهم في ظهور مفارقات عجيبة تناولها الشاعر أحمد الزياني في لمسة ساخرة ضمن ديوانه ديوان "آذ-أريغ ك-زرو".

⁵⁵⁵ - ينظر: ديوان "آذ-أريغ ك-زرو" للشاعر أحمد الزياني، ص 56. ط1، أوترخت، هولندا، 1993م ترجمته: عندما هجرني من أحبيته، تزوج بفتاة مهاجرة إلى أوروبا، ستساعده على الذهاب معها، أبي لا يذهب إلى أوروبا، باقية أنا هنا.

⁵⁵⁶ - نفسه، ص 12-14.

⁵⁵⁷ - مقتطف من المصدر نفسه، قصيدة يجيس "ن-تمورثينو"، ص 86. ترجمته: يا ابنة وطني لا تسأليني لماذا، لم يعد الزواج ذو معنى في زمننا العصيب.

⁵⁵⁸ - نفسه، ص 68، ترجمته: لا تعجبي نظرتك، ليس فيها ملامح الغزال، كأنها إبريق شاي معد دون تشحير، نظرتك تذوب كالغاسول فوق الحجارة.

ومما ساعد الشاعر الريفي في تحقيق هذه الطفرة بشكل سريع، أذكر رواج سوق الأشرطة. فلم يعد الشعر ينشد مباشرة أمام أفراد القبيلة أو العشيرة أو المجموعة، كي يضرب ألف حساب ليوم المواجهة. كما أن الشاعر الريفي لم يعد تابعا للأسرة في معيشته، فقد قل ارتباطه بها وانفصلت من مراقبتها المستمرة؛ إذ أصبح مسؤولا عن نفسه، وبعيدا عن أهله؛ فهو إما مهاجر في الديار الأوروبية أو مستقر بمدينة أخرى بالمغرب.

والحقيقة أن نظرة المجتمع إلى الشعراء قد تغيرت كثيرا، بعد أن اتضح في الأذهان الفرق بين الغناء وقول الشعر، وبعد أن تمكن الشعراء من طبع دواوينهم الخاصة. كما أن الأذواق نفسها قد تنوعت تنوعا مثيرا للانتباه. وأضحى الإنشاد أو الغناء بالريفية يخلق لدى الريفيين نوعا من الحنين إلى الماضي، وتعبيرا عن الهوية الأمازيغية، لكونهم يجدون فيه ما يربطهم بأصالتهم أمام كل اللغات التي تكالبت على بيئتهم وسيطرت على عقول أبنائهم.

ولكن الشاعر لم يشغل بوصف جمال المرأة فقط والتغزل بمحاسنها، بل أصبح يركز على تناول قضايا أخرى لها علاقة بالمبادئ الجديدة في اختيار الزوج، والمعايير التي يبني عليها التفضيل. ونجد في أول اللائحة حب المال؛ إذ يعبر أحد الشعراء في قصيدة طويلة عن هذا المشكل أقتطف منها ما يلي:

Nniy-as usiy-d am iniy, teejebbd-ay a reemar
Rexxu cemm ina-ayi ma tqebred a(d) nemεacar
Tenna-ay necc trajiγ, şab n lmal d ddular
Cekk rxa(r) iya tegged, belle aqemmum esqar.⁵⁵⁹

كما تناول بعض الشعراء المشاكل التي تعيشها العلاقات الزوجية من سوء التفاهم بسبب أم الزوج. فيقول:

Ina-ay man ssabab nnem, wami tsemhed g uxxam nnem
U yac wa(r) teqnide, u yac ma wa(r) tneddmed
Mara lmuckil d yemma, eħseb iēder manaya.⁵⁶⁰

559 - ترجمته: قلت لها: أتيت لأقول أنك تعجيبني يا عمري، والآن قل لي أنت هل تقبلين أن نعيش سويا، قال لي: أنا أنتظر أصحاب المال والدولار، وأنت يجدر بك أن تغلق فمك وتسكت.

560 - ترجمته: قل لي ما السبب في هجر منزلك، هل أنت متدمرة، هل أنت نادمة، إذا كان المشكل هي أُمي فاعتبره قد سوي.

وتناول شعراء آخرون سوء العلاقة بين الزوج والزوجة؛ بحيث تبلغ الأمور حد استدعاء الشرطة:

Min eggiy a ħuriyya, rami id ay tēwyed jadarmiyya
وهي تتضمن تعبيراً دفيناً عن خلل في العلاقة الزوجية، كان شبه مستحيل أن نجد له
أثراً في العلاقات الزوجية الريفية قبلاً.
ويتناول الشاعر مشكلة أكبر وهي مطالبة المرأة بالطلاق، فينقل الشاعر الحوار الذي
دار بين الزوج والزوجة:

Ma yewc-am řxaḍar aḍ ayi tejjed?
ويضيف الشاعر على لسان المرأة:

Ewc-ayi iħenjaren, semmhēy di nnaḥaqa
Ntemsefham s řxaḍar, s bra elmeħkama..
Eysi tīmeqyasīn, ḍ uqcuc inu mařṛa
Min yecḍabn qa ḍ wa, min yeḍḍan qa yecfa.⁵⁶¹

إلى أن تقول له:

A necc uħħreḡ kiḍec, řbaṛ inu yeqḍa
Rexxu caṛheḡ melley, tuḍarṭ am řanita.⁵⁶²

ونستشف من هذه الأبيات شكوى المرأة من الرجل، وتعبها من عدم تحمله مسؤوليته
تجاهها وتجاه أولاده، فهي تريد أطفالها وتتنازل له عن كل ما تملكه.

خلاصة

ورغم هذه المسحة من الغنائية التي كتبت به هذه القضايا، فإنه علينا ألا ننكر كون
الشعر الريفي أصبح يتمتع بالعمق الثقافي الذي كان ينقصه في الحالات الأولى، مما
جعله ينأى عن سطحية الشعر الغنائي، فقد أصبح يعبر عن قضايا عامة وعالمية. ولكن
حنينه إلى الرؤية الرومانسية مازالت تلف شعره بأحاسيس نبيلة وراقية. فهو يتناول
القضايا الإنسانية مثل قضية فلسطين. وقد سعى لتوظيف المرأة رمزا يعبر من خلاله
عن أحاسيسه تجاه الموضوع المتناول. كما فعل الشاعر أحمد الزياتي في قصيدته
"لونجا"⁵⁶³. أما الشاعر سعيد موساوي فهو في تناوله جمال الحسيمة باشر جمال

⁵⁶¹ - ترجمته: أعطني الأطفال، ولن أطلبك بالنفقة، نحن نتفاهم بينما لا حاجة إلى المحكمة.

⁵⁶² - تعبت ما عدت قادرة على الصبر، الآن كرهت، مللت حياتي هذه.

⁵⁶³ - ينظر: ديوان "أذ-أريغ ك-زرو" لأحمد الزياتي، ص 48-50.

المرأة⁵⁶⁴ بالتناول. ونجد عمقا راقيا فيما تناوله من قضايا أخرى. والعمق نفسه نلمسه في شعر أحمد الزياتي في عدد من القصائد التي أبدع في تناول مضمونها واختيار ألفاظها. ولعل هذا الاتساع في رقعة الاهتمام بالعالم ومشاكله، هو أجل مثل على قدرة الشاعر الريفي تجاوز نفسه، وتخطي الموضوعات المبتدلة التي التصقت به لمدة طويلة.

وتبقى المرأة حاضرة في قصيدة الشاعر الأمازيغي الريفي، باعتبارها جزءا من همومه اليومية، وكلما تقدمنا نحو القرن الواحد والعشرين إلا وتفاجئنا بتشبيء علاقته بها، تبعاً لسيطرة النظرة المادية إلى الحياة ، ولم تسلم الأحاسيس من هذا التشبيء وهو انعكاس طبيعي لطغيان الماديات في عصرنا هذا.



فهرس المصادر والمراجع

باقية من شعر الإزري مخطوطة عندي بخط يدي، استقيتها من لسان شابات ريفيات خاصة من منطقة بقيوة وبني ورياغل
إزران من إنشاد فريدة الحسيمية: ضمن شريط كاسيط
إزران من إنشاد مجموعة شباب وشابات من الناظور: ضمن شريط كاسيط
ديوان "آذ-أريغ ك-زرو" للشاعر أحمد الزياتي ط1، أوترخت، هولندا، 1993م.
ديوان "يسفوفيد أوعقا"، سعيد موساوي
ديوان "ثريوريوث ي مولاي" لأحمد الزياتي
سلام... المطرب الريفي المغبون، لسعيد الغزواني، جريدة تيفراز، ع7، نونبر 2003م

564- ديوان "يسفوفيد أوعقا"، سعيد موساوي، ص21.

فهرس مواد الحد

أما قبل.....05

تشكل النخب الريفية وعلاقتها بالسلطة المركزية

- تشكل النخبة المخزنية في الريف / عبد العزيز السعود.....13
ساحل الريف والبحرية المخزنية قبل الحماية / محمد أحميان.....35
تشكل الوعي الوطني والسياسي لدى النخبة الريفية / عبد الحميد الرايس.....55

قراءات في وثائق ومؤلفات حول الريف

- قراءة في ما ألف حول منفى الأمير محمد بن عبد الكريم / جمال أمزيان.....67
قراءة وتقديم لكتاب عبد الكريم الخطابي وجمهورية الريف / أحمد سهوات.....89
الريف بين التاريخ الرسمي ومذكرات السياسيين المغاربة / رشيد شريت.....109
تقييم الأبحاث حول عملية تحرير محمد بن عبد الكريم ببورسعيد / امحمد بنعبود.....153
البحث في تاريخ شمال المغرب (حصيلة 2018) / أسامة الزكاري.....177
الريف بعيون صحفية / أحمد حبشي.....183

مقابلة

- أحمد لمرباط: رجل من عقب التاريخ / إعداد أحمد حبشي.....199

تداعيات قضايا الريف في الخارج

- فرنسا وهاجس انطلاق حركة تحريرية بالمغرب (1955) / محمد لخواجة.....207
من وهران إلى أمستردام: تاريخ الهجرة في الريف المعاصر / ميمون أزيزا.....233
كيف يمكن تسوية ملف حرب الريف الكيماوية / محمد الغلبزوري.....235

الريف والذاكرة الممتدة

- تدخل مصر والخطابي وجبهة التحرير الجزائرية في أحداث الريف / ع. الصمد الزاكي. 255
تأسيس لزمين الرصاص بالمغرب / محمد أقضاض..... 289
إطالة على مدينة الحسيمة / محمد أونيا 301

من تراث الريف

- "ديا"، الملكة المنسية: عناصر السيرة ومعالم الأسطورة / جمال لخلوفي..... 313
صورة المرأة في الشعر الأمازيغي من خلال بعض دواوين شعراء الريف / زاهية أفلاي.. 329
فهرس المواد.....,,, 343



مجلة " الربيع "

الهيئة العلمية

عبد الله حمودي
عيسى قدوري (الجزائر)
دحو جريال (الجزائر)
محمد شوقي الزين (الجزائر)
عبد المجيد الشرفي (تونس)
رجاء بنسلامة (تونس)
فواز طرابلسي (لبنان)
حُسن عبود (لبنان)
فهمي جدعان (الأردن / فلسطين)
إدريس بنسعيد
إبراهيم ياسين
محمد الساسي
فاطنة سرحان
عبد الغني أبو العزم
علي كريمي

التوزيع والمحافظة | إدارة مالية
أحمد حبشي | نجيب صابر

المدير المسؤول
أحمد السليمان
رئيس التحرير
عبد اللطيف اليوسفي
سكرتير التحرير
عبد الرحمن زكري

هيئة التحرير
أحمد بوزفور
نجاه النوسي
محمد العوني
جميلة أيوكو
عبد الرحيم تفتوت
محمد حفيظ
شكيب أرسلان

دجنبر، 2018 ■

